ما بعد الحداثة تجتاح ديار الإسلام

دكتور محمد سعيد المكاوى

محرم 1442 هـ- سبتمبر 2020م



"ما بعد الحداثة" تجتاح ديار الإسلام



دكتور/ محمد سعيد المكاوى

نشر هذا الكتاب على منصة أمازون للكتب الرقمية بتاريخ 2 سبتمبر 2020 ورقم:

ASIN: B08HC6WL1J

وهذه نسخة إلكترونية توزع لوجه الله تعالى

سبتمبر 2020

الفهرس

منحدر التساهل

منذ ثلاثين عاما تقريبا كان هناك ما يشبه الإجماع على أن فوائد البنوك من قبيل الربا المحرم ، ولكن فجأة خرج علينا الشيخ سيد طنطاوى مفتى الجمهورية ليعلن أنها حلال. وقتها قامت ضجة كبرى، وقوبلت الفتوى باستهجان شديد من أغلب العلماء ، وأصبحت فوائد البنوك الشغل الشاغل لكبرى الصحف والمجلات ، ثم هدأت الأزمة بالتدريج ، ونُسيت كما نسى غيرها ، حتى صار أغلب الناس فى بلادنا يستحلون فوائد البنوك ، ولا يرون فيها أى شبهة.

ومنذ ثلاثين عاما كان أغلب العلماء يرون أن عمل المرأة حرام. أما اليوم فقد أصبح العمل خارج البيت حق طبيعى من حقوق المرأة ، لا ينازعها فيه أحد. وإن أراد أحد الدعاة أن يسبح ضد التيار ارتعش قلمه ، وتصبب العرق من وجهه ، وجر على نفسه عاصفة من التهكم والاتهام بالتخلف.

ومنذ ثلاثين عاما كان الشباب يتساءلون بكثرة عن موقف الإسلام من الأغانى ، وكان الرأى السائد بين العلماء أنها حرام أو أن الحرام يختلط فيها بالحلال. ومرت السنوات ، فأصبحت الأغانى أمرا واقعا، وكأنها من المباحات التى لا شبهة فيها ، ولم يعد أحد من العامة يسأل عن موقف الدين منها ، كما لم يعد أحد من الشيوخ يتطوع لبيان حرمتها، بل أصبحت بعض البرامج التى تُبث من قنوات ذات طابع دينى تذيع أغانى تحتوى على كلمات عامية بصوت النساء.

ومنذ ثلاثين سنة لم يكن بين الدعاة أحد من النساء تقريبا. أما اليوم فقد كثرت الداعيات ، وملأن الفضائيات. وليتهن كن من كبار السن اللائى يتحلين بالوقار ، بل اشترط القائمون على برامج الفضائيات أن تكون المرأة الداعية شابة ، وعلى قدر كبير من الجمال ، وأن ترتدى ملابس ملونة ضيقة ، وتضع على وجهها مستحضرات التجميل ، وكأنها تقدم موضوعا عن الأزياء!

ومنذ ثلاثين عاما كان كلام الرجل مع المرأة فى مكان عام أمر يدعو للاستغراب ، أما اليوم فقد أمسى هذا شيئا طبيعيا ، وبات من المعتاد أن تدخل مكتبا حكوميا أو شركة خاصة ، فتسمع الرجال والنساء وهم يتبادلون الضحكات ، وكأنهم إخوة أشقاء. وما اختفاء الأفلام الرومانسية من السينما إلا لأن الحواجز بين الشاب والفتاة قد أزيلت بشكل شبه كامل ، فلم يعد هناك داع للرومانسية الحالمة الناشئة من صعوبة اللقاء طالما أن من الممكن للشاب والفتاة أن يجلسا على أحد المقاهى ليدخنا الشيشة أمام المارة.

كل هذه الظواهر عايشتها بنفسى ، ورأيت بعينى هبوط المسلمين بانتظام وإصرار على منحدر التساهل. وليت الأمر اقتصر على تساهل العامة ، بل الكارثة أن علماء الدين ازدادوا تساهلا بالتوازى مع تساهل العامة ، وهذه هى الطامة الكبرى ، فسكوت العلماء على معاصى العامة معناه موت الضمير الدينى الجماعى. وهذه المقارنة بين الماضى والحاضر تبرز الفارق الكبير بين زمان كان لدى الأمة فيه ضمير يحذرها من الوقوع فى حرمات الله وزمان أصبح الحرام فيه سمة من سمات الحياة اليومية التى لا يُتَصور العيش بدونها ، والتى لا يجوز للدين أن يفرض نفسه عليها. لقد تأخرت الشعوب الإسلامية فى كافة العلوم والآداب والفنون ، لكنها برعت فى شىء واحد: إهمال الدين.

وقد ظل قطار التساهل يسرع كلما ازداد انحدارا إلى أن حدثت هزة عنيفة حين اصطدم بالقاع. لقد ظهر مشتغلون بالفكر الإسلامى – يسميهم الإعلام العلمانى "الداعية" و"الدكتور" و"المفكر التنويرى"– ليَصِلوا بالتساهل إلى منتهاه ، فقد أكدوا بكل ثقة وجرأة أن اليهود والنصارى سيدخلون الجنة مثلهم مثل المسلمين، بل وصل الأمر ببعض دعاة جهنم إلى الكلام بكل تعاطف وحنان عن الملاحدة، بل الإفتاء بجواز الترحم على ملحدة ماتت منتحرة ، وكانت حتى آخر يوم فى حياتها تتباهى بأنها تروج للكفر والشذوذ والفسوق ، مع أن القرآن يقول بكل قوة: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} [البقرة: 161، 162].

فى هذه اللحظة التى تم فيها **إعلان براءة الكفر من الكفر** كان لا بد من وقفة حاسمة ، وذلك لعدة أسباب:

أولا: أن هذا الرأى الخطير تلقفته – أو بالأحرى صنعته– وسائل الإعلام العلمانية ، وباركته ، وظلت تلمع فيه ، حتى أصبح هو الرأى الرسمى الذى يُتهم من لا يقبله بالإرهاب ومحاولة زعزة وحدة الوطن، مع أننا لم نسمع – منذ عشرين سنة على الأقل– إلى من يدعو إلى قتل النصارى فى مصر بسبب دينهم. لقد كان التعايش والتسامح راسخا بين المسلمين والمسيحيين رغم أن كلا منهما على يقين من كفر الآخر.

ثانيا: أن فرية دخول النصارى واليهود الجنة تحولت من مجرد رأى جديد شاذ ، تدعو إليه شخصيات مشبوهة إلى رأى يتبناه بعض علماء الدين التقليديين من أصحاب الثقافة الفقهية التراثية.

ثالثا: من يتبنى هذا الرأى يَدخل فى دائرة الكفر بالإسلام إن هو أصر على هذا الرأى الذى يقوض أصلا من أصول الدين التى لا يجوز الاختلاف عليها.

بدت لى محاولة إدخال اليهود والنصارى إلى الجنة عملا جنونيا ، وخيانة عظمى للإسلام. والمحزن أن الناس سمعوا هذا الرأى الخطير ، وواصلوا حياتهم بشكل طبيعى ، تلك الحياة التى أهم سماتها مشاهدة مباريات كرة القدم ، والجلوس على المقاهى ، ومتابعة الجديد فى عالم الطبخ والتجميل. ولكن ما هدأ من روعى بعض الشىء قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». رواه مسلم.

ورغم تفاهة هذه البدعة الفكرية وضعفها الشديد أمام أبسط محاولات النقد إلا أنها ظلت تكبر وتتضخم، فأحسستُ أن وراءها جهات مشبوهة لا يعنيها ما إذا كان اليهود والنصارى سيدخلون الجنة أم لا ، بل تهدف إلى تحطيم واحد من أهم ثوابت الإسلام. وبمزيد من التأمل لاحظت وجود تشابه كبير بين فكرة إدخال اليهود والنصارى إلى الجنة وفلسفة اسمها "ما بعد الحداثة". وهذه الفلسفة قامت – بضربة واحدة– بتمييع كل شىء، وأعلنت بكل جرأة أنه لا يوجد حق ولا باطل ، وأن كل النظريات وكل الأفكار وكل الأديان وكل المذاهب وكل الفلسفات مقبولة. ورفعت شعارا هو: "أى شىء يمضى Anything goes ولا شىء مؤكد".

ولقد تغلغلت ما بعد الحداثة فى قلب حياتنا ، وشوهت بلونها الأحمر الشيطانى كل ما هو جميل ، ليس فقط فى الأديان ، ولكن فى الحياة البشرية كلها. ومع الأسف لاحظت أن المسلمين لا يزالون فى غفلة شديدة عن هذه الفلسفة ، ولم أجد – على حد علمى– كتبا إسلامية تتناولها بما يتناسب وحجم تأثيرها. والغالبية العظمى من الكتب العربية التى تكلمت عن ما بعد الحداثة كانت كتبا مترجمة شديدة التخصص، تتناول المسألة من وجهة نظر فلسفية بحتة دون بحث فى صلتها بالإسلام ولا تأثيرها على حياة المسلمين. ولهذا قررت أن أحاول – مستعينا بالله عز وجل – أن أملأ شيئا من الفراغ ، وأكتب –وفق قدراتى المتواضعة –عن فلسفة ما بعد الحداثة من وجهة نظر إسلامية.

وأخبركم مقدما أن موضوع الكتاب به قدر غير قليل من الصعوبة ، ولكننى حاولت كثيرا ألا أسلك مسلك الفلاسفة الذين يعتبرون الفلسفة ساحة لإظهار المهارات الفكرية والمواهب الذهنية ، مما جعل مؤلفاتهم أشبه بألغاز كتبت كى تختبر ذكاء القارىء ، أو تشعره بالعجز والضآلة ، أو تجعل غاية أمانيه

أن يفهم النص ، لا أن يكتشف ما به من أخطاء منطقية. وعلى القارىء المتعجل أن يتحلى بشىء من التمهل والصبر كى يفهم فلسفة ما بعد الحداثة جيدا لأن تأثيرها على المسلمين وعلى العالم كله بلغ حدا عظيما رغم عدم شهرتها فى بلادنا.

ومن أهم ما يميز ما بعد الحداثة أن بعضا ممن سمعوا بها فى الغرب احتقروها ، وسخروا منها ، واعتبروها هراء لا يستحق المناقشة. بيد أن هذا الهراء كبر ، واستفحل ، وفرض سيطرته على العالم كله، مستغلا استهانة الآخرين به ، وتراخيهم فى الرد عليه. وأعترف أننى فى بداية إعداد هذا الكتاب وقعت فى هذا الفخ ، فقد اكتفيت بعرض مبادىء ما بعد الحداثة ظنا منى أن القارىء المسلم سيدرك بالبداهة خطرها وخطأها ، ولكن شعرت بعد ذلك أن من الواجب علىَّ أن أنزل إلى مستواها ، وأرد على أطروحاتها لأن السخرية لا تحسم قضية، ولا شىء يهزم الفكر إلا فكر مثله ، ومن الممكن لمقولة حمقاء أن تنتشر ، ويقتنع بها الناس إن لم تجد من يرد عليها بجدية لأننا نعيش فى عصر ابتلى فيه الكثيرون بالضحالة الفكرية ، خاصة فى العلوم الدينية ، وأصبحوا مهيئين لتقبل أى رأى مهما كان ضعيفا. وفضلا عن ذلك فقد لاحظنا أنه حتى الكتب الأجنبية تعرض مقولات ما بعد الحداثة دون أن تقدم نقدا عميقا لها فى بعض الجوانب الأساسية ، وكأنها أمام مسلمات لا تقبل الشك ، ولهذا كان لا بد من التوجه إلى جذور النبتة السامة من أجل اقتلاعها. والرد على ما بعد الحداثة يضع القارىء فى نفس الوقت أمام نظرية فى المعرفة ، تنحاز لليقين ، وترد الشك إلى حجمه الحقيقى بعد أن بالغت ما بعد الحداثة فى تضخيمه.

ندعو المولى عز وجل أن يغفر لنا ذلاتنا ، وأن يتقبل منا هذا العمل المتواضع ، ويفتح له القلوب والعقول ، ويجعله سببا فى الهداية ، وعونا على تبديد دَخَن الشيطان الذى خيم على أرجاء الأرض. اللهم اجعل نوايانا خالصة لك ، وفهمنا مسخرا لدينك. اللهم إنا نعوذ بك من الرضا بالدنيا والاطمئنان بها ، ولا تجعل لنا رجاء إلا لقاءك. اللهم لا تخزنا يوم العرض عليك ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا ألقاب ولا مؤلفات ولا شهرة إلا من أتى الله بقلب سليم.

دكتور/ محمد سعيد المكاوى – 29-8-2020م– العاشر من محرم 1442 هـ

mekkawy55@gmal.com
mekkawy5@gmail.com

الباب الأول: ما بعد الحداثة

1- مبادىء مرعبة

كثر الكلام فى وسائل الإعلام عن ضرورة الاعتراف بالأديان الأخرى إلى درجة التأكيد على أن اليهود والنصارى ليسوا كفارا ، وأن الجنة ليست حكرا على المسلمين. كما نشط منذ سنوات بعض الليبراليين للترويج للمذهب الشيعى الذى يعتبرونه على نفس القدر من الشرعية مثل مذهب أهل السنة. وفى نفس السياق لا يخفى العلمانيون تعاطفهم مع البهائية والبوذية وغيرهما من الديانات. فما السر فى هذا التسامح المشبوه تجاه الآخر؟

الحقيقة عزيزى القارىء أن هذه الدعوات تعبر عن فلسفة تعرف ب "ما بعد الحداثة" Postmodernism، وهى تؤكد **أنه لا يوجد حق ولا باطل ، وأن كل الأفكار مقبولة ، وكل الآراء جائزة، ومن الخطأ القول بأن أى شىء خطأ!** وقد ظهر هذا التيار الفلسفى فى الستينات من القرن العشرين، وانتشر إلى خارج دوائر النخبة الفلسفية ، ليصبغ بلونه القاتم الحياة السياسية والأخلاقية والدينية والفنية والقضائية والعلمية والأدبية فى الغرب. وقد وصلت ما بعد الحداثة إلى بلادنا فى سكون شبه تام، فشربناها سما فى عسل، كما شربنا غيرها من سموم الشيطان.

وما بعد الحداثة باختصار هى ثورة على الحداثة Modernism ، أو بالأحرى هى خطوة أبعد منها. لقد جاءت الحداثة (أو التنوير) فى عصر النهضة فى أوربا لتبشر بالعقل والمنطق والعلم ، وتحارب الخرافة والدين، فلما ظهرت ما بعد الحداثة ، حاربت العقل والمنطق والعلم ، لكنها استمرت على العداء للدين ، وأظهرت فى نفس الوقت الود تجاه الخرافة!

وسنقوم فى الصفحات التالية بتقديم عرض عام لفلسفة ما بعد الحداثة حتى يدرك القارىء **أن الدعوة لاعتبار اليهود والنصارى مؤمنين ليست مجرد اجتهاد خاطىء من علماء يبغون الإصلاح بين شركاء الوطن ، وليست حتى مجرد رأى تبناه فقهاء فاسدون يخطبون ود السلطة ، ولكنها دعوة شيطانية لا ترمى فقط لتدمير الإسلام ، بل لتخريب كل شىء على وجه الأرض.** نعم ما بعد الحداثة تدمر حرفيا كل شىء.

إن الإجرام تخصصات ، فهناك متخصصون فى السرقة ، ومتخصصون فى القتل ، ومتخصصون فى الدعارة ، ومتخصصون فى تجارة المخدرات ، ومتخصصون فى تهريب الآثار ، ومتخصصون فى الرشوة. ومن الصعب أن تجد مجرما برع فى كل مجالات الإجرام. لكن ما بعد الحداثة حققت المعجزة، فقد تمكنت من ارتكاب جرائم مشينة فى حق العقل والمنطق والحقيقة والدين والنصوص والنفس واللغة والأخلاق والعلم والمجتمع. ما بعد الحداثة لم تترك شيئا إلا ودمرته بلا رحمة. نحن أمام فلسفة شديدة الخطورة ، فماذا عساها تكون ما بعد الحداثة؟

يقول ديف روبنسون: "لا أحد حقا يعرف ماذا تعنى كلمة "ما بعد الحداثة".... وربما كانت ما بعد الحداثة لافتة ملائمة لمجموعة من الاتجاهات والقيم والاعتقادات والمشاعر حول ما معنى أن تعيش فى نهاية القرن العشرين. **والأشياء الوحيدة المؤكدة بخصوص ما بعد الحداثة هو أنها ذات شك عميق ، وأن هذا الشك مشتق من انشغال باللغة والمعنى**".[1]

إن أدق وصف لما بعد الحداثة هو أنها نوع حديث من أنواع فلسفة الشك Skepticism المعروفة: الشك فى السلطة والحكمة المتلقاة والقواعد الثقافية والسياسية. وفلسفة الشك أساسا شكل سلبى من أشكال الفلسفة ، ينطلق ليقوض النظريات الفلسفية الأخرى التى تزعم امتلاكها **للحقيقة المطلقة أو لمعايير لتحديد ما يُعد حقيقة مطلقة**.[2]

إذن **ما بعد الحداثة هى شكل من أشكال فلسفة الشك**. والشك فى حد ذاته أمر مفيد لأنه يعمل على تحرير الإنسان من سطوة الاعتقادات والآراء التى ورثها من آبائه ومجتمعه، فيخضعها للفحص والتحليل والنقد ، لينتقى منها ما هو حق ، وينبذ منها ما هو باطل. وأشهر من قاموا بتجربة الشك المنهجى الفيلسوف المسلم أبو حامد الغزالى والفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت اللذان انتهت بهما تجربة الشك العنيفة إلى الوصول إلى ضرب من اليقين الذى لا يرتقى إليه الشك. لكن ما بعد الحداثة جاءت فى السنوات الأخيرة لتقول لنا أن الشك ليس مجرد مرحلة للوصول إلى الحقيقة واليقين ، ولكنه مصير دائم لكل مفكر مهما فعل. **فمهما كانت براعة الإنسان ، ومهما كانت قدراته العقلية والمنطقية، ومهما كانت أدوات البحث العلمى التى يمتلكها ، ومهما كانت دقة الأجهزة التى يستخدمها فسيبقى إلى الأبد**

---

[1]) **Nietzsche and Postmodernism.** By Dave Robinson. Page 35**.** ICON Books UK, 1999.
[2]) **The Routledge Companion to Postmodernism.** Edited by Stuart Sim. Chapter1: Postmodernism and Philosophy by Stuart Sim. Page 3. Routledge, Taylor and Francis group. London. 2001. ISBN 0--415-24307--6 (Hbk).

عاجزا عن معرفة العالم والحقيقة والواقع. وهذا الكلام شديد التطرف ، ويصل إلى حد الهراء كما ترون، لكنه نجح فى العقود الأخيرة فى الهيمنة على الحياة الثقافية فى الغرب.

ويجب أن نؤكد بكل بوضوح أننا لا نزعم أن الإنسان يشبه الإله الذى يعلم كل شىء. الإنسان مخلوق عاجز قاصر، يمكنه أن يعرف بعض الأشياء ويجهل البعض الآخر ، وهذا ما قرره العلم الحديث الذى أكد مثلا أن من المستحيل علينا معرفة ما يجرى فى نطاق بلانك Planck scale ، لكن ما بعد الحداثة لا تقصد ذلك ، بل تؤكد لنا **أن الشك أمر شامل ، وأن الإنسان عاجز عن معرفة أبسط الأمور سواء بالعقل أو المنطق أو العلم أو أى وسيلة أخرى**. الإنسان فى نظرهم لا يمكنه أن يعرف مثلا ما إذا كان الشذوذ الجنسى خير أم شر وما إذا كانت المرأة مثل الرجل أم أقل ، وما إذا كانت فلسفة كالماركسية حق أم باطل ، وما إذا كان الله موجودا أم لا ، وما إذا كانت المسيحية تعرضت للتحريف أم بقيت سليمة. وحتى إن كان المرء متخصصا على سبيل المثال فى شئون الديانة البوذية ودارسا فذا لكل أدبياتها ونصوصها ، فلن يستطيع أبدا الحكم بشكل مطلق على نصيبها من الحقيقية. ونفس الأمر ينطبق على **تقييم كل الأديان والمذاهب والفلسفات التى يستحيل على أى إنسان أن يثبت صدقها أو كذبها. وما دام العجز عن معرفة الحقيقة سمة شاملة فهم يرون أن من حق كل إنسان أن يصدق ما يشاء، ويعتقد ما يشاء** ، ويُبدى رأيه فى كل الأمور حتى لو نادى بأن الأرض ليست كروية خلافا لأبسط مبادىء علم الفلك، **فرأى العلم الحديث ليس بأجدر أن يُتبع من رأى الإنسان البدائى فى قبيلة الزولو أو رأى السحرة والمنجمين الذين يتساوون مع العلماء** فى النسبية والعجز عن إدراك الحقيقة المطلقة. وبعبارة موجزة فإن ما بعد الحداثة ترى أن "**أى شىء يمضى**" **Anything goes** ، **وكل رأى جائز ، وكل وجهة نظر مشروعة حتى لو كانت مضادة للعقل والمنطق وكل الأدلة.**

إن ما بعد الحداثة لا تطلب منك فقط أن تترك الباطل ليعبر عن رأيه بحرية مثلك ، بل تطلب منك أن تعتقد أنه لا يوجد حق ولا باطل. إنهم يسلبون منك حتى مجرد الشعور بأنك تسير – أو حتى تحاول السير – على الصراط المستقيم!

وهذا الشك المتطرف كان موجودا منذ القدم ، ومن أهم هؤلاء الشكاك الفيلسوف اليونانى بروتاجوراس الذى قال: "أما عن الآلهة فلا أرانى على يقين من وجودهم أو عدم وجودهم ، ولا من شكلهم كيف يكون؛ ذلك لأن ثمة أشياء كثيرة تعوق المعرفة اليقينية ، منها غموض الموضوع وقصر حياة الإنسان".

ورأى بروتاجوراس معناه أن كل فرد من الناس هو مقياس الأشياء جميعا ، حتى إذا ما اختلف الناس على رأى ما فليس هنالك حقيقة موضوعية يمكن الرجوع إليها لتصويب المصيب وتَخْطيىء المخطىء[3].

وتكلم الدكتور زكى نجيب محمود عن حدود المعرفة ، فقسم الآراء بشأنها إلى ثلاثة أصناف[4]:

أولا: فلاسفة يعتقدون أن من الممكن للإنسان معرفة الحقيقة كاملة ، وهؤلاء هم العقليون والتجريبيون.

ثانيا: فلاسفة يعتقدون أن الإنسان يمكنه أن يعرف أشياء ويجهل أشياء أخرى ، أى يعرف فقط ما يدخل فى نطاق الخبرة الحسية الطبيعية. وهذا الصنف يشمل الفلسفة النقدية والفلسفة الوضعية.

ثالثا: فلاسفة يعتقدون أن الإنسان يستحيل أن يكتسب معرفة يقينية عن حقيقة العالم الذى يعيش فيه. وبعبارة أخرى فإن المعرفة من وجهة نظرهم نسبية ، وليست مطلقة. وهؤلاء هم الشكاك.

وقد وصف الدكتور زكى نجيب محمود الفلاسفة الشكاك بأنهم أقلية بين الفلاسفة. لكن مر الزمان ، وظهرت ما بعد الحداثة التى نادت بالشك الكامل ، وذاعت ، واحتلت الساحة بشكل غريب.

وليس لدىَّ شك فى أن ذيوع فلسفة ما بعد الحداثة تقف وراءه قوى الشر العالمية المتمثلة فى اليهودية والماسونية. إن الماسونية تهدف إلى تخريب الأديان والأخلاق فى العالم ، واليهود يهدفون إلى السيطرة السياسية والاقتصادية على العالم. ولكى يتحكم اليهود فى العالم فلا بد أن يمزقوه إلى ذرات صغيرة ، فالعالم المتحد لا يمكن لليهود أن يتحكموا فيه ، والعالم المنقسم إلى كتل كبيرة لا يفى كذلك بالغرض ، والحل الأمثل هو **تمزيق الممزق ، وتحويل المجتمع إلى فئات متصارعة يبغى كل منها مصلحته الخاصة فقط دون التفات لمصلحة المجتمع كله** ، ولهذا تجد أنصار الحركة النسائية يهتمون فقط بقضية المرأة، وتجد السود يهتمون فقط بقضايا العنصرية ، والأقليات يهتمون فقط بحقوقهم الطائفية، والشباب يهتمون فقط بقضايا الشباب. لقد أصبحت هناك جماعات ضغط تسعى لاكتساب القوة من أجل مصالحها الضيقة لأن المجتمع لم يعد يرى قيمة مطلقة فى أى شىء. وقد أدى هذا إلى تمزيق الشعوب الغربية من الداخل ، وبعد أن كان الغرب منقسما بين معسكرين: المسيحية والإلحاد ، أصبح الآن من حق كل إنسان عندهم أن يعتنق دينا شخصيا خرافيا ، أو يعبد وَثَنا ، أو يسجد لشيطان ، أو

---

3) **نظرية المعرفة**. تأليف دكتور/ زكى نجيب محمود. صفحة 69. مؤسسة هنداوى سى آى سى. 2018

4) **نظرية المعرفة**. تأليف دكتور/ زكى نجيب محمود. صفحة 73-74.

يمارس طقوس السحر ، وهم يسمون هذا الهراء بالروحانية Spirituality التى انتشرت ، وباتت تنافس الأديان الكبرى العريقة.

كانت هذه هى ما بعد الحداثة بشكل عام. وسنقوم فيما يلى بعرض أوسع لهذه الفلسفة. ونحب أن نخبر القارىء مسبقا أنه قد يجد صعوبة فى فهم بعض المقاطع ، والسبب هو أن الفلاسفة اعتادوا على أن يغلفوا أفكارهم بلغة صعبة شديدة التعقيد ، ربما على سبيل التباهى بالقدرات العقلية ، وربما لأنهم لا يكترثون بنقل أفكارهم إلى عامة الناس الذين لا تعنيهم الفلسفة ، وربما لأنهم يريدون أن يخفوا ما بأفكارهم من ضعف داخل ركام التعقيد ، بحيث يتوه القارىء فى خضم مهمة فك طلاسم النص ، ولما يتمكن أخيرا من فهمه تكون قواه قد خارت ، ولم يعد يقوى على النقد. عموما نحن نطلب من القارىء الذى يجد صعوبة بالغة فى فهم التفاصيل أن يتذكر على الأقل عناوين الفصول كلها ، فهى تلخص ما بعد الحداثة بشكل معقول. فلنبدأ بعون الله.

2- ما بعد الحداثة تدمر البديهيات

إن أردنا أن نلخص ما بعد الحداثة فى جملة واحدة فلن نكون مبالغين إذا قلنا أنها "**الجنون وقد تجسد**". وليس هذا كلامى ، ولكنه مضمون مقولة الفيلسوف المعروف ميشيل فوكو: "لا معنى للكلام باسم –أو ضد – العقل والحقيقة والمعرفة".[5] لقد نجح الشيطان ببراعة منقطعة النظير – من خلال فلاسفة ما بعد الحداثة– فى أن **يجرد الإنسان من أهم ما يميزه عن الحيوان ألا وهو العقل والمنطق والعلم.**

إنكار الحقيقة والموضوعية

لا أحد يحب أن يحيا مخدوعا. لا أحد يقبل بأن يسير وراء الأوهام. كلنا نريد أن **نعرف الواقع كما هو دون تزييف أو تجميل أو تشويه**. الشرطة تريد أن تعرف من طعن القتيل ، والموظف يريد أن يعرف من أوغر صدر المدير عليه ، والمهندس يريد أن يعرف أى التصميمات هو الأنسب للمشروع ، والمدرس يريد أن يعرف أى الطلبة أجدر بجائزة التفوق السنوية، والأديب يريد أن يعرف هل حظيت قصته الأخيرة بإعجاب القراء أم لا ، وعالم الفيزياء يريد أن يعرف أى النظريات تقدر على تفسير سلوك الجسيمات الأولية ، والمفكر يريد أن يعرف أى الأديان هو الصحيح. وهكذا لا يكف الإنسان عن البحث عن الحقيقة ما بقى نفس يتردد فى صدره. بيد أننى **لم أكن أتصور يوما أن من الممكن لأحد أن يطعن فى قيمة "الحقيقة" ، ويطالب الإنسان بأن يكف عن البحث عنها** ، فيحيا كالبهائم: يأكل ويشرب ، ويفكر بالطريقة التى تحلو له دون أن يسأل نفسه: أين الحقيقة؟

و"الموضوعية" Objectivity مصطلح مشتق من كلمة "الموضوع" Object. والموضوع هو شىء يُفترض أنه يوجد مستقلا عن إدراك الذات له. وبعبارة أخرى فالموضوع يوجد كما هو حتى لو لم يدركه أحد[6] ، فالنبتة الصغيرة توجد فى الصحراء الشاسعة دون أن يراها أحد من الناس ، والجراثيم ظلت موجودة لبلايين السنين دون أن يراها الإنسان ولا الحيوان. **والذات المدرِكة يمكنها أن تعرف الموضوعات بدقة، لكن من المحتمل أن تدرك الذات فى الموضوعات صفات ليست فيها** كما يحدث حين يصاب الإنسان ببعض الأمراض العصبية أو حين يتناول بعض العقاقير التى تسبب له الهلاوس ، أو حين

---

[5]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. By Stephen R. C. Hicks. Page 2. Expanded Edition. Ockham's Razor Publishing, 2011.

[6]) **Objectivity**. By Dwayne H. Mulder. Intenet Encyclopedia of Philosophy. Accessed July 19, 2020. https://www.iep.utm.edu/objectiv/

يشعر إنسان مصاب بنقص فى نشاط الغدة الدرقية بأن الجو لطيف ، بينما يؤكد كل الناس من حوله أن الجو حار. ولذا اكتسبت فكرة الموضوعية أهمية بالغة لأن من المهم للإنسان أن تكون معرفته بالعالم دقيقة وصادقة ، وليست نتاج إدراك مشوَّه للأمور.

"وقد جاءت ما بعد الحداثة "لتنكر وجود **حقيقة طبيعية موضوعية** ، **حقيقة وجودها وخصائصها مستقلين منطقيا عن البشر:** عن عقولهم ، أو مجتمعاتهم ، أو ممارساتهم الاجتماعية ، أو تقنياتهم البحثية. هذه واقعية ساذجة طبقا لما بعد الحداثة ، فالواقع بدلا من ذلك هو بناء تصورى وصنيعة للممارسة العلمية واللغة[7]."

ويعبر ستيفن هيكس عن الموقف العام لما بعد الحداثة قائلا: ["**الحقيقة" أسطورة.** "العقل" بناء للرجل الأبيض متمركز حول أوروبا.... الموضوعية أسطورة. **لا يوجد حق. لا توجد طريقة صحيحة لقراءة الطبيعة أو قراءة نص من النصوص. كل التفسيرات صحيحة بشكل متساوى**].[8]

ويقول رورتى أيضا: "**إن الحقيقة تُخلق ولا تُكتشف**"[9].

لقد كانت وجهة النظر التقليدية تشجع الناس على التفكير فى المعرفة على أنها تمثيل دقيق لما هو خارج ذهن الإنسان. وكان المعلمون يخبرون طلبتهم أن على البشر **أن يجاهدوا لاكتساب صور أكثر دقة للطبيعة** ، وأن معلمى الفلسفة خبراء فى اكتشاف أى الصور دقيق وأيها غير دقيق. لكن رورتى – باعتباره واحدا من فلاسفة ما بعد الحداثة– لا يرى معنى لهذه الطريقة التقليدية فى التفكير ، ويريد منا أن **نهجر البحث عن صور أكثر دقة للطبيعة**. ويرى رورتى أن ما أعطى معنى للبحث فى الماضى كان مجازا شائعا للعقل يصوره على أنه **مرآة للطبيعة** ، بيد أنه لا يوجد سبب للاعتقاد بأن البشر يحملون فى رءوسهم أى شىء يشبه مرآة الطبيعة. وإن تخلصنا من أسر هذه المرآة (العقل) **فلن نعود بعد ذلك معرضين للوقوع فى إغراء الاعتقاد بأن البشر يمكنهم الوصول لتمثيلات دقيقة للطبيعة.**

---

[7]) **Postmodernism**. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica https://www.britannica.com/topic/postmodernism-philosophy#ref282558, accessed March 22, 2020.

[8]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 20.

[9]) **Mircea A. Diaconua**. Truth and Knowledge in Postmodernism. Procedia - Social and Behavioral Sciences 137 (2014) 165 – 169.

وإن حذا المعلمون حذو فلاسفة ما بعد الحداثة فلن نشجع بعد ذلك طلبتنا على التفكير فى المعرفة على أنها اعتقاد يكتسب بالمواجهة المباشرة بين ما فى العقل وما فى الطبيعة. وبدلا من ذلك فإن **ما يسمى بالمعرفة سيتحدد بالحوار**. وبالتحديد سنفكر فى المعرفة على أنها **تأكيد لا أحد حولنا يريد أن يشكك فيه.** عندما نقول أن العشب أخضر أو أن "القوة تساوى الكتلة مضروبة فى العجلة" ، وكل من حولنا يقول: "لا شك فى هذا" ، فحينئذ نكون قد وصلنا إلى المعرفة ، لكن تأكُدنا فى مثل هذه الحالات ليس نتيجة مواجهة بين ما فى المرآة العظيمة وما فى الطبيعة. إن إحساسنا بالموضوعية ليس مسألة تطابق مع الأشياء ولكن مسألة التلاقى مع الأشخاص الآخرين. لا سبيل إلى الموضوعية إلا الذاتية المتبادلة.... **وحين يتساءل المرء: "ما معنى الحقيقة؟" فإن الإجابة التى يقدمها رورتى هى: "يجب أن نُسقط هذا الموضوع"**.

إن مفهوم "الحقيقة" يقع فى القلب من فلسفة ما بعد الحداثة. **لقد كان الفهم المشترك يؤكد أن الحقيقة هى اعتقاد أو وصف للعالم يتطابق مع الطريقة التى يوجد عليها العالم**[10]. على سبيل المثال إن قلنا أن "السماء زرقاء" فهذا القول صحيح إن كانت السماء فعلا زرقاء فى الواقع ، وهو كاذب إن كانت السماء فى الواقع غير زرقاء. ولكن **من وجهة نظر ما بعد الحداثة فإن من المستحيل أن نحدد ما إذا كان أحد الاعتقادات أو الأوصاف يمثل العالم بدقة بالشكل الذى يوجد عليه مستقلا عن الفكر**. إن القول بأن "السماء زرقاء" هو وصف يوجد داخل رأسى ، بينما السماء فى الواقع هى شىء موجود فى العالم الخارجى. ولكى نحدد نصيب هذه المقولة من الصحة فإن علينا أن نقارنها مع السماء الموضوعية لنرى هل يتطابقا أم لا. **والمشكلة هى أننى لكى أعقد هذه المقارنة فسيكون على أن أنزلق خارج عقلى ولغتى ، وأواجه السماء الموضوعية مباشرة. وبما أنه لا توجد طريقة لعمل ذلك فإنه لا توجد وسيلة لاكتشاف ما إذا كان هذا الوصف صحيحا أم لا.** يمكننى أن أقارن هذا الوصف بأوصاف أخرى كما يحدث حين أتذكر الشكل الذى بدت عليه السماء فى الليلة السابقة أو من خلال نظارتى ، لكنى لن أستطيع أن أطرح جانبا كل الأوصاف ، وأقابل مباشرة سماء موضوعية لا توصف. ولا يمكننى أيضا أن أكتشف التطابق بين "القوة تساوى الكتلة مضروبة فى العجلة" وكل ما هو موجود فى العالم.

---

[10]) تسمى هذه "نظرية التطابق" The correspondence theory of truth

وهنا يجب التأكيد على أن **هذا لا يعنى إنكار رورتى لوجود شىء ما فى العالم خارج الأوصاف التى نفكر فيها**. إنه لا يعنى إنكار وجود عالم موضوعى ، هو كما هو بصرف النظر عن كيفية وصفنا له. إن ما يُنكَر هو أن هناك معنى للكلام عن شىء ما آخر ، هو أيضا موضوعى ، ويسمى "الحقيقة". وفى اتخاذ هذا الموقف من الحقيقة يؤكد رورتى بشكل متكرر أننا لا نمتلك مبررا للاعتقاد أن لغة العلم الحديث فريدة بطريقة ما فيما يتعلق بالتطابق مع العالم. وهذا لا يعنى إنكار أن التوصيفات العلمية تمكننا من عمل تنبؤات أكثر دقة ، وأن نكتسب أيضا تحكما أكبر فى الطبيعة ، بيد أن التنبؤية والتحكم يختلفان عن صورة دقيقة للطبيعة. **لماذا يجب علينا دائما أن نستنتج أن اللغة التى نصنعها قادرة على أن تصف بدقة طبيعة لم نصنعها؟** وفى الحقيقة فإن من المحتمل تماما أن التنبؤ والتحكم ممكنان فقط بواسطة لغة تسىء تفسير ما يوجد فعلا فى الطبيعة.

ربما وجدت ذرات هناك ، وربما كان الإله زيوس هناك لكن **ليس هناك طريقة للتسلق خارج عقولنا اللغوية لاكتشاف الأمر**. ولا توجد كذلك طريقة لاكتشاف الحقيقة بخصوص سبب قتل المدرس للطلبة الذين ناموا فى الفصل ، وهل كان بسبب جينات قاتلة ، أو بسبب عقدة أوديب ، أو بسبب إغواء الشيطان له ، أو بسبب إرادته الحرة. وإذا كان رورتى **يريدنا أن نكف عن البحث عن الحقيقة** فإنه يريدنا فى نفس الوقت أن نحول بؤرة اهتمامنا من القلق على ما هو حقيقى إلى البحث عما يجلب لنا ما نبغى. وإن كان علينا أن نصنع هذا التحول فسنتوقف عن القلق حول ما إذا كان الأدب والفلسفة والعلم يمنحوننا صورا دقيقة عن العالم ، وبدلا من ذلك سنركز على ما يساعدوننا على إنجازه ، تماما مثلما نفعل بأدواتنا الأخرى. إن **كل اللغة يجب أن يُنظر إليها على أنها أداة نستخدمها لحل مشاكلنا وليس كصورة دقيقة للعالم** ، وفى هذا الصدد فإن لغة الفلسفة ليست مختلفة عن لغة الأدب[11].

"إن القول بأننا يجب أن نسقط فكرة الحقيقة باعتبارها هناك بالخارج تنتظر أن تُكتشف لا يعدل القول بأننا قد اكتشفنا أنه لا يوجد حقيقة هناك بالخارج. أن هذا يعنى أن أغراضنا ستُخدم بالشكل الأفضل

[11]) الآراء السابقة للفيلسوف رورتى لخصناها مما ورد فى كتاب:
A Teacher's Introduction to Postmodernisrn. By Ray Linn (Cleveland Humanities High School Reseda, California). Page 29-33. NCTE Teacher's Introduction Series. National Council of Teachers of English, Illinois USA. 1996.

بالتوقف عن رؤية الحقيقة كمسألة عميقة أو كموضوع لاهتمام الفلسفة.... إن طبيعة الحقيقة هى موضوع غير مُرْبِح ، يشبه فى هذا الجانب طبيعة الإنسان وطبيعة الله[12]."

إن الفلسفة من وجهة نظر رورتى تشبه النقد الأدبى ، فهى مجرد شكل آخر للحوار حول اعتقادتنا. إنها مفيدة لأنها تساعدنا على تحرير خيالاتنا ، وبالتالى على صنع مجتمع أكثر تعددية ، يتضمن حوارات مختلفة كثيرة. لكن الفلسفة ليست أبدا رصيفا دائما يمكننا منه أن نحكم على الدعاوى المعرفية للحوارات الأخرى[13].

ونحن نعبر عن استهجان شديد لرأى رورتى ، فهو يخبرنا **أن الفلسفة مجرد رياضة ذهنية ، ومتعة نفسية ، وتعبير عن تنوع المجتمع ، لكنها لا يمكن أن تكون وسيلة للوصول إلى الحقيقة المطلقة التى يجب إقناع كل الناس باتباعها!** لقد جردوا الحقيقة من ثوبها الخلقى ، فبعد أن كانت الحقيقة فريضة يتحتم على كل عاقل أن ينشدها ، ويلام كل من يقصر فى طلبها ، إذا بها تصبح مجرد رياضة مثيرة للخيال**!** فمن ذا الذى يمكن أن يحرص بعد اليوم على الحقيقة**؟**

وإذا ذهبنا إلى الفيلسوف نيتشه الذى يعد الأب الروحى الأكبر لما بعد الحداثة[14] ، والذى قال عنه ميشيل فوكو: "أنا ببساطه نيتشوى ، وأحاول قدر استطاعتى أن أرى بمساعدة نصوص نيتشه فى عدد معين من القضايا"[15] ، إذا ذهبنا لنيتشه لوجدنا لديه نزعة شك عميقة ، فهو يرى أن **كل شىء قابل للشك** لأن البشر يخدعون أنفسهم باستمرار متصورين أنهم يعرفون الحقيقة مع أن الأمر غير ذلك ، فلا يوجد شىء اسمه المعرفة البشرية ، **والحقيقة إما أنها لا يمكن الوصول إليها ، أو أنها مجرد أسطورة.** إن أى فلسفة يجب أن تُبنى على عدد من المبادىء المركزية البينة بذاتها ؛ يوجد على سبيل المثال عدة أشياء يجب علينا قبولها إن كان للتوصيف العلمى للكون أن يعمل ، وذلك مثل الوجود الواقعى لعالم مادى منفصل عن إدراكنا له ، وأن إدراكنا له دقيق بشكل تقريبى ، وأن السببية تعمل فى اتجاه واحد فقط. وكل هذه اعتقادات حكيمة ، لكن من الصعب إثباتها ، **فمن غير الممكن أن نقفز**

---

[12]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 78-79

[13]) **Nietzsche and Postmodernism.** Page 51-52. ICON Books UK, 1999.

[14]) فى الحقيقة اعتبر نيتشه أبا روحيا لأغلب الفلسفات فى القرن العشرين. ويرى البعض أن نيتشه فى البداية كان شديد القرب من فكر ما بعد الحداثة ، لكنه فى المراحل المتأخرة من حياته أصبح أكثر يقينا ودوجماطيقية ، وهجر نظرياته المبكرة عن اللغة والمعنى ، وأصبح لديه وضوح ذهنى بأن بعض الرؤى الأخلاقية والسياسية أفضل من غيرها. ومفكرو ما بعد الحداثة يحتفون بنيتشه فى مرحلته المبكرة المتشككة ، ويتغاضون عن المرحلة المتأخرة التى تميزت بيقين ودوجماطيقية أكبر (انظر كتاب: **Nietzsche and Postmodernism** صفحة 54-55)

[15]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 83.

خارج خبرتنا الحسية بالعالم للتأكد من وجود عالم بالخارج يمدنا بخبرات حسية يُعتمد عليها. وبرغم أننا لم نقابل مسَبَّبا يسبق السبب إلا أنه لا يوجد ضمان على أن مثل هذا الحدث غير ممكن. وقد أصر نيتشه على أن الاعتقادات الحديثة فى الغرب قد بنيت على افتراضات ميتافيزيقية من هذا القبيل[16].

ومن أسباب رفض نيتشه لفكرة الحقيقة أنه يرى أن **الإنسان ليس كائنا عاقلا يحاول معرفة الواقع كما هو** ، ولكن جوهر الإنسان هو ما يسميه نيتشه "إرادة القوة". **الإنسان يحاول معرفة العالم كى يغيره ويخضعه لسيطرته.** الإنسان فى نظر نيتشه يشبه المعدة التى تغير الطعام وتهضمه. وبدلا من أن يكون الإنسان مرآة للطبيعة ، يفهمها بالشكل الواقعى الذى توجد عليه ، فإنه يمتص الطبيعة ، ويلتهمها، ويغيرها من أجل القوة. وحتى التفكير الأخلاقى للإنسان يشبه المعدة ، ويضرب نيتشه مثالا بالأخلاق المسيحية اليهودية ، فيصفها ب"أخلاق العبيد" ، بمعنى أن المؤمنين الضعفاء اخترعوها للتغلب على سادتهم الرومان الأقوياء. وموعظة الجبل الشهيرة للمسيح تسير على هذا الدرب ، فقد مدحت الضعفاء، ودعت الأقوياء للشفقة، والهدف الحقيقى لتلك الدعوة هو رغبة المؤمنين الضعفاء فى احتواء قوة السادة[17].

ونحن نرى أن هذا الرأى الأخير لنيتشه فى غاية الغرابة ، ومقدماته لا تؤدى إلى نتائجه. إنه يقول أن بعض الناس يزيفون عن عمد أوضاعهم الحقيقية بحيث يبدو واقعهم المزرى على أنه خلق فاضل مع أنهم فى الحقيقة يبحثون فقط عن القوة. ونحن نتفق على أن كثيرا من الناس يرفعون شعار الأخلاق بحثا عن القوة ، وليس رغبة فى نفع الآخرين ، **ولكن كيف يستنتج نيتشه من ذلك أنه لا سبيل للوصول إلى الحقيقة؟** إن الأمر يجب وصفه على أن **هناك حقيقية ، وأن هناك أناسا عرفوا هذه الحقيقة ، لكنهم أخفوها أو غيروها** (بفرض أنهم حقا فعلوا ذلك) ، وهنا تتحول المشكلة إلى مسألة كذب وتزوير، وما هذا بأمر جديد على البشرية التى يوجد فيها الخير والشر منذ التاريخ، وكما يوجد مزيفون للحقيقة، فهناك أيضا مخلصون لها. لكن نيتشه يفاجئنا بالقول بأنه طالما أن كثيرا من الناس يغيرون الحقيقة فهذا يعنى أن من المستحيل الوصول إلى الحقيقة. **ولو كان نيتشه مفكرا محترما لقال بدلا من ذلك أن "الحقيقة المطلقة موجودة ، لكن من المستحيل على كل البشر أن يتفقوا عليها لأنه يوجد فى كل زمان ومكان أشرار ، وهؤلاء الأشرار يعرفون الحقيقة ، لكنهم يرفضون الإقرار بها إذا ما تعارضت**

---

[16]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 11-13. ICON Books UK, 1999.
[17]) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 18-19.

مع مصالحهم". لو قال نيتشه ذلك لاتفقنا معه تماما ، لكنه استخدم ظاهرة صحيحة ليصل إلى استنتاجات خطيرة خاطئة.

لقد أعلن نيتشة مقولته الشهيرة: "إن الله قد مات" ، وهذا يعنى **أن الحقيقة قد ماتت ، وبالتالى فعلينا أن نكف عن البحث عن الحقيقة التى ليس لها وجود. لقد حان الوقت للإنسان كى يبتهج بعد تخلصه من عبء البحث عن الحقيقة.** الإنسان ليس مرآة عقلية تعكس العالم ، **الإنسان يخلق العالم ولا يكتشفه.** وعليه الآن أن يوجه طاقته لخلق نفسه وخلق العالم الذى يحيا فيه.[18]

ومن جانبنا فنحن لا نعتقد أن نيتشه اكتشف أن الله قد مات ، ثم استنتج من ذلك أن الحقيقة قد ماتت. **الواقع أن نيتشه أنكر وجود الحقيقة كى يبرهن بإنكاره لها على إنكاره لوجود الله ، فطالما أن من المستحيل على الإنسان أن يعرف الحقيقة ، فمن المستحيل أن يجزم بوجود الله. إن السر وراء رفض نيتشه وأمثاله لفكرة "الحقيقة"** هو أن أهم "حقيقة" فى الكون هى وجود الله. ووجود الله يستتبع فكرة الثواب والعقاب فى الآخرة. ولهذا اكتسب البحث عن الحقيقة أهمية كبرى على مدار التاريخ لخوف الناس من عاقبة اتباعهم للباطل وغفلتهم عن الحق. والآن أتى نيتشه ليطرح من على كاهله هذا العبء الثقيل من خلال إنكاره لوجود الحقيقة ، **فنفى وجود الحقيقة هى طريقة مبتكرة لإنكار وجود الله.** وطالما أنه لا يوجد إله يحاسبنا ، فلماذا نقلق؟ ومم نخاف؟ هكذا يفكر نيتشه ، ويفكر العدميون.

وهكذا **يتكلم فلاسفة ما بعد الحداثة عن العقل الإنسانى وكأنه طفل سجين داخل الجمجمة لا يعلم شيئا عما يدور حوله فى الطبيعة** ، ويؤكدون أن الإنسان غير قادر على اكتساب المعرفة الموضوعية، أى معرفة الشىء (أو الموضوع) كما هو فى ذاته بصرف النظر عن طريقة إدراك الذوات (أو العقول) المختلفة له ، ومؤكدين أن المعرفة الممكنة فقط هى المعرفة الذاتية التى تختلف من شخص لشخص ، وأن العقل لا يعرف الأشياء كما هى فى الواقع ، بل يعرف فقط ما يصل إليه من خلال الحواس.

وقد كان الفيلسوف الشهير "كانْط" Kant هو أول من وجه – دون قصد– طعنة لفكرة الموضوعية. و"كانْط" لم يكن ملحدا ، بل بالعكس كان مؤمنا بالله ، وكان الهدف من تأليف أهم كتبه "نقد الخالص"

---

[18]) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 20.

أن يحاكم العقل الذى قاد الناس فى عصره إلى الإلحاد. بيد أن محاولته قوبلت باستنكار شديد من رجال الكنيسة ، واستغلها الكثيرون –ومن بينهم فلاسفة ما بعد الحداثة– للمناداة بالشك الكامل.

ورأىُ كانطْ يتلخص فى أن معارف الإنسان لا تأتيه بالكامل من الواقع الخارجى. المعلومات تصل إلى المخ عن طريق الحواس ، فيقوم المخ بتنظيمها ، ويضيف إليها بعض المعانى من عنده ، فتكون المحصلة معرفة لا تطابق الواقع بشكل كامل. لقد خلع العقل على الواقع أمورا لم تكن فيه ، فصرنا لا نعرف الواقع كما هو بالضبط.

وبتفصيل أكثر نقول أن كانْط رأى أن الحواس الخمس تنقل إلى الذهن مواد خام كثيرة فى حالة فوضى، فيقوم المخ بتنظيم هذه الإحساسات من خلال أداتى الزمان والمكان. والزمان والمكان ليسا موجودين فى الطبيعة ، ولكنهما موجودان بشكل فطرى طبيعى فى المخ ، فالمخ هو الذى يخلع الزمان والمكان على ما يَرِد إليه من إحساسات فوضوية من الخارج ، فيجعلنا ندرك الطبيعة فى حالة منظمة. إن المخ مثلا يرد إليه إحساس من البصر بالاستدارة واللون الأحمر ، ويصل إليه من الجلد إحساس بالنعومة والصلابة النسبية ، ويصل إليه من الأنف رائحة طيبة ، ويصل إليه من الأذن صوت معين ، فيقوم المخ بربط هذه الإحساسات بأن يضفى عليها المكان والزمان ، بحيث نفهم أن هذه الإحساسات جاءت كلها فى نفس الوقت ، ومن مكان واحد ، فنعرف أن هناك "تفاحة". ويشرح ويل ديورانت هذا المعنى قائلا:

> [**هناك مرحلتان فى عملية تحويل مادة الإحساس الخام إلى إنتاج الفكر التام: المرحلة الأولى** هى تنسيق الأحاسيس الآتية من الخارج وإضفاء قالبى الإدراك الحسى وتطبيقهما عليها – وهما المكان والزمان. **والمرحلة الثانية** هى تنسيق هذه "المدركات الحسية" المتطورة عن المرحلة الأولى بتطبيق أنواع الرأى عليها حتى نخرج منها "مدركات عقلية"... إن الأحاسيس فى حد ذاتها ليست سوى وعى للدافع أو الحافز. فقد نحس بطعم على اللسان ، أو رائحة فى الأنف ، أو صوت فى الأذن ، أو حرارة على الجلد ، أو لمعة خاطفة من الضوء على شبكية العين أو ضغط على أصابع اليدين. هذه الآثار الحسية هى المادة الخام التى تبدأ بها التجربة ، وهى التى تكون لدى الطفل فى الأيام الأولى من تلمس حياته العقلية. إنها لم تبلغ حد المعرفة ، لأنها منفصلة مفرقة. ولكن إذا اجتمعت هذه الأحاسيس المختلفة حول شىء فى المكان والزمان ، فى التفاحة مثلا ، إذا اجتمعت الرائحة فى الأنف ، والطعم

على اللسان ، والضوء على شبكية العين ، والضغط على الأصابع واليد ، إذا اجتمعت ووحدت نفسها حول الشيء فإن هذا يؤدى إلى إدراك ذلك الشيء ، وبذلك يكون الإحساس قد تحول إلى معرفة... يا له من خليط كبير من الرسائل عندما يجتمع ويحتشد فى داخل جدران العقل ، وكل واحد منها يدعو العقل إلى الانتباه ، لا غرابة أن يتحدث أفلاطون عن لغط الحواس ، فلو ترك هذا الجمع المحتشد وشأنه فسيبقى فى لغط وفوضى عاجزا عن تنظيم نفسه إلى معنى وغرض وقوة..... العقل يستخدم أولا وسيلتين بسيطتين فى ترتيب المواد المقدمة له: وهما معنى المكان ومعنى الزمان ، كما يرتب القائد العسكرى الرسائل التى ترد إليه حسب المكان الواردة منه ، والزمان الذى كتبت فيه ، وبهذا ينظمها وينسقها ، فكذلك العقل يرتب الإحساسات التى ترد إليه من العالم الخارجى حسب مكانها وزمانها ، ويعزوها إلى هذا الشيء أو ذاك ، إلى الوقت الحاضر أو الماضى ، ولكن ليس الزمان والمكان أمرين مدركين ، ولكنهما كيفية للإدراك ووسيلة لوضع معنى فى الإحساس ، إن المكان والزمان وسيلتان للإدراك الحسى.][19]

وبعد ذلك يتخذ الذهن الخطوة الثانية ألا وهى الربط بين الظواهر المعروضة فى الزمان والمكان ربطا كليا ضروريا ، وهذا الربط يتم بواسطة معانى ذاتية تسمى "المقولات". والمقولات توحد بين الظواهر وتربط بينها ربطا كليا ضروريا[20]. على سبيل المثال نحن نرى النار تهب على قطعة خشب ، فيحترق الخشب ، فنقول أن النار "سبب" لإحراق الخشب ، مع أن الحواس لم تنقل إلينا إلا حدثان: هبوب النار واحتراق الخشب ، ولم تنقل لنا شيئا محسوسا اسمه " السببية". إن هذه السببية مقولة من المقولات التى هى أدوات فطرية يستخدمها العقل ويطبقها على ما يَرِد إليه من مدركات حسية مختلفة. وبالمثل تعمل بقية المقولات ؛ فمثلا نحن رأينا يوما أن الماء تبخر لما سخناه ، ثم كررنا تسخين الماء مرات كثيرة ، فحدث نفس الشيء ، ووجدنا نفس الظاهرة تحدث فى كل زمان ومكان ، فاستنتج العلماء من ذلك قاعدة "عامة كلية ضرورية" تقول أن الماء يتبخر بالتسخين مع أن الحواس لم تأت لنا بشيء اسمه "العموم ولا الضرورة" ، لأننا لم نر كل حوادث تسخين الماء فى كل زمان ومكان لنتيقن مما إذا كان الماء

---

[19]) **قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى**. تأليف ويل ديورانت. ترجمة الدكتورفتح الله محمد المشعشع. صفحة 336-339 . مكتبة المعارف بيروت. الطبعة السادسة 1408 هجرية- 1988م

[20]) ليس للمقولات من قيمة أو معنى دون المادة الآتية من الحس ، وليست هى معارف بالذات كالمعانى الغريزية ، وإنما هى روابط لتوحيد التجربة. فبدون الحدوس المقولات جوفاء ، وبدون المقولات الحدوس عمياء. والمقولات عند كانْت تشمل: الوحدة- الكثرة- الجملة-الوجود-السلب-الحد-الجوهر-العلية-التفاعل-الإمكان-الوجود-الضرورة. انظر كتاب **" تاريخ الفلسفة الحديثة"**. تأليف يوسف كرم. صفحة 210-215. دار المعارف بمصر- 1949م

سيتبخر بالتسخين أم سيظل سائلا كما هو أم سيتجمد. إذن صفة "الكلية والعموم" لم تأت من العالم المحيط بنا، بل أتت من داخل العقل تماما مثلما أتت السببية.

وهكذا **أكد كانْط أننا لا نعرف عن العالم المادى أى شىء يقيني إلا وجوده فقط:** "إن القمر كما نعرفه لا يزيد على حزمة من الإحساسات وحَّدها العقل بأن حول الإحساسات إلى إدراكات حسية ، ثم الإدراكات الحسية إلى مدركات عقلية وأفكار ؛ إذن **فالقمر بالنسبة لنا هو عبارة عن أفكارنا**... ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن كانْط قد أنكر وجود المادة ووجود العالم الخارجى ، بل هو يعترف بتلك المادة ، وإنما يزعم **أننا لا نعرف شيئا يقينيا عنها أكثر من أنها موجودة ، وأن كل ما نصل إليه من علم يتعلق بظاهرها** ، أى بما لدينا عنها من إحساسات ، فشطر كبير من كل شىء قد خلقته صور الإدراك الحسى والعقلى. **فنحن نعلم الشىء بعد تحوله إلى فكرة ، أما ماذا كان الشىء قبل هذا التحول فهذا ما نعجز عنه كل العجز**. وإن ظن العلم أنه يعالج **الأشياء فى أنفسها** أى كما هى فى حقيقتها فهو ساذج مخدوع. والفلسفة أشد من العلم انخداعا إن زعمت أن مادة العلم كلها لا تتألف من مدركات الإنسان الحسية والعقلية ، بل **من الأشياء نفسها**. ومعنى ذلك أن **كل محاولة يبذلها العلم أو الدين فى أن يصل إلى الحقيقة النهائية محاولة نظرية فاشلة،** لأنه لا يمكن للعقل أن يتعدى الظواهر الحسية ، فإن مضى العلم والدين فى ذلك تورطا فى التناقض والخطأ"[21]. ويقول شوبنهور : "**إن فضل كانْط يكمن فى تمييزه مظهر الشىء عن الشىء فى نفسه**".[22]

ويلخص ستيفن هيكس الأساس الذى بنى عليه مفكرو ما بعد الحداثة –المتأثرين بكانْط – إنكارهم للموضوعية في حجتين[23]:

أولا: نسبية الإدراك: الناس يختلفون فيما بينهم حول إدراك الأشياء ، فقد يرى الإنسان شيئا لونه أحمر ، بينما يراه إنسان آخر رمادى اللون. وهذا يعنى أن **الواقع لا يوجد بشكل واحد يتفق عليه كل الناس.**

---

[21]) **قصة الفلسفة الحديثة**. تأليف دكتور/ زكى نجيب محمود. صفحة 292-293. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة- 1936م- 1355 هجرية

[22]) **قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى**. تأليف ويل ديورانت. صفحة 345.

[23]) **Explaining Postmodernism:** ***Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault***. Page 36-39.

ثانيا: سببية الإدراك: ذهن أى إنسان له هوية ، وهذه الهوية عقبة فى طريق المعرفة ، فالعقل ليس وسطا شفافا ، وليس مرآة براقة تنقل واقع الأشياء كما هو دون تغيير. الذهن له هوية ، وإن أردنا أن نَعرف الواقع كما هو بشكل موضوعى فيجب أن يكون الذهن بلا هوية ، أى يكون هو والعدم سواء ، وهذا محال. إن هوية الذهن وأعضاء الحس تجعل عملية الإدراك تتم فى سلسلة من الخطوات السببية من الشىء للذهن. **وهذه السلسلة السببية تجعلنا ندرك الواقع بشكل مختلف عما هو عليه** ، وتمثل بالتالى عائقا فى وجه المعرفة الموضوعية.

ومن جانبنا سنزيد النقطة الأخيرة إيضاحا ، فنقول أن الإنسان لكى يرى شجرة مثلا فإن هذا يتطلب سلسلة سببية ، تنتهى عند المخ كما يلى [24]:

- سقوط أشعة الضوء على الشجرة.
- انعكاس الضوء من الشجرة ، ليصل إلى العين.
- مرور الضوء من القرنية ، وهى جسم شفاف ، يقوم بإحداث انكسار فى الضوء ، ليدخل العين.
- سقوط الضوء على عدسة العين التى تقوم بتغيير درجة تحدبها بواسطة عضلات معينة كى تقع البؤرة على الشبكية بالضبط.
- سقوط فوتون من الضوء على أحد الإلكترونات فى مادة الريتينال (الموجودة فى خلايا الشبكية الحساسة للضوء) يؤدى إلى تحول هذه المادة إلى شكل يسمى all–trans.
- تؤدى الخطوة السابقة إلى حدوث تغير فى شكل صبغة الضوء (الرودوبسين Rhodopsin).
- تؤدى الخطوة السابقة إلى تنشيط بروتين اسمه ترانسديوسين Transducin
- يقوم البروتين السابق بتنشيط إنزيم فوسفودايستريز phosphodiesterase .
- يقوم هذا الإنزيم بتكسير مادة cGMP
- تؤدى الخطوة السابقة إلى إغلاق قنوات الصوديوم الكيميائية ، فيترتب على ذلك زيادة قطبية غشاء الخلية.
- يترتب على ما سبق إغلاق قنوات الكالسيوم الكهربية.

---

[24]) **Human physiology from cells to systems**. Page 206. By Lauralee Sherwood. 7th edition. Brooks/Cole, Cengage Learning. 2010.

- بناء على الخطوة السابقة يقل إفراز مادة الجلوتاميت من النهايات التشابكية للخلايا الحساسة للضوء[25].
- يؤدى نقص إفراز الجلوتاميت إلى حدوث تغيرات فى خلايا أخرى ، تتضمن إثارة نوع من الخلايا الثنائية القطبية On–center bipolar cells ، وتثبيط نوع آخر من الخلايا الثنائية القطبية Off–center bipolar cells.
- يؤدى ما سبق إلى إثارة كهربية فى نوع آخر من خلايا الشبكية اسمها خلايا العقدة On–center ganglion cells ، وفى نفس الوقت يحدث تثبيط كهربى لنوع آخر من خلايا العقدة اسمه Off–center ganglion cells . وتتجمع محاور خلايا العقدة معا لتكوين العصب البصرى ، الذى يقوم بنقل النبضات الكهربية إلى مراكز الإبصار فى المخ ، فيشعر الإنسان أنه يرى صورة شىء ما.
- فى الحال تقوم منطقة الربط فى القشرة المخية الخلفية بفهم هذه الصورة على أنها صورة شجرة.

وعلى ذلك فالمخ –فى حالة الإبصار–لا يقابل الشجرة مباشرة ، بل يقابل أثرا ، نتج عن أثر ، نتج عن أثر.... نتج عن الشجرة. ومن خلال سلاسل أخرى من الخطوات السببية يتمكن الإنسان من السماع والشم واللمس والتذوق.

ويضيف ستيفن هيكس إلى هاتين الحجتين ما سبق أن قلناه عن قول كانْط بأن الطبيعة لا تتضمن السببية ولا الضرورة ولا الكلية ، التى هى معان فطرية موجودة فى الذهن. لقد مثَّل كانْط –كما يؤكد ستيفين هيكس– القطيعة الحاسمة مع الحداثة والخطوة الكبرى الأولى باتجاه ما بعد الحداثة ، فقد بين أن الواقع يخضع للعقل وليس العكس ، فأحدث تحولا أساسيا من الموضوعية باعتبارها المعيار إلى الذاتية باعتبارها المعيار[26].

واستنادا إلى هذه الحجج يهلل أتباع ما بعد الحداثة قائلين أن **المخ مسكين لا يعرف شيئا عن العالم إلا ما يصله فى نهاية السلسلة السببية التى تنطلق من الشىء ، أما "الشىء فى ذاته"، فهو سر أبدى ، كتب على المخ أن يبقى عاجزا عن معرفته. كما أن المخ يضفى من عنده على الظواهر**

---

[25]) زيادة قطبية الخلايا الحساسة للضوء hyperpolarizing potential تتأثر بشدة الضوء، فالجهد الكهربى لتلك الخلايا يتناسب مع لوغاريتم شدة الضوء. وبالمثل سنجد أنه كلما زادت شدة الضوء كلما قل إفراز الجلوتاميت ، والعكس بالعكس. ويترتب على هذا وذاك قدرة العين على تمييز درجات شدة الضوء.

[26])**Explaining Postmodernism: *Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault*.** Page 39.

معانى السببية والضرورة والعموم. المخ لا يعرف الواقع كما هو لأنه لكى يدرك الأشياء فلا بد أن يغيرها. المخ لا يعرف الحقيقة الموضوعية. الحقيقة تختلف من شخص لشخص. الحقيقة ذاتية. هذا كلامهم. وسنقوم إن شاء الله فى الفصل التالى بالرد على هذه المغالطة التى استفحلت ، حتى صارت فى نظرهم من المسلمات التى لا تقبل الشك. نسأل الله العون.

ضد الشك

ها قد رأينا كيف نثرت ما بعد الحداثة بذور الشك فى كل مكان. ومن جانبنا نحن نقول أن **الإنسان ليس إلها يعلم كل شيء ، لكن هل هذا مبرر كى تأتى ما بعد الحداثة لتشعل نار الشك فى كل شيء ؟** إن الإنسان ذو علم محدود ، وحواسه التى يدرك بها الأشياء قاصرة ، وكثيرا ما تخدعه وتظهر له الواقع بخلاف ما هو عليه ، فنحن نرى الأرض مسطحة ، لكنها فى الحقيقة كروية ، كما نرى النجوم صغيرة، لكنها فى الحقيقة ضخمة ، ونرى الجو صافيا ، لكنه فى الحقيقة يموج بجحافل من الجراثيم التى لا تراها العين. ومع ذلك **نحن نؤكد أن هذا القدر المحدود من العلم كاف جدا كى يتعامل الإنسان بنجاح مع العالم من حوله ، ويدرك حقائق الكون الكبرى بطريقة صحيحة.**

إن تأكيد ما بعد الحداثة على استحالة المعرفة اليقينية للواقع يتضمن قدرا هائلا من المغالطة يبلغ حد التهريج[27]. حقا المخ لا يعرف الشيء فى ذاته ، ويعرف فقط ما يصل إليه من إحساسات ، لكن هذه ليست مأساة ، **فالإحساسات التى تَرِد إلى الذهن على علاقة وثيقة بالأشياء ، وتعبر عنها بدرجة بالغة الدقة** ، وذلك للأسباب التالية:

<u>الدليل الأول:</u>

لا شك أن الإحساس هو آخر خطوة فى سلسة سببية كما يقول العلم ، وكما يقول ما بعد الحداثيون، ولكن هذه السلسلة السببية لا تمثل على الإطلاق عائقا أمام العقل كى يعرف الواقع بدقة لأن المخ يقوم بعملية استنتاج ابتداء من آخر خطوة فى السلسلة السببية ، ليصل منها إلى طبيعة الشيء الموجود فى

[27]) هذه الكلمة عربية فصحى ، ولها عدة معان ، منها: الهَرْج: شَيْءٌ تَرَاهُ فِي النَّوْمِ وَلَيْسَ بِصَادِقٍ. و(انهرج) فلَان من الْخمر ، أى اضمحلت قواه من تنَاولهَا. والتَّهْرِيجُ في النَّبِيذِ: أن يَبْلُغَ من شارِبِهِ.

الواقع. وهذا الانتقال من المسبَّب إلى السبب مشروع تماما ، ودقيق جدا ، وهو لا يختلف عن المبدأ المعروف "البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام تدل على المسير" ، وهذا يشبه ما يفعله الطبيب الشرعى حين يعرف من الجرح الموجود فى جسم القتيل أنه نتج عن إطلاق رصاصة من مسدس نوعه كذا ، ومن مسافة كذا ، واتجاه كذا...إلخ. وكمثال على ذلك سنجد أن المخ يفسر زيادة معدل النبضات الكهربية التى وصلت من خلال العصب السمعى إلى مركز السمع على أنها تعنى زيادة شدة الصوت الذى صدر من الشىء الموجود فى الطبيعة ، وذلك لأن الصوت ينتقل من خلال **سلسلة سببية منتظمة، وليس من خلال سلسلة عشوائية.** إن خطوات الإحساس بالصوت والصورة والرائحة وغيرها لو كانت تتم عبر خطوات فوضوية عشوائية لكان من الصعب جدا أن نعرف الواقع كما هو فى أغلب الأحيان ، ولكن **السلاسل السببية لعملية الإحساس –على العكس من ذلك– منتظمة ، وتحدث دائما بنفس الوتيرة ، وهذا يوجِد تناسبا بين الخطوة الأخيرة والخطوة الأولى ، ويصبح من السهل التوصل إلى البداية انطلاقا من النهاية ، ويصير من المشروع تماما أن يعرف المخ الطبيعة كما هى دون تشويه يذكر حتى وهو قابع فى مكانه** ، دون حاجة لأن يفقس كالبيضة ويخرج من الجمجمة ليعرف حقيقة الشىء المحيط به ، ثم يعود إلى مخبئه.

ولنتذكر أننا لسنا بحاجة لأن نغادر بيوتنا كى نشاهد وقائع المؤتمرات والمهرجانات ومباريات كرة قدم التى تجرى على بعد آلاف الأميال فى نفس وقت وقوعها ، فقد تكفل بهذا الأمر الإنترنت والأقمار الصناعية اللذان يعتمدان فى عملهما على سلاسل سببية.

ويعد "الاستشعار عن بعد" من أهم الأمثلة على أن من الممكن للأجهزة الحديثة أن تكتشف وجود الأشياء بكل دقة من خلال سلسلة سببية. ففى الاستشعار عن بعد تقوم الأقمار الصناعية بمعرفة ما فى باطن الأرض من مياه ونفط ومعادن وغيرها دون حاجة لأن تغوص هذه الأقمار داخل أعماق الأرض ، ولكنها تحس بوجود هذه الأشياء من خلال قياس الموجات الكهرومغناطيسية المرتدة أو المنبعثة من الأرض ومحتوياتها وتحللها بأجهزة مختلفة وطرق معينة. **وهذا الاختراع يدمر تماما أحد أهم أسس ما بعد الحداثة التى تروج لفكرة أن عدم قدرة المخ على الالتقاء بالطبيعة بشكل مباشر يجعله جاهلا بها ، ويحتم علينا ألا نثق به.** إنهم يظنون –ويقولون ذلك حرفيا– أن المخ لكى يعرف

الأشياء الموجودة فى العالم فلا بد أن يخرج من الجمجمة ليلتقى بالأشياء كما هى دون وساطة الحواس وسلاسلها السببية. وهذا اللغو لا يردده إنسان يعيش فى القرن الحادى والعشرين.

والأمر لا يقتصر على تقنية الاستشعار عن بعد ، فالآلات التى تحس بما حولها كثيرة جدا ، ويتم هذا من خلال سلاسل من الخطوات التى لا تؤثر مطلقا على مستوى دقتها ؛ **فمن الممكن الآن للأطباء أن يعرفوا ما الذى يجرى داخل المعدة والأمعاء من أمراض دون حاجة لأن يقول الطبيب لمريضه: "افتح فمك بشدة كى أَدخل فيه، وأقفز فى البلعوم ، لتبتلعنى ، فأرى بعينى الداء الذى أصاب جهازك الهضمى ، ثم أعود لأخبرك به"**. هذا يصلح كمشهد هزلى فى فيلم سخيف لأن الأطباء يستطيعون الآن أن يعرفوا الكثير عما يحدث فى القناة الهضمية من خلال استخدام المناظير.

ومن السهل على عالم الجينات أن يعرف تركيب جينات الهيموجلوبين دون حاجة لأن يضغط جسده، ويُصغر حجمه ، كى يتمكن من الدخول إلى الخلية الحية التى لا ترى بالعين المجردة ، ثم يقوم بِعَدّ القواعد النيتروجينية المكونة للجينات واحدة تلو الأخرى. من السهل الآن على مثل هذا العالم أن يحصل على نفس المعلومة من خلال سلسلة سببية كيميائية إلكترونية تتضمن تقنية تفاعل البلمرة المتسلسل PCR وتقنية معرفة التتابع Sequencing. ومن قبيل التخلف العقلى أن يرفض المريض تصديق عالم الجينات وهو يخبره بأن جينات الهيموجلوبين لديه تالفة ، قائلا: "كيف أصدقك ، وأنت لم تدخل إلى خلايا جسدى ، وتعاين الجينات بنفسك؟ كيف تقول هذا الكلام وأنت جالس على مقعدك؟" وهذا التفكير الساذج هو الكيفية التى تفكر بها ما بعد الحداثة. **إنهم يظنون أن المخ لكى يعرف العالم فلا بد له أن يفلت من الحواس ، ليلتقى مباشرة بالأشياء**. إن مفكرى ما بعد الحداثة فى غيبوبة.

<u>الدليل الثانى</u>:

إذا كانت التقنيات الحديثة قد أظهرت أن من الممكن للأجهزة المختلفة أن تعرف الواقع بدقة بالغة من خلال سلسلة من الخطوات السببية دون حاجة للاقتراب المباشر من الأشياء ، فهذا يدل أيضا على أن **من غير المهم الصورة التى يرى بها المخ البشرى الأشياء ، فالمهم أن نفس المعلومات تصل إليه ، بصرف النظر عن كيفية إدراكها**. وسنقدم لكم الآن عددا من الأمثلة التى تثبت أن **تباكى مفكرى ما بعد**

الحداثة على كون المخ يدرك الأشياء بشكل مختلف عما هى عليه فى الواقع يتضمن قدرا كبيرا من التهويل.

على سبيل المثال لما كنا صغارا كنا نشاهد جميع الأفلام والمسلسلات من خلال شاشة التلفاز الأبيض والأسود ، ولكن لما انتشر التلفاز الملون أصبحنا نشاهد بعض هذه الأفلام والمسلسلات بألوان كثيرة بدلا من اللونين الأبيض والأسود فقط. وطبعا مشاهدة الوقائع بالألوان يجعلك فى البداية أكثر انبهار بجمال الصورة ، لكن دون تغير يذكر فى محتوى الفيلم أو المسلسل ، ولا أحد من جيلنا الذى عاصر التلفاز الأبيض والأسود ثم عاصر التلفاز الألوان لاحظ وجود فروق مهمة ، ففى الحالتين كان هناك مثلا بطل طيب ، تعرض لمؤامرة من أصحابه ، فدخل السجن ، ثم خرج لينتقم ممن ظلموه ، وفى النهاية مات الظلمة واحدا بعد الآخر ، وطوال الفيلم نسمع نفس الحوار ، ونشاهد نفس الحركات والأحداث ، دون أى تغير ذى بال فى المعلومات والوقائع[28].

وحين يوجه رئيس الدولة خطابا للشعب من مكتبه فإن مضمون الخطاب يبقى واحدا بالنسبة لمن سمعوه عبر التلفاز ومن سمعوه على الطبيعة فى قصر الرئاسة كصحفيين ، فكلا الفريقين عرف أن الرئيس هاجم نفس الدولة المعادية، وأعلن الحرب عليها ، مستخدما نفس الكلمات الحادة ، ونفس تعبيرات الوجه، ونفس لغة الإشارة. ولا يمكن أن يسمع مشاهد التلفاز مثلا أن الرئيس أعلن الحرب على أمريكا، بينما يسمع الصحفى الذى كان حاضرا مع الرئيس أنه أعلن الحرب على فرنسا. وهذا يثبت أن اختلاف الطريقة التى ندرك بها الأحداث لا يؤثر فى العادة على معرفتنا بها.

ومن الأمثلة الأخرى أن الأطباء يمكنهم أن يعرفوا **بشكل مباشر** حدوث نزيف فى المخ إذا ما أجرحوا جراحة للمريض ، وفتحوا الجمجمة ، ورأوا التجمع الدموى داخل المخ. لكن الأطباء يمكنهم أيضا أن يعرفوا حدوث النزيف **بشكل غير مباشر** دون الحاجة لفتح الجمجمة ، وذلك من خلال إجراء أشعة

[28]) وحتى المَشاهد التى تلعب فيها الألوان دورا مهما مثل جمال الثياب أو الزهور أو القصور فإن من يراها من خلال التلفاز الأبيض والأسود يعوض هذا النقص النسبى فى المعلومات من خلال تعليقات الممثلين ، وتعبيرات وجوههم ، وانفعالاتهم. كما أننا حين نشاهد أحد الأفلام بالألوان فإن ما نراه يختلف عن العالم الحقيقى المحيط بنا لأننا نرى على الشاشة صوتا وصورة فقط ، بينام يتضمن الواقع الطعم والرائحة والملمس ، لكن هذا لا يؤثر بشكل يذكر على مضمون الفيلم لأن البطل مثلا حين يشم رائحة كريهة فإنه يعبر عن امتعاضه بأن يضع يده على أنفه ، ويقول كلمة "أف" ، وهذا كاف لأن يعرف المشاهد أن هناك رائحة كريهة. وهذه النقطة تعبر عن دليل مستقل سنتعرض له فى الصفحات التالية.

مقطعية للمريض. فى الحالتين علم الأطباء بحدوث نزيف فى المخ ، لكنهم فى الحالة الأولى عرفوا ذلك بشكل مباشر ، أما فى الحالة الثانية فعلموا ذلك بشكل غير مباشر من خلال سلسلة خطوات سببية (جهاز الأشعة المقطعية المعقد). وفى الحالتين كانت المعلومة واحدة ، ولكن فى الحالة الأولى لما فتح الأطباء الجمجمة رأوا النزيف لونه أحمر ، أما فى الحالة الثانية فظهر النزيف بلون أبيض فى الأشعة المقطعية. ولا فرق فى نظر الأطباء بين الحالتين لأن المعلومة التى وصلتهم واحدة رغم اختلافها فى الشكل ، وسيقوم الأطباء فى كلتا الحالتين بتقديم نفس العلاج للمريض.

وأنا الآن أقف بجوار بيتى حيث تقف سيارة صديقى الذى مر علىَّ بعد حضور مؤتمر فى أحد الفنادق، ولكن فى نفس الوقت إن فتحت هاتفى فسأشاهد نفس البيت ونفس السيارة ونفس الفندق من خلال برنامج "جوجل إيرث" الشهير ، ولكن بطريقة مختلفة عن الواقع. فى الحالتين الشكل مختلف ، لكن مضمون المشهد واحد ، وهو أن السيارة تقف بجوار البيت المجاور لأحد الفنادق المعروفة.

إن هذه الأمثلة تثبت أن الشكل الذى ندرك به الأحداث لا يؤثر بقدر ذى بال على مضمون هذه الأحداث. ونحن لا ننكر وجود فروق بين الطرق المختلفة للإدراك ، وأن بعضها قد يكون أكثر دقة من الآخر ، لكن ما نؤكد عليه أن **هذه الفروق فى الغالب تكون تافهة ، ويمكن إهمالها** ، مثلما نهمل الفرق بين جبل ارتفاعه 2000 متر ، وجبل آخر ارتفاعه 2005 متر ، فتقول كل المراجع العلمية أن للاثنين ارتفاعا واحدا هو 2000 مترا ، دون أن تُتهم أى من هذه المراجع بالكذب. إن الإنسان عادة ما يعرف الواقع كما هو دون تغير جوهرى ، خلافا لما تدعيه ما بعد الحداثة من أن الشك يخيم على كل شىء. إننا نرى بالعكس أن اليقين هو سيد الموقف، والشك يجب أن ينزوى فى ركن مُهمَل.

<u>الدليل الثالث:</u>

يخبرنا علم الفسيولوجيا بوجود علاقة وثيقة بين الإحساسات والواقع. مثلا **كلما زادت شدة الضوء** زاد معدل توليد النبضات الكهربية فى خلايا العقدة على الشبكية التى تنتقل النبضات عبر العصب البصرى،

فيستنتج المخ من ذلك أن شدة الضوء الصادر من شىء فى العالم الخارجى قد زادت[29]. وإضافة إلى ذلك فإن صور الأشياء التى تتكون على شبكية العين تكون مقلوبة بسبب انكسار الضوء أثناء مروره فى العين ، ولكن يقوم المخ تلقائيا بحركة تصحيحية ، بحيث يمكننا فى النهاية أن نرى الأشياء معتدلة كما هى فى الواقع[30].

كما يمكن للمخ أن يعرف ما إذا كان الصوت قادما من اليمين أم من اليسار بمقارنة الفرق فى الصوت بين الأذنين ، فموجات الصوت الصادرة من جهة اليمين تصل مبكرا إلى الأذن اليمنى قبل الأذن اليسرى، كما أن شدة الصوت تكون أكبر فى الأذن اليمنى لأن الجمجمة تحجب موجات الصوت بعض الشىء عن الأذن اليسرى ، فيقوم المخ بتفسير هذا الاختلاف بين الصوت فى الأذنين على أن الصوت قادم من اليمين ، تماما كما هو فى الواقع. كما **يمكن للمخ أن يعرف ما إذا كان الصوت قادما من الأمام أم من الخلف** بمساعدة صوان الأذن الذى يؤدى شكله إلى حجب موجات الصوت القادمة من الخلف بعض الشىء ، فيمكن للمخ معرفة هل جاء الصوت من الأمام أم من الخلف كما هو فى الواقع[31].

ويمكن للمخ معرفة شدة الصوت كما هى فى الواقع ، فالصوت الشديد يؤدى إلى حدوث اهتزازات أشد لطبلة الأذن ، فتؤدى فى النهاية إلى اهتزازت أشد فى الغشاء القاعدى Basilar membrane ، فيترتب على ذلك انحناء أكبر للشعيرات Stereocilia الموجودة على الخلايا الشعرية الداخلية inner hair cells فى "عضو كُورتى"[32] ، فيؤدى هذا فى النهاية إلى زيادة معدل توليد النبضات الكهربية فى العصب السمعى ، فيفهم المخ أن هناك صوتا قويا[33].

---

[29]) بتحديد أكثر نقول أن زيادة قطبية الخلايا الحساسة للضوء hyperpolarizing potential تتأثر بشدة الضوء، فالجهد الكهربى لتلك الخلايا يتناسب مع لوغاريتم شدة الضوء. وكلما زادت شدة الضوء كلما قل إفراز الجلوتاميت ، والعكس بالعكس. ويترتب على هذا وذاك تغير معدل توليد النبضات الكهربية فى خلايا العقدة التى تنقل النبضات الكهربية عبر العصب البصرى ، فيستطيع المخ تمييز درجات شدة الضوء. انظر كتاب:

Textbook of medical physiology. Page 630. By Arthur C. Guyton and John E. Hall. 11th edition. ELSEVIER SAUNDERS. 2006.

[30]) **Human physiology from cells to systems**. Page 210.

[31]) **Human physiology from cells to systems**. Page 216.

[32]) يوجد عضو كورتى Organ of Corti فى الأذن الداخلية ، وهو يتكون من ثلاث طبقات من الخلايا الشعرية الخارجية outer hair cells ، وصف واحد من الخلايا الشعرية الداخلية Inner hair cells. وهذه الخلايا الشعرية الداخلية تحول الطاقة الميكانيكية الناشئة عن الصوت إلى طاقة كهربية.

[33]) **Human physiology from cells to systems**. Page 222.

ومن السهل أيضا **معرفة المكان الذى جاء منه الحجر الذى ضرب الجسم** ، فإن أحس المخ بأن النبضات الكهربية قادمة من المستقبلات العصبية الموجودة على الظهر كان معنى ذلك أن الحجر جاء من الخلف ، وإن شعر المخ بقدوم النبضات الكهربية من المستقبلات العصبية الموجود على الصدر كان معنى ذلك مجىء الحجر من الأمام ، وهكذا.

<u>الدليل الرابع</u>:

علينا أن نلاحظ أن **الإنسان لا يعرف الواقع من خلال حاسة واحدة بل من خلال حواس خمس. وهذه الحواس تعضد بعضها البعض ، وتتعاون من أجل نقل الواقع للذهن بدقة.** وفى الغالبية العظمى من الأحيان تتفق الإحساسات مع بعضها البعض حول الشىء الذى تشير إليه فى الواقع رغم أن كلا منها يرد إلى الذهن من خلال مسار عصبى مستقل عن الآخر. واتفاق عدد من الشهود على نفس الأمر يمنحهم مصداقية أكبر. هب أنك كنت جالسا مع صديقك ، فسمعت فجأة صوت ارتطام شديد ، فتلفتَّ حولك ، لترى عمارة شاهقة تنهار ، ويتطاير فى الجو غبار كثيف ، وتتناثر قطع صغيرة من الطوب لتصيب صدرك وقدمك أنت وزميلك الواقف معك. فى هذه الحالة طبقا لما بعد الحداثة أنت لم تدرك الأشياء فى ذواتها أو الواقع كما هو لأن مخك كان منفصلا عن الأشياء بواسطة سلسلة من الأحداث الفسيولوجية السببية التى تقع فى الحواس والمخ. لكن نحن نطلب منك أن تتأمل فيما جرى ، وتسأل نفسك: أليس من الغريب أن تتفق حواسك كلها على نفس الشىء؟ إن العين أخبرتك أن عمارة شاهقة سقطت على الأرض ، والأذن اتفقت مع العين لأن الصوت الشديد الذى سمعته يتفق مع سقوط مبنى ضخم. وكذلك رائحة الغبار التى شممتها تتفق مع ما رأته العين من انتشار للغبار فى الجو. وإحساسك بالحجارة وهى ترتطم بجسمك يتفق مع ما رأته عينك من انهيار للعمارة وتطاير الأنقاض نحوك. إذن كل الحواس اتفقت على إخبارنا بنفس الحدث.

وإن حدث فى بعض الأحيان تضارب بين الحواس فمن السهل الترجيح بينها، إذ بمزيد من الفحص سنكتشف أن إحدى الحواس أخطأت وأن الحواس الأخرى هى الصحيحة، وسنعرف سبب الخطأ. على سبيل المثال هب أنك كنت واقفا فى شرفتك ، فوقع بصرك على رجلين يتكلمان بصوت مرتفع فى شرفة بيت آخر ، وفجأة أخرج أحدهما مسدسا ، وصوبه نحو صاحبه ، وبعد ثوان سقط الرجل مضرجا فى

دمائه رغم أن الشخص الذى كان يمسك بالمسدس لم يطلق النار لأنك لم تسمع صوت المسدس المدوى المعروف. وهنا نجد تناقضا بين حاسة البصر التى تقول لك أن الرصاص أُطلق وحاسة السمع التى تقول أن الرصاص لم يُطلق. هذا التناقض يدفعك إلى الشك فى الحاستين ، ولكن بمزيد من التحرى ستجد أن الشرطة لما قبضت على المجرم وجدت أن الرصاص أطلق فعلا ، ولكن من مسدس كاتم للصوت.

وهكذا فالحواس تحكم على بعضها البعض. ولو كانت عملية الإدراك الحسى تؤدى فى الغالب إلى تغيير جوهرى للواقع لجاز لنا أن نرى الأسد فنشُك فى حواسنا ، ونقول: "**ربما كانت الحواس تخدعنا ، وتوهمنا أن الأسد حيوان متوحش ، لكن من المحتمل أن يكون الأسد فى الواقع حيوانا لطيفا ، رقيقا، ذا أجنحة ، يحب أكل الحبوب ، ويلتقط الديدان من الأرض.**" إن ما بعد الحداثة تفتح الباب لهذا الاحتمال السخيف ، لكنك إن حاولت أن تقول لماذا هو سخيف فلن تجد إجابة سريعة. وإليكم السبب: إن الأسد لو كان حيوانا لطيفا لما تعرض الناس للأذى إن اقتربوا منه. إن الحواس تشهد على بعضها، فالحواس التى جعلتنا نخاف من شكل الأسد وزئيره وفمه المفتوح ومخالبه ، وتأهبه للانقضاض على الفرائس ، هذه الحواس لم تكذب بدليل أننى حين اقتربت يوما من الأسد نهش جسمى بأنيابه ، فسالت الدماء ، وشعرت بآلام مبرحة. وبالمثل لو كانت الحواس تخدعنا لجاز للمرء أن يرى مكانا واسعا أزرق اللون ، فيعلم أنه بحر ، لكنه حين يقترب منه ويخوض فيه لا يشعر بابتلال جسمه، فهنا يحق للمرء أن يشك فى أن إحدى الحاستين قد خدعته: البصر (الذى أكد له أن هناك بحر) أو اللمس (الذى أنكر وجود البحر). وبالمثل إن حدث حريق فى بيت ، فدخل الرجل وسط الحريق لينقذ ابنه ، فهبت النار عليه ، واشتعلت فى ملابسه ، لكنه لم يحس بأى ألم فى جسده، ولم ير أثرا لاحتراق الجلد ، فهنا يحق للمرء أن يشك فى أنه تعرض لخداع إما من حاسة البصر أو حاسة اللمس.

وهكذا فوجود أكثر من حاسة ، واتفاقها مع بعضها فى الغالبية العظمى من الحالات يجعل الإنسان أكثر اطمئنانا إلى قدرته على معرفة العالم المحيط به.

<u>الدليل الخامس:</u>

سبق أن قلنا أن الإنسان يعرف الطبيعة من خلال عدة حواس وليس حاسة واحدة ، وهذا يُكسبه مزيدا من الدقة فى المعرفة. وإضافة إلى ذلك نقول أن **الإنسان يستقى معلوماته عن الأشياء فى الواقع من خلال طرق أخرى غير الحواس. والاعتماد على أكثر من وسيلة للمعرفة يعود علينا بدقة أكبر وأكبر.**

إن الإنسان لا يقرر أن يستخدم حواسه فقط ، ولكنه يستخدم كل ملكاته وأدواته كى يكتسب المعرفة ، وهذا يُمَكنه من تعويض النقص الذى قد يوجد فى إحدى وسائل الإدراك. على سبيل المثال ينظر المرء إلى السماء فيرى بحاسة البصر أن النجوم صغيرة ، لكن الإنسان لا يمتلك حواسا فقط ، بل يمتلك كذلك عقلا. وعقل الإنسان أخبره أن الحجم الحقيقى للنجوم أكبر من ذلك بكثير لأن قوانين البصريات (التى اكتشفها العقل) تؤكد أن الجسم كلما زاد بعده كلما بدا فى أعيننا صغيرا. وإضافة إلى ذلك تمكن الإنسان بعقله من اختراع أجهزة وآلات وسفن فضاء أكدت له أن حقيقة النجوم فى الواقع تختلف عما تتوهمه الحواس المجردة. وهكذا **تمكن العقل من تعويض النقص الذى اعترى الحواس**. وبنفس الطريقة ينظر الإنسان إلى الصخرة ، فيجزم بأنها مكونة من مادة ساكنة تماما، لكن قوانين الفيزياء التى اكتشفها العقل أخبرته أن الحجر مكون من بلايين الذرات والجسيمات الأولية التى لا تكف عن الحركة. كما ظل الإنسان لقرون طويلة يعيش وسط جيوش من البكتريا التى تدخل إلى جسده وتخرج منه فى كل لحظة إلى أن اخترع المجهر الضوئى ثم المجهر الإلكترونى ، فعلم ما كان خافيا عليه.

وهذا التقدم الكبير الذى أحرزه العقل فى اختراع وسائل المعرفة كان من المفترض أن يملأه بمزيد من الثقة والأمل فى معرفة أفضل ، لكن ما بعد الحداثة جاءت لتطل علينا بنزعة تشاؤمية، وتذرف الدمع على الإنسان الذى يبدو فى عينيها طفلا معاقا ، كتب عليه أن يحيا أبد الدهر عاجزا عن معرفة العالم.

<u>الدليل السادس:</u>

من السخافة المبالغة فى شأن الاختلافات بين الناس فى إدراك الأشياء فى العالم مثل القول بأن من الممكن لإنسان أن يرى الشيء أحمر بينما يراه إنسان آخر رماديا. هذا يسمى مرض عمى الألوان ، وهو مرض نادر ، بينما الغالبية العظمى من الناس يتفقون على ألوان الأشياء ، فكيف تأتى ما بعد

الحداثة لتحول الأمر النادر إلى أمر شامل؟ ويمكننا أن نؤكد بشكل عام أن الناس فى الغالبية العظمى من الأحوال يتفقون على الأشياء التى يدركونها ، ولو كان الأمر خلاف ذلك لحدثت عجائب، كما فى القصة التالية:

خرجت امرأة مع ابنتها لشراء بعض الاحتياجات ، فقالت الأم للبنت: سنركب تاكسى ، فأومأت الفتاة برأسها دليلا على الموافقة ، ثم أشارت الفتاة إلى دراجة لأنها رأت الدراجة على شكل تاكسى ، فنهرتها الأم ، ولكن الابنة أصرت على أنها أوقفت تاكسى ، وفى النهاية رضخت البنت مضطرة. ثم أكمل الاثنان طريقهما ، فاستمرت سلسلة المشاجرات لأن البنت أرادت أن تبدأ بشراء حذاء ، فأخذتها الأم إلى صيدلية لأنها رأت الأدوية على شكل أحذية. ولما أرادت الأم أن تدفع ثمن المشتريات أخرجت جنيهين، وأعطتهما للصيدلى الذى طالبها بمائتى جنيه ، لكن السيدة أكدت له بكل جدية أن كل ورقة فى يدها من فئة المائة جنيه. ولما اتفقت الفتاة وأمها على دخول محل ملابس طلبتا من الموظفة أن تعرض لهما ثوبا طويلا أزرق اللون ، فأتت الموظفة بفستان أخضر قصير ، فنشب شجار بين الطرفين لأن صاحبة المحل أصرت على أنها بالفعل أحضرت ما طُلب منها. ولما جاعت الأم أخذت ابنتها إلى أحد المطاعم ، وطلبت بعض المشويات ، فلما أحضروا لهما الطعام صرخت الأم فى وجه الموظف لأنها رأت أسماكا فى الأطباق ، فأقسم لها العامل أن المطعم لا يقدم أى نوع من الأسماك. ولما انتهت الأم وابنتها من هذه الجولة المرهقة دخلتا حفلا غنائيا ، فظهر على المسرح مطرب يقدم أغنية حزينة ، وكان أغلب الحاضرين متأثرين ، وبعضهم دمعت عيناه ، ولكن فجأة قام بعض الشباب يرقصون ويصفقون وكأنهم يستمعون لإحدى أغانى الأفراح ، فقامت مشاجرة لأن بعض الناس رأوا أن الأغنية حزينة ، وبعضهم رآها مرحة راقصة ، وكل منهما يقسم أنه على حق.

والآن عزيزى القارىء: هل حدث موقف كهذا أمامك من قبل؟ مستحيل. ما معنى هذا؟ معناه أن ما يتفق عليه الناس فى إدراكاتهم الحسية ومعارفهم أكبر بكثير جدا مما يختلفون عليه. إذن من قبيل السذاجة أن يبنى مفكرو ما بعد الحداثة شكهم الشامل على اختلافات نادرة بين الناس فى رؤية بعض الألوان وإدراك بعض الأشياء، مع أنهم فى الغالبية العظمى من المواقف يتفقون بشكل تام حول ما يحسون به.

****

وهكذا تجد عزيزى القارىء أن الإنسان يعرف الواقع من حوله بشكل جيد جدا. **حقا يمكن للحواس أن تخطىء فى بعض الأحيان ، لكن أخطاء الحواس بشكل عام قليلة. كما أن الإنسان يستطيع أن يعوض أخطاء بعض الحواس** بواسطة الحواس الأخرى ، ثم يعوض أخطاء الحواس فى مجموعها بواسطة الاحتكام إلى حواس الآخرين والاستعانة بالعقل وما أبدعه من علوم واختراعات.

لقد ارتكبت ما بعد الحداثة خطأ شنيعا حين نظرت حولها ، فوجدت أن الإنسان لا يقدر على المعرفة الكاملة اليقينية المطلقة ، فاستنتجت من ذلك أن عدم اليقين هو السيد الذى يسيطر على الحياة سيطرة مطلقة ، وأن الإنسان مخلوق أعمى ، أبكم ، أصم ، مجنون ، مسجون داخل جسده. **لقد حولت ما بعد الحداثة الاستثناء إلى قاعدة ، مع أن الاستثناء يجب أن يبقى فى حجمه كمجرد شذوذ عن المألوف.** وفى يوم من الأيام تمكنت السلحفاة من الفوز على الأرنب فى سباق للجرى ، فهل هذا سبب كاف كى نعلم طلبة المدارس أن السلحفاة حيوان يتمتع بقدرة على العدو تفوق قدرة الأرنب؟ طبعا لا، لأن غلبة السلحفاة للأرنب حدث استثنائى شاذ ، لا يجوز تعميمه أو تقديمه للصدارة. وحدث فى يوم من الأيام أن مجموعة من الأطفال كان يمارسون هواية الرسم ، فدخل القلم بطريق الخطأ فى عين أحد الأطفال، فأصيب بالعمى. فهل لهذا الحادث أن يجعلنا نمنع كل الأطفال من الإمساك بالأقلام نهائيا حتى لا يصابون بالعمى؟ طبعا لا ، لأن القلم نادرا ما يتسبب فى إصابة العين. كما نسمع كل عدة أشهر عن إصابة أحد الأطفال بالاختناق وهو يتناول الطعام ، فهل نستنتج من تلك الحوادث أن الطعام خطير على حياة الأطفال ، وأنهم يجب أن يتغذوا على اللبن فقط حتى سن العاشرة؟ طبعا هذا شىء مضحك لأن حدوث الاختناق بسبب الطعام أمر استثنائى شاذ ، ولا يجوز تعميمه. وقياسا على ذلك نؤكد تهافت منطق ما بعد الحداثة التى سلطت عدساتها على الشك الموجود فى العالم ، وضخمته ، ونفخت فى أثره ، وجعلته هو القاعدة ، بل جعلته القاعدة المطلقة ، مع أن الشك أمر استثنائى ، واليقين هو الغالب، أو على الأقل من الممكن ببعض الجهد جعله هو الغالب.

إننا **نكرر مرة أخرى أن الإنسان لا يعلم كل شىء فى الوجود.** الإنسان يجهل أمورا كثيرة ، فعلى سبيل المثال لا تستطيع العين أن ترى بواسطة كل الموجات الكهرومغناطيسية، باستثناء موجات الضوء. إن

موجات الضوء يتراوح طولها الموجى بين 400 و 700 نانومتر ، بينما يتراوح طول الموجات الكهرومغناطيسية بين 10^{-4} و 10^{4} متر. ولذلك فالعين لا يمكن أن ترى بالموجات الأقصر من الضوء (مثل الأشعة فوق البنفسجية وأشعة إكس وأشعة جاما والأشعة الكونية) ، ولا بالأشعة الأكثر طولا من الضوء (مثل الأشعة تحت الحمراء والميكروويف وأشعة الراديو وأشعة التلفاز).[34] وكلنا نعرف أن العين لا تستطيع رؤية الجراثيم والجزيئات والذرات والنجوم البعيدة ، وأشياء كثيرة غيرها. **ولو أنصفت ما بعد الحداثة لقالت بأن الإنسان يعلم الكثير عن الكون ، لكنه يجهل الكثير أيضا ، بيد أن ما بعد الحداثة أهملت تماما القدر الهائل الذى يعرفه البشر** ، وأنكرت القدر الرهيب من المعرفة التى يكتسبها الإنسان يوما بعد يوم بواسطة الآلات والأجهزة التى يخترعها ، وجعلت الشك هو الحاكم الذى يتربع على عرش الكون بأسره.

ثم كيف تُدخل ما بعد الحداثة الشك إلى صميم الأمور البشرية التى يدركها الإنسان بوضوح؟ إن من حق ما بعد الحداثة أن تُظهر الشك نحو طبيعة الإلكترون والفوتون ، لكن ما الداعى للشك فى الأمور الفكرية والاجتماعية والدينية التى يمكن للعقل أن يحكم عليها بكفاءة تامة مثل الشذوذ الجنسى واختلاف طبيعة المرأة عن الرجل وكون الكتاب المقدس قد تعرض للتحريف ، وأن الوثنية إهانة للعقل، وأن الهندوسية مليئة بالخرافات ، وأن الرحمة صفة حسنة ، والغرور صفة قبيحة ، وغير ذلك من آلاف الأمور التى تجزم ما بعد الحداثة باستحالة اكتساب معرفة يقينية بشأنها؟

إن من الغريب أن تتخذ ما بعد الحداثة من الأمور التى يعجز العقل عن معرفتها (مثل الجسيمات الذرية) مقدمة لإثارة الشك حول الأمور التى يجيد العقل التعامل معها كالظواهر الاجتماعية والأخلاقية والدينية. إن هذا يشبه مدرب كرة قدم قرر ألا يخوض بطولة كبرى لأنه أخفق فى العثور على مدافع ممتاز يجيد فى نفس الوقت إحراز الأهداف. هذا قطعا مدرب أبله لأن المنطقى أن يحاول الاستفادة من قدرات اللاعب الدفاعية ، ويتغاضى عن قصور مواهبه الهجومية ، **فوجود نقص فى بعض الجوانب لا يعنى أن نحجم عن الاستفادة من جوانب التفوق الأخرى.**

[34]) **Human physiology from cells to systems**. Page 197

لقد خلقنا الله ، وحرمنا من معرفة بعض الأشياء ، لكنه عز وجل ترك لنا قدرا كبيرا من العلم ، يكفى كى نتعامل مع الطبيعة، فنكتسب المنافع ، ونتجنب الأخطار. لقد مكننا العلم الإنسانى من الحصول على الطعام ، والشراب ، والدواء ، وصنع الكساء ، وبناء البيوت ، واكتشاف مكونات الطبيعة ، ومعرفة القوانين الحاكمة لها. وفى القرون الأخيرة تضخمت معارف الإنسان بمقدار آلاف المرات ، وستتقدم بدرجة أكبر فى السنوات القادمة إن شاء الله. **والمعرفة المحدودة التى منحها الله تعالى لنا تكفى تماما لاستنتاج أن الكون يحتاج إلى إله، وأن هذا الإله عظيم قادر ، وأن الرسل أشخاص صادقون ، وأن الكتب التى يحملونها ليست من جنس ما فى أيدى البشر**. وإذا آمن الإنسان بالله ، ثم آمن برسل الله، فحينئذ سيتلقى بأمان ما يخبره به الأنبياء من أمور الغيب التى تفوق حواس الإنسان ، كأمور الجن، والملائكة ، والجنة والنار ، وغيرها. إن من الصعب جدا على طالب السنة الأولى فى المرحلة الإعدادية أن يفهم بقدراته المحدودة التفاصيل الكاملة الدقيقة لنظرية النسبية لآينشتين ، لكنه إن التقى بأستاذ جامعى معروف ، فأعطاه عدة كتب فى الفيزياء ، فوثق الطالب بالأستاذ ، وأيقن أن هذه الكتب ستقوده إلى العلم الصحيح (لأنه يبدو من شكلها أنها كتب أكاديمية جادة مليئة بالمعادلات والصيغ ، ولا تشبه كتب العلم الكاذب الشعبية) ، فحينئذ سيقبل عليها ، ويصغى لدروس أستاذه ، فيصل فى النهاية إلى مبتغاه ، وكانت النقطة الحاسمة هى اختياره للأستاذ والكتاب. **إن انتقاء الأستاذ والكتاب لا يتطلب أن يعرف الطالب مسبقا كل محتوى العلم الذى سيوصله إليه كل منهما**. وهذا القرار الذى بُنى على قليل من العلم أوصل الطالب إلى قدر كبير من العلم. وبالمثل **يمكن للقدر المحدود من علم الإنسان أن يقوده إلى الإيمان بالله والرسول الحق والكتاب السماوى الحق ، وسيتوصل من خلال هؤلاء إلى معرفة الكثير عن عالم الغيب.**

لقد أصيبت ما بعد الحداثة بحَوَل شديد حين اتجهت إلى القِسم اليقينى من معرفة الإنسان ، وحكمت عليه بالإعدام ، فتركت الإنسان محروما بشكل كامل من كل معرفة ، فهى تشبه رجلا علم أن أحد أبنائه يتعاطى المخدرات ، فثار ، وأطلق الرصاص ليس فقط على هذا الابن ، بل على كل أبنائه الصالحين. هذه ليست فقط جريمة ، بل مهزلة فكرية.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

معاداة العقل والمنطق

تُجهِز آراء نيتشه على "المنطق" ، وتدمره تماما ؛ ففى رأيه أن من المستحيل على الإنسان أن يمتلك أفكارا موضوعية لأن الناس تسوقهم دائما العواطف والرغبات بطريقة لا شعورية فى الغالب. و**المنطق ليس إلا انعكاسا للطريقة التى تعمل بها عقولنا ، ولا علاقة له بالمعرفة الموضوعية أو الحقيقة.** انظر مثلا إلى قوانين الفكر الأساسية التى وضعها أرسطو ، وليكن قانون عدم التناقض الذى يقضى بأن الشيء يستحيل أن يكون (أ) و (لا أ) فى نفس الوقت ، كأن يكون زرافة ولا زرافة فى نفس الوقت: إن نيتشه يرى أن هذه القاعدة هى مجرد مسار للتفكير والاستنتاج المنطقى فى مخنا الحالى ، يناظر صراعا للدوافع التى كل منها فى ذاته غير منطقي تماما. ولذا **فالمنطق لا يعكس العالم ولا يقدم أى نوع من ضمانات الحقيقية** ، إنه فقط طريقتنا البشرية فى خلق واقع ملائم لحاجاتنا. والأسوأ من ذلك **وجود كافة أنواع الافتراضات الميتافيزيقية وراء المنطق مثل الاعتقاد أن من الممكن تعميم كل شيء ليندرج تحت مجموعات متجانسة** (كنوع الزرافة والقرد والشجر والنجوم وغيرها) ، بل إن **الشيء نفسه ليس إلا بناء نخترعه** من أجل راحتنا وعقلنا ، وبعبارة أخرى فإن **المنطق مجرد وسيلة لإعادة تنظيم أبنية خيالية من المحتمل جدا ألا يوجد مقابل لها فى الواقع ، وهى تعتمد على افتراضات ميتافيزيقية ربما تكون خاطئة.** إن كلا من المنطق والتصنيف ينشأ من حاجتنا إلى التحكم فى العالم وسيادته. وبعبارة نيتشه فإن "هذا الاتجاه السائد للتعامل مع الأشياء المتشابهة فى نفس الوقت على أنها متطابقة هو اتجاه غير منطقى (لأنه لا يوجد شيء متطابق) ، خَلق لأول مرة كل أسس المنطق". إن **فائدة المنطق التى لا يشك فيها أحد هى أنه يخدر البشر ، ويجعلهم يعتقدون أن بإمكانهم أن يستخدموه للحصول على حقائق متعالية أو علمية.** إن المنطق أداة مفيدة جدا للبقاء ، بيد أن هذا هو كل ما فى الأمر[35].

وقد أدت تلك الأفكار بنيتشه إلى تبنى النسبية أو النسبوية Relativism ؛ فإذا كان التاريخ قد أظهر لنا أنه قد وجدت توصيفات شديدة الاختلاف للكيفية التى بُنى بها العالم ، فما الضمان الذى نمتلكه بأن نموذجنا الحالى هو الصحيح؟ واعتقاد نيتشه فى النسبية يزعم بأن **من الممكن فقط وجود تفسيرات غير مكتملة، ومن المستحيل وجود حقائق مطلقة عن العالم[36].**

---

[35]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 17-19.

[36]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 21.

وقد لفت بعض النقاد النظر إلى أن كل فلاسفة ما بعد الحداثة كانوا من اليساريين ، وأنهم رفضوا المنطق لأن المنطق خزل فكرهم اليسارى ، وأن اليسار المتطرف لما ووجه بالدليل القوى والمنطق الصارم حاول الخروج من مأزقه كما يلى: (المنطق والدليل لهما طابع ذاتى ؛ **أنت حقا غير قادر على أن تثبت أى شىء ، والمشاعر أكثر عمقا من المنطق** ، ومشاعرنا تقول بالاشتراكية)[37].

إن رفض ما بعد الحداثة للعقل والمنطق أمر يدعو للسخرية حقا. إن فلاسفتهم يشبهون رجلا من أكبر أثرياء العالم ، فكر يوما فى حياته فقال: (أنا لا أمتلك كل الأموال فى العالم ، إذن أنا فقير معدم). قطعا سنسخر جميعا من **هذا الثرى المتشائم الذى يتصور أن الشخص الذى لا يمتلك كل ثروات العالم هو فقير ، مثله مثل من لا يمتلك قوت يومه!** وإن ضحكت على سذاجة تفكير هذا الثرى فعليك أن تضحك على **فلاسفة ما بعد الحداثة الذين وجدوا أن قدرة العقل على فهم العالم محدودة ، وأنه عاجز عن معرفة كل شىء ، فاستنتجوا من ذلك أن العقل محض جنون، وأن المنطق بلا أى فائدة** ، وأن المعرفة كلها مستحيلة. وقد **نسى هؤلاء الفلاسفة أن العقل هو الذى اكتشف بنفسه محدودية قدرته.**

لقد أظهرت التطورات الحديثة فى علم الفيزياء (فيزياء النسبية والكَم) أن هناك ظواهر كثيرة يتعذر على العقل فهمها ، وأن هناك مجالات يستحيل على أجهزة القياس رصدها مهما بلغ تطورها ودقتها ، لكن هذا ينطبق فقط على مجالات معينة فى الطبيعة مثل عالم ما دون الذرة والثقوب السوداء. والمفاجأة أن هذه المجالات هى مما لا يدخل فى اهتمامات ما بعد الحداثة. **وإذا كان من المتعذر على العقل أن يفهم كيف يتصرف الإلكترون أو الفوتون أو الثقب الأسود ، فما علاقة ذلك بإنكار ما بعد الحداثة لإمكان التوصل إلى معرفة الحق فى الدين والفلسفة والاجتماع والسياسة والتاريخ وغيرها من المجالات التى يجيد العقل البشرى التعامل معها؟** هل يعجز العقل عن إدراك أن الإنجيل الأصلى تعرض للتحريف، وأن بولس أدخل إلى دين عيسى ما لم يكن فيه ، وأن يسوع لم يدع إلى التثليث؟ إن تحريف الإنجيل مثلا يعرفه العقل بسهولة من خلال اطلاع المرء على النسخ الكثيرة من الأناجيل التى تختلف فيما بينها. والتثليث أيضا عقيدة حديثة لم تكن موجودة فى النسخ الأقدم من الأناجيل ، ولا فى العهد القديم. وهل من الصعب على العقل أن يدرك أن الشذوذ الجنسى والزنا يؤديان إلى تناقص المواليد ، وانقراض الأمم كما نشاهد الآن فى أوربا؟ وهل يعجز العقل عن معرفة أن الرشوة والمحسوبية يؤديان إلى فساد الأمم؟ وهل من الصعب أن يدرك العقل أن الشيوعية تَحرم الإنسان من الإبداع والنشاط والعمل، وتسوى بين المجتهد والمتكاسل؟ وهل من الصعب على العقل أن يدرك خطأ عبادة الأوثان

---

[37]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 90.

التى إن دفعها المرء بيده وقعت وانكسرت؟ وهل من الصعب على العقل أن يدرك خطأ عبادة الشيطان الذى يأمر الأم أن تقتل ابنها إرضاء لحضرته فى بيتها؟ وهل من الصعب على العقل أن يدرك أن البوذية أخطأت حين أنكرت وجود نفس خالدة ، وفى نفس الوقت أكدت أن كل إنسان يولد بعد موته على شكل جسد آخر لإنسان أو حيوان مرات ومرات Rebirth؟ وهل من الصعب على العقل أن يتبين خطأ الهندوسية التى نادت بوحدة الوجود، أى القول بأن الله والكون بما فيه من مخلوقات شىء واحد مع أنه لا أحد منا يشعر بأنه إله عالم بكل شىء وقادر على كل شىء؟

إن من الخطأ تحويل عجز العقل من حالة محدودة إلى حالة شاملة. من الحماقة مد قصور العقل فى مجالات خاصة فى الفيزياء إلى كل مجالات الحياة البشرية كالدين والفلسفة والسياسة والاجتماع حيث العقل هو الفارس الأول. ومن الحماقة إن وجدنا أحيانا شيئا من القصور لدى العقل فى هذه المجالات الأخيرة أن نعايره بالعجز ، ونحكم عليه بالإعدام ، ونطلق العنان للاعقلانية فى كل شىء ، فهذا يشبه طالبا شعر يوما أنه ضعيف فى مادة الرياضيات ، فقال بحسرة: (أنا فاشل، ولا أصلح فى التعليم) ، مع أن هذا الطالب متفوق جدا فى اللغات والعلوم الأدبية، وضعفه فى مجال محدد لا ينفى تفوقه فى مجالات آخرى.

ومن المفيد أن نضرب مثالا بالفيلسوف هَيدجر:

لقد بحث هيدجر فى مسألة الوجود والعدم ، وتساءل: ماذا عساه يكون العدم الذى أتى منه الوجود؟ هل كان من الممكن ألا يوجد الوجود؟ هل من الممكن أن يعود الوجود مرة أخرى إلى العدم؟ ووجد هيدجر أن الإنسان سيواجه بالسُخْف فى جميع الأحوال ؛ فمن ناحية إن قلنا أن الوجود بلا سبب ، فإن هذه ستكون سخافة (لا عقلانية) ، ومن ناحية أخرى إن قلنا أن الوجود له سبب ، فإن هذا السبب سيكون حتما خارج الوجود ، وهذا أيضا سخف وتناقض لأن من المفترض أنه لا يوجد شىء خارج الوجود. وهذا التناقض يثبت أن العقل عاجز. ويستنتج هيدجر أن المنطق لا يستطيع –ولا يجب– أن يقف فى طريق استكشاف هذا اللغز النهائى: لغز الوجود والعدم. ومن الواجب علينا أن نرفض تماما الفرض القائل بأن المنطق هو المحكمة العليا فى قضية الوجود والعدم. وبعبارة هيدجر: [إنْ كسَرَ هذا التناقض سيادة العقل فى مجال التحقيق عن العدم والوجود فإن مصير حكم المنطق يتم تقريره أيضا. إن عين فكرة "المنطق" تتحلل فى دوامة تساؤل أكثر أصالة.] وبعد أن حكم هيدجر على العقل والمنطق بالموت ارتأى أن المشاعر –خاصة مشاعر الملل والقلق والخوف– قادرة على أن تقودنا بشكل أعمق إلى حل

لغز الألغاز (لغز العدم) ، والحل هو: أن الوجود والعدم شىء واحد ، فالكل عدم والعدم كل ، وهذه هى العدمية الميتافيزيقية[38].

وكما ترون **فقد استنتج هيدجر من عجز العقل فى مسألة فهم الوجود والعدم أن العقل عاجز بشكل عام ، وهذا التعميم –فى رأينا– غير مشروع لأن الدقة تحتم علينا أن نقول أن العقل يعرف أشياء ، ويجهل أشياء أخرى.**

وعلى الرغم من ذلك **ففلاسفة ما بعد الحداثة كانوا أكثر تطرفا من هيدجر** لأن هيدجر كان يرى أن هناك حقيقة أو لغزا يجب البحث عنه ، لكن ما بعد الحداثة ترى أن من قبيل اللغو الكلام عن وجود حقائق أو عن لغة قادرة على التقاطها[39].

وهذه النقطة الأخيرة فى غاية الأهمية لأنها تكشف **مدى خطورة ما بعد الحداثة ، فهى لا تقول للإنسان: "أنت اليوم عاجز عن معرفة الحقيقة ، لكنك ربما تصل إليها غدا " ، ولكنها تقول له: "لا تتعب نفسك، فمهما حاولت فستظل أبد الدهر جاهلا لأنه يوجد شىء اسمه الحقيقة**".

خلاصة القول أن المسلم لا يمكن أن يقدس الإنسان ، أو يزعم أنه يمتلك علما كاملا ، فالكامل والمقدس والمعصوم هو الله وحده. وفى نفس الوقت لا يمكن للمسلم أن يقبل إعلان ما بعد الحداثة عن موت العقل والمنطق وإنكار وجود الحقيقة. **الإسلام فى الوسط ، فالإنسان يعرف الكثير مما يمكن أن يوصله إلى الله وإلى حقائق الكون الكبرى ، لكن العقل لا يمكن أن يفهم تفاصيل كل شىء فى الوجود.** ولو **كان عقل الإنسان يفهم كل شىء فى الوجود لأصبح الإنسان مساويا لله عز وجل فى علمه وعقله ، وهذا كفر ، فالكمال لله وحده** ، وسيبقى عقل الإنسان عاجزا عن فهم بعض الحقائق ، وسيصاحب هذا حتما وجود قدر قليل من الشك لدى بعض الناس من حين لآخر ، والإنسان العاقل هو الذى يضع الشك فى حجمه الحقيقى الصغير ، وفى ركن منزوٍ داخل ساحة الفكر لأن ما لدى العقل من أسباب اليقين ومسوغات الإيمان ضخم وهائل. وحتى أنبياء الله راودهم شىء من الشك ، كما حدث مع نبى الله إبراهيم عليه السلام الذى شك فى إمكان إحياء الموتى ، فلم يوبخه الله عز وجل ، بل أخذ بيده ، وأجرى له تجربه قادته إلى اليقين: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ

---

38) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 61-65

39) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 66.

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 260].

وفى مقابل هجوم مفكرى ما بعد الحداثة على العقل والمنطق وجدناهم يحتفون بالمشاعر ، ويضعونها فى مكانة أعلى من مكانة العقل. وهم متأثرون فى ذلك بجان جاك روسو المفكر الفرنسى المشهور الذى مثل فكره أول هجوم على الحداثة والتنوير. رأى روسو أن هناك علاقة عكسية بين العقل والأخلاق ، فكلما تطور العقل والثقافة والعلم والفن انحطت الأخلاق ، والعكس بالعكس. وقد كان الإنسان البدائى يحيا حياة سعيدة فاضلة ، فلما استيقظ العقل ، صنع الحضارة والتقدم الصناعى، فنشأت الصراعات ، وفسد المجتمع. وقد كان روسو مؤمنا بالله ، وكان يرى أنه بدون الإيمان بالله يفسد المجتمع. وقد **آمن روسو بالله ليس بسبب أدلة عقلية ، ولكن بسبب مشاعره الداخلية.** المشاعر هى التى جعلته يدرك أن العالم يحكمه إله قوي حكيم ذكى ، لكنها لم تمده بمعلومات تفصيلية عن طبيعة الله. **ورأى روسو أن الأدلة العقلية على وجود الله غير مجدية ، بل إنها تؤدى إلى البلبلة ، ولذا قرر روسو أن يتجاهل الفلاسفة ، ويركن إلى المشاعر كى ترشده إلى اعتقاداته الدينية ، فالمشاعر مرشد يمكن الاعتماد عليه بدرجة أكبر من العقل.** المشاعر هى النور الداخلى الذى أكد له أن وجود الله هو الأساس الذى يفسر كل شيء[40].

ورغم أن روسو كان شديد الإيمان بالله ، بل كان لديه يقين أن المجتمع يفسد حتما بدون الدين ، وأن الدولة يجب ألا تتسامح مع الكفر ، وأن الكنيسة يجب ألا تنفصل الدولة ، إلا أن **ما بعد الحداثة أهملت تماما الفكر الدينى لروسو ، وأخذت منه عداءه للعقل ، ورفعه لقيمة المشاعر** ، وذلك مثلما سبق أن أهملوا إيمان الفيلسوف كانط بالله ، وأخذوا منه قوله بقصور العقل عن معرفة الواقع.

ومن جانبنا نحن لا ننكر دور المشاعر فى الإيمان ، فالإيمان بالله مغروس فى الفطرة ، وعن أبى هريرة أن النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»[41]، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: 30] متفق عليه ، واللفظ للبخارى. بيد أن **المشاعر وحدها لا تكفى** ، ولا بد من العقل والمنطق والعلم لإثبات وجود الله. المشاعر وحدها يمكن أن تضل

---

40) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 92-97.

41) كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء أي مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها جدعاء وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ومعناه أن البهيمة تلد بهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها. (نقلا عن تعليق: محمد فؤاد عبد الباقى على صحيح مسلم. دار إحياء التراث العربى- بيروت)

الإنسان كما يمكن أن تهديه ، **وبعض الناس تقودهم مشاعرهم للحقد والحسد وممارسة السحر وعبادة الشيطان**. وسنرى كيف قادت المشاعر كثيرا من المتأثرين بما بعد الحداثة إلى الشذوذ الجنسى وعبادة الأوثان. **والعقل هو القيد الذى يمنع المشاعر من أن تنطلق كالدابة فى كل اتجاه وراء الأكل دون تفكير فى العواقب والتبعات**. باختصار الوصول إلى الله يتم بكل من العقل والمشاعر ، لكن المشاعر وحدها لا تكفى. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

دعوى نسبية المعرفة

لعلك لاحظت عزيزى القارى من خلال ما سبق أن [نظرية المعرفة التى تتبناها ما بعد الحداثة تؤكد على **النسبية والتوافقية**. بالنسبة لما بعد الحداثيون يمكن التوصل إلى **دعاوى معرفية متعددة** (علمية وشعبية) من خلال البراعة والإبداع البشرى ، فإن "**أى شىء يمضى**". والحالة المعرفية لهذه المزاعم المعرفية **تُحدَّد من خلال التوافق البشرى** ، كونها متفق عليها بشكل ذاتى متبادل. وتؤكد ما بعد الحداثة بأن **الحقيقة المطلقة** (التى استهدفها الوضعيون بشكل مضنى) **هى بلا معنى ولا يمكن تحقيقها**. بالعكس فإن حقيقة أحد الدعاوى المعرفية "نسبية" إلى حد أنها تعادل مجرد التوافق: **الحقيقة مسألة اتفاق وتفاوض وإجماع عام ، وبالتالى لا يمكن أبد أن تكون مطلقة. وبمقدار كون حقيقة كل دعوى معرفية (أو نظرية) هى دائما بالنسبة لأنصارها أو المتمسكين بها فإن من المحتمل للتشكك أن يسود... وأى نظرية** بالتالى محايدة **للملاحظة ، فهى ليست معرضة للتأييد أو الدحض بالمعلومات التجريبية**. وإضافة إلى هذا النوع من النسبية – أى من غير الممكن إظهار أن دعوى معرفية أفضل من أى دعوى أخرى (وهو ما يسمى النسبية الحكمية)– يمكن للمرء أن يجد "نسبوية معرفية" ، بمعنى أن العالم يمكن معرفته فقط من ناحية الخطاب البشرى][42].

[إن العالم مبنى اجتماعيا بشكل كامل **بواسطة العقل البشرى** أو بعبارة أخرى فإن "**العالم يقع فى عيون الناظر**"[43]... إن المرء يقابل **عالما محددا بالمفهوم أو النظرية ، عالما لا يسبق البشر زمانيا ، وربما حتى لا يوجد أو يتوقف عن الوجود إن اختار المرء ذلك بطريقة ما** (طريقة خطابية مثلا). إن **العالم**

---

[42]) **Meta-theories in research: positivism, postmodernism, and critical realism.** By Filipe J. Sousa. Advances in Business Marketing and Purchasing, Volume 16, 455–503

[43]) من ناحية أخرى سنجد أن قليلا من مفكرى ما بعد الحداثة غير راغبين فى تقرير هذه الدعوى القوية ، ويتبنون ما يسميه البعض "موقفا بنائيا اجتماعيا ضعيفا" مفترضين أن جزءا فقط من العالم (وليس كل العالم) مبنى اجتماعيا ، ويعترفون بوجود ظواهر خارج الخطاب.

"**جزء من خيال الإنسان**": التفكير المتمنى يسود (العالم هو رغبات كل واحد له) ، ومن المحتمل لذلك أن **توجد حقائق متعددة بنفس كثرة الأفكار المتاحة**.][44]

إذن ما بعد الحداثة **تنكر إمكانية المعرفة المطلقة** ، فمن وجهة نظرها أنه مهما أوتى الإنسان من حواس، ومهما امتلك من عقل ومنطق ، ومهما حاز من أجهزة ووسائل حديثة للبحث العلمى فلن يتمكن من معرفة شىء موضوعى.

إن ما بعد الحداثة تنكر أن يكون للعقل والمنطق **شرعية شاملة** ، أى **تنكر أن قوانينهما واحدة بالنسبة لأى مفكر وأى مجال من مجالات المعرفة أو تنطبق بالتساوى عليهم**. العقل والمنطق مجرد أبنية تصورية ، وبالتالى فهما **مشروعان فقط داخل التقاليد الفكرية الراسخة التى يستخدمان فيها**[45]. إن ما بعد الحداثة تنكر أن تكون التقارير الوصفية والتفسيرية للعلماء والمؤرخين من حيث المبدأ صحيحة أو كاذبة بشكل موضوعى. وهذا الرأى ينبع من رفض ما بعد الحداثة لوجود الحقيقة الطبيعية الموضوعية، وفى بعض الأحيان يعبَّر عن ذلك بالقول أنه **لا يوجد شىء اسمه "الحقيقة"**.[46]

اتهام اللغة بصنع الأوهام

ترى ما بعد الحداثة أن اللغة هى السفاح الذى لا يكف عن تشويه الواقع ، وذبحه، وامتصاص دمائه.[47] إن الإنسان يدرك الواقع بحواسه ، كأن يرى شجرة ، أو يسمع صوت قطة ، أو يحس بسخونة الطعام. وبعد ذلك يقوم المخ بتكوين تصورات أو مفاهيم مثل المفهوم العام المجرد (الخالى من أغلب التفاصيل) للقط والشجرة والكلب ، وكذلك مفاهيم أكثر تجريدا مثل الموت والطفولة والشيخوخة والصحة والجمال. وهنا يكون دور اللغة أن يستخدمها الإنسان لنقل إدراكاته وتصوراته للآخرين ، أى أن اللغة وسيط لنقل الواقع من إنسان إلى آخر. لكن ما بعد الحداثة تصر على رفض وجهة النظر هذه ، فهى تؤكد لنا أن **اللغة لا تخبرنا بالحقيقة لأنها لا تعبر عن الواقع بشكل دقيق** ، سواء كان هذا الواقع خارجيا (أى الطبيعة) أو داخليا (المشاعر النفسية). **اللغة ليست وسيلة للتعرف على العالم، ولا لمعرفة الحق من**

---

[44]) **Meta-theories in research: positivism, postmodernism, and critical realism.** By Filipe J. Sousa.

[45]) **Postmodernism**. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica.
[46]) **Postmodernism**. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica.
[47]) هذا الفصل المتعلق برأى ما بعد الحداثة فى اللغة ، وكذلك الفصل الخاص بالتفكيك يتناولان موضوعات فى غاية الأهمية. وأنصح القارىء بأن يصبر معنا ، ويحاول أن يفهم ما بهما من أفكار. لكن إن أحس أنه وصل إلى طريق مسدود ، فليترك هذه الفصلين ، ولينتقل للفصل التالى الذى يتضمن دفاعنا عن اللغة ، فهو أكثر سهولة ، وربما أمكن للقارىء أن يفهم وجهة نظر ما بعد الحداثة من خلال ردودنا عليها.

الباطل. ومن الخطأ الاعتقاد بأن كلاما ما صادق لأنه يطابق الواقع أو كاذب لأنه يخالف الواقع. ومن المستحيل تفسير النصوص لمعرفة ما إذا كانت تستخدم بشكل حرفى أو مجازى ، فاللغة توصل فقط إلى مزيد من اللغة ، ولا توصل إلى واقع غير لغوى.

ويرى نيتشه أن الفكر كله ذو طابع لغوى ، وأن **اللغة تشكل الطريقة التى يفكر بها الإنسان فى العالم،** فمثلا كان الفيلسوف كانْط يعتقد أن ما يوجد فى الطبيعة هو مجموعة من "الأحداث" وليس "الأشياء" ، ودور العقل هو أن يفهم كل مجموعة من الأحداث على أنها تمثل شيئا حقيقيا مع أن ما يوجد فى الحقيقة هو أحداث ليس إلا. وخلافا لذلك **يرى نيتشه أن "الشىء" هو نتاج للُّغة** ؛ فنحن حين نفكر فى خبرات حياتنا فإننا نصوغ الأفكار على شكل "موضوع" إضافة إلى "محمول"[48] ، وهذا التفكير اللغوى يجعلنا نظن خطأ أن العالم منقسم إلى أشياء وأحداث ، فرغم أن إحساساتنا تطلعنا فقط على سبيل المثال على وميض يبرق إلا أننا حين نفكر فى الحدث نقوم بعملية ازدواج خاطئة ، فنقول أن البرق قد أومض. وهكذا يؤكد نيتشه أن **كل الأشياء وكل النفوس هى محض خيال خلقته اللغة العامة.** وهذا الاستنتاج من أهم أسس ما بعد الحداثة. ويرى نيتشه أنه **لا سبيل للوصول إلى الحقيقة أبدا** ، وستغير المجتمعات المختلفة من وجهات نظرها من حين لآخر ، لكن يستحيل أن يصل مجتمع ما إلى صورة أدق عن العالم. **ومهما حاول الإنسان البحث عن حقيقة العالم فسيبقى عاجزا عن معرفتها** ، ولن يمتلك أكثر من رؤية ذاتية غير موضوعية. إن فكرة البحث عن الحقيقة خطيئة إنسانية[49].

إن اللغة فى رأى نيتشه تقودنا إلى الاعتقاد بوجود حقائق وهمية لا وجود لها. لا يوجد تطابق منطقى متماسك بين اللغة وبين العالم "الواقعى". اللغة يستحيل أن تكون "حرفية" ، بمعنى أنها يستحيل أن تكون قادرة على وصف واقع العالم لنا. إن مفاهيم مثل "الحقيقة" و"المعرفة" تكون بالنسبة للغة أو هى استعارية ، **ويمكنها فقط أن تقع داخل اللغة ، ولا يمكنها أن تخبرنا بشىء عن العالم.** ورؤية نيتشه المتطرفة للعلاقة بين اللغة والعالم تسبق أفكار فلاسفة ما بعد الحداثة من أمثال دريدا وفتجنشتين. وقد رأى نيتشه أيضا أن **اللغة هى اللاعب الرئيسى فى عملية مستمرة من خداع النفس.** إن الكلمات هى ما نفكر به ، **ونحن فى الغالب نفترض بشكل آلى أن هناك كيانات بالخارج تشير إليها هذه اللغة.** إن الكلمات مفيدة لنا لأن بإمكاننا أن نستخدمها لتبسيط و"تجميد" الفوضى والتعقيدات المحيطة بنا ، بيد

---

48) فى علم المنطق تتكون "القضية" من "موضوع" و "محمول". مثلا قضية (الإنسان فان) تتضمن موضوعا هو (الإنسان) ، ومحمولا هو (فان).

49) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 18-21

أن هذا هو كل ما تستطيع عمله. وقواعد النحو لن تتحكم فقط فى الطرق التى تنظم بها أفكارنا ، بل ستحدد ما نوع الأفكار التى من الممكن لنا أن نمتلكها. وبناء على ذلك فتفكيرنا بقاعدة النحو "الموضوع–المحمول" يعنى أننا نفرض على العالم إطار الذات–الموضوع ، وهذا يشجعنا على الاعتقاد –على سبيل المثال– أن **هناك ذات أو "أنا" توجد بشكل ما ككيان ديكارتى متعال بداخلنا ، ومنفصل عن وجودنا المادى**[50].

وطبقا لمنهج التفكيك – وهو أحد أكبر الأعمدة الفكرية لما بعد الحداثة– فإن اللغة أكثر غموضا ووعورة مما نظن[51]. كيف؟

يمكن لنفس الجملة أن تشير إلى معان مختلفة ، على سبيل المثال بمجرد قيام الشخص بالتأكيد الصوتى والضغط على كلمة معينة من كلمات الجملة فإن ذلك ينتج عنه معنى مختلف مقارنة بالمعنى الذى ينتج من الضغط على كلمة أخرى. لقد كانت الفلسفة البنيوية تخبرنا أن الكلمات هى إشارات Signs لغوية ، والإشارة تشبه العملة ذات الوجهين ، فهى تتكون من دال Signifier ومدلول Signified. والدال هو صوت الكلمة وصورتها، أما المدلول فهو المفهوم الذى يشير إليه الدال. مثلا إن نطقنا بكلمة (وردى) فإن الدال هنا هو صوت وشكل أحرف الواو والراء والدال والياء ، والمدلول هو الصورة الذهنية للون الوردى فى عقولنا ، بيد أن **كل إنسان سيكون لديه صورة ذهنية مختلفة عن اللون الوردى لأن لهذا اللون درجات مختلفة**. إذن **الدال الواحد ولَّدَ أكثر من مدلول.**

ويمكننا أن نضرب مثالا آخر بشخص يقف فى صحراء خالية ، لا تحتوى إلا على شجرة واحدة ، فإن قال الشخص: "هذه الشجرة كبيرة" ، فإن هذه الجملة يبدو لأول وهلة أنها تشير إلى معنى وحيد محدد هو أن هناك شجرة واحدة ، وأنها كبيرة الحجم. لكن بمزيد من التفكير يكتشف المرء أن هذه الجملة تحمل معان كثيرة: هل قائل هذه الجملة يقارن حجم الشجرة بحجمه هو أم بحجم شجرة أخرى؟ وما هذه الشجرة الأخرى؟ وهل قالها لأنه دهش بحجم الشجرة ، أم أنه كان يخبرنا فقط بكبر حجمها؟ ثم لماذا قال لنا هذه الملعومة: هل لأننا كنا نتعلم اللغة العربية ، أم أنه كان يقولها بسخرية؟ ولماذا كان يسخر ؟ وهكذا يتجلى لنا كيف أن **ما يتفوه به الإنسان نادرا ما يكون واضحا وبسيطا** كما تدل على ذلك الصيغة البنيوية: (الإشارة = الدال+ المدلول). وكما رأينا فإن **أى دال قد يشير إلى أى عدد من المدلولات فى**

---

[50]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 16-17.

[51]) الكلام التالى عن موقف التفكيك من اللغة مستمد من مرجع:

Critical theory today a user-friendly guide. By Lois Tyson. Page 250-257. Second edition. Routledge. Taylor & Francis Group. New York, London. 2006.

أى لحظة من اللحظات. ورغم أن السياق فى الغالب يعيننا على تقليل مدى المدلولات المحتملة لبعض الدوال إلا أنه فى نفس الوقت يزيد من مدى المدلولات لدوال أخرى ، ولذا **فالتواصل عملية معقدة وغير يقينية**. وعند هذه النقطة يمكننا – طبقا للتفكيك– أن نعيد كتابة الصيغة البنيوية كما يلى: (الإشارة = الدال + مدلول...+ مدلول). إذن يمكننا أن نحاول تفسير التواصل على أنه تراكم منزلق للمدلولات.

لكن ما معنى مصطلح "مدلول"؟ إن كان الدال هو "شجرة" فإن المدلول يجب أن يكون هو الشجرة التى نتصورها فى خيالنا كما يقول البنيويون. لكن ماذا نفهم بواسطة هذه الشجرة المتخيلة؟ مم يتكون مفهومنا عن الشجرة؟ إن مفهومنا عن الشجرة يتكون من كل سلاسل الدوال التى ارتبطت على مدار حياتنا بالشجرة مثل الظل ، والتنزه ، والزراعة ، والتسلق ، والسقوط ، وكسر عظمة الترقوة ، وغيرها. **وما تسميه البنيوية بالمدلول هو فى الحقيقة دائما سلسلة من الدوال.** إذن طبقا للتفكيك فإن **كلمة "شجرة" لا تصل أبدا إلى نقطة تشير فيها إلى مفهوم أو مدلول.** الدال الذى أنطق به يشير إلى سلاسل من الدوال فى ذهنى ، ويستثير سلاسل من الدوال فى ذهن الشخص الذى يسمع كلامى. وكل دال فى هذه السلاسل هو نفسه يتكون من سلسلة أخرى من الدوال ، وهكذا. وعلى ذلك فإن **اللغة بالنسبة للتفكيك لا تتكون من اتحاد الدوال والمدلولات ، بل تتكون فقط من سلاسل من الدوال.**

لقد كانت البنيوية تقول أن اللغة لا تشير إلى أشياء فى العالم بل تشير فقط إلى تصوراتنا عن الأشياء فى العالم. والتفكيك ينقل هذه الفكرة خطوة أبعد بكثير إذ يزعم أن **اللغة لا تشير إلى شىء، فهى لا تشير إلى أشياء فى العالم ولا إلى تصورات عن الأشياء ، ولكن تشير فقط إلى لعبة الدوال التى تتكون منها اللغة نفسها.** التفكيك إذن يقدم لنا رؤية متطرفة للنشاط الفكرى. إن حياتنا العقلية لا تتكون من تصورات (معانى صلبة مستقرة) ، بل تتكون من لعبة عابرة ومتغيرة باستمرار من الدوال. وهذه الدوال قد تبدو كتصورات مستقرة ، لكنها لا تعمل بطريقة مستقرة فى أذهاننا. إن كل دال يتكون من – ويُنتج– دوال أكثر **فى تأجيل لا ينتهى للمعنى. إننا ننشد معنى صلبا ومستقرا ، لكن لن نستطيع أبدا أن نجده لأننا لا نستطيع أن نتجاوز لعبة الدوال التى هى اللغة.** وبكلمات دريدا فإن ما نعتبره "المعنى" هو فى الواقع مجرد أثر ذهني بقى بواسطة لعبة الدوال. وهذا الأثر يتكون من الاختلافات التى بواسطتها نعرف الكلمة. **إن المعنى يسكن فى الكلمات فقط عندما نميز اختلافها عن الكلمات الأخرى.** مثلا لو كنا نعتقد أن كل الأشياء لها نفس اللون فإننا لن نحتاج إلى كلمة أحمر أو أخضر أو أزرق على الإطلاق. **الأحمر هو أحمر فقط لأننا نعتقد أنه مختلف عن الأخضر والأزرق ، ولأننا نعتقد أن اللون يختلف عن الشكل. إذن كلمة (أحمر) تحمل معها آثارا لكل الدوال التى ليست هى.** ملخص ما سبق

أن دريدا يجادل بأن اللغة لها خاصيتان: 1– تلاعبها بالدوال **يؤجل باستمرار المعنى** 2– **المعنى الذى يبدو أن اللغة تملكه هو نتاج الاختلافات** التى بواسطتها نميز أحد الدوال عن الآخر. وقد ربط دريدا بين كلمتين فرنسيتين بمعنى "**يؤجل**" و "**يختلف**" ليصك مصطلح *différance*.

وتعبر شارون كرولى عن منهج دريدا موضحة أن دريدا قد اخترع كلمة *différance* - التى تعنى كلا من الاختلاف والتأجيل– كى يشير إلى أن أساس المعرفة البشرية لا ينشأ من الهوية الذاتية والحضور والتشابه ، بل ينشأ من الاختلاف والغياب. انظر مثلا إلى حرف من حروف الأبجدية مثل (التاء): إن هذا الحرف له وجود ومعنى فقط بما له من اختلاف عن بقية الأحرف كالياء والباء. وبالمثل فإن كل كلمة من الكلمات تمتلك معنى لمجرد أنها عضو فى سلسلة من كلمات اللغة يختلف عن بقية الأعضاء، فمثلا كلمة (ذلك) لها معنى لأنها تختلف عن كلمة (ثم) وكلمة (الذى) ، وبقية الكلمات. إننا نعين معنى لإحدى الكلمات فقط لأننا نستطيع أن نرى ونسمع أن حروفها تختلف عن الكلمات الأخرى.
<u>وهذا النموذج لا يسرى فقط على اللغة ، ولكنه ينطبق على كل المعرفة البشرية ، بمعنى أن من الممكن لنا معرفة أى شىء فقط لأن معرفتنا له تختلف عن معرفتنا بالأشياء الأخرى التى يرتبط بها بالسياق.</u> وإن بدأنا نفكر بهذه الطريقة فإننا سندرك أن **المعرفة متحركة (ديناميكية) وتعتمد على السياق.** ونحن نرى –كما يقول فنسينت ليتش– فى مجال المعرفة أن كل شىء يتم تكوينه فى وقت معين بواسطة واحد أو أكثر من الناس. بعض الأشياء يتم تضمينها ، والبعض الآخر يتم استبعاده ، والبعض يتم تهميشه. الحدود يتم صنعها ، بمعنى أن ما تعرفه ثقافة معينة فى وقت معين هو بالكامل تاريخى وحتى خيالى ، بمعنى أنه يكتب وينقش بواسطة الثقافة ومن خلالها. وفضلا عن ذلك فإن تلك المعرفة تتغير عبر الزمان والمكان ، فحدودها تتغير لتشمل معرفة جديدة ؛ وما تم تهميشه يصبح مركزيا، ويتم إعادة تعريف العلاقة بين أجزاء بنيته الداخلية. وهذا يعنى أنه من أحد الجوانب فإن التعليم عملية متحركة ليس لها بداية مميزة ولا نهاية. وما تعرفه إحدى الثقافات أو أحد الأفراد فى أى لحظة معينة هو ممكن فقط لأن شكله يختلف – ورغم ذلك يعتمد على – ما سبقه.

إن **المعرفة لها علاقة بالسياق** ، فمثلا إن قرأتُ فى فلسفة أرسطو ، ثم قرأت بعدها فى فلسفة دريدا ، فحين أعود مرة أخرى إلى فلسفة أرسطو فإننى حتما سأقرؤها بشكل مختلف تماما على ضوء انتقادات دريدا لها. وأيضا إن قرأت فلسفة دريدا مرة ، ثم حاولت فى مرة أخرى أن أعيد قراءتها بغية فهمها بشكل أفضل فإننى حتما سأفهمها فى المرة الثانية بشكل مختلف. إذن المعرفة لها علاقة ضرورية بالسياق ، بمعنى أن من غير الممكن معرفة موضوع مدرك إن تمت دراسته فى عزلة عن النظام الذى يمنحه

معناه ، أى عن الأشياء التى تتصل به وتختلف عنه فى الزمان والمكان. وهذا الجانب السياقى للبحث يمثل مشكلة يألفها جيدا كتاب التاريخ: من أين نبدأ ومن أين ننتهى حين نشرع فى كتابة تاريخ إحدى الحوادث ، وليكن مثلا الحرب الأهلية الأمريكية؟ هل نبدأ مع أول طلقة رصاص؟ مع انفصال بعض الولايات؟ مع بدء الرق؟ وبالمثل أين ننتهى؟ وكذلك هل يقتصر سرد التاريخ على ما جرى داخل الولايات المتحدة أم يمتد ليشمل الدول الأخرى التى تدخلت فى الحرب؟ باختصار: **الأمل فى إمكانية عزل الموضوعات والأحداث عن سياقها وفى إمكانية رسم حدود حولها هو مجرد خيال ميتافيزيقى.**

لكن **النتيجة الأكثر تطرفا للتسامح مع فكرة الاختلاف هى أنها تقوض الأمل الميتافيزيقى فى العثور على ما يسميه دريدا "المدلول المتعالى"**. لقد حاولت ميتافيزيقا الحضور أن تتجاهل أو توقف حركة الاختلاف كى تعثر على مكان مستقر كى تقف خارجه أو فوقه لفحص المجالات المادية والعقلية من وجهة نظر أرضية ما صلبة وغير زمنية. **وقد تم طرح عدد من المرشحين للعب دور تلك الأرضيات المتعالية فى الثقافة الغربية** من قبيل: مُثل أفلاطون ، والإله اليهودى المسيحى ، والواقع التجريبى ، والذات الظاهراتية ، والبنى العميقة لتشوميسكى. **إن المشتغلين بالميتافيزيقا يريدون باختصار تأسيس مدلول أو معنى أو ماهية يمكنها بطريقة ما أن تقف خارج حركة الاختلاف وتعلو عليها وتتجاوزها وتغزوها.** وأتباع المذهب التجريبى على سبيل المثال يفترضون أن الدليل الذى تأتى به حواس البصر والتذوق وغيرها من الحواس يستند على مصدر نقى للمعلومات عن العالم يمكن الوثوق به بشكل كامل، وبالتالى هم يتتبعون مصدر المعنى فى النهاية إلى الأحداث العصبية التى يعتبرونها مؤسسية[52].

ويقول جوناثان كلر: [إن دريدا يؤكد أنه **ليس ثمة شىء يكون حاضرا ببساطة ، وكل ما نعتبره حاضرا فإنه يعتمد لتحديد هويته على اختلافات وعلاقات لا يمكن أن تكون حاضرة** ، ولكن كون الاختلافات ليست حاضرة لا يعنى أنها غائبة ، ويبلغ من تشبع لغتنا بميتافيزيقا الحضور أنها لا تعطينا إلا هذا البديل فيما يبدو: إما أن يكون الشىء حاضرا أو غائبا. ونحن نميل إلى اعتبار أن ما ندعوه معنى كلمة من الكلمات يعتمد على كونها استعملت من قبل متكلمين فى مناسبات مختلفة بنية التعبير عن هذا المعنى أو نقله ، ولذا فإننا قد نود القول بإن ما يُدعى بشكل عام ببنية اللغة – النظام العام لقواعدها وما يطرد فيها– مستمد من الأحداث ، ويتحدد بموجبها ، أى بأفعال الاتصال. ولكننا لو أخذنا هذه الفكرة مأخذ الجد وبدأنا بالبحث عن الأحداث التى يقال أنها تحدد البينات لوجدنا أن كل حدث من هذه

---

[52]) **A Teacher's Introduction to Deconstruction**. By Sharon Crowley. Northern Arizona University. Page 9-11. NCTE Teacher's Introduction Series. National Council of Teachers of English. USA. 1989.

الأحداث قد حددته بنيات سابقة ، وجعلته ممكنا. فإمكان أن نعنى شيئا بألفاظ أمر منوط ببنية اللغة قبل النطق بها. لا شك أن البنى هى أيضا دائما منتوجات ، ولكن مهما عدنا إلى الخلف، وحتى عندما نفكر بمولد اللغة نفسها ، ونحاول أن نصنف حادثة بدأت معها أول بنية فإننا نكتشف أننا لا بد أن نفترض تنظيما سابقا وتمييزا سابقا بين مختلفات ، **ولن يستطيع إنسان الكهوف أن ينجح فى ابتكار اللغة بجعله همهمة ما تعنى شيئا مثل "الطعام" إلا إذا افترضنا أن هذه الهمهمة تختلف عن همهمات أخرى ، أو يمكن تمييزها عنها ، وأن العالم كان قد انقسم فعلا إلى صنفى الطعام واللاطعام. إن الدلالة تعتمد دائما على الاختلاف: على المقابلة ، مثلا بين الطعام واللاطعام** ، وهى المقابلة التى تجعل من الممكن الدلالة على الطعام. وعندما نفكر لا بالمفاهيم بل بدوال لغة من اللغات فإننا نجد أن المبدأ نفسه يصح. **فسلسلة الأصوات "بات" مثلا لا يمكنها أداء وظيفتها باعتبارها رمزا إلا لأنها تختلف عن "ذات ، وفات ، ومات ، وقات ، وباد ، وبوت ، إلخ". فالصوت الذى نحدثه عندما نلفظ كلمة "بات" تضم فى ثناياها آثارا من هذه الرموز الأخرى التى لم نلفظها. إن ما هو حاضر هو ذاته معقد ويعتمد على سلسلة من الاختلافات**. وقد توسع دريدا حول هذا الموضوع فى "مواقف" فقال: (إن تفاعل الاختلافات يستتبع تراكيب وإحالات تمنع من وجود عنصر بسيط فى أى لحظة من اللحظات أو أى شكل من الأشكال يكون حاضرا بذاته **ولا يحيل إلا إلى نفسه**. وسواء فى الخطاب المكتوب أو المحكى فإنه **ليس ثمة من عنصر يمكنه أن يكون رمزا دون الاتصال بعنصر آخر هو أيضا ليس حاضرا ببساطة**. وهذا الاتصال معناه أن كل عنصر – فونيم أو غرافيم– يتشكل بالإشارة إلى ما فيه من أثر من عناصر أخرى من السلسلة أو النظام. ولا شىء من العناصر أو النظام يكون حاضرا أو غائبا ببساطة). إن الأحداث الدالة تعتمد على الاختلافات ، ولكن هذه الاختلافات هى نفسها نتاج أحداث. وعندما يركز المرء على الاختلافات فإنه يدرك اعتمادها على أحداث سابقة ، وبوسع المرء أن ينتقل جيئة وذهابا بين هذه المنظورين اللذين لا يؤديان إلى وحدة ، فكل منهما يظهر خطأ الآخر فى جدلية لا حل لها. ودريدا يدعو هذا التنقل Différance[53].]

إن التفكيك يعتقد أن **اللغة هى ما يُكوننا ، ولا توجد طريقة لتجاوز اللغة** ، وتجاوز لعبة الدوال. إننا نفكر ونرى ونشعر داخل اللغة التى ولدنا فيها. **إن الطريقة التى نفكر بها ونفهم بها أنفسنا والعالم تحكمها اللغة التى تعلمناها**. اللغة تتوسط خبرتنا عن أنفسنا وعن العالم. وبالنسبة للتفكيك فاللغة بشكل كلى عقائدية. إننا ندرك العالم (وندرك أنفسنا) ونتصوره من خلال اللغة. اللغة هى الأساس الذى تتولد

[53]) **البنيوية وما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا**. تحرير جون ستروك. ترجمة دكتور محمد عصفور. الفصل الخامس: جاك دريدا. بقلم جوناثان كلر. صفحة 207. سلسلة عالم المعرفة 206. فبراير 1996م.

منه خبرتنا ومعرفتنا بالعالم. ومنذ فجر الفلسفة وحتى الآن سنجد أن **كل نظرية فلسفية مشتقة من مبدأ مؤسِّس** نعتقد أن بإمكاننا أن نتبين من خلاله معنى الوجود. مثلا بالنسبة لأفلاطون فإن المبدأ المؤسس هو المُثُل المجردة ، وبالنسبة لديكارت المبدأ المؤسس هو التفكير العقلانى. وبالنسبة للبنيويين فإن اللغة والخبرات البشرية تتولد بواسطة البنى الفطرية للوعى البشرى. ورغم أن هذه المبادىء المؤسِّسة تنتج فهمنا للعالم المتحرك والمتطور وللنفس المتحركة والمتطورة فإن هذه المبادىء نفسها تبقى مستقرة بلا تطور . وكل هذه الفلسفات ابتليت فى رأى دريدا **بمركزية الكلمة** Logocentrism لأنها تضع فى مركز فهمها للعالم **تصورا (كلمة– لوغوس) ينظم لنا العالم ويفسره ، لكنه يبقى خارج العالم الذى ينظمه ويفسره**. وهذا من وجهة نظر دريدا هو الوهم الأعظم للفلسفة الغربية لأن **كل مبدأ مؤسِّس هو فى ذاته تصور بشرى ، وبالتالى نتاج للغة البشرية ، فكيف يبقى هو خارج غموض اللغة؟** كيف يتسنى لأى مبدأ أن يبقى خارج عمليات اللغة المتحركة المتطورة المتشبعة بالعقائدية التى أنتجته؟ بالنسبة لدريدا الإجابة هى أنه **لا يوجد أى تصور يتجاوز عدم الاستقرار الحركى للغة التى تبث عددا لا نهائيا من المعانى الممكنة مع كل كلمة منطوقة أو مكتوبة**. إذن بالنسبة للتفكيك فإن اللغة هى أساس الكينونة ، لكن الأساس ليس خارج اللعبة ، فهو نفسه متحرك ومتطور ومتشبع بالعقائدية. ولهذا السبب **لا يوجد مركز لفهمنا للوجود. يوجد بدلا من ذلك عدد لا نهائي من وجهات النظر** ، وكل من وجهات النظر هذه لها لغتها الخاصة التى يسميها التفكيك خطابا. مثلا هناك خطاب الفيزياء الحديثة ، وخطاب الأصولية المسيحية ، وخطاب تعليم الفن الليبرالى فى التسعينيات من القرن العشرين ، وهكذا. لقد أزال دريدا مركز الفلسفة الغربية كما أزال كوبرنيكوس الأرض من مركز الكون فى القرن السابع عشر حين أكد أن الكون لا يدور حولها. **اللغة لم تعد نتاج خبرتنا بل أصبحت الإطار الفكرى الذى يخلق خبرتنا**. وقد كان البنيويون من أوائل من نادوا بأن اللغة التى نتكلمها هى التى تبنى نظرتنا للعالم ، لكنهم اعتقدوا أن اللغة تتولد بواسطة البنى الفطرية المستقرة للوعى البشرى[54].

إن من غير الممكن الخروج من اللغة. اللغة نظام داخلى يشير إلى ذاته ، **ولا توجد وسيلة لأن نصبح خارجها**...لا يوجد معيار غير لغوى على علاقة باللغة ، **لذا لا يمكن وجود معيار يمكن بواسطته التمييز بين الحقيقى والمجازى ، الصحيح والكاذب**. ولذلك فالتفكيك من حيث المبدأ عميلة لا تنتهى. وتفسير النصوص لا ينتهى حتى باعتقادات واهتمامات "ذاتية" (ذاتية بمعنى غير موضوعية) ، فالتمييز بين الذات والموضوع تنكره ما بعد الحداثة. إن اعتقادات الشخص واهتماماته هى فى ذاتها أبنية اجتماعية– لغوية ، وبالتالى **فإماطة اللثام عن قطعة من اللغة لكشف اهتمام ذاتى تحتها يعنى فقط**

[54]) **Critical theory today a user-friendly guide**. Page 250-257.

الكشف عن مزيد من اللغة. ويمكن لتلك اللغة بدورها أن يماط اللثام عنها لتكشف عن مزيد من اللغة، وهكذا. إن اللغة هى أقنعة على طول الطريق[55].

التفكيك

التفكيك Deconstruction واحد من أهم مصطلحات ما بعد الحداثة. والتفكيك – كما يدل اسمه– **هو عملية تخريب للنصوص والنظريات والأفكار**. ولكن ما العيب فى أن ننتقد نظرية ، أو نهاجم نصا ونثبت تهافته وتناقضه؟ أليس هذا هو ما يجب أن يفعله كل عاقل أمام فكر يرى أنه يجانب الصواب؟ بلى ، لكن **خطورة التفكيك أنه لا يهدم نظرية كى ينتصر لنظرية أخرى ، بل يخرب كل شىء ، ويدمر كل الأفكار ، ويحطم كل النظريات**. التفكيك يشبه تفاعلا متسلسلا داخل قنبلة نووية لا تَنجُ منه ولو نواة ذرة واحدة. التفكيك منهج شيطانى يفسد كل جميل ، ويجعل الإنسان يعتقد أن التناقض يضرب فى جذور كل ما يقرأ ويسمع. **التفكيك يبيد كافة المفكرين مهما علت قاماتهم**. التفكيك يؤكد أن **الشىء الذى ينبرى أى مفكر لإثباته هو عكس ما يقول ، بل إن كلامه لا يدل على شىء محدد** ، فكأننا أمام رجل يقول أنه يهيم حبا باللحم المشوى ، فنقول له: "أنت فى الحقيقة لا تحب اللحم المشوى ، بل تحب القلقاس أكثر من اللحم ، بل أنت لا تحب أحدهما أكثر من الآخر!" ، مع أن كل من يعرف هذا الرجل يدرك جيدا أنه مجنون بأكل اللحم المشوى ، ويكره مجرد رائحة القلقاس.

ومنهج التفكيك يرجع إلى الفيلسوف الفرنسى اليهودى الشهير جاك دريدا. لقد رفض دريدا هدف الفلسفة البنيوية التى كانت تحاول الوصول إلى **بنية موضوعية محددة بوضوح قادرة على تفسير النص** ، وأكد بدلا من ذلك أن **بنية النص فى النهاية تتفكك ، لتعطى ليس معنى واحدا محددا ، بل عددا لا نهائيا من المعانى المختلفة**[56].

ولكى نفهم التفكيك فلا بد أن نعود إلى البنيوية. بالنسبة للبنيوية فإن العالم يتكون من مستويين أساسيين: الأول مستوى منظور ، ويشمل الأشياء والنشاطات والسلوكيات فى الحياة اليومية. والمستوى الثانى مستوى غير منظور ، وهو يتكون من بُنى Structures **تقوم بتنظيم كل هذه الظواهر المنظورة كى يمكننا فهمها**. وبدون هذه البنى ستصبح المعلومات التى ترد إلينا من الحواس الخمس بلا معنى ، وسيصبح العالم فوضى تامة. وهذه البنى ليس لها وجود فى العالم الطبيعى ، ولكنها أطر تصورية تأتى

---

[55]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 175-176

[56]) **Biblical Criticism and the Challenge of Postmodernism.** By Terence J. Keegan. *Biblical Interpretation* 1995; 3 (1): 1-14. DOI: https://doi.org/10.1163/156851595X00014

من العقل البشرى الذى يسقطها على العالم. وعلى ذلك **فهدف البنوية هو محاولة اكتشاف البنى الموجودة تحت الظواهر المنظورة فى مختلف المجالات كاللغة والأدب وأنثروبولوجيا وعلم الأحياء وعلم النفس والدين الرياضيات**. والبنية لا تتكون من مجرد تجميع لعناصر مستقلة. العناصر فى البنية تكون وحدة عاملة لأن هذه العناصر توجد فى علاقات مع بعضها البعض. إنها تتفاعل. ونحن قادرون على إدراك هذه العناصر فقط **بسبب اختلاف كل منها عن الآخر**. والاختلاف يعنى ببساطة أن قدرتنا على التعرف على كيان ما (كشيء أو مفهوم أو صوت) يعتمد على الاختلاف الذى ندركه بينه وبين الكيانات الأخرى. وطبقا للبنوية فإن **العقل البشرى يدرك الاختلاف بطريقة أكثر سهولة على شكل تقابلات أو تناقضات ، يسمينها البنيويون "المقابلات الثنائية"**. والمقابلة الثنائية تتكون من فكرتين متضادتين بشكل مباشر ، نفهم كلا منهما بواسطة تضادها مع الأخرى. على سبيل المثال نحن نفهم الأعلى على أنه مضادة للأسفل ، ونفهم الأنثى على أنها مضادة للذكر ، والخير على أنه مضاد للشر ، والأبيض على أنه مضاد للأسود[57].

وقد استلهمت البنيوية نظريتها هذه من أعمال عالم اللغويات السويسرى فرديناد دى سوسير الذى قال بأن الكلمات لا تشير ببساطة إلى أشياء تمثلها فى العالم الخارجى. الكلمات بدلا من ذلك هى إشارات لغوية، والإشارة تشبه العملة ذات الوجهين ، فهى تتكون من دال ومدلول. والدال هو صوت الكلمة وصورتها، والمدلول هو المفهوم الذى يشير إليه الدال. وعلى ذلك فالكلمة ليست صوتا وصورة فقط ، وليست مفهوما فقط ، ولكنها الاثنان معا وقد ارتبطا. وإضافة إلى ذلك فالعلاقة بين الدال والمدلول عشوائية ، فلا توجد ضرورة تحتم علينا أن نسمى الشجرة "شجرة" بالعربية أو "Tree" بالإنجليزية أو "Arbre" بالفرنسية ، ولكن توافق المجتمع هو الذى يربط الدال بالمدلول. إذن **الدال (صوت الكلمة وصورتها) لا يشير إلى شيء موجود فى العالم الخارجى بل يشير إلى مفهوم فى ذهننا** ، وهذه النقطة حاسمة بالنسبة للبنيوية التى ترى أننا **لا "نكتشف" العالم بل "نخلقه" طبقا للبنى الفطرية الموجودة داخل العقل البشرى.**

وإذا ذهبنا إلى التفكيك لوجدنا أنه يقوم بتحليل **المعنى الحرفى للنص** كى يكتشف داخل هذا المعنى– وربما فى الزوايا المهملة للنص (بما فى ذلك الحواشى) – **مشاكل داخلية تشير فى الواقع إلى معانى بديلة** ، فيفتح باب النص أمام معانى أخرى ، **تكون فى الغالب مكبوتة** ، وتقع على الأقل جزئيا خارج التقليد الميتافيزيقى. إن كل عناصر التدخل التفكيكى تقع فى "أحجار الزاوية المهملة" لنسق موجود

[57]) **Critical theory today a user-friendly guide**. Page 209-214.

بالفعل ، سواء كان هذا النسق هو الميتافيزيقا بوجه عام أو كتابات مفكر معين (والتى يجب أن تشهد لما تحاول أن تستبعده). ويجادل دريدا على سبيل المثال بأن نقده للحظة "الآن" فى فلسفة هوسيرل يعتمد على مصادر داخل كتابات هوسيرل نفسه ، تقوم بحذف الحضور الذاتى الذى كان يحاول هوسيرل أن يؤَمِّنه ، أى أن **فلسفة هوسيرل تحمل فى أحشائها نتائج أخفق هوسيرل نفسه فى التعرف عليها**. إن التفكيك يؤكد أنه **فى أى نص يوجد حتما نقاط غموض أو ميوعة أو عدم تحديد ، وهذه تخون أى معنى مستقر قد يحاول المؤلف فرضه على نصه**. وتظهر عملية الكتابة دائما أن ما تم قمعه وكبته يغطى على ما تم كشفه ، وبشكل عام **يخرق نفس القضايا التى يُعتقد أنه يؤيدها**. إذن التفكيك – كما يدل اسمه– هو عملية تخريب بالمعنى الحرفى ، فهو يهدف إلى كشف – ثم تخريب– التقابلات المزدوجة المختلفة التى تؤيد طرقنا السائدة فى التفكير. والجانب الفلسفى للتفكيك يتعلق بما يعرف بميتافيزيقا الحضور[58] أو الميتافيزيقا ببساطة. فمنذ عهد أفلاطون حتى الآن تقوم الميتافيزيقا – كما يرى دريدا– بخلق **تقابلات مزدوجة تتخذ شكل أبنية هرمية، يتم فيها إعلاء قيمة طرف على حساب طرف آخر** ؛ فالكلام يأتى قبل الكتابة ، والحضور قبل الغياب ، والخير قبل الشر ، والإيجابى قبل السلبى ، والنقى قبل الدنس ، والبسيط قبل المعقد، والجوهرى قبل العارض ، وهكذا. **وإضافة إلى ذلك فإن الفلسفة تقوم دائما بمنح ميزة لأحد طرفى التقابل ، وتتجاهل أو تهمش الطرف الآخر** ، مثل منح الأولوية للحضور على الغياب ، وللبساطة على التعقيد. ودور التفكيك يتم فى خطوتين: **الخطوة الأولى هى قلب التقابل** ، أى إثبات أن الطرف الأدنى فى التقابل هو الأعلى. ولكن التفكيك لا يقنع بذلك ، بل يتخذ **الخطوة الثانية المتمثلة فى إفساد وتدمير التقابل ذاته**[59].

إن ما فعله دريدا من إعادة تفكيكية للترتيب هو تدخلات استراتيجية لا تمهد لقيام علم جديد ، بل تمارس ضغطا على نظام من المفاهيم ، وتخل به ، **لتجعل مسلماته وأوجه قصوره بادية للعيان**. وتركز قراءات دريدا فى العادة على مصطلحات لا يوليها الشراح أى أهمية ، ولكنها تكشف من طريقة عملها المزدوجة على **منطق إشكالى ، يتجاوز حدود النظام الصريح فى النص ويقوضه**.[60] ومن هنا يصبح التفكيك نشاطا تؤديه النصوص التى يجب أن تُقر فى النهاية باشتراكها الجزئى فى جريمة ذلك الذى تنكره[61].

---

58) مصطلح ميتافيزيقا الحضور الذى يستخدمه دريدا بكثرة مستعار من أعمال الفيلسوف هيدجر الذى كان يصر على أن الفلسفة الغربية قامت باستمرار بمنح ميزة لما هو كائن أو ما هو ظاهر ، ونسيت الانتباه إلى شرط هذا الظهور. وبعبارة أخرى فإن الحضور نفسه يُمنح ميزة وليس ذلك الذى يسمح للحضور أن يكون ممكنا أو غير ممكن.

59) **Jacques Derrida**. By Jack Reynolds. Internet Encyclopedia of Philosophy. ISSN 2161-0002. https://www.iep.utm.edu/derrida/ ; accessed June 1, 2020.

60) **البنيوية وما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا**. صفحة 234.

61) **التفكيكية النظرية والممارسة**. تأليف كريستوفر نوريس. ترجمة دكتور صبرى محمد حسن. صفحة 115. دار المريخ للنشر. الرياض- السعودية. 1989م

والوجبة الدائمة للتفكيك هى هذه المقابلات المزدوجة ، **وبدون هذا الترتيب الهرمى لن يجد التفكيك ما يفعله ، فالتفكيك فلسفة طفيلية** ، إذ أنها **لا تقدم لنا رواية كبرى عن طبيعة العالم** (كبقية الأديان والمذاهب الفلسفية) ، ولكنها تقصر عملها على تحليل الروايات الكبرى أو النظريات الموجودة بالفعل كى تكشف ما تخفيه من مقابلات مزدوجة هرمية ، لكى تقوم بالإجهاز عليها. وعلى ذلك فقد اشتهر التفكيك بوصف سىء السمعة هو أنه "**الفلسفة التى لا تقول شيئا**" [62].

ويشرح أ. ك. م آدم منهج التفكيك بشكل رائع قائلا (مع قليل من التصرف):

[لكى نتعلم من التفكيك فعلينا أن **نوقف افتراضنا القائل بأن كلماتنا تشير إلى أشياء ، وأن تعبيراتنا تعنى أشياء ، وأن هناك فى الواقع "أشياء" على الإطلاق بما فى ذلك أنفسنا!** إن التفكيك يشكك فى الصلة المفترضة بين الدال (الكلمة أو الإيماءة أو الصورة أو الرمز أو الصوت) والمدلول (معنى الكلمة أو الإيماءة أو الصورة أو الرمز أو الصوت) ، فمثلا النبات الذى له ساق وأوراق نسميه (شجرة) ، مع أن الناس لو اتفقوا على تسميته ب (نهر) أو (حمار) أو حتى (كمار) أو (فشار) لما كان هناك مشكلة، إذ أنه **لا يوجد شىء يدخل فى صلب طبيعة هذا النبات يحتم علينا أن نسميه (شجرة) ، وليس (نهرا)، أو (حمارا) ، أو أى شىء آخر. المسألة كلها محض توافق من الناس.** وعلى ذلك فالتفكيك يقاوم ما يسميه دريدا بمركزية الكلمة Logocentrism ، أى الفرض القائل بأن الكلمة تعبر عن شىء موجود فى الواقع الخارجى. إن التفكيك يزيح الكلمة من موقع السلطة ، ويطرد من المركز ما أُسس ليكون فى المركز.

التفكيك يقول أنه **لا توجد علاقة بين الكلمات والأشياء** ، بلا توجد من الأصل أشياء؟ **التفكيك يقول لنا أن الشىء لا يوجد بذاته ، بل يوجد بفضل تمييزنا له عن الأشياء الأخرى. والهوية تبنى حين يقرر الناس أن بعض التمييزات مهم ، وبعضها غير مهم.** ولا يوجد لذلك تطابق sameness أو كينونة طبيعية أو فطرية. **وأبسط طريقة لإنشاء هوية تتضمن رسم تمييز مطلق وبسيط ، وهو ما يسميه أصحاب الفلسفة البنيوية "المقابلات المزدوجة"** كالرجل والمرأة ، والحى والجماد والأبيض والأسود ، والحق والباطل ، والأصل والنسخة ، والمركز والهامش ، والموضوعية والذاتية. ويلاحظ فلاسفة التفكيك أن هذه الأزواج دائما ما **تفضل أحد طرفى المقابلة على الآخر** ، حيث يفضِّل الطرف الأول على الثانى، ويتم تعريف الأول على أنه الطبيعى ، أما الثانى فينظر إليه على أنه دون الأول أو

---

[62]) **Jacques Derrida**. Internet Encyclopedia of Philosophy.

يعتمد عليه. الرجل هو الطرف الأولى ، والمرأة هى الطرف الثانوى لأنها خلقت من الرجل. وكذلك النور خير والظلام شر ، وهكذا. وعندما ننشىء المقابلات المزدوجة فإننا نبنى تفضيلات تعسفية للطرف الأول فى بِنى ممارساتنا اللغوية. وفضلا عن ذلك بما أنه لا شيء يهرب من الانغماس فى تدفق اللغة فإننا نبنى التفضيلات التعسفية فى العالم. ومرة أخرى **إذا كانت الهوية تُكون دائما بواسطة الاختلاف** فإن من غير الممكن قط وجود هوية مطلقة فى أى مكان. **الهوية كلها بالضرورة تكون بالنسبة للأشياء الأخرى** ، وعلى ذلك فلا يمكن للمرءِ أن يُعرف مصطلحا أو شيئا أو شخصية أو شعورا ؛ لا توجد هوية كى نُعَينها ، لكن **توجد فقط اختلافات عن الأشياء الأخرى. لا توجد أشياء ؛ يوجد فقط "ما هو غير الأشياء الأخرى**" Not–the–other–things. باختصار: لا يوجد حضور يفر من الوقوع فى فخ شبكة العلاقات التباينية الشاسعة بشكل لا نهائي. لا يوجد مركز يمكننا بواسطته توجيه أنفسنا بالنسبة للهوامش، **ولا توجد هوية (أو وحدة) أساسية حقيقية يمكننا تمييزها من خصائصها المختلفة**. إننا حتى لسنا مطابقين لأنفسين ؛ **فهوياتنا المفترضة مركبة من هويات مختلفة** بلا عدد: كاثى كابنة ، وكاثى كإحدى الأقارب ، وكاثى كطالبة ، وهكذا. **وإن حاولنا أن ننتزع بعيدا كل هذه الهويات غير المكتملة فإننا لن نصل إلى الماهية الواحدة الحقيقية لكاثى**. وبعيدا عن كل الهويات الجزئية فإننا لن نكتشف هوية على الإطلاق ، وبعبارة أخرى فإننا **دائما نُعرف فقط كاثى كواحدة من هذه الهويات الجزئية**. إن وهم النفس الموحدة هو إسقاط لرغبتنا الطاغية فى الحضور. وإذا لم يكن هناك هوية شخصية ، وإذا لم يكن هناك مركز ، وإذا لم يكن هناك حضور يعلو على تدفق الاختلاف، وإذا كان التفتكيك يريد إزاحة الكلمة من قلب "مركزية الكلمة" فلن يبقى مكان لمفاهيم من قبيل مفهوم "الله" إلا بالكاد.

ويعمل النقاد التفكيكيون بطرق مختلفة. أكثر هذه الطرق شيوعا هى القراءة الشديدة الدقة والعناية للنص، بما يكشف عن **طرق يقوم النص من خلالها بنقض الحجج التى يصنعها فى الظاهر**. إن الناقد التفكيكى إن رسمته فى شكل كاريكاتيرى فسيظهر كشخص يشد خيطا مرخيا فى ثوب ، ثم يضحك بسعادة حين ينحل الثوب كله ، ويسقط كقطع ممزقة.][63]

وتحدثت الموسوعة البريطانية عن التفكيك ، فقالت أنه نوع من أنواع التحليل الفلسفى والأدبى الذى يشكك فى التمييزات Distinctions والمقابلات Oppositions التصورية فى الفكر. والتفكيك لا يطبق فقط على الفلسفة والأدب ، بل يمتد كذلك إلى القانون والأنثروبولوجيا والتحليل النفسى والعمارة والحركة النسائية وعلم اللاهوت والسياسة والتاريخ. والمقابلات الفلسفية التى يتحداها التفكيك تتسم بكونها ازدواجية

---

[63]) **What Is Postmodern Biblical Criticism**? By A. K. M. ADAM. Chapter 2: Deconstruction: On Making a Difference. Page: 27. Fortress Press. Minneapolis. 1995. Page: 27-43

وهرمية ، فهى تتضمن زوجا من المصطلحات يُفترض أن أحدها أساسى والآخرى ثانوى ، ومن أمثلة هذه المقابلات المزدوجة: الطبيعة والثقافة ، الكلام والكتابة ، العقل والجسد ، الحضور والغياب ، الداخل والخارج ، الحقيقى والمجازى ، المفهوم والمحسوس ، الشكل والمعنى ، وغيرها. **وتفكيك أحد المقابلات يعنى اكتشاف التوترات والتناقضات فى البناء الهرمى المفترض** (أو الذى يتم التأكيد عليه بصراحة) فى النص والجوانب الأخرى لمعنى النص خاصة تلك الجوانب غير المباشرة أو الضمنية أو تلك التى تعتمد على الاستخدامات المجازية أو الأدائية للغة. ومن خلال هذا التحليل يتم إظهار كيف أن المقابلة هى نتاج وبناء للنص وليس شيئا مستقلا عنه.

على سبيل المثال فى كتابات الفيلسوف جان جاك روسو يوصف المجتمع والثقافة على أنهما قوى مفسدة وظالمة ، تنمو تدريجيا ابتداء من "حالة الطبيعة" الشاعرية التى يوجد فيها البشر فى عزلة مكتفية ذاتيا وسلمية بعيدا عن بعضهم البعض. ولذا فالطبيعة بالنسبة لروسو سابقة على الثقافة. بيد أن هناك معنى آخر بموجبه تكون الثقافة سابقة للطبيعة: فكرة أن الطبيعة هى نتاج للثقافة، وما يعد هو "الطبيعة" أو "طبيعيا" فى أى لحظة تاريخية معينة يختلف حسب ثقافة العصر. **وما تظهره هذه الحقيقة ليس أن مصطلحى تقابل الطبيعة/الثقافة يجب عكسها (أى أن الثقافة حقا سابقة للطبيعة) ، ولكن أن العلاقة بين المصطلحين ليست ذات جانب واحد ، ولا اتجاه واحد كما افترض روسو وغيره.** ونقطة التحليل التفكيكى هى أن يعيد هيكلة التقابل أو يزيحه ، **وليس ببساطة أن يعكسه.**

وبالنسبة لدريدا فإن المقابلة الأكثر كشفا وانتشارا هى تلك التى تعامل الكتابة على أنها ثانوية للكلام أو مشتقة منه. وطبقا لهذه المقابلة فإن الكلام هو شكل أكثر أصالة من أشكال اللغة لأنه فى الكلام تكون أفكار ونوايا المتكلم حاضرة بشكل مباشر (الكلمات المنطوقة فى هذه الصورة النموذجية تعبر بشكل مباشر عما يحمله المتكلم فى الذهن) ، بينما فى الكتابة تكون هذه أكثر بعدا (أو غائبة) ، وبالتالى أكثر عرضة لسوء الفهم. ويرى دريدا بالرغم من ذلك أن الكلمات المنطوقة تعمل كإشارات لغوية فقط بمقدار ما يمكن تكرارها فى سياقات مختلفة فى غياب المتكلم الذى نطق بها فى الأصل. وبعبارة أخرى فإن الكلام يكون مؤهلا كلغة فقط بمقدار ما يمتلكه من خصائص تنسب تقليديا للكتابة مثل "الغياب" و "الاختلاف" (من السياق الأصلى للنطق) واحتمال سوء الفهم. وأحد مدلولات هذه الحقيقة طبقا لدريدا هو أن توصيفات الكلام فى الفلسفة الغربية تعتمد غالبا على أمثلة واستعارات ذات صلة بالكتابة. ومن الناحية الفعلية فإن هذه النصوص تصف الكلام كشكل من أشكال الكتابة حتى فى الحالات التى التى يُزعم فيها بشكل صريح أن الكتابة ثانوية للكلام. وكما فى المقابلة بين الطبيعة والثقافة – بالرغم من

ذلك– فإن **التحليل التفكيكى لا يُظهر أن مصطلحات مقابلة الكلام/الكتابة يجب أن تُقلب (أى أن الكتابة حقا سابقة على الكلام)** ولا أن تظهر أنه لا توجد اختلافات بين الكلام والكتابة، **ولكن أن تزيح التقابل لكى تظهر أنه لا أحد من المصطلحين أولى.**

وإعطاء الكلام ميزة على الكتابة يقوم على ما يعتبره دريدا صورة مشوهة (لكنها منتشرة) للمعنى فى اللغة الطبيعية ، أى تلك التى **تربط معانى الكلمات بأفكار أو نوايا فى ذهن المتكلم أو المؤلف**. وحجة دريدا ضد هذه الصورة هى امتداد لرؤية عالم اللغويات السويسرى فرديناند دى سوسير. بالنسبة لسوسير فإن المفاهيم التى نقرنها بالإشارات اللغوية (معانيها) تتصل بالواقع فقط بشكل عشوائى ، ولذا فإن **من الممكن للمعانى أن تفهم بشكل كاف فقط بالرجوع إلى تناقضات خاصة واختلافات تظهرها مع معان أخرى ذات صلة.**

وبالمثل بالنسبة لدريدا فإن **المعنى اللغوى يتحدد بلعبة الاختلافات بين الكلمات** (وهى لعبة بلا حدود ولا نهاية وغير محددة) **وليس بواسطة فكرة أصلية أو نية موجودة قبل اللغة وخارجها**. وقد أطلق دريدا مصطلح différance الذى يعنى كلا من الاختلاف والتأجيل ليصف الطريقة التى يُخلق بها المعنى من خلال لعبة الاختلافات بين الكلمات. بما أن **معنى كلمة من الكلمات يكون دائما دالة من التناقضات مع معانى الكلمات الأخرى** ، وبما أن معانى تلك الكلمات بدورها معتمدة على تناقضات مع معانى كلمات أخرى (وهكذا) فإن هذا يترتب عليه أن **معنى إحدى الكلمات ليس شيئا حاضرا بشكل كامل لنا، بل يتأجل بلا نهاية فى سلسلة ذات طول غير محدود من المعانى** ، كل منها يحتوى على آثار من المعانى التى يعتمد عليها.

ويحاج دريدا بأن التقابل بين الكلام والكتابة مظهر لمركزية الكلمة فى الثقافة الغربية، أى الفرض العام القائل بأن **هناك مجالا من الحقيقة موجودا قبل تمثيله (ومستقلا عنه) بإشارات لغوية. ومركزية الكلمة تشجعنا على أن نعامل الإشارات اللغوية على أنها متميزة عن الظواهر التى تمثلها** وغير أساسية لها، بدلا من أن تكون مرتبطة بها بشكل وثيق. إن مبدأ مركزية الكلمة المتعلق بالحقيقة والواقع باعتبارهما موجودان خارج اللغة يشتق بدوره من تحيز راسخ فى الفلسفة الغربية ، وهو ما يصفة دريدا بميتافيزيقا

الحضور ، وهى الميل لتصور المفاهيم الفلسفية الأساسية مثل الحقيقة والواقع والوجود من ناحية أفكار كالحضور والماهية والهوية والأصل ، وفى أثناء العملية يتم **تجاهل الدور الحاسم للغياب والاختلاف.**[64]

لقد أولى دريدا أهمية خاصة للغة ، فأكد أن اللغة (وبالمثل كل الأنساق) تتسم بعد الاستقرار ، **إذ لا يوجد اقتران كامل بين الدال والمدلول ، أى بين الكلمة وما تعبر عنه ، وهناك دوما انزلاق للمعنى لأن الكلمات تحتوى على آثار وأصداء لكلمات أخرى.** إن المعنى ظاهرة عابرة. المعنى يتبخر تقريبا بمجرد حدوثه فى اللغة المنطوقة أو المكتوبة ، **أو يظل يحول نفسه إلى معان جديدة ، بدلا من أن يكون شيئا ثابتا عبر الزمن بالنسبة لسلسة من الجماهير المختلفة.** ويؤكد دريدا أن كل الفلسفة الغربية قائمة على **مبدأ أن المعنى الكامل لكل كلمة يكون موجودا فى ذهن المتكلم، بحيث يمكن إيصاله للسامع دون أى انزلاق أو تغير.** وهذا الاعتقاد فى **ثبات المعنى** يسميه دريدا بميتافيزيقا الحضور Metaphysics of presence ، وميتافيزيقا الحضور وهم كبير[65].

هذا هو التفكيك الشيطانى الذى بثه "دريدا" فى عقول المثقفين: **لا معنى لأى شىء!**

دفاعا عن اللغة

معركة اللغة بالنسبة لما بعد الحداثة هى معركة حياة أو موت. بدون التشكيك فى اللغة تنهار ما بعد الحداثة مثلما انهار برج التجارة العالمى فى لمح البصر يوم 11 سبتمبر. ولهذا قررنا أن نتمهل لنرد على الدعاوى التى تؤكد سيولة اللغة ، وعدم قدرتها على نقل معان صلبة أو دقيقة. ولنبدأ بنيتشه:

أوهام اللغة أم أوهام نيتشه؟

يرى نيتشه أن اللغة تضلل الإنسان ، وتؤدى به إلى الاعتقاد بوجود أشياء وهمية ، من قبيل الاعتقاد بوجود "الشىء" ووجود "النفس" ، مع أن "الشىء" ليس إلا مجموعة من الأحداث والصفات ، و"النفس" ليست سوى مجموعة من الأفكار والمشاعر. ونيتشه طبعا لا يقصد بتضليل اللغة أن بعض الناس

---

[64]) **Deconstruction**. Written by The Editors of Encyclopaedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/deconstruction; Accessed March 28, 2020.

[65]) **The Routledge Companion to Postmodernism.** Chapter1: Postmodernism and Philosophy by Stuart Sim. Page 5-6.

يكذبون ويخدعون الآخرين بكلامهم ، وإنما يقصد أن اللغة بطبعها مضللة حتى لو أراد المتكلم أن يقول الحقيقة. ونحن نرد على هذه الدعوى فى عدة نقاط:

أولا: بفرض أن اللغة خدعتنا ، وجعلتنا نتوهم وجود كيان اسمه "الشىء" وكيان اسمه "النفس" ، ففى المقابل هناك بلايين الأمثلة التى تنجح فيها اللغة فى وصف الواقع بدقة بعيدا عن الأوهام. ولو قدر لنا أن نقابل شخصا عاشقا لآراء نيتشه ، ووجدناه يحمل بعض الحبوب الغريبة، فنصحناه أن يستشير الصيدلى أولا قبل أن يتناولها ، فقال له الصيدلى: "هذه الحبوب مكتوب على غلافها أنها مبيد للصراصير". فماذا يمكن أن يحدث إن استهان الرجل بكلام الصيدلى على أساس أن نيتشه أكد أن اللغة تصنع الأوهام ، وأن جملة "الحبوب مبيد للصراصير" يمكن أن تكون مضللة ، ولا تعبر عن الحقيقة رغم أن الصيدلى لا يتعمد خداعه؟ إنه سيتناول الحبوب ، ويموت فى الحال. وبالمثل إن كنت تسير فى الشارع فسمعت فجأة صوتا يقول: "احذر السيارة" ، فهل تتجاهل التحذير لأن نيتشه جعلك لا تثق فى عبارات اللغة؟ وإن أردت السفر إلى لندن فسمعت فى النشرة الجوية جملة "درجة الحرارة فى لندن شديدة الانخفاض" ، فهل تسخر من هذه الجملة، وتسافر بملابس خفيفة بحجة أن اللغة تصنع الأوهام ، ولا تعبر عن الواقع بدقة؟ ونحمد الله أن فلسفة نيتشه لم تَذع بين تلاميذنا وإلا لجلسوا فى الفصول يلعبون ، ولا ينصتون لكلام المدرسين خوفا من أن تضللهم اللغة. إننا لو فقدنا الثقة فى اللغة لانهارت حياتنا. حقا اللغة تخطىء فى بعض الأحيان ، لكن نسبة أخطائها صغيرة جدا مقارنة بدقتها.

إن من يضخم الشاذ ، ويتجاهل ما هو سائد وغالب هو شخص شديد الحماقة ، فلو انقلبت بك السيارة فى أحد الأيام فلن يكون من الحكمة أن تطالب الدولة بسن قانون يصادر كل السيارات ، ويعيد الناس لعصر الحمير. وإن جرحت يدك يوما وأنت تقشر برتقالة بالسكين فلن يكون ذلك مدعاة للتخلص من كل السكاكين فى البيت. من يمتلك أقل القليل من التفكير لا يلقى بنفسه فى بحار التشاؤم لمجرد تجارب استثنائية. الإنسان الحكيم يحاول ، ويحاول ، ويسير وراء أى أمل ، أما الأحمق فهو يجلس منهارا ، ومرددا تلك العبارة المشئومة: "لا فائدة".

ثانيا: رغم أن اللغة توقعنا فى بعض الأخطاء إلا أنها **لا تقف بالمرصاد فى وجه من يحاول تصحيحها وتقويم أخطائها** ، بدليل أن رجلا مثل نيتشه تمكن من اكتشاف أخطاء اللغة ، ونبهنا – بفرض صحة تنبيهاته– كى نتلافاها. إننا لا نزعم أن اللغة إله لا يقدر أن يحاسبه. اللغة تتمتع بصدر رحب يتقبل النقد ، أو بالأحرى اللغة تخضع لقبضة الإنسان الذى يمسك بلجامها. ومن السهل أن يغير الفلاسفة من لغتهم فيستبدلوا بمصطلح "الشىء" (الذى يرى نيتشه أنه وهم) مصطلحا آخر مثل "الشىء الوهمى"

أو "الشبيه بالشىء" حتى لا ينخدع القارىء. وبالمثل يمكن لهم أن يستخدموا مصطلح "النفس الوهمية" أو "الشبيه بالنفس" بدلا من مصطلح "النفس" الذى يرونه مضللا. ويمكن للكتاب أن يضيفوا حواشى داخل كتبهم تبين للقارىء أن إحدى الكلمات التى يستخدمونها مضللة ، ولكنهم مضطرون لاستخدامها مجاراة للعادة.

ولماذا لا يحذو الفلاسفة حذو علماء الفيزياء الذين يستخدمون اللغة بوعى شديد ، فتراهم يقولون لنا مثلا أن مصطلح "الجسيمات الأولية" لا يعبر بدقة عن الواقع لأن ما يوجد فى الواقع "مجالات" ، والجسيم ما هو إلا اهتزاز فى أحد المجالات. إذن من الممكن أن نستخدم اللغة لتحقيق التواصل بين الناس ، وتسهيل التعليم مع وعى كامل بأنها تعجز أحيانا عن وصف الواقع بدقة. ولنعلم أن وجود لص فى إحدى البلاد ليس مشكلة ، فالمشكلة الحقيقية هى عدم وجود شرطة تراقب هذا اللص. وبالمثل يمكنك أن تعتبر اللغة مجرما يحاول أن يضللك ، لكن لن تكون هذه مأساة طالما أنك على حذر دائم وأنت تتعامل معها.

وبالنسبة لى كمسلم لا أجد مشكلة فى القول بوجود أخطاء للغة ، فأنا أعرف جيدا أن اللغة يستحيل أن تعبر عن كثير من حقائق عالم الغيب ، فالله تعالى مثلا لا يمكن وصفه بكلمات: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء} [الشورى: 11]. والجنة أيضا لا يمكن التعبير عنها بكلمات طبقا لقول رسولنا الكريم:"قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بشر. واقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّة عين).[66] ورغم معرفتى كمسلم بقصور اللغة إلا أن هذا لا يمكن أن يزرع الشك الشامل فى قلبى كما حدث مع نيتشه ومفكرى ما بعد الحداثة ، فاللغة تبقى صالحة للاستخدام بشكل ممتاز فى أغلب المجالات العملية والفكرية.

<u>ثالثا</u>: اكتشف نيتشه عيوب اللغة ، ونقل إلينا اكتشافاته من خلال اللغة نفسها لأنه صاغ انتقاداته فى عبارات وجمل قرأناها ، ولولا اللغة التى استخدمها فى كتبه لظللنا غارقين فيما يقال أنها أوهام للغة. ولو لم يكن للغة أى قيمة لكان على نيتشه أن يغلق فمه ، ويمسك لسانه بعد أن اكتشف أوهام اللغة لأن أى تحذير يوجهه إلينا هو فى ذاته "لغة" ، وبالتالى لا ينفك عن الأوهام. لقد حطم نيتشه نفسه حين شن حملته الشعواء على اللغة!

---

[66]) متفق عليه.

رابعا: إذا كان للغة أخطاء فإن هذه الأخطاء تنطلى على العامة والدهماء والسطحيين ، والمفترض أن يكون المفكرون والفلاسفة بمنأى عن ذلك. الفيلسوف يدقق ، ويتأمل ، ويستخرج الأخطاء، وينقى الكلام مما علق به من شوائب. هذا هو دور المفكر الطبيعى. ومواجهة أوهام اللغة تتم بالدعوة إلى البعد عن السطحية ، والحث على مزيد من التعمق فى الأمور ، والتفكير فيما وراء الظاهر ، وليس بالتوقف عن استعمال اللغة ، وإلا لجاز للأب أن يطالب أبناءه البالغين بعدم التعامل مع أى من الناس خارج البيت حتى لا يتعرضوا للخداع ، والمنطق يقضى بأن يتركهم يتعاملون مع الناس ، ولكن فى نفس الوقت يعلمهم ويكسبهم من خبرته ، ويأمرهم بأن يكونوا على حذر دائم حتى لا يحيق بهم المكر السىء.

خامسا: وجود أوهام من صنع اللغة يفرض علينا مسئولية من أجل أن نتلافاها. **والإنسان يمتلك وسائل لتعويض ما باللغة من نقص وغموض** ، خاصة فى الأمور الفكرية والمسائل الخطيرة. والمفكر الواعى المحترم يحرص على إظهار فكرته ، وتوضيحها للقارىء من خلال شرحها بأكثر من طريقة وأكثر من أسلوب حتى لا تكون سببا فى خلق الأوهام فى ذهن القارىء. ولهذا يلجأ كثير من الكتاب إلى الإطناب والتعبير عن الفكرة الواحدة بأكثر من عبارة. وعلى سبيل المثال سيجد القارىء أننا فى هذا الكتاب حرصنا على تكرار نفس الأفكار بالاقتباس من أكثر من مصدر وضرب أكثر من مثل حتى يتبين للقارىء المعنى المراد بشكل واضح. وعلى العكس من ذلك ستجد أن **مفكرى ما بعد الحداثة الذين هاجموا اللغة بسبب صنعها للأوهام كانوا هم أنفسهم أول من استخدموا فى كتاباتهم أساليب شديدة الغموض يصعب حتى على القارىء المثقف أن يفهمها.**

سادسا: تتسم اللغة بالقصور مثلها مثل كل أدوات الإنسان وملكاته. إن الإنسان مخلوق غير كامل ، فيدُه غير كاملة لأنها لا تمكنه من رفع الجبل ، ورجله غير كاملة لأنها لا تمكنه من أن يعبر المحيط بقفزة واحدة ، وعينه غير كاملة لأنها لا تمكنه من رؤية الجراثيم ، وذاكرته أضعف من ذاكرة الحاسوب. كما يمكن لأدوات الإنسان وأجهزته أن تؤدى إلى كوارث أعظم مما تسببه كوارث اللغة (بفرض أن للغة كوارث) ، فمثلا يمكن للإنسان أن يقتل ابنه بيده عن طريق الخطأ، وهو يمارس هواية الصيد. ويمكن للجراح أن يضرب بمشرطه شريانا ، فيؤدى إلى وفاة المريض أثناء العملية الجراحية. ويمكن لقدم السائق التى لم تضغط على فرامل السيارة بقوة أن تؤدى لقتل عشرات المارة. ويمكن لضعف الذاكرة أن يتسبب فى اتهام الصديق لصديقه بخيانة الأمانة. ورغم ذلك القصور إلا أن أحد لم يَدْعُ يوما إلى أن يتوقف الناس تماما عن استعمال اليد والرجل والعين والذاكرة بحجة أنها غير كاملة. فلماذا يستهدفون اللغة وحدها دون غيرها ، وينادون بالشك الشامل لمجرد أن اللخطة تخطىء فى أحيان قليلة؟ إن لسان حالهم

يقول أن الإنسان لا يستغنى عن اليد والرجل والعين والذاكرة لكنه يمكن أن يستغنى عن معرفة الحقيقة. إنهم لا يرون بأسا فى أن يحيا الإنسان كالبهيمة ، فيأكل ، ويشرب ، وينام دون أن يهتم بالبحث عن الحق؟ إن المفكر المحترم لا يرضى بالشك الشامل ، ويظل يسعى ويبحث أملا فى الوصول ولو حتى إلى 80% من الحقيقة ، فبصيص من النور خير من ظلام دامس.

إننا نعترف أن اللغة قد تخفق فى التعبير بدقة تامة عن الواقع وعن النفس ، ولكن ليس هذا مبررا لهدم اللغة كلها بجرة قلم ، واتهامها بتضليل الناس وتبديد اليقين بشكل كامل. **إن أطباء أمراض النساء والتوليد يعتمدون بشكل كبير جدا على أشعة الموجات فوق الصوتية لمعرفة طبيعة الأمراض التى تصيب الأم أثناء الحمل رغم أن هذه الأشعات لا تبين الجنين كما هو فى الواقع بالضبط** ، لكن بدون هذه الأشعات يموت ملايين المرضى. وبالمثل **تصف اللغة الواقع بدقة غير كاملة ، لكن لا أحد يستغنى عن اللغة.**

مهزلة التفكيك

حين نأتى إلى التفكيك نجد كارثة ، فالتفكيك يؤكد أن الكلمة لا تشير إلى شيء محدد فى العالم الخارجى، ولا إلى فكرة معينة فى الذهن، بل تشير إلى كل ما هو مختلف عنها. وكل واحد من هذه الأشياء الأخرى يختلف بدوره عن أشياء أخرى كثيرة ، وهكذا دواليك ، أى أنه **فى النهاية لا يوجد معنى محدد لأى شيء** . خذ مثلا كلمة (الكلب): إن الكلب يختلف عن النمر والأسد والفهد والصقر وغيرهم من الحيوانات المفترسة. كما يختلف الكلب عن الحمامة واليمامة والهدهد والعصفور وغيرهم من الطيور . ويختلف الكلب عن الثعبان والبرص والسلحفاة وغيرهم من الحيوانات الزاحفة. ويختلف أيضا عن الدراجة والطائرة والسيارة والقطار وغيرهم من الجمادات المتحركة. كما يختلف الكلب عن الأسماك ، وعن الكائنات الفضائية ، وعن الملائكة والشياطين. ويختلف الكلب فى عقليته عن الحاسوب والهاتف الذكى والإنسان الآلى. ويختلف الكلب فى إيذائه عن النار والسم والسكين والقنبلة النووية. ويختلف الكلب فى صوته المزعج عن الحمار والقطار والصاروخ. ويختلف الكلب فى وفائه عن الفأر والثعلب والذئب. وهكذا ستظل طوال اليوم تعثر على اختلافات بين الكلب وآلاف من الأشياء الأخرى. والأسوأ من ذلك أن كل واحد من هذه الأشياء التى تختلف عن الكلب يختلف بدوره عن آلاف الأشياء الأخرى.

وهذه الفكرة التى يبنى عليها التفكيك تتردد فى المراجع الأجنبية دون أن ينتقدها أحد. وعلى حد علمى المتواضع فأنا لم أقابل من يرد عليها ، وكأنها من المسلمات التى أثبتتها التجارب المعملية، والتى لا

يجوز التشكيك فيها. لقد كنت كلما قرأت كلاما عن التفكيك أحسست بأن هناك احتمالا من اثنين: إما أننى غبى وإما أن التفكيكيين أغبياء. وفى البداية افترضت الأسوأ ، وتعاملت مع التفكيك على أنه أكبر من قدراتى الذهنية ، فحاولت فهمه من أكثر من مرجع ، ولما اعتقدت أننى فهمته بدرجة معقولة حمدت الله على أن قواى العقلية لا تزال بخير ، فقد تبين لى أن التفكيك ضرب من ضروب السذاجة ، وذلك للأسباب التالية:

أولا:

يخبرنا دريدا أن العلاقة بين الدال والمدلول – أى بين الكلمة ومفهومها– علاقة عشوائية، فلا يوجد شىء يحتم علينا أن نسمى عدة أوراق ملتصقة ببعضها "كتابا" ، وذلك لأن الإنجليز يسمونه "Book" والفرنسيون يسمونه "Livre" ، وكل بلد تستخدم كلمة مختلفة لنفس الغرض. ولو اصطلح العرب على تسمية هذا الشىء باستخدام كلمة (كباب) أو (كفاب) أو (مكات) أو (فشات) بدلا من (كتاب) لما كان هناك مشكلة. وبالتالى فمعنى الكلمة لا نعرفه بالرجوع إلى الواقع ، ولكن نعرفه من اختلاف كل كلمة عن غيرها من كلمات اللغة. الكلمات لا تشير إلى أشياء موجودة فى الواقع ، بل إلى كلمات أخرى غيرها.

هذا الكلام يتضمن مغالطة شنيعة لا أدرى كيف تلقاها كل من قرأت لهم بالقبول كما لو كانت مسلمة من المسلمات؟ إننا نرى أن العلاقة بين الكلمة والشىء الذى تعبر عنه هى فعلا عشوائية ، لكن تلك العشوائية توجد فى نقطة زمنية محددة ، العشوائية تكون فقط فى البداية قبل أن يبدأ الناس فى اختراع كلمة جديدة تعبر عن معنى جديد أو شىء يرونه لأول مرة ؛ ففى البداية قد يصح القول بأن الناس تختار الكلمة بشكل عشوائى من بين آلاف الأصوات الممكنة ، فمثلا حين اخترع الهاتف غير الأرضى أسماه بعض الناس فى بلاد العرب "المحمول" ، وأسماه آخرون "الهاتف النقال" ، بينما فضل فريق ثالث كلمة"الجوال". أما الإنجليز فاستخدموا كلمة "Mobile" ، واستخدم الأسبان كلمة "Móvil ". ولو أحب أحد المصريين أن يسمى هذا الهاتف وقت ظهوره باسم غريب مثل "السلسول" أو "المحتول" أو "الموتايل" أو غيرها فربما كان هذا من حقه. لكن **بمرور الوقت لم تعد العلاقة بين كلمة "محمول" أو "جوال" وهذا النوع من الهواتف عشوائية ، بل ثابتة وضرورية.** لقد أصبح المجتمع يتفق على كلمات محددة يعبر بها عن واقع محدد ، ولا يمكن لمصرى الآن إن سمع كلمة (بطة) أن يقول أن أحد معانيها هو (الهاتف

المحمول). ومن أراد أن يخترع اسما جديدا لشىء معروف (سواء بكلمة جديدة تماما أو بكلمة قديمة لشىء آخر) **فعليه أن يروج لهذا الاسم أولا بين الناس ، أو على الأقل يخبرهم بأنه قرر إنشاء علاقة جديدة بين كلمة جديدة ونفس الشىء القديم منعا للبلبلة لأنه لا أحد من الناس يقبل بفوضى الأسماء .** وحتى لو استخدم المرء أكثر من كلمة للتعبير عن نفس المدلول ، فهذا لا يعنى وجود العشوائية لأن العلاقة بين كل كلمة ونفس المفهوم الذى تعبر عنه ثابتة وضرورية.

وعلى ذلك **فالكلمة بمجرد ما تقترن فى عرف الناس بمدلول معين تصبح العلاقة بينها وبين هذا المدلول ضرورية لا عشوائية.** والدليل على ذلك أنك إن تهت فى الصحراء مع صديق فرنسى وصديق إنجليزى ، ثم فجأة وقع بصركم على بحيرة ماء ، فإن كلا منكم سيهتف فى نفس اللحظة بالكلمة التى تعبر عن نفس الشىء فى لغته ، فيقول المصرى "ماء" ، ويقول الإنجليزى "Water" ويقول الفرنسى "L'eau". وهنا لا يمكن لأى منكم أن يقول كلمة أخرى ، فالمصرى لا يمكن أن يقول "فهد" ، والإنجليزى لا يمكن أن يقول Dog (كلب) ، والفرنسى لا يمكن أن يقول Chat (قطة). وهذا يعنى أن كلا منكم مجبر على النطق بكلمة بعينها (أو بمرادفات لها) دون غيرها من الكلمات ، وهذا ينفى تماما أن تكون العلاقة بين الكلمة والشىء الذى تعبر عنه عشوائية. **لقد حول التفكيك أبصارنا إلى لحظة العشوائية ، وأوهمنا أنها صفة مستمرة دائمة للعلاقة بين الكلمة ومعناها (أو الدال والمدلول) ، مع أن هذه العشوائية قصيرة وعابرة ، ولا تؤدى مطلقا لفوضى المعنى الذى ينادى به التفكيك.** لقد انهار دريدا.

إذن **هناك عدة مراحل** فى ربط الكلمة بالمفهوم أو الدال بالمدلول:

المرحلة الأولى: تكون فى بداية بحث المجتمع عن كلمة جديدة تعبر عن معنى جديد. وفى هذه اللحظة تكون العلاقة بين الكلمة والمعنى الذى تشير إليه عشوائية[67] ، ويمكن لاختيار المجتمع أن يقع على أى عدد من الحروف بأى ترتيب لتكوين كلمة جديدة للتعبير عن هذا المعنى.

المرحلة الثانية: هذه المرحلة تعقب المرحلة الأولى سريعا ، فبمجرد ما يتفق المجتمع على تخصيص كلمة معينة للتعبير عن شىء معين ، تصبح العلاقة بين الكلمة والشىء ضرورية وثابتة ، وتتجمد العشوائية إلى حين. وكما قلنا فالمجتمع لا يشترط أن يتفق كله على استخدام نفس الكلمة للتعبير عن

---

[67]) سنرى فيما بعد أنه حتى فى هذه المرحلة المبكرة لا توجد عشوائية كاملة.

شيء ما ، بل يكفى أن يخبر شخص واحد الآخرين بأنه قرر أن يستخدم كلمة جديدة للتعبير عن شيء معين ، أى أنه قرر إنشاء علاقة ضرورية وثابتة بين إحدى الكلمات وأحد الأشياء ، فهذا يكفى لإحداث تجميد جزئى للعشوائية ، بحيث يتسنى لنا أن نفهم قصد هذا الشخص وهو يتكلم أو يكتب ، فلا نخطيء فى تفسير ما يقول. على سبيل المثال يمكن لأحد الكتاب أن يقول فى مقدمة أحد كتبه أنه سيستخدم طوال الكتاب مصطلحا جديدا للإشارة إلى وزارة التعليم ألا وهو "وزارة التجهيل" ، فهنا يستخدم الكاتب اسما يختلف عن الاسم المعروف لدى بقية أفراد المجتمع ، ولكن لا توجد أى عشوائية لأن كل من يقرأ الكتاب سيفهم قصده جيدا ، فلو قال مثلا: (أهملت وزارة التجهيل إعداد المعلم) فسيدرك القارىء على الفور أنه يقصد: (أهملت وزارة التعليم إعداد المعلم) ، ولا يحق لأى قارىء أن يفهم الجملة بطريقة أخرى.

المرحلة الثالثة: يمكن لبعض الأفراد فى أى وقت من الأوقات (عادة بعد سنوات طويلة) أن يستخدموا كلمة جديدة للتعبير عن نفس الشيء ، فيقل بالتدريج استخدام المجتمع للكلمة القديمة أو ينعدم ، كما حدث حين اندثرت اللغة اللاتينية ، وظهر بدلا منها اللغات الإنجليزية والفرنسية وغيرها. وفى هذه المرحلة الثالثة تعود العشوائية للظهور مرة أخرى ، لكنها سرعان ما تتجمد كما حدث من قبل. ومن الممكن نظريا أن يعقب المرحلة الثالثة عدد لا نهائى من المراحل كل عدة سنوات ، فتطور اللغة لا ينتهى.

وظهور كلمات جديدة من حين لآخر للتعبير عن نفس الشيء يدل على أن العشوائية لا تمت ، بل تبقى كامنة أو موجودة بالقوة ، كالبذرة الجامدة التى تنتظر الفرصة كى تنبت. وكمون العشوائية غير مؤثر عمليا لأنه لا يتسبب أبدا فى إحداث فوضى للمعنى.

ومن هذه المراحل نلاحظ **أن العلاقة بين الكلمة والشيء الذى تعبر عنه (أو بين الدال والمدلول) عشوائية فعلا، لكن هذه العشوائية فى أغلب الأوقات نائمة خاملة لا تسبب بلبلة أو فوضى فى المعنى، وإن استيقظت فإن هذه اليقظة تكون عابرة جدا ، ولا تستمر لأكثر من لحظات ، لتعاود بعدها الكمون مرة أخرى** ، وهكذا. وطالما أن كلمة محددة قد تم ربطها بمدلول معين لم يعد من حق أحد أن يغير من طريقة استخدام هذه الكلمة إلا إذا أخبر الآخرين بأنه يتعمد استخدام كلمة أخرى للإشارة إلى

نفس الشىء أو استخدام نفس الكلمة لشىء آخر ، وهذا أمر لا يثير الغموض ولا البلبلة ، ولا يؤدى لفوض المعنى بالشكل الذى ينادى به التفكيك حين جعل لكل كلمة عدد لا نهائى من المعانى.

والآن إن قال لك أحد التفكيكيين أن الكلمات لا علاقة لها بشىء فى الواقع ، فقل له: لقد كان هذا فى الماضى ، أما الآن فلا. فى بداية اختراع اللغة كانت العلاقة عشوائية ، لكن العلاقة الآن ضرورية ومحددة ، وإن ظهرت العشوائية مرة أخرى فستموت بأقصى سرعة ، وليس لأحد إن اتفق المجتمع على معنى كلمة ما أن يأتى ليقول أنه سيعزو أى معنى يخطر على باله لتلك الكلمة. إن فوضى التفكيك مهزلة. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

ثانيا:

هناك فرق بين "مفهوم" الكلمة وبين "المقارنات" التى نجريها بين الكلمة وغيرها من الكلمات. هناك أولوية منطقية وزمنية للمفهوم (أو الماهية أو الطبيعة) ، بمعنى أننا **نَعْرف مفهوم الشىء وصفاته أولا، وبعد ذلك نقوم بعملية ذهنية ثانوية هى إجراء مقارنات لا حصر لها بينه وبين الأشياء الأخرى** لندرك الاختلافات والفروق. إننى فى غاية الدهشة من هذا الخلط المشين بين "التعريف" و"المقارنة". التعريف **عملية إيجابية** تتضمن ذكر الماهية أو الصفات الأساسية للشىء ، بينما المقارنة **عملية سلبية** تتضمن فى الأساس ذكر الفروق والتناقضات بين الشىء وغيره من الأشياء.

وماعليك إلا أن تفترض أن ابنك قد تاه منك فى السوق. الابن موجود وسط آلاف المواطنين ، لكن صورة ابنك ستظل مرسومة فى ذهنك كما هى ، بنفس ملامح وجهه ونفس نحافته وصوته المنخفض وشعره المجعد ولونه الأسمر رغم وجود آلاف الناس من حولك. إن وجود طفلك وسط مليون شخص يختلفون جميعا عنه لن يشوش على صورته فى عقلك ، ولن يحوله فى ذهنك إلى مليون إنسان ، ولا حتى لعشرين إنسانا، إنه سيظل طفلا واحدا بنفس أوصافه التى تعرفها. وهذا يثبت أن الاختلاف طارىء وعارض وثانوى ودخيل على المفهوم والمعنى والماهية.

إننا حين نسأل عن معنى شىء ما فإننا نبحث عن سماته الأساسية ، وليس عن الأشياء التى تختلف عنه. وحين تبحث عن ابنك الذى تاه منك فإنك ستسأل الناس: هل رأيتم ولدا نحيفا أسمر يرتدى قميصا أصفر؟ ومن العبث أن تقول لهم: هل رأيتم ما ليس بقط ولا كلب ولا فأر ولا جمل ، وما هو بالشاب ،

ولا بالشيخ ، ولا بالكهل ، ولا بالأنثى؟ هل رأيتم ما ليس بدينا ، ولا يرتدى جلبابا ، ولا عباءة ، ولون ثوبه ليس أزرق ولا أحمر ولا أخضر ولا بنى ولا أبيض؟ أنت بهذه الطريقة تقول لغزا، وتصعب عليهم مهمة مساعدتك!

وإن سألك ابنك ما معنى كلمة "غوريلا" فإنك ستأخذه إلى حديقة الحيوان ، وتريه الغوريلا مباشرة. وسيكون من الحماقة أن تذهب بابنك إلى قفص القرود ، وتقول له أن الغوريلا تختلف عن القرد ، ثم تدور به على الأسد والنمر والفيل والأرنب وكل حيوانات الحديقة – باستثناء الغوريللا – كى تخبره أن الغوريلا تختلف عن كل هؤلاء. اللف والدوران حماقة!

وإن سأل مدرس التربية الدينية طلبته: (ما معنى الغيبة؟) فإن الطالب الجيد لن يقول: (الغيبة تختلف عن المزاح وعن الكذب وعن التوبيخ وعن قراءة الشعر). هذا لف ودوران ، والمفروض أن تكون الإجابة هكذا مباشرة: (الغيبة هى ذكرك أخاك بما يكره فى غيبته).

وإن سألك ابنك عن معنى كلمة (الطلاق) فإنك لن تقول له: (الطلاق يختلف عن الزواج والخطبة وعيد الميلاد وحفل النجاح)، ولكن ستقول له: (الطلاق هو قطع رابطة الزواج بين رجل وامرأة).

وإذا نظرت إلى أغلب المسلمين ستجد أنهم يعرفون كثيرا عن أمور الإسلام دون أن يكون لديهم أى علم بالمسيحية أو اليهودية أو غيرهما من الأديان. وقد كانت قريتنا خالية تماما من النصارى ، فكان الفلاحون لا يعرفون أى شىء تقريبا عن المسيحية ، وأكثرهم علما كان يعرف فقط أن النصارى يؤمنون بأن المسيح ابن الله. وبالمثل ستجد كثيرا من أتباع الأديان الأخرى يعرفون فقط دينهم دون إلمام يذكر بالأديان والعقائد الأخرى. وحتى بالنسبة لعلماء الدين ستجد أن كثيرا منهم يتخصصون فى أدق تفاصيل الإسلام ، ويتركون العلم بالأديان الأخرى للمتخصصين فى علم مقارنة الأديان. وهذا يثبت – بدرجة ما– أن **الناس يمكن أن تعرف مفهوم الأشياء دون حاجة لمقارنتها بغيرها** ، أو على الأقل أن **مفهوم الشىء أو هويته أهم بكثير من اختلافاته عن غيره.**

وهكذا **فكل المفاهيم ذات طابع إيجابى ، لا طابع سلبى.** إن المخ يدرك معنى شىء ما بأن يستحضر مفهوم هذا الشىء نفسه ، وليس مفاهيم الأشياء الأخرى. وهب أنك رجل فقير ، فدُعيت يوما إلى حفل

شواء ، فإنك ستظل فى الليلة السابقة للحفل تفكر فى شكل اللحم وطعمه ، وليس فى شكل العدس وطعمه ، وستراودك فى أحلامك أطباق الكباب لا أطباق الفول.

إن **التفكيك ينظر إلى العالم بطريقة شاذة غريبة تشبه شخصا يمسك "نيجاتيف"** ؛ فالتفكيك يؤكد أن معنى الكلمة ليس شيئا محددا ، بل كل شىء مختلف عنه. التفكيك يقول لنا أن السلبى هو الأصل ، مع أننا جميعا نركز على الإيجابى ، أى على الشىء نفسه وصفاته ، وليس على الأشياء المختلفة عنه وصفاتها. وإذا قلت لك مثلا: "هل تعرف عمرو بن كلثوم؟" فإنك ستتحدث عنه بطريقة إيجابية ، أى ستختار أهم صفاته ، فتقول مثلا: "إنه شاعر عربى متميز عاش فى الجزيرة العربية قبل الإسلام". ولن تفكر فى الكلام عنه بطريقة سلبية كأن تقول: "عمرو بن كلثوم لم يكن حيوانا، ولم يكن امرأة ، ولم يكن طبيبا ، ولم يكن مؤلفا للقصص القصيرة ، ولم يكن فارسيا ، ولم يكن زنجيا، ولم يمت وهو طفل ، ولم يعش فى العصر العباسى...إلخ". المخ يذهب مباشرة إلى الماهية دون لف ودوران. **المخ لا يبحث عن معنى ما هو حاضر من خلال ما هو غائب ، فهذا تصرف غير اقتصادى، تصرف مكلف ، بل غبى.**

<u>ثالثا:</u>

لو فرضنا جدلا أن معنى الكلمة يأتى من كل الكلمات المختلفة عنها فإن هذا **لا يترتب عليه أن الكلمة بلا معنى محدد** ، أو أن من حق كل إنسان أن يفهمها بالطريقة التى تحلو له. هذه مغالطة شديدة الخبث.

انظر مثلا إلى كلمة (الحصان). إن معنى الحصان طبقا للتفكيك هو عدد لا نهائى من الاختلافات بين الحصان وغيرِه من الأشياء. لكن نحن نؤكد أنه بفرض صحة ذلك فإن من الخطأ أن نستنتج أن (الحصان) كلمة بلا معنى محدد ، والدليل على ذلك أن طفلك إن قال لك: (الحصان يعيش فى قاع المحيط مثل السمك) فإنك ستؤكد له أنه مخطىء ، وأن الحصان يعيش على البر، وليس فى قاع البحر. **ولو كانت كلمة (الحصان) بلا معنى محدد ، وتحتمل أى مفهوم لصح أن نقول عن الحصان أى شىء ، بما فى ذلك أنه يغوص فى الماء أو يطير فى الجو أو يتكلم اللغة الألمانية.**

وحين أنطق بكلمة (قِط) ، فهل يجوز أن أقول أن هذه الكلمة تولد عددا لا نهائيا من المعانى أو المدلولات؟ هذا خطأ لأن من غير الممكن القول بأن القط حيوان يبيض أو يلد كلبا أو يمارس رياضة الهوكى أو يعمل جراحا للمخ والأعصاب بعد الظهر.

ولو كانت كلمة (القوة) بلا مدلول محدد ، وتحتمل عددا لا نهائيا من المعانى لجاز لنا أن نقول أن من قبيل الشجاعة فرار الرجل البالغ حذر الموت حين يسمع صراخ طفل رضيع كان نائما بجواره.

إذن القول بأن الشىء يختلف عن عدد لا نهائى من الأشياء لا يعنى أن الشىء بلا مفهوم محدد. باختصار: الاختلافات لا نهائية ، لكن المفهوم محدود ومحدد. هذه الحجة توقف ميوعة التفكيك عند حدها. إنها طعنة قاتلة ، **فالحمد لله رب العالمين.**

رابعا:

الاختلافات الكثيرة والمقارنات اللانهائية لا تجعل الكلمة "بلا معنى" ، بل بالعكس تزيد من وضوح معناها ، وتحدد مفهومها بدقة أكبر. إن الاختلافات بين شخصية سيدنا خالد بن الوليد مثلا وشخصية أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما قد تجعلك تصف خالدا بأنه عنيف. لكن مقارنة خالد بن الوليد بستالين (أو لينين أو ماوتسى تونج) ستجعلك تقول أن خالدا كان رءوفا رحيما. والنظرة السطحية فقط هى التى تجعلنا نقول أن خالدا لم يكن يمتلك شخصية واحدة ، وأن من الخطأ تحديد شخصية معينة له. لكن بقليل من التفكير ، وبوضع المقارنات بجوار بعضها سنجد أن الصواب هو القول أن خالدا لم يكن شديد القسوة ، ولا شديد الرحمة ، بل كان لديه قليل من العنف ، وأنه كان وسطا بين أبى بكر وستالين ، ولكنه كان أقرب بكثير لأبى بكر منه إلى ستالين. وهكذا أدت الاختلافات بين خالد والآخرين إلى **تحديد شخصية خالد بدقة أكبر ، وليس إلى القول بأنه لا يمتلك شخصية محددة.**

خامسا:

يخبرنا التفكيك أن أى كلمة لا تمتلك مفهوما محددا ، وأن معناها هو عدد لا نهائى من المفاهيم المختلفة عنها لأن المفهوم يتحدد بالاختلاف ، كالقول بأن مفهوم القط هو كل ما ليس بقط. إن هذا الكلام يتضمن تناقضا خطيرا لأنك **لا يمكن أن تقول أن شيئا ما يختلف عن القط إلا إذا كان ذهنك يحتوى مسبقا على مفهوم محدد لشىء اسمه القط ،** إذ كيف ستجعل الكلب والأسد والسيارة من ضمن الأشياء التى تختلف عن القط؟ أليس مثلا لأن صوتها ليس "مواء"؟ إذن المواء صفة إيجابية ، لا بد من وجودها أولا كى يمكننى أن أقول بعد ذلك أن هناك أشياء لا تُصدر صوت المواء ، وتختلف بالتالى عن شىء له مواء. إذن **القول بأن معنى أى كلمة هو دالة لغوية تتضمن عددا لا نهائيا من الاختلافات هو كلام متناقض لأن الاختلاف ليس له وجود إلا فى ظل وجود كيان إيجابى ثابت كى تتم المقارنة.** إن الذهن

أثناء إدراك الاختلاف والمقارنة يستحضر أمامه صورة الشيء محل الاهتمام وصور الأشياء المختلفة عنه. الذهن لا يستحضر فقط صور الأشياء الأخرى ويترك الشيء الأساسى محل الاهتمام ، فطالما أنه استحضر صور الأشياء المختلفة فما الذى يحول بينه وبين استحضار الشيء الأساسى؟ إن التفكيك يرتكب مغالطة فاحشة ، فهو يقول لك: "انتظر. لا تقدم تعريفا للشجرة إلا بعد أن تنظر لملايين الأشياء التى تختلف عن الشجرة". لكن لماذا حكمنا بأن كلا من هذه الأشياء يختلف عن شيء واحد هو الشجرة؟ هل يمكن لهذه الأشياء أن تختلف عن شيء بلا معنى؟ عن العدم؟ التفكيك يقوم على دَوْر.

<u>**سادسا:**</u>

يندهش المرء بشدة من **هذه النزعة التشاؤمية التى أتت بها ما بعد الحداثة والتفكيك على وجه الخصوص.** كيف لهم أن يحولوا الاستثناء إلى قاعدة ، ويشككوا فى اللغة كلها بدلا من أن يشككوا فى ذلك القسم القليل منها الذى يستحق التشكيك فعلا؟ تأمل كلمات اللغة التى تستخدمها يوميا ، ولن تجد أثرا لهذا الغموض الشامل الذى تكلموا عنه. مثلا حين نقول: (توفى الشاعر فلان بسبب إصابته بجلطة فى شريان القلب) ، فهل هذه العبارة تحتمل أكثر من معنى؟ بالعكس إنها شديدة الوضوح ، فقد نقلت إلينا معلومة مهمة عن سبب وفاة الشاعر. حقا هذه العبارة لا تنقل إلينا كل شيء عن المرض الذى أدى إلى الوفاة – وبالتالى فهى تحتوى على درجة من الغموض – لكن هذا الغموض ليس كبيرا، كما أن هذا النقص يمكن تعويضه بقراءة التقرير الطبى المفصل الذى يوضح كل ما يتعلق بملابسات الوفاة من تاريخ مرضى وتحاليل طبية وتطور للحالة المرضية وعلاج وغيرها. وسننتهى من قراءة التقرير، ونحن على يقين من سبب الوفاة. ومن بقى لديه شيء من الشك فيمكنه أن يطالب بتشريح الجثة لمعرفة السبب المؤكد للوفاة.

وبالمثل حين نقول أن (دورة الماء فى الطبيعة تتضمن تبخر الماء من المسطحات المائية كالبحار والأنهار ، ثم تكاثف الماء على هيئة سحب ، ثم سقوط المطر ، ثم التبخر مرة أخرى) ، فأين الغموض هنا؟ هل تثير هذه الكلمات بلبلة وتحتمل أكثر من معنى؟

وحين نقول: (ألقيت القنبلة النووية على هيروشيما عام 1945م) فأين الغموض هنا؟ وهل من الممكن أن ينشأ تضارب فى الآراء حول معنى هذه الجملة التى لا يختلف عليها اثنان؟

وحين نقول أنه (فى القرن السابع عشر لم يكن من الممكن لأى إنسان أن يحيا وهو يعانى من فشل كامل فى وظائف الكليتين) ، فأين الغموض فى هذه العبارة التى لا يمكن أن تفهم إلا بطريقة واحدة؟ وهل يجوز لأحد أن يقول أنا أفهم منها أن عمليات زراعة الكلى كانت تجرى فى القرن السابع عشر؟

وهكذا فالغالبية العظمى من كلامنا يتسم بدقة شديدة ، وليس من الحكمة أبدا أن نثير الشكوك حول اللغة كلها بسبب غموض بعض عباراتها ، بل إن **من يشك فى كلام محدد فنحن ننظر إليه على أنه إما أحمق لا يفهم ما يقال ، أو ماكر يدعى عدم الفهم كى يتهرب من بعض الواجبات**. مثلا إن قال لك صديقك: (سأكون جالسا فى المقهى الساعة التاسعة صباحا بالضبط انتظارا للقائك) ، فإن وصلتَ إلى المقهى الساعة الحادية عشرة ، وسألك زميلك عن سبب تأخرك ، أجبتَ أنك فهمت من كلامه أنه سيظل منتظرا لك منذ الساعة التاسعة دون أن يضع حدا أقصى للانتظار. إن تفسيرك لكلامه تسمح به اللغة ، لكنه سيُغضبه بشدة لأنك تعمدت إساءة تفسير عبارته الواضحة كى تتأخر عن الموعد. إن من غير المقبول أبدا أن نضخم القليل من الغموض. وإن حدث هذا مع شخص يعرفك لأول مرة فقد يكون حسن النية ويظن أنك لم تفهم ما قيل لك. ومن هنا نقول باطمئنان أن **ما بعد الحداثة تدور بين أمرين: المكر والغباء.**

وهب أنك ضللت الطريق مع صديقك فى الصحراء ، ونال منكما العطش ، وأنهككما الجوع ، وفجأة وقع بصركما على مروحية تقترب منكما استعدادا للهبوط ، فهتفت مع صديقك بصوت واحد: (طائرة. طائرة) ، ففى هذه الحالة ما الذى يفهمه كل منكما من كلمة (طائرة)؟ قطعا سيفهم كل منكما نفس الشىء وهو أن هناك آلة ضخمة تطير قد اقتربت منكما ، ويمكنها أن تنقذكما. ومن المحال أن يفهم أى منكما فى تلك اللحظة كلمة (طائرة) على أنها آلة تشبه البطة العرجاء التى لا تقدر على حمل كتكوت ، أو أنها تتحرك على سكة حديدية ، على اعتبار أن التفكيك ينكر وجود مدلول محدد لأى دال (كلمة). إن هذا الموقف لا يحتمل معنى آخر لكلمة (طائرة) إلا ذلك الشىء المباشر الذى نراه بأعيننا ونسمعه بآذاننا. هذا الموقف لا يحتمل كل هذه الشحطات التى جاء لنا بها دريدا ، وكأنه نبى من الأنبياء ، أتى لينقذ الفكر البشرى فى القرن العشرين بعد أن كان غارقا فى ظلام دامس منذ أفلاطون.

إن ما يقوله دريدا من أن معنى الكلمة يتأجل فى سلسلة لا نهائية من الاختلافات هو محض لغو وهراء ولا يصدقه إلا طفل يوشك على النوم. إن ما بعد **الحداثة تتعمد إضافة هالة من التعقيد والغموض على الواقع ، وتصور اللغة على أنها متاهة أو مغارة بلا قرار**، لا ينجو منها من يدخل فيها.

سابعا:

يقاوم التفكيكيون مركزية الكلمة ، أى الفرض القائل بأن الكلمات تشير إلى أشياء موجودة فى الواقع الخارجى. ويقولون أن اللغة مكتفية بذاتها ، وأن اللغة لا تشير إلا للغة ، وأن العلاقة بين الدال والمدلول عشوائية ، فمثلا هذا الشىء الأخضر الطويل الذى يتمايل مع الريح نسميه (شجرة) ، مع أننا لو أسميناه (بكرة) أو (حجرة) أو (شجاكو) لما كان هناك فرق لأنه لا يوجد شىء يدخل فى صلب طبيعة هذا النبات يحتم علينا أن نسميه باستخدام حروف الشين والجيم والراء والتاء المربوطة ، والمسألة كلها محض توافق من الناس.

ونحن نؤكد أن هذا الكلام خاطىء. إن الكلمات التى نطلقها على الأشياء تُختار للتعبير عن مفاهيم واقعية إيجابية. إننا مثلا نختار كلمات رقيقة للإشارة إلى الأشياء الرقيقة ، فمثلا نحن نسمى الطفل الرضيع (بيبى) و (نونو) ، ولا نسميه غضنفر أو صخر. وإذا نظرت إلى أسماء الإناث فى جميع اللغات لوجدت أنها عادة ما تكون فى غاية الرقة كى تتفق مع رقة الأنثى خلافا لأسماء الذكور التى تميل للخشونة تماشيا مع قوة الرجل وغلظته[68]. ويمكن للمرء أحيانا إن سمع لأول مرة اسما أجنبيا لأحد الأشخاص أن يعرف ما إذا كان هذا الاسم لذكر أم لأنثى.

وفى اللغة العربية بالذات كل حرف له مدلول ومعنى يعبر عن واقع الشىء. وهذا الموضوع يطول شرحه ، لكن يكفى أن نقول هنا أن حرف الخاء مثلا يشير إلى الأشياء الكريهة مثل خجل وخوف وخيانة وخلاعة وخنزير وخنفس وخسيس. ونفس الأمر ينطبق على بقية الحروف ، وهذا يدل على أن الكلمات لا تُختار بشكل عشوائى ، بل تختار لتعبر عن معانى محددة فى الواقع أو الذهن. **ولو لم يكن لأى كلمة معنى محدد كما يقول التفكيك لما ارتبطت أصوات معينة بمعان خاصة.**

أعتقد أن التفكيك الآن قد تفكك بعون الله. اللهم انصر الحق وامحق الباطل.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين.

---

68) من الممكن للأبوين فى بعض المجتمعات المرفهة أن يختارا اسما فى غاية الرقة لابنهما الذكر ، ولكن هذا لا يغير من فكرتنا العامة شيئا لأن الأبوين اختارا اسما يعبر عن صفة الرقة التى يتمنيان أن ينشأ عليها ابنهما **فى الواقع**. وأيضا كان العرب فى الجاهلية يسمون البنت الحرة باسم خشن غليظ (خلافا لأسماء الجوارى الرقيقة)، وذلك حتى لا تكون مصدرا للشهوة الجنسية ولو من بعيد. وهذا أيضا لا يتعارض مع فكرتنا العامة لأن الأب اختار اسما يتمنى أن يكون متماشيا مع صفة لابنته **فى الواقع** (وهى أن تكون غير مثيرة للغرائز).

3- ما بعد الحداثة تدمر النفس

تنكر ما بعد الحداثة بشكل قاطع وجود النفس. وهذا الإنكار يترتب عليه نتائج خطيرة لأن نصوص القرآن والسنة تؤكد وجود نفس ذات طابع غير مادى ، يتوفاها الله بالموت إلى أن يأتى يوم القيامة ، فيَرد إليها الجسد كى تحاسَب على ما عملته فى الدنيا: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: 42]. كما أن الإنسان الذى لا يمتلك نفسا سيكون مخلوقا ماديا خالصا ، وسيكون خاضعا بشكل كامل لقوى الطبيعة والبيولوجيا والمجتمع التى تشكله كيفما شاءت دون أن يكون لديه حرية اختيار ، فكيف يحاسب الله الناس يوم القيامة دون أن يكون لهم يد فى أعمالهم التى عملوها فى الدنيا؟ ولهذا فمعركتنا مع ما بعد الحداثة حول وجود النفس معركة مصيرية. وسنبدأ بعرض آرائهم ، ثم نعقب بالردود المفحمة إن شاء الله.

النفس وَهْم صنعته اللغة والمجتمع

يعتقد أغلب الناس أن الإنسان ليس جسدا فقط ، بل جسدا ونفسا أو روحا. لكن ما بعد الحداثة تنكر وجود النفس ، وتؤكد أن **النفس لا تصنع اللغة ، ولكن اللغة هى التى تصنع النفس والفكر.**

لقد كان نيتشه يعتقد أن الفكر كله ذو طابع لغوى ، وأن **اللغة تشكل الطريقة التى يفكر بها الإنسان فى العالم** ، وحين نفكر فى خبراتنا الحياتية فإننا نصوغ الأفكار على شكل موضوع إضافة إلى محمول، وهذا التفكير اللغوى يجعلنا نظن خطأ أن العالم منقسم إلى أشياء وأحداث ، فنقول مثلا أن **للإنسان نفسا لها أفكار متغيرة ، مع أن ما يوجد فى الحقيقة هى سلسلة من الأفكار دون وجود شىء حقيقى اسمه النفس** ، وغاية الأمر أن اللغة خدعتنا.[69] يقول نيتشه عن إثبات ديكارت لوجود النفس استنادا إلى كونه يفكر: "يوجد تفكير ؛ وبالتالى يوجد ما يفكر. وهذا هو كل ما توصلت إليه حجة ديكارت... **مجرد صياغة لعادتنا النحوية التى تفترض وجود فاعل لكل ما يُفعل**". وهكذا يؤكد نيتشه أن **كل الأشياء**

[69]) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn.** 18-21

وكل النفوس هى محض خيال خلقته اللغة العامة ، ولا يوجد فى الواقع مقابل لما نسميه "الأنا".[70] وهذا الاستنتاج من أهم أسس ما بعد الحداثة.

وعلى درب نيتشه سار سوسير وفتجنشتين اللذان رفضا النظرة التقليدية القائلة بأن اللغة هى فى الأساس قائمة من الأسماء التى ترمز إلى أشياء. والأشياء بعد أن تؤدى إلى إنتاج أفكار داخل عقولنا ، فإننا نعثر على الكلمات التى ترمز إليها ، ولذا فكل كلمة من كلمات اللغة تحصل على معناها من تعبيرها عن شيء فى العالم أو تعبيرها عن صورة ذهنية لشيء ما[71]:

[الكلمات تكتسب معانيها ليس من علاقاتها بأشياء فى العالم ولكن من الكلمات الأخرى فى لعبة اللغة التى هى جزء منها. إنه **النظام اللغوى الكامل هو الذى يحدد معانى أجزاءه الفردية ، وليس علاقتها بشيء خارج النظام.** مثلا كلمة "أصفر" لا تكتسب معناها من إشارتها إلى لون يوجد بشكل مستقل فى العالم وذلك لأن طيف الأوان مدى متصل وليس سلسلة من الألوان المستقلة. وخلافا لذلك فإن الأصفر يحصل على معناه من النظام اللغوى المفروض على الطيف والذى يقسمه بشكل تعسفى إلى مختلف الألوان. وبعبارة أخرى فإنه **يحصل على معناه من نظام من الاختلافات** التى تفصل الأصفر عن غير الأصفر على سبيل المثال من الأحمر والأخضر ، **وليس من علاقته بشيء مستقل فى العالم....** ليس هناك معنى للاعتقاد بأن أى لغة أو وصف يمنحنا صورة دقيقة للعالم بغض النظر عن مدى دقتها المنطقية أو علميتها......**ليس هناك معنى للكلام عن طبقة عميقة مستقلة للفكر هى أساس اللغة. الفكر واللغة يعتمد كلاهما على الآخر. طبعا هناك مخ يوجد مستقلا عن اللغة ، لكنه ليس مخا بتصورات.** وكما يقول سوسير : (كما أن من المستحيل أن نأخذ مقصا ونقطع أحد جانبى ورقة بدون أن نقطع الآخر فى نفس الوقت فإن من المستحيل فى لغة من اللغات أن نفصل الصوت عن الفكر أو الفكر عن الصوت)....**بدون اللغة لا يوجد فكر تصورى منظم**....وعن إمكانية وجود فكرى سابق للغة يقول سوسير : (من الناحية النفسية فإن فكرنا– إذا ما نحينا جانبا التعبير عنه بكلمات – هو ببساطة **كتلة غامضة بلا شكل.** لا أفكار ثابتة مقدما ولا شيء متميز قبل إدخال البنية اللغوية) ....**لم يعد هناك معنى للكلام عن مفكر ديكارت المنعزل المكتفى بنفسه (عن الأنا المعزولة التى تفكر).** بما أن كل الفكر المنظم يكون فى لغة، **وبما أن اللغة خلق عام** ، **فيترتب على هذا أن فكر الفرد بالأساس عام**

---

70) **Nietzsche and Postmodernism.** Page 23.

71) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 21-22

واجتماعى. طبعا نحن لا نستطيع أن ننظر فى رءوس بعضنا البعض لكن **بما أن مَركَبة الفكر لغة عامة فإن التفكير أساسا نشاط عام وليس نشاطا خاصا.** وطبقا لوجهة النظر هذه فإن **أفكار الفرد لم تعد تنشأ فى الفرد. المركز الآن يقع فى لعبة اللغة الجماعية التى سيطرت على رأس الإنسان.** وإن كان الحال كذلك فإن من الممكن حتى أن نسقط الفكرة الحداثية القائلة بأن الفرد يتكلم لغة ، لنقبل بدلا من ذلك دعوى هيدجر أن اللغة تتكلم الإنسان......وإن قبلنا بفكرة أن اللغة سابقة على الفكر فإننا **سنرفض أيضا الفكر الحداثية القائلة بأن النفس يعبَّر عنها باللغة.** وبدلا من ذلك **سنرى النفس بوصفها مخلوقة بواسطة اللغة.** وبالتالى **سنفترض أن الاعتقادات والرغبات التى تميز إنسانا تدخل رأسه تحت إرشاد لغة جماعية....** وإذا كان **الفكر لغويا فإن علينا أن نسقط الفكرة الحداثية المتعلقة بالنفس الخاصة المستقلة المكنونة.]**[72]

ويرى الفيلسوف ميشيل فوكو أن **هوية الإنسان تحددها الظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية.** النفس البشرية لا يمكن أن تكون سوى شىء **تحدده وتقيده الخطابات الناتجة عن علاقات القوة ، وهذا خلافا للنظرة التقليدية القائلة بوجود طبيعية بشرية غير تاريخية.** على سبيل المثال بدلا من أن يتكلم الغرب عن أن بعض الأفراد يفعلون اللواط فإنه ألصق بهم هوية المثلية الجنسية ، وجعلهم موضوعا للمعرفة ، وأخضعهم للسلطة التأديبية. إن الأفراد تكونهم أنظمة المعرفة (مثل الطب والطب النفسى) وعلاقات القوة. **لا يوجد شىء فى الفرد – بما فى ذلك جنسيته Sexuality– هو طبيعى أو حقيقى. وما نعتبره طبيعيا أو حقيقيا عن أنفسنا فهو ليس أكثر من آثار القوى المجتمعية** كما تنعكس فى أنظمة المعرفة وعلاقات القوة. وعلى ذلك فالوعد بالتحرر من الكبت الذى يقترحه علم النفس بشكل عام وفرويد بشكل خاص يقدم أملا خطيرا. وإمكانية التغلب على الكبت تقترح إمكانية التحرر وإمكانية الوجود خارج علاقات القوة ، بيد أن **هذا التحرر مستحيل** من وجهة نظر فوكو. إذن فى رأى فوكو هناك **علاقة بين الخطاب والهوية.** والخطاب يعرف على أنه مجموعة من القواعد من أجل تكوين موضوعات تصورية وإنتاج تصريحات حول هذه الموضوعات ، وبعبارة أخرى فإن الأشياء لا توجد فى انتظار من يكتشفها[73]،[74].

---

[72]) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**.. Page 22

[73]) **Sexual Ethics and Postmodernism in Gay Rights Philosophy**. By Carlos A. Ball. 80 N.C. L. Rev. 371 (2002). Available at: http://scholarship.law.unc.edu/nclr/vol80/iss2/2

[74]) **Queer theory**. By Watson, K. Group Analysis, 38, 67-81. 2005; doi:10.1177/0533316405049369

ويرى الفيلسوف ريتشارد رورتى أن **اللغة هى نقطة البداية لكل فكر تصورى منظم عن العالم...ومحاولات القفز خلف اللغة إلى شىء ما يؤسسها أو تعبر عنه أو ربما تأمل أن تكون مقبولة بالنسبة له ، هذه المحاولات أخفقت.** إن انتشار اللغة هو مسألة اللغة المتحركة لتملأ الفراغات التى تركها إخفاق كل المرشحين المختلفين لمنصب "نقاط البداية الطبيعية" للفكر ، نقاط بداية سابقة ومستقلة عن الطريقة التى تتكلم بها أو تكلمت بها بعض الثقافات (والمرشحون لنقاط البداية هذه يشملون الأفكار الواضحة المحددة ، معلومات الحس ، مقولات الفهم الخالص ، بنى الوعى السابق للغة ، وغيرها)... إن الإنسان لا يستطيع أن يطرح جانبا لغته المُدخلة أثناء استمراره فى التفكير بشكل تصورى عن العالم. ويقول رورتى: "**أنا لا أستطيع أن أعتقد أن التفكير شىء مختلف عن استخدام اللغة**"... وبعبارة أخرى: لقد كان فتجنشتين محقا حين ادعى أن مفكرى البشر يبقون إلى الأبد محبوسين داخل زجاجة الذباب اللغوية الخاصة بهم[75].

وعلينا أن نلاحظ أن رورتى حين ينكر وجود نقاط بداية للفكر غير الطريقة التى تتكلم بها (أو تكلمت بها) بعض الثقافات فإنه لا ينكر أن الأطفال الصغار يكون لديهم فى البداية إحساسات خاصة سابقة للغة. وما ينكره هو أن مثل هذه الإحساسات أو المشاعر الخام تقدم الأساس للفكر التصورى وادعاءات المعرفة عن العالم لدى الطفل الأكبر. وبالتحديد لا ينكر رورتى أن الأطفال الصغار فى البداية يجربون حركة حلزونية متغيرة من الألوان ، ولكن ينكر فقط أن هذه الحركة الحلزونية الخاصة تقدم الأساس للتمييزات اللاحقة كما يحدث عندما يبدأ الطفل فى القول: "هذا أحمر وليس برتقاليا". وعلى ذلك فبينما لا يتجاهل رورتى الإحساسات السابقة للغة فإنه يطرح قطيعة حادة فى الحياة الذهنية للطفل ، قطيعة تحدث بإدخال لغة المجتمع فى عمر الثالثة أو الرابعة تقريبا. فقط بعد أن يحدث هذا يصبح الطفل قادرا على التكفير التصورى المنظم الذى يمكنه من أن يصنع مزاعم معرفية من قبيل "هذا أحمر وليس برتقاليا" أو "هذا كلب وليس قطة"[76].

[لا يوجد سبب لافتراض أن الإنسان الذى يستبطن ذاته لديه رؤية مباشرة لنفسه (أو عقله) لأنه –بالنسبة لهنا أيضا– تمضى اللغة على طول الطريق... **وفى أى مرة أستبطن وأفكر حول ما أنا إياه فإننى لا أقابل مباشرة شيئا إلا توصيفات مختلفة لما أنا إياه** ، مثلا "حيوان ذو إرادة" ، أو "ماهية عاقلة" ، أو

---

75) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 28-29

76) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 29

"كتلة من الذرات" ، أو "مخلوق لديه شفقة طبيعية على كل البشر..إلخ. **وبما أننى لست عالما قط بحقيقة غير موصوفة موجودة تحت هذه التوصيفات فإن من المستحيل علىَّ أن أعرف الحقيقة حول نفسى الواقعية.** وطبقا لوجهة النظر هذه فإن الأشخاص الذين يخبروننا أنهم "عثروا على أنفسهم" فإنهم لم يعثروا على شىء أكثر من وصف خاص فى رءوسهم يؤمنون به. ولكن كما كان الأمر بين اللغة والعالم الخارجى فإن **الفجوة بين اللغة والعالم الداخلى لا يمكن عبورها** ، ولذا فلا معنى للحديث عما إذا كان المرء صادقا مع نفسه [77].]

وبالنسبة لجاك دريدا فلا مكان لأى شىء اسمه النفس فى فلسفته ، تلك الفلسفة التى تقوم حول انتقاد ما يسميه بمركزية الكلمة Logocentrism ومركزية الصوت Phonocentrism. وهذا المصطلحان –كما تقول شارون كرولى– هما لقبان أطلقهما دريدا على الافتراض المؤسسى للفسفة الغربية القائل بأن **أرواحا أو نفوسا أو عقولا أو ذواتا واعية مندمجة تقع فى مركز كل النشاط الإنسانى.** والقول بأن فرضا ما مركزى الكلمة يعنى أن هذه النفس مرتبطة بكلمات. والقول بأن فرضا ما مركزى الصوت يعنى أن النفس تُظهر أو تُمثل بصوت متكلم[78].

ومركزية الكلمة تشتق مما أسماه دريدا بمتافيزيقا الحضور التى سبق أن تكلمنا عنها. إن أرسطو باعتباره معبرا عن ميتافيزيقا الحضور كان يتصور أن اللغة تمثل الحقيقة ، كما تعتبر أداة لاكتشافها. وما دعا أرسطو إلى ذلك هو اعتقاده – مثل اعتقاد أغلب البشر– بوجود النفس. والنفس فى نظره تدرك العالم كما هو فى حقيقته ، وبعد ذلك تنشىء الكلام أو اللغة التى تعبر بها عن العالم. **أى أننا أمام مرآتين: النفس مرآة ترى العالم الخارجى كما هو بكل دقة ، واللغة هى المرآة الثانية التى تعبر عن النفس كما هى بكل دقة ، فتكون المحصلة أن اللغة تمثل العالم الخارجى بدقة[79]**. ويعبر دريدا عن ذلك قائلا:

[إذا كان الأمر بالنسبة لأرسطو هو أن الكلمات المنطوقة رموز للخبرة العقلية...فذلك لأن **الصوت** –المنتج للرموز الأولى– **لديه علاقة قرب جوهرى ومباشر بالعقل.** وباعتباره (أى الصوت) منتجا للدال الأول فهو لا يكون مجرد دال بسيط بين آخرين. **إنه يدل على "الخبرات العقلية" التى هى نفسها تعكس الأشياء بواسطة**

---

[77]) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 29-33

[78]) **A Teacher's Introduction to Deconstruction**. Page 1-2.

[79]) **A Teacher's Introduction to Deconstruction**. Page 2-3.

التشابه الطبيعى. وبين الوجود والعقل ، وبين الأشياء والمشاعر توجد علاقة ترجمة أو دلالة طبيعية. وبين العقل والكلمة توجد علاقة تعبير تقليدى بالرموز.][80]

لقد قامت الميتافيزيقا التقليدية **بمنح العقل ميزة على اللغة كقوة منشئة للوعى الإنسانى.** لقد اعتبرت العقل المحرك الرئيسى للبشرية ، بينما تم **خفض رتبة اللغة** لتصبح وسط ثانوى يمكنه فقط إعادة تقديم حركات العقل أو محاكاتها. لقد **أصبح الفكر هو الأساسى ، واللغة مشتقة منه ، تمثله أو تعكسه أو تعيد خلقه**[81].

وهذه النظرة التقليدية للفلسفة التى ترى أن البشر يمتلكون نفوسا ، تدرك العالم ، وتتناقل ما تدركه بينها من خلال وساطة اللغة ، هذه النظرة هى ما شمر دريدا عن ساعديه ليهدمها هدما. يرى دريدا أن الفكر الميتافيزيقى التقليدى اعتقد أن العالم والعقل واللغة كلا منهم يوجد فوق الآخر أو خلف الآخر أو داخل الآخر. لكن الحقيقة أن **الوعى لا يسبق اللغة ولا ينشئها ، بل إن اللغة هى التى تجعل الوعى ممكنا.** من وجهة نظر دريدا فإن الإشارت نفسها (أو عملية الدلالة) تسبق العقول وليس العكس. إن المعرفة والتفكير عمليتان مرتبطتان بشكل لا يمكن تمييزه عن حركة اللغة. إن **اللغة تتكلمنا. اللغة ليست أداة فى يد الإنسان ، اللغة ليست أداة مطيعة للفكر.** اللغة بدلا من ذلك تفكر الإنسان وعالمه[82].

[إن خبراتنا بأنفسنا وعالمنا تنتج بواسطة اللغة التى نتكلم بها ، **وبما أن كل اللغة غير مستقرة** وهى مجال قوة غامض للأيديولوجيات المتنافسة **فإننا أنفسنا غير مستقرين** ، ونُعد مجالات قوة غامضة للأيديولوجيات المتنافسة. **إن النظر للنفس على أنها هوية مستقلة يمتلكها كثيرون منا هى فى الواقع مجرد خداع مريح للنفس** ننشئه بالتآمر مع ثقافتنا لأن الثقافة أيضا تبغى أن ترى نفسها مستقرة ومتماسكة بينما هى فى الحقيقة غير مستقرة وممزقة بشدة. **إننا فى الواقع لا نمتلك هوية لأن كلمة هوية تدل على أننا نتكون من نفس وحيدة ، بينما فى الواقع نحن متعددون وممزقون** ونتكون فى أى لحظة من أى عدد من الاعتقادات والرغبات والمخاوف والنوايا المتصارعة. ألا يبدو نفس الشخص

---

[80]) **Of Grammatology**. BY Jacques Derrida. Page 11. Translated by Gayatri Chakravorty Spivak. The Johns Hopkins University Press. Baltimore and London. 1997.

[81]) وتضيف شارون كرولى (بتصرف): لقد نسيت ميتافيزيقا الحضور أن القدرة على الدلالة ، تلك القدرة التى سمحت بتفضيل العقل فى المقام الأول كانت بشكل دقيق مجال أو وظيفة اللغة. إن وظيفة المحاكاة التى تمتلكها اللغة وشفافيتها كان لا بد أن تُفترض فى ميتافيزيقا الحضور. وبعبارة أخرى فلكى يتم الاحتفاظ بأسطورة أولوية العقل كان على الميتافيزيقا أن تنظر من خلال اللغة وليس عليها. لقد تم رفع قيمة الدال على المدلول. لقد أصبح الفكر هو الأساسى ، واللغة مشتقة منه ، تمثله أو تعكسه أو تعيد خلقه. وكان من الطبيعى أن تعلى ميتافيزيقا الحضور من شأن الكلام على الكتابة ، وتعتبر الكتابة مشتقة من الكلام ، باعتبار أن الكلام أقرب إلى التعبير عن النفس من الكتابة ، فالكتابة تمثيل لتمثيل ، أى انعكاس باهت للكلام ، يعكس بدوره النفس.

[82]) **A Teacher's Introduction to Deconstruction**. Page 4.

مختلفا حسب الموقف ، فترى هيئته فى العمل غير هيئته فى المحل التجاري أو فى موعد غرامى أو إذا كان وحده أمام التلفاز؟ وحتى إن قصرنا النظر على خبرة المرء بنفسه فى مكان واحد كالعمل مثلا، أفلا تتغير تلك الخبرة من يوم ليوم ، وأحيانا من دقيقة لدقيقة كلما تغير الأشخاص الذين نقابلهم ، وكلما تبدلت الأفكار والعواطف والذكريات التى تحدث لنا؟ وبعبارة أخرى: **أليس كل منا خليط من الأنفس؟** ألا يراودنا أحيانا شعور بأننا لا نعرف أنفسنا بشكل حقيقى إذا ما قارنا أنفسنا بأشخاص ذوى شخصيات متسقة؟ وبالمثل **إذا كنا قد اخترعنا هويتنا فإن من الممكن أن نعيد اختراعها.** أليس هذا هو ما يفعله الإنسان إذ يتغير قلبه عقب جلسات التحليل النفسى أو الاستماع للمواعظ الدينية[83].]

ومن المفيد أن نعيد إيراد كلام أ.ك.م آدم فيما يتعلق بموقف التفكيك من وجود النفس: (إننا حتى لسنا مطابقين لأنفسين ؛ **فهوياتنا المفترضة مركبة من هويات مختلفة** بلا عدد: كاثى كابنة ، وكاثى كإحدى الأقارب ، وكاثى كطالبة ، وهكذا. **وإن حاولنا أن ننتزع بعيدا كل هذه الهويات غير المكتملة فإننا لن نصل إلى الماهية الواحدة الحقيقية لكاثى.** وبعيدا عن كل الهويات الجزئية فإننا لن نكتشف هوية على الإطلاق ، وبعبارة أخرى فإننا **دائما نُعرف فقط كاثى كواحدة من هذه الهويات الجزئية. إن وهم النفس الموحدة** هو إسقاط لرغبتنا الطاغية فى الحضور.)[84]

وهكذا أنكرت ما بعد الحداثة وجود النفس بشكل قاطع.

[83]) **Critical theory today a user-friendly guide**. Page 257-258.
[84]) **What Is Postmodern Biblical Criticism**? By A. K. M. ADAM. Chapter 2: Deconstruction: On Making a Difference. Page: 27.

إثبات الوجود المستقل للنفس

الغيب ليس وهما

إن رأى نيتشه المتعلق بإنكار وجود النفس ليس جديدا ، ولكنه مستمد من الفيلسوف الإنجليزى المعروف ديفيد هيوم الذى أنكر وجود النفس (أو الذات أو العقل) على اعتبار أننا لا ندركها بحواسنا، بل ندرك فقط مجموعة متتابعة من الأفكار والإحساسات ، ومن غير الممكن رد فكرة النفس إلى أى أثر حسى. ورأى هيوم ينبع من مذهبه التجريبى القائم على اعتبار أن "الآثار الحسية" هى المرجع الأخير الذى نقيس به صحة "الأفكار" وحقيقتها ، فإن استطعنا أن نرجع الفكرة إلى أصلها الحسى كانت صادقة، وإلا فهى وهم واختلاق من العقل[85].

ويعبر دكتور ذكى نجيب محمود عن رأى هيوم قائلا:

[وليت هذه الفأس الهادمة قد اقتصرت على العالم المادى ، بل تعدته **إلى العقل نفسه** ، **فأنكرته ، وأزالته من الوجود!** هات هذا العقل وسلط عليه المقياس الذى اتخذه هيوم لمعرفة ما هو حق وما هو باطل ، ثم انظر ماذا يكون من أمره! نحن لا نعلم إلا طائفة من آثار حسية ؛ فكل فكرة مهما جل قدرها لا يمكن ردها إلى أثر من تلك الآثار الحسية قضينا عليها بالبطلان. تتبع إذن فكرة العقل أو الذات وردها إلى أصلها الحسى ؛ فهل أنت واجد بين الآثار الحسية التى أتتك من الخارج ما معناه "عقل"؟ هل تمثل فكرة الذات إحساسا جاءت به العين أو الأذن أو أية حاسة أخرى؟ كلا! إذن فقد تقوض العقل كما تقوضت المادة من قبل ؛ **فلا عقل هناك ، وكل ما فى الأمر سلسلة من المشاعر والعواطف يتبع بعضها بعضا** فى حركة دائمة دون أن تكون هناك "ذات" أو "عقل" تمسكها كلها فى آن واحد ؛ وبعبارة أخرى ليس لدىَّ تلك القوة المزعومة التى أستطيع بها أن أخزن طائفة من الأفكار والمشاعر بل كل ما لدىَّ هو سيل متدفق متلاحق من الإحساسات العابرة التى لا يربطها بعضها ببعض أية رابطة. فأنا الآن ليس لدى إلا شعور واحد أو فكرة واحدة ، وهذه ستمضى من فورها ،

---

85) هيوم هنا يعبر عن روح مذهبه التجريبى الذى يقسم المدركات إلى قسمين هما: الآثار الحسية والأفكار ، وكلاهما فى نظره نوع واحد ، وكل الفرق بينهما هو فى درجة القوة التى يؤثر بها كل منهما فى العقل ، فالآثار الحسية أقوى فى العقل أثرا واوضح ظهورا ، وأما الأفكار فهى عبارة عن آثار حسية تقادم عهدها، فوهنت قوتها ، وضعفت صورتها. وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن تنشأ فى العقول أفكار إلا إذا سبقتها آثار حسية. **إذن الآثار الحسية هى المرجع الأخير الذى نقيس به صحة الأفكار وحقيقتها ، فإن استطعنا أن نرجع الفكرة إلى أصلها الحسى كانت صادقة وإلا فهى وهم واختلاق من العقل** ، وليس لها أصل مما تلقته حواسنا من آثار. حقا إن هنالك أفكارا مركبة لا تماثل الآثار الحسية ، ولكن إن حللناها ألفيناها مكونة من عدد من الأفكار البسيطة التى تنشأ من الحواس مباشرة. وعلى ذلك تكون تلك الأفكار المركبة صحيحة. (انظر كتاب: **قصة الفلسفة الحديثة**. تأليف دكتور ذكى نجيب محمود. صفحة 234-235)

وتحل أخرى مكانها ، ثم ثالثة ، فرابعة ، وهلم جرا ، وليس ثمت عقل يمسكها ، ويجمع بينها كلها فى لحظة بعينها[86].]

وإثبات وجود النفس يحتاج إلى كتاب كامل ، ونكتفى هنا بالقول بأن هيوم – الذى سار نيتشه على خطاه – يعبر فى هذه المسألة عن روح مذهبه التجريبى الذى يؤمن فقط بكل ما هو مادى ومحسوس ، **لكن ما الذى جعله يجزم أن كل ما هو موجود فلا بد أن يكون ماديا محسوسا؟ ما الذى يحول دون وجود كائنات غير مادية كالنفس أو الله؟** هل يعتقد هيوم أنه قدرته وقدرة الإنسان على المعرفة محيطة شاملة، بما يمكنه من سبر أغوار الوجود حتى يخبرنا بكل ثقة أن من المستحيل وجود أى شىء غير مادى؟ لقد تبنى هيوم اعتقادا لا دليل عليه ، ثم استخدمه لإنكار وجود النفس. كما أن **اعتقاد هيوم فى الواقع اعتقاد بال ، فالعلم الحديث يكشف لنا كل يوم عن موجودات لم يكن أحد يتخيل وجودها ،** ولكن لما تقدمت الأجهزة والآلات استطعنا إدراك وجودها ، وذلك كالبكتريا والفيروسات والإلكترونات والثقوب السوداء. والعلماء اليوم فى حيرة شديدة مما يسمونه بالمادة المظلمة وكذلك الطاقة المظلمة التى توجد دلائل قوية على وجود كل منهما ، لكن لا أحد يقدر على رؤيتهما أو رصدهما بالتلسكوبات أو وسائل الكشف المعروفة. بل إن العلماء يعتقدون أن هناك مجالات يستحيل على العلم أن يعرف عنها شيئا مهما تقدمت أدواته مثل نطاق بلانك وأبعاد الفضاء الميكروسكوبية التى تتنبأ بها نظرية الوتر. وهكذا بين لنا العلم الحديث أن المؤمنين لا يعيشون فى وهم بسبب اعتقادهم فى الغيبيات ، وإنما منكرو الغيبيات هم الذين يعيشون فى وهم بسبب ظنهم أن كل ما هو موجود فلا بد أن يكون مشاهدا.

اللغة لا تخلق النفس

يشعر كل منا بالبداهة أن لديه نفسا ، وأن هذه النفس تعبر عما بداخلها من مشاعر وأفكار بواسطة اللغة ، أى أن النفس هى التى تخلق اللغة ، لكن ما بعد الحداثة تؤكد العكس ، فتقول أن اللغة هى التى تخلق النفس والفكر. وسنقوم الآن بالرد على هذه الدعوى ، ولدينا أدلة فى غاية القوة تثبت أن **للإنسان نفسا خلقت معه قبل أن يتعلم اللغة ، وإن تأثرت هذه النفس باللغة فى بعض الأحيان فإنها تبقى مستقلة عنها ، وقادرة على تحديها والثورة عليها.** فلنبدأ ، وبالله التوفيق:

---

86) **قصة الفلسفة الحديثة**. تأليف دكتور زكى نجيب محمود. صفحة 234-235.

<u>الدليل الأول:</u>

لو كانت اللغة هى التى تصنع الفكر لكان الطفل المولود يكتسب مهارات اللغة أولا ، وبعد ذلك يكتسب مهارات الفهم والذكاء . لكن الواقع عكس ذلك ، فمن المعروف أن علامات الفهم تبدأ فى الظهور على الطفل بعد الولادة مباشرة ، وذلك قبل اكتساب المهارات اللغوية. الطفل مثلا فى عمر شهر يتتبع الوجوه، وهذا من علامات الفهم. وفى عمر شهرين ويستطيع الطفل أن يتعرف على أمه ، كما يقوم بفتح فمه حين يرى ثديها ، ويبتسم إن داعبه أحد الأشخاص ، وهذا يحدث رغم أنه لا ينطق ولا يفهم أى كلمة فى هذه السن ، فأول كلمة لها معنى ينطقها الطفل تكون عند سن 11 شهر ، كما أنه يستطيع لأول مرة أن يفهم كلمة ذات معنى (وهى استجابته حين ينادَى باسمه) عند سن خمسة شهور[87]، [88]. وهكذا تجد أن الطفل يكتسب قدرا مُهما من الفهم والذكاء قبل أن يتعلم حتى قشورا من اللغة ، وهذا يؤكد أن للإنسان نفسا مفكرة ، يسبق وجودها اكتسابه للغة ، ومن المستحيل أن تكون اللغة هى التى تصنع الفكر والفهم. لكن ما بعد الحداثة تريدنا أن **نعتقد أن هذه النفس التى ولدنا بها تموت فجأة بمجرد تعلم الطفل للكلام ، أو تصاب بالشلل التام ، أو تجلس عاطلة عن العمل** ، مخلية الساحة بشكل كامل للغة كى تسيطر عليها، وتحولها إلى عبد لا حول له ولا قوة بعد أن كانت فى يوم من الأيام سيدة ذات قرار . ما هذا السخف؟ **ما الذى يجعل النفس تستسلم بكل تلك السهولة ، وتتوقف عن الإدراك والفهم والتفكير؟ ما الذى يصدر حكما بالإعدام على النفس بعد أن تتعلم اللغة؟** يا إخوانى إن اللغة إن تمكنت فعلا من التأثير على بعض أفكارنا فسيبقى لدى كل منا نفس ، تمكنه من أن ينتقد اللغة ، ويتحرر من قبضتها إن اكتشف يوما أنها تخدعه.

<u>الدليل الثانى</u>

تقول ما بعد الحداثة أن اللغة تصنع الفكر ، لكن الواقع يؤكد شيئا آخر وهو أن **اللغة أيضا تحتاج إلى الفكر. اللغة مهارة كبقية المهارات مثل الخياطة والحدادة والنجارة وكرة القدم والعزف على البيانو. وكل المهارات البشرية تحتاج إلى الفهم والذكاء.** بدون الفهم تصبح اللغة فى أذن الإنسان مجرد أصوات بلا معنى ، وتصبح الكلمات فى الكتب مجرد أشكال بلا معنى ، مثلما يحدث حين تصاب منطقة

[87] **) Developmental milestones: motor development**. By Gerber RJ, Wilks T, Erdie-Lalena C. Pediatr Rev. 2010;31(7):267-277. doi:10.1542/pir.31-7-267

[88]) **Developmental milestones 3: social-emotional development.** By Gerber RJ, Wilks T, Erdie-Lalena C. *Pediatr Rev*. 2011;32(12):533-536. doi:10.1542/pir.32-12-533

فيرنيك Wernicke's Area التى تعتبر أهم منطقة مسئولة عن الذكاء فى المخ. والإنسان المصاب بالتخلف العقلى لا يستطيع الكلام. وأطباء الأطفال يلاحظون هذه الظاهرة كثيرا. وكلما زادت شدة التخلف العقلى ضعفت القدرة على الكلام ، وقد تنعدم تماما. وهذا الظواهر تثبت أن اللغة تحتاج لوجود العقل والذكاء. ولا بد أنك لاحظت أن المرء لكى يتعلم بسرعة لغة جديدة غير لغته الأم فهو يحتاج لأن يكون على قدر من الذكاء. وكلما كان الطالب ذكيا بشكل عام كلما كان أقدر على تعلم اللغة. وعلى ذلك فالنفس البشرية كيان له وجود سابق على اللغة ، وهو الذى يصنع اللغة. النفس تشبه الأرض التى لا يمكن للغة أن تُنبت إلا فى وجودها. النفس تهب الوجود للغة.

<u>الدليل الثالث:</u>

فى أحيان كثيرة **يفهم الإنسان أمورا ويشعر بأشياء ، ورغم ذلك يكون عاجزا عن التعبير عنها بالكلمات، وهذا يدل على أن هناك كيانا اسمه النفس ، مستقل عن اللغة ، وأن الفكر ليس كله ذا طابع لغوى.** ومن قبيل ذلك شعور الإنسان بالحب لشخص يقابله لأول مرة ، فهنا قد لا يجد الإنسان كلاما يعبر به عن سبب حبه ، ولو بينه وبين نفسه. إنه يرتاح لهذا الشخص ، وكفى ، دون سبب واضح. وقد يعثر على هذا السبب بعد تفكير طويل ، لكن ربما يظل جاهلا له.

وبالنسبة لى كثيرا ما أعانى كى أصوغ بعض الأفكار العميقة على شكل كلمات ، وفى هذه اللحظات أشعر بأننى أفهم جيدا أحد الأمور ، لكن أظل أبحث عن الكلمات التى تعبر عن فهمى ، فأتعثر ، وأظل أذهب هنا وهناك ، فأضيف كلمة ، وأحذف أخرى ، وأغير فى الأسلوب إلى أن أستقر فى النهاية على صياغة تعبر بدقة عما أشعر به. ولست أنا وحدى الذى أعانى من هذا الأمر ، فهذا شأن الغالبية العظمى من المفكرين والصحفيين والسياسيين. ومن خلال عملنا فى الطب نعانى كثيرا من عدم قدرة بعض المرضى على وصف ما يشعرون به من متاعب صحية ، خاصة إذا كانوا يشعرون بها لأول مرة. وكثيرا ما يظل الطبيب يلف ويدور حول المريض ليعرف ما الذى كان يحس به حين وقع فجأة على الأرض ، وهل كان يشعر بالدوار ، أم بظلام الدنيا من حوله، أم غير ذلك؟ وهذا يؤكد أن **الفكر يأتى أولا ، وبعد ذلك يبحث الإنسان عن الكلمات التى تعبر عنه،** وربما يظل عاجزا عن العثور عليها.

<u>الدليل الرابع</u>

هناك ظاهرة شديدة الشيوع ألا وهى **ظاهرة خداع "العقل الباطن الصامت" ل"العقل الواعى المتكلم" أو خداع "اللاشعور" ل "الشعور" أو سمها إن شئت ظاهرة "النفاق النفسى"**. وهذه الظاهرة تتلخص فى أن الإنسان يعلن للناس ويعلن لنفسه أنه يتصرف بدافع طيب مع أن لديه فى اللاشعور دوافع أخرى لا يعلمها الناس ولا يعلمها حتى عقله الواعى ، أى أننا أمام حالة نفسية يصعب التعبير عنها بالكلمات.

انظر مثلا إلى الفتاة التى سمعت بنبأ تقدم شاب لخطبة صديقتها ، فحزنت واكتئبت ، فإن سألها الناس عن سبب حزنها أنكرت وجود سبب معين ، وربما إن فكرت هذه الفتاة فى نفسها فلن تعثر على سبب محدد ، وقد تقول: أنا حزينة لأن هذا الشاب ذو أخلاق سيئة ، ولن يسعد صديقتى. وقد تقول لهم أنها تتمنى لصديقتها كل خير ، لكنها تعلم أن الزواج سيؤدى لتباعدهما. والحقيقة أن الفتاة شعرت بالغيرة لأن صديقتها سبقتها إلى الزواج. لقد قامت الفتاة هنا بإخفاء مشاعرها الحقيقية عن الناس ، بل أخفتها عن نفسها حتى لا تتكشف حقيقتها القبيحة.

ومن الأمثلة الأخرى أن تجد الرجل ينضم إلى أحد الأحزاب السياسية أو المنظمات الاجتماعية التى تدافع عن حقوق الفقراء والفئات المطحونة ، وحين يسأله الناس عن سبب تضييع وقته فى هذا النشاط السياسى تجده يرد بكل حماس مؤكدا أنه يحب الفقراء ، وحتى إن فكر بينه وبين نفسه ، فربما يقول نفس الكلام ، لكن الحقيقة أنه يحب أن يثبت لنفسه أنه شخص ذو قيمة ، وأنه يشارك فى العمل السياسى مثل عِلية القوم ، ومما يؤكد ذلك أن هذا الرجل لما أتيحت له فرصة لشغل موقع مهم فى حزب سياسى أكبر يدافع عن رجال الأعمال الجشعين فإنه لم يتردد فى قبول العرض، ونسى كل ما كان يقوله عن الفقراء. وهذا يعنى أنه كان يخدع الآخرين ويخدع نفسه ، أو بعبارة أدق: كان عقله الباطن الصامت يخدع عقله الواعى المتكلم. وفى إحدى المستشفيات كان المدير يذهب إلى عمله مبكرا كل يوم ، ولا يحصل على إجازات ، وكان بينه وبين نفسه يقول أن هدفه تحقيق مصالح المرضى ، لكن هذا المدير كان يكذب على الناس ويكذب على نفسه لأنه فى الحقيقة كان يريد إثبات كفاءته ونجاحه كمدير ، بدليل أنه لما ترك منصبه، وعاد طبيبا عاديا مرة أخرى ، أهمل فى رعاية المرضى.

وغفلة مفكرى ما بعد الحداثة عن هذه الظاهرة النفسية[89] يدل على أنهم أقاموا صرح فلسفتهم على تفكير سطحى غير مرتبط بالواقع. إن ظاهرة النفاق النفسى دليل على وجود حالات نفسية يعجز الإنسان عن التعبير عنها حتى بينه وبين نفسه بالكلمات ، وهذا يثبت بشكل قاطع أن **النفس هى التى تهيمن على اللغة وليس العكس** ، فالنفس هى التى تنتقى لا شعوريا الكلمات التى تجمل صورتها وتخفى قبحها عن العقل الواعى وعن الناس. نحن هنا إزاء **نفس قوية ، تتحكم فى الإنسان ، وتدير حياته من وراء الستار ، فى تكتم كامل ، وسرية تامة. لقد تبين أن اللغة ألعوبة فى يد نفس محترفة شديدة الدهاء ، تبذل قصارى جهدها لتطويع الكلمات وانتقاء العبارات التى تلبسها ثياب الملائكة.** وقد عبر القرآن عن هذا المعنى فى أكثر من موضع حيث أكد أن الكافر المجرم كثيرا ما يكون مصدقا لطهارته وبراءته وصدقه ، فقال تعالى مثلا: {وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: 37] ، وقال: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأعراف: 30]. وعبارة (ويحسبون أنهم مهتدون فى الآيتين) تشير إلى أن المجرمين يصدقون أنفسهم ، أو كما قلنا فإن عقلهم الباطن يخدع عقلهم الواعى. لقد وقعت ما بعد الحداثة فى خطأ قاتل حين ظنت أن اللغة هى الملك القهار الذى يتحكم فى عقل الإنسان، بينما **اللغة فى الحقيقة مجرد عبد مسكين لا حول له ولا قوة أمام نفس فى قمة الدهاء.**

الدليل الخامس

ماذا عن المصطلحات والكلمات التى لا يكف الناس عن اختراعها من حين لآخر مثل مصطلح "العلمانية" و"القومية" و"الاشتراكية" و"العولمة" و"الوجودية" و"البنيوية" و"الوضعية" وغيرها من المصطلحات التى لم تكن فى الأصل موجودة فى اللغة ، ولكنها اخترعت للتعبير عن معان جديدة طرأت على ساحة الفكر؟ هذا يعنى أن الفكر البشرى هو الذى يخلق اللغة ، وليس العكس. بل ألم يقم دريدا نفسه باختراع مصطلح جديد هو *différance*، وهو مزيج من كلمتين فرنسيتين للتعبير عن معنى التأجيل والاختلاف؟ فهل نسيت اللغة أن تؤثر على فكر دريدا وحده من دون الناس؟ وفى كثير من الأحيان يلاحظ بعض المفكرين أن بعض المصطلحات مضللة أو غير دقيقة ، فيستبدلونها بمصطلحات

---

[89]) نحن نؤكد أن ظاهرة إخفاء المشاعر القبيحة شديدة الشيوع بين كل الناس فى كل المجتمعات، بل إننى أؤكد أن الغالبية العظمى من الناس لم تنج منها ، والإنسان الحكيم هو الذى يعود إلى نفسه ويستجوبها ليعرف أسباب الخير الذى تعمله ، وما إذا كانت هناك دوافع خفية وراء الدوافع التى يعلنها لنفسه ويعلنها للآخرين أم لا.

أخرى أدق ، ومن قبيل ذلك رفض بعض الكتاب لمصطلح "العِلمانية" (نسبة إلى العلم) واستبداله بمصطلح "العالَمَانية" (نسبة إلى العالَم أو الدنيا) ، وذلك للإشارة إلى التيار الرافض للدين ، والسبب أن هذا التيار لا علاقة له بالعلم ، وعلاقته الحقيقية هى بالعالَم وما به من أمانى وشهوات ونسيان للآخرة. وإذا نظرت إلى علماء الطبيعة لوجدت أنهم يستخدمون اللغة بوعى شديد ، فتراهم يقولون لنا مثلا أن مصطلح "الجسيمات الأولية" غير دقيق لأن ما يوجد فى الواقع هى "مجالات" ، والجسيم ما هو إلا اهتزاز فى أحد المجالات ، ولكن العلماء مضطرون لاستعمال كلمة "جسيم" لأنها تسهل الفهم والتعلم. ولو كانت اللغة هى التى تصنع الفكر لما كان لدى أحد وعى بأن "الجسيم" مصطلح مضلل ، ويحتاج إلى تغيير. وكل العلماء فى كل المجالات يقومون بمراجعة مصطلحاتهم التى يستعملونها من حين لآخر لاكتساب مزيد من الدقة.

إن المشاهدات السابقة تثبت أن الفكر فوق اللغة. الفكر هو السيد الذى إذا أمر قالت اللغة: "سمعا وطاعة". ولو كان الإنسان أسيرا بشكل كامل للغة لغفل عن أوجه قصورها ، ولما فكر يوما فى أن يضيف إليها كلمة أو يحذف أخرى ، وهذا يثبت أن للإنسان نفسا تُسخر اللغة للتعبير عن ذاتها ، وليس العكس.

<u>الدليل السادس</u>

كان على مفكرى ما بعد الحداثة أن يتساءلوا: **إذا كانت اللغة هى التى تصنع فكر الأفراد فمن أين أتت اللغة؟** يجيب هؤلاء المفكرون أنها لغة المجتمع. لكن ما الذى صنع لغة المجتمع؟ هل هناك كائن ضخم اسمه المجتمع يتكلم ، فيتلقى الناس كلامه دون مناقشة؟ طبعا لا ، المجتمع ما هو فى الحقيقة إلا مجموعة من الأفراد. إذن مَن صَنع لغة المجتمع هم الأفراد الذين يرى فلاسفة ما بعد الحداثة أن لغة المجتمع صنعتهم. **فمَن صنع مَن بالضبط؟** المجتمع هو الذى صنع لغة الأفراد أم الأفراد هم الذين صنعوا لغة المجتمع؟ إن ما بعد الحداثة تقع فى دَوْر[90].

لا يتطلب الأمر كثيرا من الذكاء كى ندرك أن من صنع لغة المجتمع هو فرد ، أو مجموعة من الأفراد الذين صاغوا بعض العبارات أو الخطابات أو المصطلحات التى لاقت قبولا وهوى فى نفوس كثير من

[90]) الدَّوْر فى المنطق هو توقف كل من الشيئين على الآخر.

الناس ، فاكتسبت صفة "لغة المجتمع" . على سبيل المثال منذ 35 سنة كان كل طفل فى قريتنا يسمى جده (حبيبى) ، وليس (جدى) ، وهو وصف جميل للجد ، وطبعا من اخترعه كان طفلا يحب جده أو رجل يريد من ابنه أن يوقر جده ، والمهم أن اللقب انتقل من هذه الأسرة ، ثم ذاع فى كل القرية ، ثم انتقل إلى القرى المجاورة ، فساهم فى توقير الأطفال لأجدادهم. وبالمثل سنجد أن من اخترع المثل الشعبى القائل: (ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع) كان شخصا بخيلا. ومن اخترع المثل القائل: (من آمنت للرجال آمنت للماء فى الغربال) كانت امرأة خانها زوجها. **إذن الفرد هو الذى صنع لغة المجتمع. وبعد ذلك يمكن للغة المجتمع أن تؤثر على فكر الأفراد**. ولذلك فنحن نصر على أن من الخطأ القول بأن العلاقة بين النفس واللغة علاقة ذات اتجاه واحد من اللغة إلى النفس. العلاقة ذات اتجاهين، فكل منهما يمكن أن يؤثر على الآخر: **بعض الأفراد يسيرون وراء لغة المجتمع كالقطيع ، لكن البعض الآخر يثور على لغة المجتمع ، ويغيرها.**

ولو كان الأمر خلاف ما نقول لاستحال حدوث تغير للمجتمعات. خذ مثلا مسألة كالشذوذ الجنسى: لقد كانت أوربا تحتقر الشذوذ الجنسى فى القرن التاسع عشر ، لكن فى منتصف القرن العشرين بدأت أصوات بعض المفكرين تعلو منادية بالتعاطف مع الشواذ ، وعلى رأس هؤلاء ميشيل فوكو. وبعد خمسين سنة تقريبا كان المجتمع الأوربى قد استجاب بالتدريج لدعوة فوكو ، حتى صار الشذوذ اليوم ظاهرة اجتماعية مقبولة ومشروعة تماما. فما الذى غير لغة المجتمع وخطابه؟ هل تغيرت اللغة وحدها بدون مغير؟ إن مَن غيرها نفر قليل من الأفراد على رأسهم فوكو. **وقد رأينا هذا الواقع بأعيننا ، رأينا مجموعة من الأفراد يغيرون لغة مجتمعات مكونة من مئات الملايين ، وهذا يثبت بشكل نهائى وقاطع أن للإنسان نفسا تخلق اللغة** ، وأن تأثُّر بعض النفوس بلغة المجتمع لا يعنى أن اللغة قَدر لا يمكن الفرار منه ، ولا أن الإنسان مجرد قطعة طين يسهل تشكيلها لكونها تفتقد الحرية والإرادة.

وإذا رجعنا إلى نيتشه ، وهو يتكلم عن أخلاق السادة وأخلاق العبيد لوجدناه يؤكد أن **شيئا ما داخل الإنسان (نيتشه لا يسميه النفس بل يسميه "إرادة القوة") يجعل الإنسان الضعيف الجبان يخلق لنفسه خطابا** يضفى طابعا أخلاقيا على صفات الضعف والطاعة والتقوى والصبر ، ويعتبرها من أشكال الخير. يرى نيتشه أن السادة الأرستقراطيين لهم صفات معينة ، فالواحد منهم محب للغزو ، معتز بقوته، يحتقر الرحمة ، ويشمئز من الضعف والضعة وجميع أنواع الاستخزاء. وأبغض شيء إليه الكذب والتملق.

والسيد لا يتسامح، ولا يعرف أنصاف الحلول ، ويميل إلى العفو عن الآخرين لا لأنه يحب العطف ، بل لأن قوته تفيض على الآخرين ، ولكنه لا يقبل العفو من الآخرين ، ولا يحب أن يعطف عليه أحد لأنه يأخذ حقه بيده. وهو لا يحفل بنعم الحياة ، ولا بالطمأنينة والسلام ، إنما يجد النعيم فى الانتصار والقوة والتحطيم ، ويشعر بسرور عميق وهو يعذب الآخرين. وما يقدم إليه من شر يقابله بالمثل بل بأضعافه. وفى المقابل سنجد العبيد والمسودين يحاولون أن يثوروا على السادة ، ولكنهم لما كانوا ضعافا فإنهم يخلقون قيما أخلاقية جديدة تخالف القيم التى وضعها السادة الأرستقراطيون ، فيَعُدون شرا ما يراه هؤلاء خيرا ، والعكس بالعكس. إن صورة الرجل الخيِّر عند العبيد والمسودين هى صورة الرجل المسالم الوديع ، المتواضع ، الذى لا مطمع له فى غزو، ولا رغبة له فى سيادة ، والذى يحسب الضعف فضيلة، والتعاطف والرحمة أسمى القيم الأخلاقية. وبينما تجد الأرستقراطيين يقبلون على الحياة ، ويريدون أن يجعلوها خصبة مليئة، تجد العبيد يعزفون عنها ، ويتشاءمون منها ، وينظرون إليها فى نوع من الجزع وعدم الثقة. كما أن العبد يتصف بالكذب والنفاق والمراوغة بسبب ضعفه وجبنه. وبينما كان الأرستقراطى يفرق بين "الجيد" و"الردىء" ، ترى العبد والمسود يفرق بين "الخير" و"الشرير". ومن هو الشرير فى نظره؟ الشرير هو السيد الأرستقراطى القوى الذى أخضعه. كما يقوم العبد المسود باستخدام اللغة بطريقة مضللة ، فيقلب القيم ، ويسميها بعكس ما هى فى الواقع ، فيسمى العجز "إحسانا وطيبة"، ويسمى عدم قدرته على رد الفعل بالمثل "صبرا" ، ويعد هذا الصبر من أمهات الفضائل ، ويسمى حاجته إلى الآخرين وعجزه عن الاعتماد على نفسه "رحمة" ، ويسمى عجزه عن إدراك المطامع السامية "تواضعا". وتراه يقول أن البائيسن وحدهم هم الأخيار ، والفقراء والعاجزون والحقراء والمرضى والمشوهون هم وحدهم الصالحون الذين باركهم الله ، أما النبلاء والأقوياء فسينالون لعنة الله وغضبه[91].

وهكذا نجد أن **العبيد اخترعوا خطابا ومفردات لغوية خاصة بهم لتعبر عما فى نفوسهم ، وهذا يدحض ما تروج له ما بعد الحداثة من أن لغة المجتمع هى التى تصنع فكر الإنسان** ، فها نحن أولاء نرى فكر العبيد هو الذى صنع لغة المجتمع المسيحى المؤمن كما يرى نيتشه. لقد وصف لنا نيتشه شخصية الإنسان على أنها تتحرك بواسطة ما يسميه "إرادة القوة" التى لا يقدم لها تعريفا ، لكنها تبدو **كقوة ماكرة**

[91]) الكلام عن أخلاق السادة والعبيد مأخوذ بتصرف من كتاب: **نيتشه**. تأليف دكتور عبد الرحمن بدوى. صفحة 172-178. الطبعة الخامسة. الناشر وكالة المطبوعات- الكويت. 1975م.

، **تلعب باللغة ، وتشكلها كما يحلو لها. فهل فِكر الإنسان هنا ضحية للغة** كما يقول نيتشه وغيره من فلاسفة ما بعد الحداثة؟ **لقد وقع نيتشه ومن لف لفه فى تناقض قاتل.**

خلاصة القول أن لغة المجتمع لا تؤثر فقط على الأفراد، بل تتأثر بهم أيضا ، العلاقة بين الاثنين علاقة متبادلة ، وليست علاقة من جانب واحد. لكن ما بعد الحداثة اعتبرت اللغة نبتا بلا جذور ، **أو إلها يَخلق ولا يُخلق** ، إلها يسيطر على عقول بلايين البشر ، ويصنع الحاضر والماضى والمستقبل. وهذه نظرية مثيرة ، لكنها مع الأسف محض هراء.

<u>الدليل السابع</u>

القول بأن اللغة تصنع الفكر قول به شىء من الصحة بالنسبة للإنسان المندفع الأهوج الذى يتلقى الكلام وينطق به دون تفكير أو تروٍ ، وما هذا بشأن الفلاسفة والمفكرين الجادين والعلماء الحقيقيين الذين يجب أن يمحصوا الكلام ، ويعرضونه لنقد صارم ، فلا يصدقون كل ما يسمعون، ولا ينطقون بكل ما يفكرون فيه إلا بعد أن يتأكدوا من سلامة تفكيرهم. وهذا الدليل هو توضيح وتفصيل لما ورد فى ثنايا بعض الأدلة السابقة.

إن مفكرى ما بعد الحداثة يشبهون رياضيا وجد أن التمرين لا يؤدى بالضرورة إلى الحصول على البطولات العالمية ، فبدلا من أن يتدرب بقوة أكبر قرر التوقف نهائيا عن التمرين بحجة أنه وسيلة غير مضمونة للفوز. وبنفس المنطق السقيم رأى أتباع ما بعد الحداثة أن اللغة فى بعض الأحيان تؤثر على فكر الإنسان ، فزعموا أن **الإنسان كائن بلا نفس مفكرة ، مع أن المفروض أن يكون استنتاجهم أن من الواجب استخدام الفكر بدرجة أكبر** لإزالة الحجب التى تضربها اللغة أحيانا على الحقيقة. إن مفكرى ما بعد الحداثة يقفون على رءوسهم!

<u>الدليل الثامن</u>

كيف يمكن القول بأن فكر الإنسان أسير للغة المجتمع مع أن التاريخ ملىء بالنماذج الساطعة لأبطال ثاروا على مجتمعاتهم وثقافاتهم وأديانهم؟ ما رأيكم فى إخناتون الذى ثار على تعدد الآلهة ، ودعا إلى عبادة إله واحد؟ ماذا تقولون فى كوبرنيكوس الذى ثار على علوم العصور الوسطى التى كانت تظن أن الأرض تقع فى مركز الكون؟ ماذا تقولون فى مارتن لوثر الذى ثار على فساد الكاثوليكية؟ ما رأيكم

فى أبى حامد الغزالى الذى خالف كل سكان العالم ، وشك فى كل شىء حوله بما فى ذلك وجود نفسه؟ وماذا عن ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده الذين ثاروا على التقليد ، وحاربوا خرافات الصوفية وزيارة القبور والتوسل بالموتى؟ وماذا عن مصممى الأزياء الذين يبدعون لنا كل عام طرزا جديدة لا يألفها المجتمع؟ وماذا عن العلماء العباقرة الذين يطرحون أفكارا جديدة ونظريات غير مألوفة مثل نظرية النسبية لآينشتين ، وفيزياء الكم ، والثقوب السوداء ، ونظرية الوتر؟ وفيزياء الكم بالذات تقدم مثالا صارخا على أن فكر الإنسان غير خاضع للغة المجتمع لأن هذه النظرية أتت بأفكار شديدة الغرابة ، لم تخطر على بال أحد من البشر من قبل مثل الطبيعة المزدوجة للضوء ، وتواجد الجسيم فى أكثر من مكان فى نفس الوقت. إن فيزياء الكم تثبت أن الإنسان ليس أسيرا للغة ، وإلا لظل العلماء أبد الدهر تابعين لفيزياء نيوتن وماكسويل. وأخيرا ماذا عن جاك دريدا كبير فلاسفة ما بعد الحداثة الذى ثار على الفلسفة الغربية كلها منذ أفلاطون حتى عصره ، متهما إياها بأنها وقعت فى أسر ميتافيزيقا الحضور؟ إن ما بعد الحداثة تبدو فى غيبوبة كاملة ، ولا تشعر بحركة التاريخ على الإطلاق. لقد تندر القرآن على أولئك العرب الذين رفضوا الإسلام ، لا لعيب فى الإسلام ، ولكن لمجرد الاعتزاز بدين الآباء. وقد شبه القرآن هؤلاء –فى استجابتهم لكلام آبائهم فقط وإعراضهم عن كل حجج الإسلام العقلية – بالحيوانات التى لا تفهم إلا أنواعا محددة من الأصوات (الدعاء والنداء): {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: 170، 171].

ولكن دارت الأيام فجاءت فلسفة ما بعد الحداثة لتقول لنا أن كل الناس ينتمون إلى هذا النوع الحيوانى الذى يتلقى بشكل سلبى كل ما يلقنه له مجتمعه. لقد هوت ما بعد الحداثة إلى الحضيض.

الدليل التاسع:

الظواهر التى نعزوها للنفس لا تقتصر على التفكير. النفس موجود يقوم بأنشطة كثيرة ، والفكر مجرد واحد من هذه الأنشطة. **ولو كانت اللغة هى التى تصنع فكر الإنسان ، فهل اللغة هى التى تصنع تلك الظواهر والأنشطة النفسية الأخرى؟** إذن لو صح قول مفكرى ما بعد الحداثة بأن اللغة تخلق الفكر فهذا لا يعنى بالضرورة أن اللغة تخلق النفس. النفس تجوع وتعطش وترغب فى النوم والجنس. والنفس

أيضا تطرب لسماع الموسيقى ، ورؤية الوجه الحسن ، والتنزه بين الحدائق ، ورؤية الذهب والجواهر. ولو صح أن لغة المجتمع تسيطر بشكل كامل على الطريقة التى يفكر بها الإنسان فإن هذا لا يصدق على تلك الجوانب النفسية الأخرى.

إن لغة المجتمع (أو خطابه) ليست هى التى خلقت هذه الجوانب النفسية من العدم. هذه المشاعر فطرية، وموجودة مع الإنسان ، وستظل موجودة حتى لو ولد وعاش مدى الحياة فى غابة بعيدا عن كل الناس. لقد نشأت هذه المشاعر بسبب نشاط خلايا عصبية فى مراكز معينة من المخ ، وسواء وجدت اللغة أم انعدمت فستبقى المشاعر ، وما دور اللغة إلا تعديل درجة نشاطها ، بالزيادة أو النقصان ، وكثيرا ما تفشل فى إحداث أى قدر من التعديل. على سبيل المثال سنجد أن الجوع والعطش من أهم الظواهر النفسية ، وهما ينشآن من إثارة خلايا معينة فى المخ ، وبالتحديد فى ما تحت المهاد Hypothalamus.[92] ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الجوع والعطش لا علاقة لهما من حيث المبدأ باللغة ، فالطفل المولود يبكى إن لم يكن فى ثدى الأم اللبن الكافى رغم أنه لا يعرف أى شىء عن اللغة. وحتى المجنون يشعر بالجوع والعطش ، وكذلك الحيوان الذى لا يعقل. والرغبة الجنسية أيضا تنشا من إثارة الأعصاب فى مناطق متعددة فى ما تحت المهاد وخاصة المنطقة الموجودة فى أقصى الأمام وأقصى الخلف. وبعض المرضى الذين يصابون فى مناطق معينة من المخ يعانون من مرض نادر اسمه "متلازمة كلوفر–بوسى" Kluver–Bucy syndrome ، ومن أعراضه وجود رغبة جنسية جامحة دون اكتراث لضوابط المجتمع وأخلاقه ، حتى أن المريض يشعر بالرغبة فى الجماع مع الجمادات. والحيوان المصاب بهذا المرض يشعر برغبة عارمة فى الجماع حتى مع الحيوانات غير الناضجة جنسيا ، ومع الحيوانات من نفس الجنس ، بل مع حيوانات من نوع مختلف. وهذا المرض يثبت أن الرغبة الجنسية (وهى إحدى الظواهر النفسية) مستقلة من حيث المبدأ عن لغة المجتمع.

ويحتوى المخ أيضا على "مراكز الثواب" Reward centers ، وهذه المراكز توجد فى مناطق معينة من المخ ، وأهمها النواة الخارجية والنواة الداخلية الباطنية من تحت المهاد. وتوجد مناطق ثواب فى مراكز أخرى من المخ ، لكنها أقل أهمية. وإثارة الأعصاب فى هذه المناطق تشعر الإنسان بالسعادة والرضا والهدوء والسكينة. ومراكز الثواب تؤثر بشدة على سلوك الإنسان ، فالإنسان يسعى دائما لعمل

[92]) مركز الجوع والعطش يوجد بالتحديد فى الجزء الخارجى من "ما تحت المهاد" *Lateral hypothalamus*. وإصابة هذا الجزء من المخ يؤدى إلى فقدان الشهية والرغبة فى شرب الماء. وبالعكس تؤدى إثارة الأعصاب فى النواة الباطنية الداخلية من "ما تحت المهاد" *Ventromedial nucleus* إلى الشعور بالشبع.

الشيء الذى يسبب له السعادة والهدوء. وقد اكتشف العلماء مناطق الثواب عن طريق زرع أقطاب كهربية فى مراكز مختلفة داخل مخ بعض الحيوانات. ويمكن للحيوان أن يثير هذه المناطق بنفسه من خلال تحريك رافعة متصلة بمصدر للإثارة الكهربية ، فإن حرك الحيوان الرافعة شعر بلذة ، وظل يكرر تحريكها ، فيدرك العلماء أن هذا مركز للثواب. لكن إن شعر الحيوان بألم أو خوف أو غيرها من المشاعر السيئة امتنع عن تحريك الرافعة ، فيدرك العلماء أن هذا "مركز عقاب" Punishment center. وإثارة الأعصاب فى مناطق العقاب تجعل الإنسان يشعر بمشاعر سيئة مثل الخوف والرعب والحزن والألم والغضب الذى يصل إلى حد الشراسة والعدوان. وأهم مراكز العقاب موجود فى المنطقة المحيطة بقناة سيلفياس Aqueduct of Sylvius والتى تمتد إلى المهاد وما تحت المهاد. وتوجد مناطق أقل أهمية فى أماكن أخرى[93]. وهذه التجارب المعروفة تثبت بشكل قاطع أن الإنسان لديه مشاعر وعواطف ومظاهر نفسية فطرية سواء وجدت اللغة أم لم توجد. ويؤكد ذلك أن مشاعر الإنسان قابلة للتغير بالعقاقير ، فمثلا إن أدت لغة المجتمع الساخرة إلى جعل فتاة تشعر بالاكتئاب بسبب بدانتها وتأخرها فى الزواج فمن الممكن لها أن تتناول أدوية مضادة للاكتئاب ، فتجعلها تشعر بالسرور والرضا رغم كلمات المجتمع القاسية. وكثير من الأفراد يهربون من لغة المجتمع – أو ما نسميه فى مصر بكلام الناس– بتعاطى الخمور والمخدرات التى تجعلهم يشعرون بالسعادة رغم أن واقعهم كله هم وغم.

حقا يمكن لرأى المجتمع أن يؤثر على مشاعر الإنسان وعواطفه كأن يولد المرء فى مجتمع منحل ، فلا يشعر بالغضب إن خرجت زوجته عارية فى الشارع ، بينما يجن جنون المسلم إن فعلت زوجته ذلك، ولكن تأثير اللغة والخطاب على الظواهر النفسية ليس مطلقا. لقد كان الشعب المصرى فى الخمسينات من القرن العشرين مغرما بأغانى أم كلثوم ، وكانت كل وسائل الإعلام تكيل لها المديح ، ومع ذلك كان هناك قلة تكره أغانيها. وهذه القلة لم تتأثر بخطاب المجتمع ، بل بمرور الوقت كثر عددها إلى أن ظهر عصر الأغانى الشبابية. ويتعجب المرء من تلك القلة من الناس التى تحب صور الشياطين والجماجم وغيرها من الصور المرعبة رغم أن عبادة الشيطان ليست منتشرة فى المجتمع. ولو تآمر كل أهلك وأصدقائك كى يقنعوك بالزواج من فتاة شديدة الثراء لكن وجهها شديد القبح ، وجسدها نحيل ، وصوتها أجش ، فهل سيتحول شكلها القبيح إلى شكل جميل فى عينك لمجرد كلام أقاربك؟ ربما نجح أهلك فى إقناعك بجمال خلقها وضخامة ثروتها لكنك ستظل تنفر من ملامحها القبيحة كلما نظرت إليها. ولما

---

[93]) **Guyton and Hall Textbook of Medical Physiology.** By John E. Hall**.** Chapter 58. Page 714-720. 12th edition. 2011. SAUNDERS ELSEVIER. USA

كنتُ صغيرا تعب كل أقاربى كى يقنعونى بأن الكوسة والقلقاس طعمهما حلو ، لكن كلماتهم لم تغير شيئا من كرهى لهما طوال حياتى. والمريض يشعر بنفور شديد من الطعام ، فيظل أهله يقنعونه بأهمية الأكل للشفاء ، فلا تغير كلماتهم من شهيته ، ولا تجعله يُقبل على الطعام بنهم. وإن تُهتَ فى الصحراء، ثم اتصلت بالهاتف بأهلك وأصدقائك ، فأخذوا يشجعونك ويحثونك على تحمل العطش ، فهل ستجعلك كلماتهم تنسى العطش؟ وإن نسيته لساعتين فهل ستواصل بعد يومين؟ وإن كنتَ فقيرا ، ولا تقدر على الزواج ، فهل ستصدق أقاربك وهم يقولون لك أن البقاء بلا زواج أفضل تجنبا لمشاكل الزوجة والأولاد؟ هل ستجعلك كلماتهم تنسى الرغبة الجنسية الملحة؟ طبعا لا.

وانظر أيضا إلى الذاكرة. إنها ظاهرة نفسية يستخدمها الفكر فى حركته ، لكنها مستقلة عنه ، فالإنسان حين يفكر مثلا فى مشكلة يمر بها الآن فإنه قد يعود بذاكرته إلى الوراء ليكتشف جذور آلامه الحالية ، لكن فى بعض الأحيان يتذكر الإنسان أمورا لا علاقة بالفكر ؛ فمثلا فى أحد الأيام وجدت كلمة تتردد فجأة فى ذهنى ، وتلح علىَّ بشكل كبير. كانت الكلمة هى "يعفور". لم أكن أعرف وقتها ما معنى هذه الكلمة الغريبة ، لكننى كنت متأكدا أننى سمعتها من قبل ، وبعد عدة أشهر قرأت أن هذا اسم حمار الرسول عليه السلام ، واسم أحد رواة الحديث ، لكن كيف وأين ومتى وصلت الكلمة إلى أذنى أول مرة؟ لا أدرى. وحدث مرة أن رأيت صورة هنرى كيسنجر على شاشة التلفاز ، فتذكرت أننى رأيت هذا الشخص من قبل ، لكننى لم أتذكر اسمه إلا بعد أن تكلم المذيع عنه. ولو كانت الذاكرة ظاهرة فكرية محضة لما تذكر الإنسان أشياء لا يمكن لذهنه أن يقول أى كلمة عنها ؛ ففى كثير من الأحيان يجد المرء أنه يردد كلمات أغنية يعرفها أو مقطوعة موسيقية قفزت إلى ذهنه فجأة ، وظلت تتردد فى أذنه دون سبب مع العلم أن كلماتها وألحانها لا علاقة لهما بما يفكر فيه فى تلك اللحظة. وقد يتذكر المرء طعم إحدى الأكلات أو رائحة أحد العطور أو شكل إحدى الصور أو ألم بطنه لما أصيب بالتهاب فى الزائدة دون أن يكون فى ذاكرته أى كلمات ، فهو يتذكر إحساس خالص لا يختلط بفكر أو كلمة. وهنا من المستحيل أن تكون لغة المجتمع هى التى خلقت هذه الذكريات الحسية فى نفس المرء.

وانظر أيضا إلى ظاهرة الأحلام: الأحلام ظاهرة فكرية نفسية تختلف عن الفكر المعتاد أثناء اليقظة. ولو كانت اللغة هى التى تصنع فكرنا أثناء اليقظة فمن المؤكد أن فكرنا أثناء النوم يخرج عن سيطرتها على الأقل فى القسم الأكبر منه. فى الحلم يمكن للمرء أن يرى أشياء عجيبة ، وأمورا غير منطقية ،

ويمر بخوارق، ومشاهد غير مترابطة ، ويتكلم بكلام لا يناسب الموقف. الحلم يأتى فى الغالب مضادا للواقع تماما ، فمثلا يمكن للرجل الجاد الوقور جدا أن يرى فى الحلم أنه يفعل بعض الأمور غير الأخلاقية مع أنه يعيش فى مجتمع فاضل ، وهو من داخله يكره هذ الموبقات. وقد يرى الإنسان فى المنام أشباحا وشياطين وأشكال مرعبة لا وجود لها فى الحقيقة ، ولا تخطر على باله على الإطلاق أثناء النهار ، فهو ليس من هواة تتبع حكايات الجان ، ولا يتكلم فى أمورها مع أصدقائه. وستلاحظ كذلك أن أغلب الأحلام تأتى من الماضى السحيق الذى لا يشغل بال الإنسان أثناء اليقظة والذى يكاد يكون قد نسيه. أنا مثلا أغلب أحلامى تأتى من فترة الطفولة ، ومن الأماكن التى كنت أرتادها فى ذلك الحين خاصة الحقل والمدرسة والبيت القديم والشوارع القديمة رغم أننى لا أفكر فى هذه الأشياء تقريبا أثناء اليقظة. وكثيرا ما أرى فى المنام أننى أطير رغم أننى فى اليقظة لا أحن لركوب الطائرة ، ولا أفكر بطريقة عباس بن فرناس. ويمكن للرجل الذى تشاجر مع زوجته أن يفاجأ بحلم يشعر فيه تجاهها بالود. وكل هذا يثبت أن الأحلام فى القسم الأكبر منها لا علاقة لها باللغة ولا بالثقافة ولا بالخطاب السائد فى المجتمع الذى نعيش فيه.

وما سبق يثبت أن الإنسان ليس مجرد عقل مفكر. الإنسان لديه جوانب نفسية أخرى غير الفكر ، وهذه المظاهر النفسية مستقلة عن المجتمع ، ولا تخضع له بشكل مطلق رغم أنها تتأثر به فى بعض الأحيان. إن لكل منا نفسا ، تعبر عن ذاتها من خلال ظواهر عديدة مستقلة عن الفكر وعن لغة المجتمع.

تغير النفس لا ينفى وجودها

انتهى ردنا على قول ما بعد الحداثة بأن اللغة تخلق النفس. وسنقوم الآن بالرد على إنكار ما بعد الحداثة لوجود النفس على أساس أن الإنسان لا يمتلك شخصية واحدة ، وأن شخصيته تتغير من موقف لآخر ومن مكان لآخر.

إننا نقول: ما المشكلة فى ذلك؟ النفس كيان يتسم بالمرونة ، **النفس تشبه قطعة الصلصال التى يشكلها المثال** ، فيصنع منها حصانا ، ثم يعيد تشكيلها لتصبح سيارة ، ثم يشكلها مرة ثالثة على هيئة زهرة. إنها نفس قطعة الصلصال رغم تغير شكلها. وبالمثل تتغير أحوال النفس ، فتفرح تارة ، وتحزن تارة ، وتقلق تارة ، وتغضب تارة ، وتكتئب تارة، وتتكبر تارة ، وتتواضع تارة. وكل ذلك وهى كما هى. لقد

كان من الضرورى أن يخلق الله النفس بهذه المرونة ، فلو خلقت النفس على وتيرة واحدة لكانت كارثة. هب أن الإنسان رُكبت نفسه ليكون باستمرار سعيدا ، فإن علم يوما أن ابنه مدمن مخدرات فإنه لن يغضب ، ولن يُقَوم ابنه. وإن التحق هذا الإنسان السعيد يوما بالجيش لأعطى الزهور لجنود العدو الذى اغتصب أرضه. إن من الطبيعى أن تكون النفس مرنة كى يتصرف المدير بحزم مع الموظف المهمل، ويتصرف برفق مع الموظف المجتهد ، ويبدى الشفقة تجاه امرأة فقيرة تتسول فى الشارع. **إن تغير أحوال النفس لا ينفى وجود النفس ، بل يدل فقط على أن النفس ليست كيانا جامدا أو بسيطا.**

إن جسيما كالفوتون يتصرف فى بعض الأحيان كما لو كان جسيما ، ويتصرف فى أحيان أخرى كما لو كان موجة ، ومع ذلك يظل هو هو نفس الفوتون. ولم يقل أحد من العلماء قط بأن اختلاف الطريقة التى يتصرف بها الفوتون دليل على أنه لا يوجد فى الطبيعة شىء اسمه فوتون.

ألم تر إلى البذرة كيف تتحول إلى نبتة صغيرة ، ثم شجرة وارفة الظلال ، ثم تذبل ، فتصبح قطعة خشب ، ثم قطع من الفحم؟ لقد اتخذ نفس الكيان أشكالا متعددة.

ألا تعلم أن الماء يوجد فى الطبيعة فى حالات ثلاث: السائلة والصلبة (الثلج) والغازية (بخار الماء) ، ومع ذلك يظل الماء ماء كما هو رغم تغير شكله؟

ألا يعلم مفكرو ما بعد الحداثة أن نفس القدر من الطاقة يتحول من صورة إلى أخرى ، فيكون لدى الماء المرتفع مثلا وراء السدّ "طاقة وضع" ، تتحول بالسقوط إلى "طاقة حركة" ، ثم إلى "طاقة كهربية" (من خلال التوربينات والمولدات الكهربية)، فتنقل إلى البيوت ، لتتحول إلى "طاقة حرارية" فى السخان والمدفأة؟ فهل تغير شكل الطاقة ينفى وجود الطاقة؟ طبعا لا.

ثم إن النظرة الإسلامية تقول أن الإنسان ليس شيئا واحدا. هناك نفس تتغير ، وتعتريها المشاعر والعواطف والأهواء والشهوات وتتعاقب عليها الحالات النفسية المختلفة من حزن وفرح واكتئاب وغضب. لكن الإنسان أيضا له عقل، والعقل يتسم بدرجة كبيرة من الثبات ، وهو الذى يحكم النفس ، ويهذبها ، ويضبط انفعالاتها وسلوكها: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس: 7 – 10]. وعلى ذلك فالحالات النفسية الكثيرة التى تعترى الإنسان

يوجد وراءها عقل أكثر ثباتا ، يتحكم فيها ، فيحدد للإنسان متى يتوقف عن الحزن ، ومتى يتوقف عن اليأس، ومتى يجب أن يغضب ، ومتى يجب أن يقلق ، ومتى يجب أن يأكل ، وهكذا.

وطبعا نحن لا نعرف طبيعة النفس ، ومن الصعب معرفة الفروق الدقيقة بين مصطلحات النفس والروح والعقل ، لكن الذى لا شك فيه أن تعقيد النفس البشرية لا ينفى وجودها، ولا ينفى كذلك وحدتها ، تماما مثلما ننظر إلى جسم الإنسان على أنه كيان واحد رغم أنه مكون من يدين ورجلين ووجه وكبد وقلب ، ومثلما ننظر إلى السيارة على أنها كيان واحد رغم أنها مكونة من إطارات وعجلة قيادة وأبواب وزجاج ومحرك. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

4-إسقاط العقائد الكبرى

يوجد فى العالم آلاف الديانات ، لكن أغلب سكان الأرض يؤمنون بواحد من الأديان التالية: المسيحية– الإسلام– الهندوسية– البوذية– الكنفوشية. كما ظهر فى العصر الحديث مئات الفلاسفة الذين كتبوا آلاف الكتب والأبحاث ، لكن قليلا من هؤلاء هم الذين حظيت فلسفاتهم بالقبول والذيوع مثل ديكارت وهيوم وكانتْ وهيجل وسارتر وهيدجر وراسل وبوبر ونيتشه وليفى شتراوس وفوكو.

لقد كان العالم دائما تسوده مجموعة قليلة من العقائد الكبرى التى يلتف حولها أغلب الناس. وهذا أمر طبيعى لأن العقيدة كلما ازدادت قوة منطقية وروحية كلما تمكنت من جذب عدد أكبر من الأتباع. لكن ما بعد الحداثة جاءت لتدمر العقائد الكبرى ، وتبارك كل ما هو شاذ وصغير لأنه لا يوجد – ولن يوجد– من وجهة نظرها عقيدة بعينها صحيحة بشكل مطلق بما يجعلها جديرة بالفوز بقبول الجماهير الغفيرة.

لقد ماجت الحياة البشرية عبر التاريخ بديانات وعقائد شتى ، وكان على المرء أن يدرس هذه العقائد ويحكم عليها بالعقل والمنطق كى ينتقى الصحيح منها. لكن ما بعد الحداثة تفعل شيئا غريبا ، **فهى تقبل جميع العقائد لأنه لا يوجد – من وجهة نظرها– حق ولا باطل ، ولا يجوز لفكرة أن تتقدم على أخرى.** ورغم أن **ما بعد الحداثة تعتبر فلسفة من الفلسفات إلا أنها وقفت فى وجه كل الفلسفات السابقة واللاحقة** التى يدعى كل منها أنه وحده الصحيح ، فالجميع من وجهة نظرها صحيح بشكل متساو، **ومن غير المقبول القول بأن نظرية بعينها تفسر دون غيرها الوجود والإنسان بشكل صحيح.**

وينتقد كبير فلاسفة ما بعد الحداثة "ليوتارد" الروايات الكبرى Grand narratives أو الروايات البعدية Metanarratives ، أى تلك النظريات التى تزعم أنها قادرة على تفسير الطبيعة البشرية والتاريخ وكل شيء (كالأديان والماركسية والرأسمالية والقومية والإنسانية والتقدم العلمى). ومعاداة هذه الروايات الكبرى يلخص كل فلسفة ما بعد الحداثة فى رأى ليوتارد الذى يقول: "بأقصى درجة من التبسيط أُعَرف ما بعد الحداثة على أنها تكذيب الروايات البعدية"[94].

إن هذه الروايات الكبرى تقاوم أى محاولة لتغيير شكلها ، فالماركسية على سبيل المثال لديها روايتها الخاصة لتاريخ العالم التى تشعر أنها صحيحة ، وثابتة عبر الزمن ، ولا تقبل أى نقد ، ولا تحتاج لأى

[94]) **The postmodern condition: A report on knowledge**. By Jean-Francois Lyotard. Translation from the French by Geoff Bennington and Brian Massumi. Page xxiv. University of Minnesota Press, Minneapolis. 1984.

تنقيح. وفى رأى ليوتارد فإن هذه شمولية ، **ويجب بدلا من ذلك تفضيل الروايات الصغيرة** التى تصوغها جماعات صغيرة على أساس تكتيكى لتحقيق هدف معين (مثل اتحاد العمال والطلبة فى مظاهرات 1968 التى طالبت الحكومة بالإصلاح). وهذه القصص الصغيرة لا تدعى امتلاك إجابات لكل مشاكل المجتمع، وهى تستمر فقط طالما كانت ضرورية لتحقيق أهدافها[95]. إن ليوتارد يرى أن **التفسيرات الشاملة تؤدى لظهور مجتمعات شمولية** (متسلطة) ، ولذا فهو يوصى بمجتمع متسامح براجماتى (نفعى) جماعى ليبرالى أناركى (فوضوى) [96] ، يحتفى بالاختلاف ، ويتجنب التأكيدات الكلية ، مجتمع ستكون رواياته صغيرة ومحلية ومتوازية وغير هرمية[97]. إن من المحتمل جدا أن يصبح عالَم ما بعد الحداثة عالما فى حالة فراغ روحى وسطحية ثقافية ، عالما يتم فيه بشكل لا ينتهى تكرار الممارسات الاجتماعية والسخرية منها ، عالما ممزقا من الأفراد المغتربين بلا إحساس بالنفس أو التاريخ ، عالما تم ضبطه على ألف قناة تلفزيونية مختلفة[98].

وينظر مفكرو ما بعد الحداثة إلى تلك النظريات الكبرى (أو الروايات الكبرى) وكأنها طواغيت يجب إبادتها ، ويؤكدون أن ما بعد الحداثة نجحت فى تجريد النظريات الكبرى من سلطتها وقدرتها على أن تصف لأتباعها ما الذى يجب عليهم أن يعتبروه فضيلة ، فالناس من وجهة نظرهم ليسوا بحاجة لمن يفكر بالنيابة عنهم ، فهم ناضجون بما فيه الكفاية لكى يصيغوا قيمهم الشخصية وقصصهم الفردية. **وهذه القصص الفردية لا حصر لها** ، وهى ليست أقل شرعية من القصص الكبرى ، بل ربما كانت أفضل منها لأن الوقائع أثبتت أن القصص الكبرى كثيرا ما خدعت أتباعها. ولم يعد من المقبول من الآباء والمعلمين أن يلقنوا الصغار ما يجب عليهم أن يعتقدوا به[99].

والمرء يتعجب من هذا الهجوم العنيف الذى شنه مفكرو ما بعد الحداثة على النظريات الكبرى. لقد كان عليهم أن يتساءلوا: **وما الذى جعل هذه النظريات كبرى؟ لماذا آمنت بها أعداد غفيرة من الناس؟** لماذا سيطر الإسلام والمسيحية على العالم ، بينما انزوت ديانات مثل عبادة الشيطان والشامانية وأديان القبائل الإفريقية الوثنية فى جيوب صغيرة؟ الإجابة اليسيرة هى أن هذه النظريات تتمتع بنصيب أكبر من العقل والمنطق والجمال الروحى مقارنة بغيرها من النظريات. كيف إذن تأتى ما بعد الحداثة لتطيح

---

[95]) **The Routledge Companion to Postmodernism.** Chapter1: Postmodernism and Philosophy by Stuart Sim. Page 8-9.

[96]) الأناركية Anarchism هى الاعتقاد بضرورة إلغاء الحكومات ، وتنظيم المجتمع على أساس تطوعى وتعاونى (قاموس أكسفورد). وهذا مذهب ساذج كما ترى لأن نصف أفراد أى مجتمع تقريبا أشرار ، وهؤلاء لن يظهروا كثيرا من التطوع والتعاون ، ولن يجدى معهم إلا القوة ، والقوة لا بد لها من حكومة.

[97]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 43.

[98]) المرجع السابق.

[99]) **Postmodern relativism and the challenge to overcome the "value-vacuum".** By Potgieter, Ferdinand and Van der Walt, Johannes. Stellenbosch Theological Journal 2015, Vol 1, No 1, 235–254. DOI: http://dx.doi.org/10.17570/stj.2015.v1n1.a12

بهذه النظريات الكبرى ، وتفضل بدلا منها العقائد الصغيرة التى يؤمن بها فقط عدد قليل من الناس؟ **كيف يعلون من شأن نظريات أخفقت فى أن تلقى هوى لدى أعداد كبيرة من الناس؟ أليس هذا منطقا شموليا غير ديمقراطى؟ هل أصبحت الديمقراطية تعنى فى نظرهم قمع الأغلبية ، ومحاباة الأقلية؟**

وقد تعرضت الموسوعة البريطانية لهذه المسألت ، فبينت أنه **بفرض أن كل الأفكار والفلسفات نسبية فكيف انتشرت بعض الفلسفات وذاع صيتها بشكل كبير ، بينما بقى البعض الآخر متواريا فى الظل؟**

(إذا كان ما بعد الحداثيون محقين فى قولهم بأن الحقيقة والمعرفة والقيمة أمور نسبية حسب الخطاب فإن الخطابات الراسخة للتنوير ليست أكثر ضرورة أو تبريرا من الخطابات البديلة ، بيد أن هذا يثير التساؤل حول الكيفية التى صارت بها راسخة فى المقام الأول. أفإن كان من المستحيل أبدا تقييم أحد الخطابات طبقا لما إذا كان يقود إلى الحقيقة الموضوعية فكيف أصبحت الخطابات الراسخة جزءا من الرؤية العالمية السائدة للحقبة الحديثة؟ لماذا تم تبنى أو تطوير هذه الخطابات بينما لم يحدث نفس الشيء للخطابات الأخرى.)[100]

ويرد ما بعد الحداثيون على هذا الاعتراض الأخير بقولهم أن الخطابات السائدة فى أى مجتمع تعكس بشكل عام مصالح وقيم جماعات النخبة المسيطرة. ولكن يختلف ما بعد الحداثيون فيما بينهم حول تلك الصلة ؛ فبينما يقبل بعضهم على ما يبدو مقولة الفيلسوف والاقتصادى الألمانى كارل ماركس أن "الأفكار الحاكمة لكل عصر كانت دوما أفكار طبقته الحاكمة" ، فإن بعضهم أكثر تأنيا. بعض مفكرى ما بعد الحداثة – مستلهمين البحث التاريخى للفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكو– يدافعون عن الرؤية المختلفة قليلا التى تعتبر أن المعرفة فى حقبة معينة تتأثر دائما –بطرق معقدة ولطيفة– باعتبارات القوة. وهناك مفكرون آخرون يذهبون أبعد من ماركس ، فعلى سبيل المثال قال الفيلسوف الفرنسى لوسى إريجاراى Luce Irigaray بأن **علم ميكانيكا المواد الصلبة قد تطور أكثر من علم ميكانيا السوائل لأن مؤسسات الفيزياء التى يهيمن عليها الرجال تربط الصلابة بالعضو التناسلى الذكرى وتربط السيولة بالعضو التناسلى الأنثوى**[101]!

---

100) **Postmodernism**: Postmodernism and relativism. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/postmodernism-philosophy/Postmodernism-and-relativism, accessed March 22, 2020.

101)**Postmodernism**: Postmodernism and relativism. Encyclopedia Britannica.

ولا شك أن الحكمة تحتم على الإنسان ألا ينساق وراء الآخرين ، وألا يقبل اعتقادات آبائه وأجداده دون نقد وتمحيص ، فربما يتبين أنهم على خطأ. وقد كان الإسلام سباقا فى هذا المضمار حيث وجه القرآن انتقادات للمشركين بسبب تمسكهم بالوثنية لمجرد أنها دين آبائهم ، وليس لأنهم مقتنعين بها: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة: 170]. وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } [المائدة: 104]. إذن لا غبار على أن **الإسلام يفرض على الإنسان أن يفكر ، ويستخدم العقل والمنطق قبل أن يعتقد فى أمر من الأمور ، لكن ما بعد الحداثة لا تحب هذا ، فهى تؤكد أن الإنسان مهما فعل ، ومهما فكر ، ومهما بحث فلن يتوصل إلى الحقيقة** ، ولذا فليَسِر كل إنسان وراء مشاعره ، وليفعل ما يحلو له. والفرق شاسع بين منطق الإسلام وجنون ما بعد الحداثة. **الإسلام يحث الإنسان على البحث عن الحقيقة. وسواء أكانت الحقيقة مع النظريات الكبرى التى يتبعها عدد كبير من الناس أو مع أفكار أقل شعبية فعلى الإنسان أن يتبعها ، وعلى المسلم ألا ينبهر بالأغلبية ، ويتصرف كفرد فى قطيع:** {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} [الأنعام: 116].

وبعبارة أخرى فإن لدينا **وجهات نظر ثلاثة: أولا:** إنسان القطيع الذى يسير دائما مع الأغلبية. **ثانيا:** إنسان ما بعد الحداثة الذى يرفض دائما أن يسير مع القطيع أو الأغلبية. **ثالثا:** المسلم ، وهو يسير مع القطيع إن كان القطيع على الحق ، ويفارق القطيع إن كان القطيع على الباطل. "الحق" هو كلمة السر.

وإذا ذهبنا للتفكيك فسنجد **أنه ينكر شرعية أى مبدأ أو نظرية فلسفية تفسر الوجود لأن هذا المبدأ نفسه يصاغ على شكل لغة ، وبالتالى يبقى مُبتلى بغموض اللغة التى لا تحمل أى كلمة فيها معنى محددا ، بل تبث عددا لا نهائيا من المعانى ، وبالتالى لا توجد نظرية واحدة تفسر الوجود ، بل عدد كبير من وجهات النظر التى يُسمَّى كل منها خطابا.**

> "منذ فجر الفلسفة وحتى الآن **تُشتق كل نظرية فلسفية من مبدأ مؤسِّس** نعتقد أن بإمكاننا أن نتبين من خلاله معنى الوجود. مثلا بالنسبة لأفلاطون فإن المبدأ المؤسس هو المُثُل المجردة ، وبالنسبة لديكارت المبدأ المؤسس هو التفكير العقلانى. وبالنسبة للبنيويين فإن اللغة والخبرات البشرية تتولد بواسطة البنى الفطرية للوعى البشرى. ورغم أن هذه المبادىء المؤسِّسة تنتج فهمنا للعالم المتحرك والمتطور وللنفس المتحركة والمتطورة فإن **هذه المبادىء نفسها تبقى مستقرة بلا تطور**. وكل هذه الفلسفات ابتليت فى رأى دريدا **بمركزية الكلمة** Logocentrism لأنها

تضع فى مركز فهمها للعالم **تصورا (كلمة– لوغوس) ينظم لنا العالم ويفسره ، لكنه يبقى خارج العالم الذى ينظمه ويفسره**. وهذا من وجهة نظر دريدا هو الوهم الأعظم للفلسفة الغربية لأن **كل مبدأ مؤسِّس هو فى ذاته تصور بشرى، وبالتالى نتاج للغة البشرية ، فكيف يبقى هو خارج غموض اللغة؟** كيف يتسنى لأى مبدأ أن يبقى خارج عمليات اللغة المتحركة المتطورة المتشبعة بالعقائدية التى أنتجته؟ بالنسبة لدريدا الإجابة هى أنه **لا يوجد أى تصور يتجاوز عدم الاستقرار الحركى للغة التى تبث عددا لا نهائيا من المعانى الممكنة مع كل كلمة منطوقة أو مكتوبة**. إذن بالنسبة للتفكيك فإن اللغة هى أساس الكينونة ، لكن الأساس ليس خارج اللعبة ، فهو نفسه متحرك ومتطور ومتشبع بالعقائدية. ولهذا السبب **لا يوجد مركز لفهمنا للوجود. يوجد بدلا من ذلك عدد لا نهائي من وجهات النظر** ، وكل من وجهات النظر هذه لها لغتها الخاصة التى يسميها التفكيك خطابا. مثلا هناك خطاب الفيزياء الحديثة ، وخطاب الأصولية المسيحية ، وخطاب تعليم الفن الليبرالى فى التسعينيات من القرن العشرين ، وهكذا. لقد أزال دريدا مركز الفلسفة الغربية كما أزال كوبرنيكوس الأرض من مركز الكون فى القرن السابع عشر حين أكد أن الكون لا يدور حولها[102].

وموقف التفكيك من النظريات الكبرى كما ترون يقوم على رأى دريدا القائل بأنه لا يوجد معنى محدد لأى كلمة من الكلمات ، بل المعنى هو دوال من الاختلافات. وقد سبق أن رددنا عليه فيما سبق. ويكفى هنا أن **نقول لدريدا ببساطة: ولماذا يجب علينا أن نأخذ رأيك بجدية وأنت تهدم كل النظريات الفكرية والفلسفية؟ لماذا لا يكون التفكيك الذى ابتدعته هو الآخر بلا معنى؟** أليس التفكيك عبارة عن نظرية صيغت على شكل لغة كغيرها من النظريات ، وأنت تقول أن اللغة غامضة وبلا مدلول؟ لقد كتب دريدا بنفسه شهادة وفاته.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[102]) **Critical theory today a user-friendly guide**. By Lois Tyson. Page 250-257. Second edition. Routledge. Taylor & Francis Group. New York, London. 2006.

5- ما بعد الحداثة تدمر الدين

لا دين أفضل من الآخر!

الدين هو الضحية الأكبر لما بعد الحداثة. **لقد أنكرت ما بعد الحداثة وجود حق مطلق ، وهذا سهم موجه لقلب الأديان التى ينظر كل منها لنفسه على أنه يمثل الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.** إن ما بعد الحداثة تقول للمسلم: (إياك أن تظن أن الإسلام هو وحده الصحيح) ، وتقول للمسيحى: (إياك أن تظن أن المسيحية هى وحدها الصحيحة). وتقول نفس الكلام لليهودى والبوذى ، ولأتباع كل دين. ما بعد الحداثة لا ترى أن هناك دينا صحيحا ودينا باطلا ، لأنه لا وجود فى نظرها للحق ولا للباطل. **والمبادىء الأساسية التى تدعو إليها أغلب الأديان هى الله والخير والآخرة. ولا شىء من هذه الأمور تثق به ما بعد الحداثة لأنها لا تؤمن بشىء محدد من الأصل،** ولا تعلى من مبدأ على مبدأ، ولا تناصر فكرة ضد فكرة. والأسوأ من ذلك أن ما بعد الحداثة تنكر وجود معان محددة لنصوص أى دين. يقول ويليام دينجيز :

[تؤكد ما بعد الحداثة الصلبة أنه لا توجد حقيقة ثابتة ، ولا توجد قصص بَعْدِية Metanarratives ، ولا توجد مقولات موضوعية للصواب والخطأ ، سواء أكانت ادعاءات العقلانية أو المشروع العلمى الحديث أو الدين "الحقيقى" أو "الكتاب المقدس وحده" Scriptura Sola[103]. وكما لاحظ هوستون سميث فإن ما بعد الحداثة ترفع الغموض إلى مستوى التأليه. وفى عقلية ما بعد الحداثة الصلبة فإن **الحق والباطل ليسا أكثر من مقولات مخترَعة** لتبرير تسلط جماعة على الأخرى. الحقيقة هى قصة أو وجهة نظر مناسبة للنخب الاجتماعية أو بناء خيالى أو نظام حاكم. لا يوجد فى أى مكان حقيقة ملازمة فطرية ليُفصَح عنها. **وكل النصوص – بما فيها النصوص الدينية– تتسم بعدم التحديد. التقاليد الدينية حاملة للقصص البعدية.** وهى تصنع مزاعم تطرح مقدمات موضوعية أو مطلقة. إنها تفترض أنظمة هرمية للحقيقة ، وتربط هذه التأكيدات بإطارات مؤسسية. وبالرغم من ذلك فمن الصعب الإبقاء على المزاعم من هذا النوع –هى وأربطتها المعرفية– فى سياق ما بعد الحداثة. لقد استنزفت منها الثقة حتى حيثما ألقى بظلال الشك على الادعاءات المهيمنة للتجريبية العلمية. **وبالتوازى إذا لم يكن هناك حقائق طاغية ولكن فقط حقائق نسبية بشكل جذرى فإنه لا توجد أسباب طاغية** (خارج

---

[103] الكتاب المقدس وحده Scriptura Sola مصطلح ظهر فى القرن السادس عشر على أيدى البروتستانت ، وهو يشير إلى أن الكتاب المقدس المسيحى يجب أن يكون وحده مصدر العقائد والممارسات بالنسبة للمسيحيين.

الأسباب البراجماتية والاستغلالية والأسلوبية) **للانتماء لإحدى المؤسسات الدينية مقابل الأخرى** أو لأيها من أجل هذه المسألة. وبالتالى ففى تخريبها الأبعد للحدود فإن ما بعد الحداثة تساهم فى انخفاض السلطة العامة وحضور وشهادة الدين. والروح الثقافية لما بعد الحداثة متورطة كذلك فى نزع أحشاء الرموز الدينية. ومن الافتراضات المرشدة لما بعد الحداثة الصلبة أنه **لا يمكن وجود أفكار ثابتة حول أشكال النصوص ومعانيها]**.[104]

وفى دراسة تناولت التناقص الملموس فى عضوية الكنيسة المشيخية Presbyterian البروتستانتية يتضح مدى انتشار رؤية الليبراليين المتأثرين بأفكار ما بعد الحداثة ، وقوام هذه الرؤية أنه **لم يعد ممكنا أن يؤمن المرء أن المشيخية على وجه الخصوص (أو المسيحية على وجه العموم) هى بالضرورة أكثر صحة من أى دين آخر**. وبالنسبة لهؤلاء الليبراليين فإن **الحقيقة الدينية لا تُرى بالأساس فى مقولات موضوعية** ، ولكن من ناحية ما هو معقول ومقبول ذاتيا. ونتيجة لذلك فإن العلمانيين الليبراليين محجمين عن إظهار أى نشاط يفسر على أنه فرض للعقائد الدينية. إنهم مترددون بعمق حول السلطة الدينية. وهم يرفضون الكنائس المؤسسية باعتبارها المصدر الوحيد للسلطة المطلقة. وبالنسبة لكثير من الليبراليين العلمانيين فإن **الثقة فى وجود أى حقيقة دينية موضوعية نهائية قد قوضت بواسطة نزعة نسبوية** أدت بدورها إلى تآكل الولاء والهوية المؤسسية[105].

ولعل القارىء قد فهم الآن **لماذا انتشرت فى السنوات الأخيرة بدعة القول بأن اليهود والنصارى مؤمنون، وأنهم ليسوا ملزمين باتباع الإسلام**. إن هذه البدعة تنبع من قلب فلسفة ما بعد الحداثة التى تؤكد أنه لا فكر أفضل من الآخر ، ولا عقيدة أولى بالاتباع من الأخرى ، وكل شىء نسبى ، وليس هناك حقيقة مطلقة.

فوضى الأديان الجديدة

أدى تلوث عقول الغربيين بفكر ما بعد الحداثة إلى فوضى دينية عارمة بعد أن وقر فى خلد الكثيرين أنه **لا توجد عقيدة أكثر صحة من الأخرى ، وأن كل الأفكار مقبولة** ، وقد تجلى ذلك فى انتشار الروحانية أو العبادات الروحانية Spirituality. وهناك إجماع بين الباحثين على الصعوبة الشديدة

---

[104]) "**Postmodernism and Religious Institutions**". By Dinges, William D. The Way, 36 (3), 215-225. London. 1996. ISSN: 0043 1575. https://www.theway.org.uk/Back/36Dinges.pdf

[105]) "**Postmodernism and Religious Institutions**". Page 217-218

للعثور على تعريف لظاهرة الروحانية ، فنحن لسنا أمام دين له عقيدة محددة وكتاب معروف ، ولكننا أمام فوضى عقائدية عارمة ، **حيث يمتلك كل إنسان عقيدته الفردية الخاصة التى تروق له دون اعتبار لنصيبها من الصدق والحق والعقل**. وفى كثير من الأحيان يتم كسر الحواجز بين الأديان، لتنشأ عبادات هجينة ، تأخذ قسطا من كل دين ، ومن قبيل ذلك الربط بين البوذية والمسيحية. ويرى الباحثون أن العقائد الروحانية ما هى إلا إعادة إنتاج لخرافات الصوفية والغنوصية القديمة[106].

لقد أصبح من حق إنسان ما بعد الحداثة أن يتجاهل تعاليم دينه الراسخة المستقرة ، وأن يفسرها على هواه ، ومن هنا أصبح من الممكن أن ترى مسيحيا يمارس اليوجا ، رغم أن اليوجا من أهم مظاهر العبادة فى الديانة الهندوسية. وأصبحت ترى أناسا يدرسون القبَّالة – وهى حركة صوفية يهودية باطنية– وفى نفس الوقت يذهبون إلى الكنائس كعادتهم. وبعض الناس يصنع لنفسه دينا هو مزيج من المسيحية والبوذية أو الهندوسية ، إضافة لاعتقاداته الشخصية[107].

لقد ظل الدين عبر التاريخ حاكما على الإنسان ، ولكن الآن أصبح الإنسان حاكما على دينه ، فيغير منه ، ويضيف ، ويحذف كما يحلو له. وهذا يذكرنى بقوله تعالى محذرا المؤمنين من الشيطان: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 169]. الشيطان يغوى الناس ليقولوا عن الله ما لم يخبرهم به الله (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون). **لقد كان تحريف العقائد الدينية فى العصور القديمة جريمة كبرى ، يمكن أن تتسبب فى نشوب صراعات طاحنة ، لكن فى عالم ما بعد الحداثة أصبح التحريف مشروعا ومقبولا ، بل صار أمارة من أمارات التحضر. لقد كان الدين شيئا مقدسا لا يمكن للإنسان أن يمسه لأنه هو الحق المطلق القادم من الإله ، لكن فى عصر ما بعد الحداثة لم يعد هناك حق ولا باطل ، فصار الدين أمرا شخصيا خاصا**. وارتفع شعار جديد هو: **(اصنع دينك بنفسك)**. ويشير مصطلح الحركات الدينية الجديدة The new religious movements إلى

---

106) **Van Niekerk, b**., 2018, 'Religion and spirituality: What are the fundamental differences?', *HTS Teologiese Studies/Theological Studies* 74(3), 4933. https://doi.org/ 10.4102/hts.v74i3.4933

107) **Rethinking Traditional Religion in the Postmodern Condition: There is any Axiological Validity of New Religiosity in the 21st Century?** By Ioan Duraa and Bogdan-Florin Chiriluțăb. The European Proceedings of Social & Behavioural Sciences. e-ISSN: 2357-1330. Published by the Future Academy. Conference: WLC 2016 - World LUMEN Congress. Logos Universality Mentality Education Novelty 2016 | LUMEN 15th Anniversary Edition. http://dx.doi.org/10.15405/epsbs.2016.09.42

تلك الأديان والعبادات الخرافية التى انتشرت فى السنوات الأخيرة. ولكن يفضل الكثيرون تسميتها باسم "الروحانية" Spirituality تمييزا لها عن الأديان التقليدية المعروفة.

ومن الحقائق المثيرة التى سيفاجأ بها القارىء أن الوثنية قد ظهرت من جديد فى الغرب! نعم عادت الوثنية مرة أخرى تحت اسم الوثنية الجديدة Neo-Paganism بعد أن سقطت صريعة منذ ألفى عام عقب مجيء المسيحية والإسلام. ويطالب أتباع الوثنية الجديدة – سيرا على خطى نيتشه- بضرورة أن يستعيد الإنسان الغربى هويته التى أطاحت بها المسيحية ، فهوية أوروبا وثنية من وجهة نظرهم كما كان الحال فى الحضارة اليونانية والرومانية قبل مجيء المسيح. والوثنية الجديدة شكل من أشكال الباطنية. **ويحاول أتباع الوثنية الجديدة أن يُجَملوا من وجوههم القبيحة من خلال الزعم بأن رفض الحقيقة المطلقة سيؤدى إلى ترسيخ روح التسامح الدينى** ، وهذا يتحقق من خلال قبول مبدأ وجود عدد لا نهائى من الآلهة ، وتَقَبل كل الوسائل للوصول إلى المُقَدس ، وكذلك كل الأخلاق والمفاهيم الاجتماعية. **وهذه الفكرة تُدخل الوثنية الجديدة إلى قلب ما بعد الحداثة**[108]. ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التظاهر الزائف بالتسامح يفتضح حين يعلن أتباع الوثنية الجديدة رفضهم القاطع للمسيحية مع أنها دين كغيرها من الأديان التى يفترض أن يتقبلوها كما تقبلوا غيرها[109].

خلاصة القول أن ما بعد الحداثة أنكرت وجود حقيقة مطلقة ، وأكدت أن كل الأمور نسبية ، ولهذا **لم يعد أحد يهتم بما إذا كان دينه صحيحا أم باطلا ، فالمهم هو أن يكون مستمتعا وسعيدا بهذا الدين.** ويبدو أن **المسيحية قد شعرت بأنها خسرت معركتها مع ما بعد الحداثة** ، فظهرت أصوات تنصح الكنيسة بمجاراة التفكير ما بعد الحداثى للإنسان المعاصر ، وذلك بأن تقلل كثيرا من اهتمامها بأمور العقيدة ، وأن تركز على الجوانب الروحية للإيمان أى على العلاقة بين الإنسان والله[110]. هذا شأن المسيحية ، ولكن أصحاب الرسالات والمبادىء لا ينحنون للشيطان بل يرفعون رءوسهم ، فالعزة لله الواحد الأحد: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: 21]

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

108) **Rethinking Traditional Religion in the Postmodern Condition**.

109) برغم انتقاداتنا العنيفة للمسيحية إلا أنها تبقى أقرب للإسلام وللحق من الوثنية وعبادة الشيطان والإلحاد.

110) **Postmodern relativism and the challenge to overcome the "value-vacuum".**

6- ما بعد الحداثة تدمر النصوص

لا معنى لأى نص

سنتعرض الآن لواحدة من أكبر الكوارث التى جرتها ما بعد الحداثة على الدين وعلى الفكر البشرى كله. إن من الأمور البديهية أن الكاتب – أى كاتب– يكون فى ذهنه أفكار معينة وهو يكتب مؤلفاته. وحين يقرأ المرء العمل الأدبى أو الفكرى فقد يفهم مقصد المؤلف بسهولة ، وقد يجد بعض الصعوبات فى فهم مراده ؛ فيحاول معرفة غرض الكاتب من خلال التدقيق فى قراءه النص ، ومن خلال الرجوع إلى مؤلفات الكاتب الأخرى وسيرته ومجمل أفعاله. لكن ما بعد الحداثة ترى غير ذلك ، فهى **تنكر وجود تفسير أو معنى وحيد للنص يتحتم على كل القراء أن يكتشفوه ، كما تفتح الباب لكل إنسان كى يفهم أى نص بالطريقة التى تروق له** ، ويترتب على هذا قبول وجود تفسيرات كثيرة مختلفة لأى نص دون أن يكون لأحدها أن يدعى أنه وحده الصحيح ، وما عداه خاطىء. **ومهما حرص الكاتب على أن يوصل فكرته للقارىء بدقة فسيبقى كلامه حمال أوجه لأن كلمات اللغة لا تعطى معانى محددة:**

> "يتساءل البعض: هل من الممكن من خلال التحليل الأدبى والتاريخى اكتشاف المعنى الحقيقى لعمل أدبى ، أى ما الذى كان الكاتب يحاول أن يقوله ، أى **نيته الأصلية وقت الكتابة؟** بالنسبة لرورتى ودريدا وغيرهم من مفكرى ما بعد الحداثة فإن الإجابة هى: لا ، وعلينا أن ننسى مسألة ما إذا كان المرء قد حصل على معنى النص ، واكتشف نية الكاتب. وكمثال على ذلك توجد تفسيرات مختلفة لهاملت ، لكن ليس هناك داع للاعتقاد بأن بعضها أكثر دقة من الآخر[111]."

وفوضى تفسير النصوص التى جاءت بها ما بعد الحداثة تنبع جزئيا من إنكارها لوجود النفس ؛ فإذا كان المؤلف كائنا بلا نفس ولا روح ولا ذات فمن العبث أن نبحث عن نيته وقصده والمعنى الذى أراد توصيله للقارىء من كتابة النص.

وفضلا عن ذلك فإن ما بعد الحداثة قضت على صلابة اللغة تماما ، فقد **أنكرت وجود أى معنى محدد لأى كلمة** لأن مدلول الكلمة فى نظرها لا يكون حاضرا ، ولكنه يأتى من اختلاف الكلمة عن الكلمات الأخرى ، التى يختلف كل منها بدوره عن كلمات أخرى ، وهكذا. ولئن **حاولنا تفسير أحد النصوص**

---

[111]) **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. Page 33.

فسندخل إلى دهليز ، لنخرج منه إلى دهليز آخر ، وهكذا دواليك ، دون أن ننتهى إلى شىء ، أو نتوقف عند معنى نهائى ، وسنظل باستمرار أسرى داخل سجن اللغة الذى لا يفر منه أحد:

[من غير الممكن الخروج من اللغة. اللغة نظام داخلى يشير إلى ذاته ، ولا توجد وسيلة لأن نصبح خارجها...لا يوجد معيار غير لغوى على علاقة باللغة ، **لذا لا يمكن وجود معيار يمكن بواسطته التمييز بين الحقيقى والمجازى ، الصحيح والكاذب**. ولذلك فالتفكيك من حيث المبدأ عميلة لا تنتهى. **وتفسير النصوص لا ينتهى حتى باعتقادات واهتمامات "ذاتية" (**ذاتية بمعنى غير موضوعية**)** ، فالتمييز بين الذات والموضوع تنكره ما بعد الحداثة. إن اعتقادات الشخص واهتماماته هى فى ذاتها أبنية اجتماعية– لغوية ، وبالتالى **فإماطة اللثام عن قطعة من اللغة لكشف اهتمام ذاتى تحتها يعنى فقط الكشف عن مزيد من اللغة. ويمكن لتلك اللغة بدورها أن يماط اللثام عنها لتكشف عن مزيد من اللغة ، وهكذا.** إن اللغة هى أقنعة على طول الطريق.][112]

وكتب رولان بارت مقال شهير عنوانه "**وفاة المؤلِف**". وفى هذا المقال ذكر أن العمل الأدبى كان يتمحور فى الماضى حول شىء واحد هو "المؤلف" وشخصيته وعاطفته وسيرته الذاتية وحريته ، فكان النقد التقليدى يقول أن مؤلفات بودلير تعبر عن فشل بودلير الإنسان ، وأعمال فان جوخ تعبر عن جنون فان جوخ ، وأعمال تشايكوفسكى تعبر عن رذيلته. وهكذا كان من ينشد تفسير أى عمل أدبى فعليه أن يرجع إلى مؤلفه ليكتشف "سر" هذا العمل ومعناه النهائى. لكن رولان بارت يرفض كل هذا ، ويعلن **أن النص ليس له مؤلف وحيد وليس له معنى وحيد ، ودور الكاتب يتضاءل** ويتراجع إلى مجرد شخصية صغيرة فى أقصى الخلفية الأدبية ، **ويصبح اللاعب الأكبر هو القارىء والمتلقى والجمهور الذى يستخرج من النص المعنى الذى يعجبه** ، وبعبارة أخرى فإن **وفاة الكاتب ضرورة لميلاد القارىء**. لقد أمدنا علم اللغويات بأساس **لتدمير الكاتب** بإظهار أن النطق بكامله عملية خاوية ، تعمل بشكل تام دون الحاجة لأن تُملأ بأشخاص المحاورين. ومن الناحية اللغوية فإن الكاتب ليس أبدا أكثر من الشخص الذى يكتب. إن النص لا يتكون من سلسلة من الكلمات التى توصل معنى "لاهوتى" واحد (رسالة المؤلف–الإله[113]) ، لكنه فضاء من أبعاد كثيرة ، يتم فيها ربط وتنافس أنواع مختلفة من الكتابة، لا أحد منها أصلى. **وإن أراد الكاتب أن يعبر عن نفسه فعليه أن يعلم أن الشىء الداخلى الذى يزعم أنه**

---

[112]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 175-176

[113]) المقصود هنا أن معنى النص ليس مقدسا كقدسية الأديان ، والمؤلف ليس مقدسا كقدسية الإله ، وبالتالى فلا ضير من السطو على النصوص واستخراج أى معنى من ثناياها.

يترجمه هو فى ذاته مجرد قاموس جاهز يمكن تعريف وشرح كلماته بواسطة كلمات أخرى ، وهكذا إلى ما لا نهاية. إن الكاتب لم يعد يضم داخل نفسه عواطف وانطباعات، بل قاموسا ضخما يستمد منه كتابة لا تعرف التوقف ولا النهاية. وهكذا صار هناك عدد لا نهائى من تفسيرات النص. إن اللغة هى التى تتكلم وليس المؤلف. ومن الناحية اللغوية فالمؤلف ليس أكثر من لحظة الكتابة. وأن تكتب معناه أن تصل إلى النقطة التى عندها تكون اللغة هى التى تتكلم وتؤدى وحدها وليس المؤلف. وطالما أن المؤلف قد أطيح به فإن دعوى فك شفرة النص تصبح فاشلة تماما. ومنح النص مؤلفا يعنى فرض حدود على هذا النص ، وتزويده بمدلول نهائى ، وهذا يعنى إغلاق الكتابة [114].

ويعتبر جاك دريدا من أهم من وضعوا الأساس الفكرى لمبدأ موت المؤلف. لقد تتبع جاك دريدا فكرة عالم اللغويات فرديناند دى سوسير إلى نهايتها التخريبية القصوى. رأى سوسير أن اللغة هى نظام أو نسق من العلامات أو الإشارات signs ، وهى تولد المعنى من خلال الاختلاف. إن كلمة dog تختلف عن كلمة log ليس لأن كلتا الكلمتين (الإشارتين) مرتبطة بالعالم بطريقة ما غامضة ، ولكن لأنهما ببساطة تختلفان عن بعضهما من حيث الصوت والشكل. ولذا فالعلامات أو الكلمات تعسفية وعشوائية، ومعانيها تنقل بواسطة نسق يتفق عليه كل من يستخدم تلك اللغة. ويرى دريدا أن كلام سوسير إن صح فهذا يعنى أن **اللغة مكتفية بذاتها ، أى أنها لا تخبرنا بشىء عن العالم خارجها** ، ونحن نستطيع فقط أن نمتلك أفكارا حبيسة بداخلها. **إن العلامات إن كانت تعسفية فإن معانيها لا يمكن أن تكون ثابتة** ، وستكون بطبيعتها غير مستقرة. إن دريدا لا ينخرط فى جدال مع الفلاسفة ، لكنه يعيد قراءة نصوصهم ليكشف أن **لغتهم غير الثابتة يستحيل أن يكون لها مجموعة واحدة من المعانى.** ويظهر التفكيك أن **أى مجموعة من العلامات اللغوية تستطيع دائما أن تنتج أنواعا مختلفة من المعانى ، كثير منها قد يكون غير مقصود كليا. إن كل الكُتاب – حتى أكثرهم حرصا وموضوعية– هم سجناء غير واعين لأنساق العلامات التى تُكَون أفكارهم** ، وسيتركون حتما آثارا من هذا فى أعمالهم. والقراءات الإبداعية لأى نص ستكشف كيف أن بعض الأفكار التى يدل عليها أى نسق ثنائى لها ميزة على الآخرين. **وإن صح القول بأن المعنى يتولد بواسطة الاختلاف فإن بعض الاختلافات ستعطى أولوية على الأخرى التى تؤجل معانيها.** إن المعانى بطبعها غير مستقرة ، ولذا ستنزلق حتما حين يتم تبادلها. إن من غير الممكن حضور معنى مستقر حين يتم التواصل بين الكاتب والقارىء والسامع. وعلى ذلك فدريدا يخرب أى مزاعم لفيلسوف حول وجود حقائق خالدة واقعة بطريقة ما خارج أو وراء اللغة. إن دريدا يستنتج أن

---

114) **Image, Music, Text**. By Roland Barthes. Essays selected and translated by Stephen Heath. Page 142-148. (London: Flamingo, 1977).

اللغة دائما "مجازية" بالمعنى الفريد لنيتشه. وهذا له عدة مدلولات خطيرة ، أحدها أن **الفلاسفة لا يستطيعون الذهاب إلى ما وراء اللغة للوصول إلى نوع ما من الحقيقة الموضوعية الواقعة** وراء تاريخهم وثقافتهم المحلية المباشرة. **والنص يستحيل أن يكون ذا معنى واحد**. إن دريدا مثله مثل نيتشه نصير كبير للتحول ، ومنتقد للاعتقاد بأن اللغة تستطيع بطريقة ما أن تمنع التغير ، وتثَبت الأفكار (وهو يسمى هذا الاعتقاد بمركزية الكلمة). إن القناعة بان اللغة تستطيع توليد تأكيدات مستقرة وشاملة هو خطير وضال. **اللغة تستطيع فقط أن تفعل ذلك بواسطة قمع القراءات البديلة أو باستبعاد كل ما يعتبر "آخر". وعمليا فإن هذا يعنى فى العادة تأسيس هيمنات تهمش كل أولئك الذين لا تتماشى قيمهم واعتقاداتهم مع رؤية ما محدودة وممكنة للعالم.** وما بعد الحداثيون من أمثال دريدا يحتفلون بالاختلاف والتنوع والهامش[115].

بالنسبة للتفكيك فإن اللغة متحركة ، وغامضة ، وغير مستقرة ، وتبث باستمرار معانى محتملة. والوجود أيضا بالنسبة للتفكيك ليس له مركز ، ولا معنى مستقر ، ولا أرضية ثابتة. والإنسان هو الآخر أرض معركة ممزقة للأيديولوجيات المتنافسة التى هوياتها الوحيدة هى ما نخترعه ونختار أن نؤمن به. وكما ترى فعدم الاستقرار قاسم مشترك لمبادىء ما بعد الحداثة ، ولذا لا يفاجأ المرء حين يعلم أنه بالنسبة للتفكيك فإن الأدب متحرك وغامض وغير مستقر ، مثله مثل اللغة التى يتكون منها. **المعنى ليس عنصرا مستقرا قابعا فى النص ينتظر أن نكتشفه أو نستهلكه بشكل سلبى. المعنى يخلقه القارىء أثناء عملية القراءة** ، أو بعبارة أكثر دقة: المعنى ينتجه تلاعب اللغة من خلال مَركبة القارىء ، والمعنى الذى يُخلق ليس عنصرا مستقلا قادرا على تحقيق الغلق. وبعبارة أخرى فإنه لا يوجد تفسير يملك الكلمة الأخيرة. النصوص الأدبية مثلها مثل كل النصوص تتكون من معان متعددة متداخلة متصارعة فى علاقة حركية سائلة مع بعضها البعض. و**ما يعد تفسيرا واضحا أو بديهيا لأحد النصوص هو فى الواقع قراءة أيديولوجية، أى تفسير أنتجته ثقافة معينة ذات عقائد خاصة** ، اعتدنا عليه بشدة إلى درجة أننا صرنا نظن أنه طبيعى. باختصار: نحن نخلق المعنى والقيمة التى نجدها فى النص. ولكشف عدم اليقين الذى يعترى النص علينا أن نتخذ الخطوات التالية: 1- لاحظ التفسيرات المختلفة التى يقدمها النص. 2- أظهر الطرق التى تتصارع فيها هذه التفسيرات مع بعضها. 3- أظهر كيف تنتج هذه الصراعات تفسيرات أكثر ، تنتج صراعات أكثر ، وتنتج بدورها تفسيرات أكثر. 4- استخدم

[115]) **Nietzsche and Postmodernism.** Page 36-39

الخطوات الثلاثة السابقة للجدال بعدم يقين النص. وعدم يقين النص لا يعنى أن القارىء ليس قادرا على الاختيار بين المعانى المختلفة للنص ، ولكن تعنى أن القارىء والنص مرتبطان بشكل وثيق[116].

ويعبر ستيفن هيكس بحسرة واضحة عن المآل الذى وصلت إليه النصوص على يد ما بعد الحداثة قائلا: "إن **نظرية التفكيك تقول أنه لا يوجد عمل ذو معنى. أى معنى ظاهر يمكن أن يتحول لنقيضه، إلى لا شىء ، أو يتم الكشف عن كونه قناعا لشىء كريه**. إن حركة ما بعد الحداثة تضم أناسا كثيرين يحبون فكرة تفكيك الأعمال الإبداعية للآخرين. إن **التفكيك له أثر هدم كل المعانى وكل القيم**. إن كان من الممكن لنص أن يعنى أى شىء فإنه لا يعنى شيئا أكثر من أى شىء آخر. لا توجد نصوص عظيمة. إذا كان النص غطاء لشىء محتال فإن الشك يتسلل إلى كل شىء بادى العظمة[117]."

الرد على فوضى التأويل

بنظرة مجملة نقول أن علم التأويل الحداثى Modern hermeneutics أولى اهتمامه الأكبر لدور المؤلف على بقية عناصر التفسير. وبعبارة أخرى فإننا إن استطعنا فهم نية المؤلف فسنصبح قادرين على اكتشاف المعنى الأصلى. أما علم التأويل ما بعد الحداثى Postmodern hermeneutics فيؤكد أن هناك ما هو أكثر من المؤلف ألا وهى رسالة النص ، ورسالة النص تتضمن: أولا: ما طبعه المؤلف فى النص وقت تأليفه ، وثانيا: ما يمكننا اكتشافه فى النص الآن[118].

ولا شك أن كل عاقل يرفض هذا الكلام ، **فليس من حقنا أن نفهم النص بطريقة غير تلك التى قصدها المؤلف ، ومن يجد لديه فكرة تختلف عما كتبه المؤلف أو تتفوق عليه فليقدمها للقراء على أنها فكرته الخاصة بدلا من أن ينسبها زورا وبهتانا لنص ليس من إبداعه ، نص لمؤلف آخر ، ربما يكون قد قصد خلافها تماما.**

إن من أكبر الجرائم التلاعب بمقاصد الآخرين. وماذا يقول جاك دريدا نفسه إن قرأ أحد تلاميذه المبتدئين كتبه ، فخرج يعلن أنه فهم من كتب دريدا أن مدلول أى كلمة من كلمات اللغة هو شىء واقعى محدد؟

---

116) **Critical theory today a user-friendly guide**. Page 258-259.
117) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 199.
118) **Interpreting the Bible against Postmodern Biblical Hermeneutics: The Role of Time and Tradition**. By Kateřina Kočí. *Theologica* . 2014, Vol. 4 Issue 2, p219-231. 13p

هل يصفق له دريدا أم ينهره لأنه تلميذ فاشل لم يحسن فهم منهج التفكيك؟ وهل من الأخلاق أن يتلقى أحد الضباط فى ميدان المعركة رسالة من مقر القيادة العسكرية ، فينقلها لجنوده بطريقة تختلف عما ورد فيها بحجة أن من حقه أن يفهم نص الرسالة بالطريقة التى تروق له؟ طبعا لا. من حق هذا الضابط أن يعتقد أنه أكثر قدرة على تقييم الموقف العسكرى من قادة الجيش ، ومن حقه أن يعتقد أنه أكثر عبقرية من وزير الحربية ، لكن ليس من حقه أن يقول لجنوده أن هذه أوامر القيادة العليا ، وليس من حقه أن يقول للقضاة العسكريين الذين يحاكمونه أنه فهم رسالة القيادة بطريقة مختلفة عن المعنى المباشر الواضح باعتبار أن من حق أى إنسان أن يفهم أى نص بطريقته الخاصة دون الرجوع لصاحب النص. هذا كذب وتزوير. وبنفس الطريقة سنجد أنه ليس من حق قائد السيارة أن يفهم قوانين المرور بطريقة تخالف كل ما يفهمه الناس من هذه القوانين. **وإن سرت فى طريق فرأيت النار تشتعل فى ملابس سيدة ، والناس يجرون وراءها ، وهى تصرخ: (انقذونى. انقذونى) ، فهل من حقك أن تتركها وتنصرف بحجة أنك فهمت أنها لا تقصد تخليصها من النار بل تقصد تخليصها من الرجال الذين يجرون وراءها ليغتصبوها؟! وإن قال المدرس لطلبته: (عليكم عمل هذا الواجب وإحضاره غدا) ، فهل من حق أحد الطلبة أن يقول أنه فهم من كلمة (غدا) أى يوم فى السنوات القادمة؟** إن هذا يذكرنى بموقف مشهور ، حين قال رجل لزوجته: (صباح الخير)، فردت الزوجة: (صباح النور) ، فاحمر وجهه ، وصفعها على وجهها ، قائلا: (أتقولين: صباح النور؟) ، فجن جنون الزوجة من هذا الرجل الذى فهم من رد التحية أنه نوع من الإهانة. وما بعد الحداثة تفكر بهذه الطريقة بالضبط.

وقد يظن البعض أن ما بعد الحداثة تسلك هذا المسلك مع النصوص لأن من المتعذر الرجوع إلى المؤلفين الذين كتبوها. لا ليست هذه هى المشكلة ، فما بعد الحداثة تؤكد أنه حتى لو دخلنا إلى رأس المؤلف وعرفنا مقصده بشكل كامل فلا يزال من حقنا أن نفهم نصه بطريقتنا الخاصة لأن الكلمات لا تمتلك معانى ثابتة [119]. وهذا فى رأينا سلوك فى غاية الوقاحة ، فلأول مرة نرى من يتباهى بحقه فى وراثة الناس وهم أحياء!

وقد سبق أن **ردَدْنا بما فيه الكفاية خلال صفحات هذا الكتاب على موقف نظرية التفكيك من اللغة الذى يمثل الأساس الأهم لمبدأ وفاة المؤلف.** كما سبق أن **رددنا على إنكار ما بعد الحداثة لوجود**

---

[119]) **Interpreting the Bible against Postmodern Biblical Hermeneutics**. By Kateřina Kočí.

النفس ، ذلك الإنكار الذى يعد سببا مهما لنفى وجود معنى نهائى لأى نص من النصوص. فلا داع للإعادة ، وهدفنا هنا أن نعرض موقفهم من النصوص.

إن مفكري ما بعد الحداثة يشبهون لاعبا لا يجيد التصويب ، لاعب أمامه هدف كبير واضح ، ولكنه يخطىء إصابته ، فهم يقدمون أسبابا غريبة لتبرير قولهم بغموض كل النصوص ، مع أن أسباب غموض النصوص معروفة للجميع ، وهى تشمل ما يلى:

أولا: قد يكون أسلوب الكاتب غامضا لأنه يتعمد أن يخفى نواياه حتى لا يتعرض للعقاب من السلطة أو من قوى المجتمع المختلفة ، أو لأن الكاتب لا يريد أن يفصح عن حقيقة أفكاره حتى لا يصدم القارىء ، كأن يكون الكاتب ملحدا ، ويخاف من إعلان آرائه فى مجتمع متدين. وبعض الكتاب يعشقون الأسلوب الغامض حتى يُشعروا القارىء بالدونية والغباء ، ويجبروه على احترامهم. وكم من كاتب ظنه الناس عبقريا لأنهم أخفقوا فى فهم أسلوبه مع أن أفكاره فى الحقيقة سطحية ، وكل ما فى الأمر أنه يحيط نفسه بهالة مصطنعة من الغموض.

ثانيا: فى بعض الأحيان يصعب فهم الكاتب لأن الكاتب نفسه لا يفهم جيدا ما الذى يريد أن يقوله ، والفكرة التى يناقشها غير واضحة فى ذهنه ، فيقع فى التناقض ، ويقع القارىء معه فى حيرة. ويظن القارىء المسكين أن العيب فى فهمه المحدود مع أن المشكلة فى الكاتب ذاته.

ثالثا: أحيانا يصعب فهم مقصد الكاتب لأن الموضوع الذى يناقشه الكاتب شديد الصعوبة. وفى هذه الحالة حتى إن كان الكاتب يفهم المسألة جيدا ، وكان حريصا على إيصال أفكاره للقارىء بوضوح فإن الكلمات قد تخونه ، فتأتى بعض عباراته غير مفهومة رغم أنه حين كتبها كان يظن أن القارىء سيفهمها. وبالنسبة لى شخصيا فقد عانيت كثيرا من هذا الأمر ، وكنت فى بعض الأحيان إذا أعدت قراءة نص كتبته وجدت أننى لم أوضح قصدى بالشكل الكافى ، فأضطر إلى إعادة صياغة بعض الفقرات مرة أخرى حتى لا تثير اللبس.

رابعا: قد يصعب فهم بعض النصوص لأن القارىء نفسه قليل الخبرة ، ولم يتمرن بما فيه الكفاية على الخوض فى بعض المجالات ، ومثال ذلك أديب يقرأ مقالا علميا ، أو عالم كيمياء يقرأ مقالا أدبيا ، أو زعيم سياسى يقرأ كتابا فلسفيا.

إذن هناك نصوص واضحة ونصوص غامضة ، وهناك أسباب منطقية تجعل القارىء يشعر بأن نصا من النصوص يحتمل أكثر من معنى ، لكن ما بعد الحداثة تطرح كل هذا جانبا ، وتقول أن كل النصوص حمالة أوجه ، وذلك بسبب غموض اللغة نفسها ، ولأن مؤلف النص لا يملك نفسا كى نعزو إليها أفكارا محددة يجب اكتشافها. إن ما بعد الحداثة لا تعرف الصح والخطأ ، فكل شىء فى نظرها صحيح. **إنهم يشبهون مُدرسا كل طلبته ينجحون دائما، ولا أحد يرسب على الإطلاق.**

إن رأى ما بعد الحداثة يبدو لنا شديد السخف. على سبيل المثال حين يقرأ المرء كتابا مثل "الله: الفرضية الفاشلة" للملحد فيكتور جى ستينجر ، فهل يمكن أن يقول أن هذا الكتاب يدعو للإيمان؟ مستحيل لأن الكاتب يصرخ بأعلى صوته ، معلنا كفره ، ومتباهيا بإلحاده. وبالمثل هل يجوز لمن قرأ كتاب "وهم الإله" لريتشارد دوكينز أن يقول: "هذا المؤلف شديد الغيرة على المسيحية ، وشديد الاحتقار لداروين"؟ وهل يجوز لمن قرأ كتاب "شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان" أن يزعم أن مؤلفه جمال حمدان كان يحتقر مصر وشعبها وتاريخها؟ وهل يمكن لمن قرأ كتب الشيخ الغزالى أن يزعم أن المؤلف كان ينظر إلى عصر جمال عبد الناصر على أنه عصر الديمقراطية؟ وهل فهم إنسان واحد على وجه الأرض من عبارة نيتشه "إن الله قد مات" أن نيتشه كان قلبه نابضا بالإيمان؟ هذه الأمثلة وغيرها تثبت بشكل قاطع أن الدعوة لفوضى فهم النصوص أمر جنونى ، بل جريمة مكتملة الأركان.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

التلاعب بالتوراة والإنجيل والقرآن

بقليل من التفكير يجد المرء أن موقف ما بعد الحداثة من النصوص فى غاية الخطورة. إن النصوص السماوية المقدسة – بما فيها القرآن الكريم– لن يعود لها أى قيمة ، وسيصبح من حق أى إنسان أن يؤولها ، ويعيد تفسيرها حسب هواه ، وسيصير من الجائز لكل منا أن يستنطق النص الدينى بما يساير رغباته. **وبدلا من أن يصبح الإنسان تابعا لتعاليم السماء ستمسى تعاليم السماء تابعا ذليلا للإنسان.**

وإذا ذهبنا إلى الكتاب المقدس لوجدنا أنه كان من الطبيعى أن يسبق القرآن فى تلقى ضربات موجعة من فلسفة ما بعد الحداثة باعتبار أنها نشأت فى مجتمعات ذات خلفية مسيحية–يهودية. ويُعَد ديفيد كلاينز David Clines أحد كبار المؤيدين لتطبيق فكر ما بعد الحداثة على الكتاب المقدس. وقد عبر

عن وجهة نظره قائلا: "أريد أن أطرح نموذجا لتفسير الكتاب المقدس **يقبل واقع سياقنا التعددى**... أولا يأتى الاعتراف بأن **النصوص ليس لها معان محددة**... لا **يوجد معيار موضوعى يمكننا بواسطته أن نعرف ما إذا كان هذا التفسير أو ذاك صحيحا**. يمكننا فقط أن نقول ما إذا كان قد قُبل... **لا توجد معان محددة ، ولا توجد تفسيرات مشروعة متفق عليها بشكل شامل**. ,إذا لم تكن هناك تفسيرات صحيحة ولا شرعية فى التفسير وراء قبول جماعات المصالح المختلفة فإن **على مفسرى الكتاب المقدس أن يتخلوا عن هدف التفسيرات المحددة والمقبولة بشكل شامل** ، وأن يكرسوا أنفسهم لتفسيرات يمكنهم أن يبيعوها فى أى شكل تطلبه المجتمعات التى يختارون خدمتها"[120].

وإذا ذهبنا لمنهج التفكيك لوجدنا أنه حين يتحرك إلى خطاب نقد الكتاب المقدس فإنه يزيح كثيرا من الخصائص الأساسية للتفسيرات المؤسسية المشروعة ، حيث يؤكد أن **من غير الممكن وجود نقطة مرجعية مطلقة يمكن بواسطتها توجيه تفسيراتنا**: لا النص ، والكاتب ، ولا المعنى ، ولا الحدث الحقيقى والتاريخى. كما أن التفكيك يدل على أن المؤلف حين يحاول كتابة نص فسيوجد دائما آثار من الاستبعادات والتمييزات غير المهمة التى يمكن للقارىء الحريص أن يضع يده عليها ، ويستخدمها لتقويض القوة البيانية للنص الذى يفترض أنه موثوق به. التفكيك يمنح المفسرين إذنا بالتفاعل مع النصوص بطرق غير معهودة على الإطلاق. التفكيك يقترح أنه لا توجد أفعال غير طبيعية للتواصل مع النص Textual intercourse.[121]

والمثال التالى يبين **كيف يتعامل التفكيك مع النصوص الدينية إلى حد هدم أبسط أفكار الدين مثل معاداة الشر ، وإدانة الشيطان:**

إن رواية الشاعر جون ميلتون "الفردوس المفقود" تقوم على التمييز بين الخير والشر ؛ فالخير لديه الوجود الكامل الأصلى لأنه نشأ من الله ، والشر جاء بعده كإضافة لوثت الوحدة الأصلية للوجود. لكن **إن نظرنا عن كثب فإننا سنبدأ فى رؤية انعكاس هذه الثنائية**. على سبيل المثال إن بحثنا عن وقت كان الخير موجودا فيه بدون الشر فإننا سنجد أنفسنا واقعين فى متاهة الرجوع للخلف. هل كان الخير موجودا وحده قبل هبوط آدم من الجنة؟ أم قبل هبوط الشيطان؟ وما سبب هبوط الشيطان؟ الفخر؟ ومن

---

[120]) **"Reading the Old Testament in Postmodern Times".** By Craig Bartholomew. *Tyndale Bulletin* 49.1 ((May 1998): 91-114.

[121]) **What Is Postmodern Biblical Criticism**? By A. K. M. ADAM. Chapter 2: Deconstruction: On Making a Difference. Page: 31-32.

ولاحظ هنا تشابه عبارة Textual intercourse مع عبارة Sexual intercourse التى تعنى الجماع ، فكأن المؤلف يشبه العبث بالنصوص بالاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة!

خلق الفخر؟ الله الذى خلق الملائكة والبشر ومنحهم حرية ارتكاب الخطيئة؟ وهكذا لن نصل إلى لحظة يوجد فيها الخير بشكل خالص. يمكننا أن نعكس البناء الهرمى ونقول أنه لا توجد تصرفات خيرة للبشر إلا بعد الهبوط من الجنة ، حيث كان أول عمل من أعمال التضحية هو تعبير آدم عن حبه لحواء. وهذا الخير أتى فقط بعد الشر. والحظر الذى فرضه الله على آدم يفترض وجودا مسبقا للشر. **وعلى ذلك فالخير يأتى بعد الشر. إذن القراءة التفكيكية تبدأ بملاحظة البناء الهرمى ، ثم تقوم بقلبه وعكسه، وفى النهاية تقوم بمقاومة إنشاء بناء هرمى جديد عن طريق إزاحة الطرف الثانى هو الآخر من موقع تفوقه وسموه الجديد.** لقد رأى البعض أن جون ميلتون كان فى جانب الشيطان فى ملحمته العظيمة ، ورأى آخرون أن الشيطان أكثر خلقا من الله ، **بيد أن هؤلاء يعكسون فقط البناء الهرمى ، فيُحِلون الشر محل الخير ، أما القراءة التفكيكية فتستمر لتكتشف أن التقابل المزدوج لا يمكن أن يتخذ شكلا هرميا فى أى من الاتجاهين بدون استخدام العنف.** وهكذا يمكن للتفكيك أن يبدأ عندما نحدد موضع اللحظة التى ينتهك فيها النص القوانين التى يبدو أنه وضعها لنفسه. عند هذه اللحظة **يتهشم النص إلى قطع متناثرة**[122].

ومن أوجه مخاطر التفكيك **أنه لا يجعل تفسير النصوص الدينية حكرا على المتخصصين ، بل يعطى الشرعية لغير الخبراء** وغير الدراسين كى يفسروها كما يحلو لهم ، فيترتب على ذلك أن يصبح من حق شخصية بسيطة كالجدة أن تفسر كتاب المزامير مثلها مثل أستاذ وقور أفنى عمره فى تفسير الكتاب المقدس[123]!

وهكذا ترى أن ما بعد الحداثة جاءت بالفوضى لمجال تفسير الكتاب المقدس. وليس هناك ما يحول دون انتقال هذه العدوى إلى الإسلام. وأتذكر الآن أن أبا حامد الغزالى ألف كتابا اسمه "فضائح الباطنية"، وفيه أورد أمثلة على تأويل الشيعة الباطنية لآيات القرآن الصريحة. لقد قالت الباطنية أن: "كل مَا ورد من الظَّوَاهِر فِي التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية فَكلهَا أَمْثِلَة ورموز إلى بواطن". وقد طبقوا ذلك على "الزنا" ، فقالوا أنه لا يعنى حدوث الجماع بين اثنين غير متزوجين ، وإنما معناه القاء نُطْفَة الْعلم الْبَاطِن فِي نفس مَن لم يسْبق مَعَه عقد الْعَهْد". وقالوا أن "الطهور" يعنى "التبري والتنظف من اعْتِقَاد كل مَذْهَب سوى مبايعة الامام". و"الصيام" هُوَ "الامساك عَن كشف السّرّ". و"الكعبة" هى النبىّ عليه الصلاة والسلام. و"الصَّفَا" هو "النَّبِي". و"المروة" هو عَليّ بن أبى طالب. و"إبليس" هو أبو بكر

---

[122]) **A Reader's Guide to Contemporary Literary Theory**. By Raman Selden, Peter Widdowson, and Peter Brooker. Page 166-167. Fith edition. PEARSON Longman. United Kingdom. 2005

[123]) **What Is Postmodern Biblical Criticism**? By A. K. M. ADAM. Chapter 2: Deconstruction: On Making a Difference. Page: 35.

الصديق. و"آدم" عبارَة عَنَ علي بن أبى طالب ، فقد أمر الله تعالى أبا بكر بالسجود لعليّ وطاعته ، فأبى واستكبر ! كما أول الباطنية أمور الآخرة فزعموا أن قوله تعالى: "أنهار من خمر" معناه الحقيقى "الْعلم الظَّاهِر" ، وقوله "أنهار من عسل مصفى" معناه الحقيقى هُوَ "علم الْبَاطِن الْمَأْخُوذ من الْحجَج وَالْأَئِمَّة". وقالوا أن "النار والأغلال" ليست هى النار المعروفة التى تحرق ، ولا الأغلال التى تقيد حركة الكفار ، وإنما هى عبارَة عَن الْأَوَامِر والتكاليف التى فرضت على على الْجُهَّال بعلوم مذهب الباطنية ، فمشقة التكاليف تشبه عذاب النار والأغلال ، ولكن إذا نال المرء علم الْبَاطِن وُضعت عَنْهُم أغلال التكاليف وسعدوا بالخلاص عَنْهَا. أما المعجزات فقد أولُوها كلها ، فقَالُوا أن "الطوفان" مَعْنَاهُ "طوفان الْعلم أُغرق بِهِ المتمسكون بِالسنةِ". أما النار التى ألقى فيها إبراهيم فهى عبارَة عَن غضب نمْرُود لَا عَن النَّار الْحَقِيقِيَّة. و"عَصا مُوسَى" ليست هى العصا الخشبية ، وإنما هى "حجَّته الَّتِي تلقفت مَا كَانُوا يأفكون من الشّبَه". و"الْجِنّ" الَّذِي ملكهم سيدنا سُلَيْمَان هم باطنية ذَلِك الزَّمَان ، وَ"الشَّيَاطِين" هم الظَّاهِرِيَّة الَّذِي كلفوا بِالْأَعْمَالِ الشاقة. و "إِحْيَاء عيسى للْمَوْتَى" مَعْنَاهُ الاحياء بحياة الْعلم عَن موت الْجَهْل الْبَاطِن. و"ابراؤه الأعمى" مَعْنَاهُ شفاؤهم من عمي الضلال.[124]

ولقد شهدنا فى السنوات الأخير شيئا من هذا القبيل حيث حاول بعض المنافقين فهم آيات القرآن بطرق فى غاية الالتواء لا تتفق مع اللغة ولا مع مجمل تعاليم القرآن والسنة ، فمثلا زعم بعضهم أن كلمة (واضربوهن) فى قوله تعالى: {وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنّ} [النساء: 34]، زعموا أن (واضربوهن) ليس معناها إباحة ضرب الرجل لزوجته ، بل تعنى: (أعرضوا عنهن). وأنكر أحد المثقفين أن تكون النملة قد تكلمت أمام نبى الله سليمان عليه السلام ، وطالب بتأويل هذا الآية وأشباهها. وفهم آخرون من بعض آيات القرآن أن اليهود والنصارى مؤمنون. وابتلينا بكافر اسمه محمد شحرور وصلت به الوقاحة أن زعم عدم وجود نص فى القرآن يحرم الزنا، وأوَّل قوله تعالى: (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) بطريقة منحطة ، حيث قال أن كلمة (أحدهما) تعنى أن الإنسان ممكن أن يكون له والد واحد فقط ، أى يتربى فقط فى كنف أمه التى ولدته من الزنا. وهذا عبث لأن النص القرآنى يشير بوضوح إلى أن من المحتمل أن يتوفى أحد الوالدين فى سن مبكر ، فيعيش الوالد الآخر وحده مع الابن.

ومن المفكرين الذين حاولوا إعادة تفسير الإسلام بشكل ما بعد حداثى محمد أركون الذى تحدث عن مشروعه الفكرى قائلا: (حاولت أن أزحزح مسألة الوحي من أرضية الإيمان العقائدي "الأرثوذكسي"

---

[124]) **فضائح الباطنية**. تأليف أبى حامد الغزالى. صفحة 55-58. حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوى. مؤسسة دار الكتب الثقافية- الكويت. 1964م

والخطاب الطائفي التبجيلي الذي **يستبعد "الآخرين" من نعمة النجاة في الدار الآخرة لكي يحتكرها لجماعته فقط.** قلت حاولت أن أزحزح مسألة الوحي هذه من تلك الأرضية التقليدية المعروفة إلى أرضية التحليل الألسني والسيميائي الدلالي المرتبط هو أيضا بممارسة جديدة لعلم التاريخ ودراسة التاريخ.")[125]

وبعد بضع سنوات من موت محمد أركون انفجر سيل التأويلات من أدعياء العلم فى بلادنا الذين دعوا إلى اعتبار اليهود والنصارى مؤمنين مثلهم مثل المسلمين. وكأن هناك جهات أجنبية تتعهد النبتة الفكرية الضالة بالسقاية والتغذية إلى أن تتجذر وتستفحل ، وتلقى بظلالها على ساحة الفكر كلها.

ولقد رأينا بابا الفاتيكان فرانسيز وهو يؤول نص كتابه المقدس القائل بأن الله خلق الإنسان على صورته، بحيث يفهم من النص أن الملحدين سيدخلون الجنة: "**يجب علينا أن نتمسك بالرسالة التى نتلقاها من الكتاب المقدس: كل إنسان هو صورة الله، سواء أكان مؤمنا أم لا.** لهذا السبب وحده فإن كل شخص لديه سلسلة من الفضائل والصفات والعظمة الخاصة. وإن كان لديه بعض الرذيلة – كما هو حالى– فيمكننا أن نتشارك ذلك من أجل أن يساعد بعضنا البعض بشكل متبادل ونتغلب عليها"[126].

وقد استبق الله تعالى ما بعد الحداثة ، فأخبرنا أن نصوص القرآن نوعان: محكم ومتشابه. الآيات المحكمات هى النصوص ذات الدلالة الصريحة التى لا يختلف على معناها مؤمن عاقل. أما الآيات المتشابهات فهى تلك التى تحتمل أكثر من معنى. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران: 7].

ومن أمثلة النصوص المحكمة قوله تعالى: (والله عزيز حكيم) ، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ، وقوله: (محمد رسول الله) ، وقوله: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران: 123]. ومن أمثلة الآيات المتشابهات تلك التى تتكلم عن صفات الله ، والتى يمكن للبعض أن يفهمها بشكل حرفى ، ويمكن للبعض الآخر أن يفهمها بشكل مجازى ، ومن قبيل ذلك قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: 54]. وقوله: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: 10].

---

[125]) **وفاة المفكر والأكاديمي الجزائري محمد أركون**. موقع البى بى سى العربية. 15 سبتمبر 2010م.
https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2010/09/100915_arkoun_tc2

[126]) **On Heaven and Earth: Pope Francis on Faith, Family, and the Church in the Twenty-first Century.** Chapter 3: On atheists. Translated by Alejandro Bermudez; Howard Goodman. New York: Image Books. 2013.

وأصحاب القلوب المريضة يتتبعون الآيات المتشابهات لهدفين: أولا أن يفتنوا الناس عن دينهم ، أى يجعلوهم يشكون فى القرآن ، موهمين إياهم أن بعض آياته تتناقض مع البعض الآخر أو تتناقض مع العقل والمنطق والتاريخ. والهدف الثانى هو السعى إلى تأويل الآيات ، أى أن يجعلوا الناس يفهمونها بطرق تخالف مجمل تعاليم الإسلام من قبيل ما فعلته الباطنية من تأويل الزنا والطهارة والصيام والجنة والنار بطريقة ترفع من على كاهلهم عبء العبادات والتكاليف.

والفرق بين القرآن وما بعد الحداثة فى التأويل أمران:

أولا: القرآن يقول أن هناك نصوصا محكمة ونصوصا متشابهة ، أما ما بعد الحداثة فتؤكد أن كل النصوص متشابهة ، ومهما كانت الآية فى ظاهرها واضحة المعنى فلن يكون لها معنى وحيد يتفق عليه الجميع.

ثانيا: المنطق الإسلامى يسمح بوجود تفسيرات عديدة لبعض الآيات القرآنية ، وهذا يتفق مع ما بعد الحداثة ، لكن الفرق بينهما أن ما بعد الحداثة تفتح الباب على مصراعية لأى تأويلات مهما كانت، أما الإسلام فيضع ضوابط للتأويل. على سبيل المثال من المقبول إسلاميا أن يفهم البعض أن الجنة التى سكنها آدم عليه السلام كانت موجودة فى السماء ، ومن الجائز أن يفهمها البعض على أنها كانت على الأرض ، لكن لا يحق لأحد أن يقول مثلا أن الجنة لم تكن جنة حقيقية ، بل مجرد سعادة روحية بثها الله تعالى فى قلب آدم ، كما لا يحق لأحد أن يقول أن المقصود بآدم هو على بن أبى طالب كما فعلت الباطنية. وكذلك من الجائز أن يفهم البعض أن طوفان نوح أغرق قوم نوح فقط ، ومن الجائز القول بأنه أغرق الأرض كلها ، لكن من غير المقبول أن نقول كما قالت الباطنية أن الطوفان معناه طوفان الْعلم الذى أُغرق بِهِ المتمسكون بِالسنةِ. إن تعدد الآراء حول تفسير إحدى الآيات مقبول لكن بشروط:

1- **أن تكون التفسيرات المختلفة متوافقة مع نصوص القرآن الأخرى ومع نصوص السنة القطعية.** مثلا لا يجوز فهم عبارة (يد الله) المذكورة فى القرآن على أنها تعنى أن لله تعالى يدا مكونة من لحم وعظم لأن هذا يتناقض مع آية أخرى محكمة تقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]

2- **أن تكون التفسيرات المختلفة متوافقة مع اللغة.** مثلا رأى البعض أن كلمة (تعولوا) فى قوله تعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} [النساء: 3] تعنى (تميلوا وتجوروا) ، بينما قال آخرون أنها تعنى

(تكثر عيالكم). وقد تعرض هذا الرأى الأخير للهجوم من قِبل بعض المفسرين لأنهم رأوا أنه خاطىء لغويا ، فرد عليهم كثيرون مظهرين أنه سليم من الناحية اللغوية.

3- **أن تكون التفسيرات متوافقة مع الثابت من العلوم الطبيعية اليقينية** التى لم يعد هناك شك فى صحتها. مثلا لا يجوز القول بأن آية: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا} [الحجر: 19] تعنى أن الأرض مسطحة ، وليست كروية.

4- **أن تكون التفسيرات المختلفة متوافقة مع الأمور العقلية الواضحة.** مثلا لا يجوز القول بأن الآيات التى تكلمت عن الخصمين اللذين احتكما إلى داود عليه السلام فى المحراب كانت تشير إلى زنا داود مع زوجة قائده أوريا الحثى ، التى انبهر بجمالها حين وقع بصره عليها وهى تستحم ، ثم تدبير داود لمؤامرة كى يتخلص من قائده فى الحرب حتى يتزوج امرأته ، ويتكتم على حملها من الزنا. هذا مرفوض قطعا لأن هذه الجرائم المشينة يستحيل عقلا أن تصدر من رجل اختاره الله نبيا من دون كل البشر.

5- **أن تكون التفسيرات المختلفة متوافقة مع التاريخ الثابت.** ومن أمثلة ذلك قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الحج: 52] ، هذه الآية لا يجوز تفسيرها طبقا لتلك الروايات التى قالت بأن الشيطان جعل الرسول عليه السلام ينطق بكلام يتضمن مدحا للأصنام لأن هذه الروايات لم يثبت صحتها تاريخيا[127]. وفضلا عن هذه فهذه الرواية لا يجوز قبولها عقلا.

6- **أن تكون التفسيرات متوافقة مع السياق** الذى وردت فيه. ومن الأمثلة على ذلك ما سبق أن ذكرناه فى هذا الكتاب حول الآيتين اللتين وعدتا اليهود والنصارى والصابئين بالثواب فى الآخرة (البقرة 62 والمائدة 69) ، واللتين فسرهما البعض على أنهما تفيدان أن هؤلاء سيدخلون الجنة حتى لو يؤمنوا بالإسلام. وقلنا حينها أن الآيتين قد اقتطعتا من سياقهما لأنهما وردتا فى سياق

---

[127]) قال ابن كثير: قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَاهُنَا قِصَّةَ الْغَرَانِيقِ ، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا، وَلَكِنَّهَا مِنْ طُرُقٍ كُلُّهَا مُرْسَلَةٌ، وَلَمْ أَرَهَا مُسْنَدَةً مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ النَّجْمَ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْمَوْضِعَ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى [النجم: 19- 20] قَالَ: فَأَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ تُرْتَجَى، قَالُوا: مَا ذَكَرَ آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ قَبْلَ الْيَوْمِ، فَسَجَدَ وَسَجَدُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةُ [**تفسير ابن كثير** (5/ 387)]

يهاجم بعنف كفر أهل الكتاب وفسوقهم ، فكيف يأتى القرآن بكلام غير متجانس فى نفس الموضع؟

خلاصة القول أن بعض نصوص القرآن لا تحتمل إلا تفسيرا وحيدا ، وهنا يصطدم الإسلام بشدة مع ما بعد الحداثة التى ترحب بفوضى التفسيرات. وعلى الجانب الآخر توجد نصوص قرآنية تحتمل أكثر من معنى ، وهنا يتفق القرآن جزئيا مع ما بعد الحداثة ، لكن المسلم لا يطلق العنان للتأويل ، بل يأخذ فى الاعتبار ضوابط صارمة.

إن بيننا كثيرا من أصحاب القلوب المريضة الذين اعتنقوا الإسلام بالوراثة ، لكنه لم يدخل قط إلى قلوبهم، **فلماذا لا يعلن هؤلاء كفرهم بدينهم ، ويريحونا؟ لماذا يصرون على التسلل إلى القرآن ، ولى أعناق نصوصه الواضحة كى تخدم أغراضهم؟** إن كانوا يريدون للزنا أن يسود فليعلنوا أن هذا هو رأيهم الشخصى ، بدلا من أن يقولوا أن الإسلام يبيح الزنا. وإن كانوا يريدون التعامل بالربا ، فليعلنوا أنهم معجبون بالنظام الربوى العالمى بدلا من أن يقنعوا البسطاء بأن الربا حلال. وإن كانوا يريدون للمرأة أن تكون نسخة أخرى من الرجل فليقولوا لنا ذلك بوضوح بدلا من أن يؤولوا نصوص القرآن كى يقنعونا بأنها تعطى المرأة نفس حقوق الرجل ، ولا تجعل للزوج سلطة على زوجته. وإن كانوا يريدون من المسلمين أن يتنصروا أو يكفوا عن الدعوة إلى الإسلام فى الخارج فليعلنوا ذلك بشجاعة بدلا من أن يقنعونا بأن القرآن يؤكد أن النصارى سيدخلون الجنة. إننا نطالب المنافقين بأن يظهروا وجوههم الحقيقية، ويتركوا الإسلام فى حاله. ولكنهم يأبون إلا **تدمير الإسلام من الداخل ، وإفراغه من محتواه**. إنهم لا يريدون أن ينحرفوا ، بل يريدون أن ينحرف كل الناس مثلهم: { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [النساء: 89]

إنهم يعلمون أن الإسلام قوى ، وأن من المستحيل الإجهاز عليه مرة واحدة، ولذا **فالحل الأمثل هو أن يقضوا عليه خطوة خطوة** ، ونقطة البداية هى تأويل نصوص القرآن كى يجعلوا المسلم يحيا من الناحية العملية حياة بعيدة عن الدين رغم تمسكه الظاهر بعقيدته. وبمضى الوقت يجد المرء نفسه قاب قوسين أو أدنى من الكفر. وحتى إن بقى على دينه فلن يكون له من الدين إلا الاسم. وهذه شهادة وفاة للدين ، فلا أظن أن هناك فرقا بين رجل ميت ورجل آخر مشلول ، يرقد فى غيبوبة كاملة ، فلا يتحرك ولا يرى ولا يسمع ولا يتكلم. إنهم يريدون الإسلام دينا فى غيبوبة ، ولكن الله غالب على أمره.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

7- ما بعد الحداثة تدمر الأخلاق

تنكر ما بعد الحداثة وجود أخلاق قويمة وأخلاق فاسدة. كل إنسان فى نظرهم له الحق فى أن يختار القيم التى تحلو له ، أى أن الأخلاق نسبية ، ولا وجود لقيم مطلقة يجب أن يتفق عليها كل الناس. ويعبر ستيفن هيكس عن منبع رأيهم قائلا:

[بعد أن تم تفكيك العقل والحقيقة ومبدأ مطابقة الفكر للواقع ثم تنحيتهم جانبا فإن "العقل" كما كتب فوكوه هو "اللغة النهائية للجنون". **لا يوجد شىء يرشد أفكارنا ومشاعرنا أو يقيدها**. ولذا فإن **بإمكاننا أن نفعل أو نقول كل ما نشعر أننا نحبه**. ويعترف ستانلى فيش بسعادة أن **التفكيك يريحنى من الإلزام بأن أكون على حق**.... ويتطلب فقط أن أكون مثيرا للاهتمام][128].

وتكلمت الموسوعة البريطانية عن النسبية الأخلاقية فقالت:

[منذ بداية الستينات والسبعينات ارتبطت النسبية الأخلاقية بمذهب ما بعد الحداثة الذى أثار الشك حول فكرة الموضوعية فى مجالات كثيرة بما فيها الأخلاق. لقد نظر كثير من ما بعد الحداثيين إلى عين فكرة الموضوعية على أنها اختراع مشكوك فيه لحقبة الحداثة أو التنوير. فمنذ زمن التنوير اعتقد أغلب الفلاسفة والعلماء فى وجود حقيقة موضوعية عالمية غير متغيرة لكل شىء ، بما فى ذلك العلم والأخلاق والدين والسياسة ، وأن العقل البشرى قوى بما فيه الكفاية لاكتشاف هذه الحقيقة. **ولذا فالنتيجة النهائية للتساؤل العقلى كانت عِلم واحد ، وأخلاق واحدة ، ودين واحد ، وسياسة واحدة مشروعة لكل الناس فى كل الأزمان**. ولكن طبقا لما بعد الحداثة **فإن فكرة الحقيقية الموضوعية** –المستلهمة من التنوير والتى أثرت على تفكير كل العلماء المعاصرين والفلاسفة تقريبا –**هى وَهْم قد انهار الآن**. وهم يؤكدون أن هذا التطور يرجع فى الجانب الأكبر منه إلى عمل الفيلسوف الألمانى فريدريش نيتشه وتلاميذه. لقد رفض نيتشه الإيمان الساذج بأن اعتقادات الإنسان تعكس الواقع ببساطة. وبدلا من ذلك **فإن كل معتقد من معتقداتنا يقوم على منظور ليس صحيحا ولا خاطئا**. وطبقا لذلك **ففى الأخلاق لا توجد حقائق أخلاقية** ولكن فقط تفسيرات أخلاقية للظواهر ينشأ عنها مختلف القوانين الأخلاقية الموجودة. قد نحاول فهم هذه الأخلاقيات بالتحقق من تواريخها وسيكولوجية الأشخاص الذين يعتنقونها، **لكن ليس هناك**

---

128) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 2

مسألة إثبات أن واحدا منها أو آخر "حقيقى". يجادل نيتشه على سبيل المثال أن من يقبلون النظام الأخلاقى اليهودى المسيحى –والذى يسميه أخلاق العبيد– يعانون من شخصيات ضعيفة وجبانة. ويقول أن نوعا مختلفا وأقوى من الأشخاص سيرفض هذا الخُلُق ، ويخلق قيمه الخاصة.

ويعتقد ما بعد الحداثيون أن المجتمع الغربى قد تجاوز الحقبة الفكرية الحداثية وهو الآن فى فترة ما بعد حداثة تتسم جزئيا بإدراك أن الحياة البشرية والفكر البشرى هما فسيفساء تتضمن منظورات كثيرة. يجب الاعتراف بالحقائق – **بما فيها حقائق العلم والأخلاق– على أنها اعتقادات مرتبطة بتقاليد خاصة تؤدى أغراضا خاصة فى أوقات وأماكن خاصة. ويُنظر إلى الرغبة فى المُطْلَقات على أنها بحث مضَلل عن المستحيل.**][129]

إن كثيرا من العقائد المميزة لما بعد الحداثة تكون أو تدل على شكل ما من أشكال النسبية الميتافيزيقة والمعرفية والخلقية... ينكر مفكرو ما بعد الحداثة وجود جوانب موضوعية من الواقع ، وأن هناك تقارير عن الواقع صحيحة أو كاذبة بشكل موضوعى ، وأن من الممكن أن يكون لدينا معرفة بهذه التقارير (معرفة موضوعية) ، وأن من الممكن للبشر معرفة بعض الأشياء على وجه اليقين ، وأن هناك قيما خلقية موضوعية أو مطلقة. **الواقع والمعرفة والقيمة تنشؤها الخطابات، وبالتالى يمكنها أن تختلف طبقا لها.**[130]

إن ما بعد الحداثة ترى أن **العقائد الأخلاقية والسياسية تؤسَّس دائما على أسطورة ماهوية ما حول الطبيعة البشرية.** **<u>لكن اللغة لا تستطيع أن تؤسس حقائق ماهوية</u>** ، ولذا **فالقيم الأخلاقية والعقائد السياسية هى تقريبا دائما أبنية فرضتها المؤسسات المتسلطة علينا**[131].

وإذا ذهبنا لميشيل فوكو لوجدناه يهاجم الغرب لأنه تمسك بقيم معينة معتبرا إياها هى الحق الجدير بأن يُتبع ، وما عداها هو الباطل. يرى فوكو مثلا أن مؤسسات مثل السجون والمستشفيات والمصحات العقلية قد أنشئت بهدف التعامل مع الفئات المختلفة. وهذه المؤسسات تمثل تعبيرا عن السلطة السياسية وعن الطريقة التى تفرض بها الجماعة المتسلطة إرادتها على الآخرين. ويرى فوكو أن **الشذوذ الجنسى**

---

[129]) **Ethical relativism.** BY James Rachels. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/ethical-relativism ; Accessed March 22, 2020.

[130]) **Postmodernism**: Postmodernism and relativism. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica.

[131]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 40.

تمت شيطنته فى المجتمع الحديث، بينما كان اليونان والرومان أكثر تسامحا تجاه الشذوذ الذى انتشر بينهم جنبا إلى جنب مع الجنس المعتاد بين الرجل والمرأة ، ولم يكن بالنسبة لهم أقل أخلاقية. أما فى المجتمع الحديث، فقد اعتبر الجنس بين الرجل والمرأة هو الطبيعى ، بينما **اعتبر الشذوذ انحرافا ، وهذا فى رأى فوكو لون من ألوان الشمولية غير المقبولة.**[132] وأكبر أعمال فوكو هى تواريخ تأصيلية لهذه المؤسسات المعرفية التى قامت بتعريف الحالة الطبيعية Normality ، **وساعدت على إقامة السجون والملاجىء لكل أولئك الذين يصنفون على أنهم غير عاقلين أو مجرمين.** وأنظمة التصنيف الزائفة هذه توجد من أجل تطبيع الأشخاص وجعلهم منتظمين وقابلين للتحكم. والسلطة تستخدم للضبط والعقاب، والممارسات التأديبية توظف لإنتاج أشخاص مقبولين، وتثبيت قيمهم وتنظيم سلوكهم. إن البشر يدرَّبون كى ينظموا ذواتهم ويتحملوا مسئولية تصرفاتهم الخاصة. ويقول فوكو: "السلطة تنتج المعرفة ... والمعرفة والسلطة يدلان بشكل مباشر على بعضهما البعض". إن تواريخ فوكو تكشف أن الحقيقة والمعرفة ستكونان بالضرورة دائما **تفسيرات تتضمن الاختزال والقمع.**[133]

وموقف فوكو يبدو لنا فى غاية الغرابة. **إنه لو قال بأن من حق أى إنسان أن يعبر عن رأيه دون قمع من أى سلطة حتى لو كان هذا الرأى خاطئا ، فربما جاز لنا أن نتفق معه ، لكن فوكوه يريد ما هو أكبر من ذلك: يريد منا حتى ألا نقول لصاحب الرأى الخاطىء: "رأيك خاطىء" ، بل يريدنا ألا نفكر للحظة واحدة بأننا على الحق وهو على الباطل.** وموقف فوكو وأمثاله كما هو واضح موقف سياسى بالدرجة الأولى ، ولا يقدم أساسا صلبا لإنكار الموضوعية والمناداة بالنسبية ، فهو لا يثبت أن من المستحيل وجود حقيقة موضوعية ، ولكنه فقط يقول بأنه **يجب ألا توجد** حقيقة موضوعية.

ومن رحِم ما بعد الحداثة نشأت نظرية الشواذ Queer theory. وهذه النظرية لا تهاجم الشذوذ الجنسى، بل تدافع عنه ، وتؤصل له ، وتبرر وجوده. وكلمة "شاذ" Queer تمثل مصطلحا جامعا شاملا ، يندرج تحته ليس فقط اللواطيون والسحاقيات ، ولكن أيضا كل أشكال ما يعتبر فى نظر الناس انحرافا جنسيا ، كأن يفضل المرء جنسيا إنسانا أكبر أو أصغر ، أو يفضل الحيوان ، أو يفضل عشيقا واحدا أو عشاقا كثيرين ، أو يفضل نفسه (العادة السرية). ومن الممكن تعريف الجنسانية أو الجنسية أو الحياة الجنسية Sexuality بناء على مقابلات أخرى مثل الشهوانى/غير الشهوانى ، التجارى/غير

---

132) **The Routledge companion to postmodernism**. Chapter1: Postmodernism and Philosophy by Stuart Sim. Page 6-7.
133) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 46-47.

التجارى ، استخدام الجسد/استخدام الأشياء المصنوعة ، بشكل خاص/على الملأ. إن كلا من كلمة "لوطى" وكلمة "سحاقية" تعبر عن صنف واحد هو "المثلية الجنسية" Homosexuality التى تقف على النقيض من الحالة الشائعة ، أى العلاقة بين الجنسين Heterosexuality ، لكن من وجهة نظر أصحاب نظرية الشواذ فإن أصناف الحياة الجنسية أوسع من ذلك ، ولا يمكن أن تُعرف بهذا التناقض البسيط.

والسؤال الذى يطرح باستمرار: لماذا اختار أصحاب هذه النظرية هذا الاسم القبيح: "نظرية الشواذ"؟ الإجابة هى ما نسميه باللهجة المصرية "البجاحة" ، أى الجرأة فى الخطأ ، فكأنهم يقولون: (نحن لا نخشى أن يرانا أحد. أنت لا تخبرنا من نحن. نحن من نخبر أنفسنا من نكون. نحن فخورون لكوننا مختلفين. وكما يلخص الأمر شعارهم المشهور: "نحن هنا. نحن شواذ. تعود على ذلك").[134]

ونظرية الشواذ تعتنق بشكل صريح مفهوم الفيلسوف فوكو عن الجنسية. لقد نادت هذه النظرية بأن العلاقات الجنسية المتباينة (بين الذكر والأنثى) يجب ألا ينظر إليها على أنها الشكل الطبيعى الخير للعلاقة الجنسية ، وما عداه هو الشر والانحراف فى كل زمان ومكان ومجتمع. ويرى أتباع نظرية الشواذ أن أنظمة القوة والمعرفة السياسية والدينية والعلمية والطبية **فرضت هوية (وخطابا) على أولئك الأفراد الذين انخرطوا فى السلوك الجنسى المثلى**. وما كان ينظر إليه سابقا ببساطة على أنها أفعال جنسية (مثل اللواط) قد أصبح الآن الأساس **لهوية مبنية اجتماعيا**. وكما يقول فوكو: "كان اللوطى انحرافا مؤقتا. والآن أصبح المثلى جنسيا نوعا". ويحاج أتباع نظرية الشذوذ بأنه بسبب كون الهويات الجنسية – مثل المثلية الجنسية– **تنشأ من سياقات وخطابات مجتمعية معينة** فإن **التوجه الجنسى لا يمكن أن يكون جزءا أساسيا أو مكونا للبشر ، ولا بأى شكل من الأشكال طبيعيا أو شاملا**. إن **المجتمع يخلق فئة "الشواذ" ثم يسعى لتهميشها** من خلال إظهار التناقض بين انحرافها المفترض مع الحالة الطبيعية للفئة الأخرى المبنية اجتماعيا ، أى الذين يقيمون علاقات مع الجنس الآخر. وعلى ذلك **فأتباع نظرية الشذوذ يتبعون ميشيل فوكو فى تأكيده بأنه لا يوجد ماهية موضوعية ولا توجد حقيقة عامة للجنسية البشرية** Human sexuality . والشذوذ المتصور للمثلية الجنسية هو **نتيجة صراعات السلطة المعاصرة من أجل الهيمنة على خطاب الجنسية**. والتركيز – كما يجادل أتباع نظرية الشذوذ – يجب

[134]) **Critical theory today a user-friendly guide**. Page 335-336.

أن يكون على إعادة صياغة الخطاب مع فهم أن الخروج من علاقات القوة الذى يحدد طبيعة الخطاب هو أمر مستحيل[135] ، [136].

ونظرية الشذوذ لا تستلهم فقط كتابات ميشيل فوكو ، ولكنها تستند كذلك إلى منهج التفكيك ونظرته للنفس البشرية كمجموع سائل ممزق ديناميكى (متحرك) من الأنفس الممكنة ، بناء على ذلك عرَّفت نظرية الشواذ الحياة الجنسية أو الجنسانية Sexuality على أنها مجموع سائل ممزق متحرك من الحيوات الجنسية الممكنة. إن حياتنا الجنسية قد تختلف من وقت لوقت عبر مسار حياتنا ، وقد تختلف حتى من أسبوع إلى أسبوع لأن الحياة الجنسية مدى متحرك من الرغبات. وعلى ذلك فطبقا لنظرية الشواذ فإن حياتنا الجنسية ليست فطرية ولا طبيعية ، ولكنها مبنية اجتماعيا ، وتعتمد على الطريقة التى يتم بها تعريف الحياة الجنسية فى الثقافة التى نعيش فيها[137].

وبعض أطياف فكر الحركة النسائية انخرط فى تفكيك المقابلة بين الرجل والمرأة ، وانتقد المفاهيم الماهوية للجنس والهوية الجنسية. وقد تحدى عمل جوديث بتلر على سبيل المثال الدعوى القائلة بأن السياسة النسائية تتطلب هوية مميزة للنساء. وقد اعتنقوا – محاجين بأن الهوية هى نتاج العمل وليس مصدره –اعتنقوا مفهوما أدائيا للهوية على غرار الطريقة التى تعمل بها تصرفات اللغويات على إيجاد الكيانات التى تشير إليها. وقد كان هذا المنظور مؤثرا فى دراسات اللواط والسحاق أو نظرية الشواذ[138].

وقد أدى ظهور فكر ما بعد الحداثة إلى **تنامى ما يسمى بالثقافة الشعبية**[139] **، وهذه تسمية مهذبة للفن الهابط.** لقد كان الفن فى عصر الحداثة يتسم بالرقى والسمو والعمق والرقة ، فلما جاءت ما بعد الحداثة هدمت كل شىء وحاربت النخبوية الثقافية ، **وأنكرت وجود معايير للفن الراقى والفن الهابط ،** وطالبت بحق المهمشين فى التعبير عن أنفسهم بأى لون من ألوان الفن. وقد تزامن ظهور ما بعد الحداثة فى نهاية الستينات مع ظهور **موسيقى البوب الشعبية** ، ومن أشهر مطربيها مايكل جاكسون ومادونا التى يراها البعض أصدق تعبير عن ثقافة ما بعد الحداثة.

---

[135]) **Sexual Ethics and Postmodernism in Gay Rights Philosophy**. By Carlos A. Ball. Page 379- 384.
[136]) **Queer theory**. By Watson, K.
[137]) **Critical theory today a user-friendly guide**. Page 335-336.
[138]) **Deconstruction**. Encyclopedia Britannica. Accessed March 28, 2020.
[139]) **The Routledge companion to postmodernism**. Chapter 13: Postmodernism and popular culture. By John Storey Page 147.

لقد هدمت ما بعد الحداثة كل المعايير ، فلم يعد من الممكن العثور على مرجع يحدد لنا ما الجيد وما الردىء فى الثقافة والفن ، فصار من حق كل واحد أن يركب موجة الفن ويدَّعى الإبداع. إنه عصر القبح. لقد كنت دوما أندهش من ظهور **موجة الأغانى الهابطة فى مصر فى الثمانينات والتسعينات** من القرن العشرين فى وقت كان يوجد فيه عمالقة التلحين وكثير من الأصوات الممتازة[140]. الآن فهمت أن ما بعد الحداثة كانت تنفذ خطتها فى بلد الفن الراقى. وقد نجحت الخطة حيث وصلنا الآن إلى أغانى شعبان عبد الرحيم ثم موجة أغانى التوكتوك التى تروج للمخدرات والدعارة ، والتى يصعب على المرء أن يفهم كلماتها أو يتعرف على صوت الشخص الذى يغنيها بسبب الضجيج الشديد لموسيقاها.

ويجب علينا أن نحذر من خطاب ما بعد الحداثة. إن **ما بعد الحداثة تقوم بارتداء عباءة الأخلاق ، وتحاول الظهور بمظهر المصلح الاجتماعى الذى يثور من أجل المهمشين والمظلومين والضعفاء**. ونحن على يقين أن هذه محاولة للتغطية على الجرائم الفكرية الرهيبة التى ارتكبتها ما بعد الحداثة فى الأرض:

[يرى فلاسفة ما بعد الحداثة أنه بما أن الخطابات الراسخة للتنوير تعسفية وغير مبررة إلى حد ما فإنها يمكن أن تتغير. وبما أنها إلى حد ما **تعكس مصالح وقيم الأقوياء فإنها يجب أن تتغير**. ولذا فإن ما بعد الحداثيون **ينظرون إلى موقفهم النظرى على أنه شامل Inclusive وديمقراطى لأنه يسمح لهم بالتعرف على الهيمنة غير العادلة لخطابات التنوير على وجهات النظر المتساوية فى الشرعية للجماعات غير النخبوية**[141].]

[وكثير من فلاسفة ما بعد الحداثة يفككون العقل والحقيقة والواقع لأنهم يعتقدون أنه **باسم العقل والحقيقة والواقع صنعت الحضارة الغربية الهيمنة والظلم والدمار**. وكما قال جان فرانسوا ليوتارد فإن "**العقل والسلطة شىء واحد. كلاهما يؤديان إلى – ويرادفان– السجن والحظر وعملية الانتقاء والخير العام**". وتصبح ما بعد الحداثة إذن **استراتيجية نشطة ضد تحالف العقل والسلطة**. وما بعد الحداثة كما يقول فرانك لينتريكيا Frank Lentricchia "لا تنشد العثور على المؤسسة وشروط الحقيقة ، بل أن تمارس

---

[140]) لا يعنى هذا أننا نوافق على أغانى عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وغيرهم ، فأبسط ما يقال فيها أن كلماتها كان بها من المجون قدر غير قليل ، كما كان يصاحبها أحيانا شرب الخمر والتبرج والرقص الخليع ، ولكنها كنت على أى حال أكثر وقارا من أغانى هذه الأيام.

[141]) **Multiculturalism**. By Jennifer L. Eagan. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/multiculturalism#ref1225694; accessed March 23, 2020.

السلطة بغرض التغير الاجتماعى". ومهمة أساتذة ما بعد الحداثة أن يساعدوا الطلبة على **التعرف على الفظائع السياسية فى عصرهم ، ويواجهوها ، ويعملوا ضدها**. وهذه الفظائع – وفقا لما بعد الحداثة– أكثر بروزا فى الغرب ، حيث العقل والقوة أكثر تطورا فى الحضارة الغربية. لكن **ألم هذه الفظائع لا يعانى الناس منه بالتساوى ، فالذكور والبيض والأغنياء يمسكون بسوط السلطة ويستخدمونه بقسوة على حساب النساء والأقليات العرقية والفقراء**."...والعنف كذلك يجربه الفقراء على أيدى الأغنياء ، وتجربه الشعوب المكافحة على أيدى الشعوب الرأسمالية.[142]]

وترى ما بعد الحداثة أن **[صراعات المصالح بين مختلف الأطراف التى لا يمكن تسويتها يجب أن نعترف بها ، وأن نسلط عليها الضوء طوال الوقت**. وفى هذه الصراعات لا يحق خلقيا لطرف أن يجعل الأطراف الأخرى تنصاع لرغباته. وما يحدث غالبا فى الناحية العملية خاصة فى الممارسة السياسية أن يفرض أحد الأطراف رؤيته بالقوة على الأطراف الأخرى لحسم النزاع لصالحه. ومن أمثلة ذلك موظف يتم استغلاله من صاحب العمل ، ولا يستطيع الموظف أن يحصل على تعويض إن رفع قضية فى المحكمة لأن المحكمة أُسست على اعتبار هذا الاستغلال أمرا مشروعا. **ومهمة الفلسفة أن تساعد هؤلاء المظلومين أن يجدوا صوتهم** ، ويمكن تسمية هذا بالسياسة الفلسفية، وهى سياسة تبحث عن الأنظمة المضادة للثقافة السائدة ، وهى أعلى تعبير عن فلسفة ما بعد الحداثة. يجب أن نحافظ على الاختلاف مهما كان الثمن فى عالم ما بعد الحداثة[143].]

وهذا الكلام الأخير يلعب –كما نرى– على وتر العاطفة ، لكن بقليل من التفكير يتبين لنا أنه كلام ساقط ؛ ففى المثال السابق لماذا لا نفترض العكس؟ أليس من المحتمل أن الموظف الذى رفع القضية أمام المحكمة هو موظف كسول أو مرتشى ، وأنه ناقم على عقاب صاحب العمل له ، وينظر إلى ذلك على أنه اضطهاد ، مع أن صاحب العمل عاقبه بشكل عادل على أخطائه؟ فى هذه الحالة ما الموقف الأمثل من وجهة نظر ما بعد الحداثة؟ هل تتبنى قضية الموظف المرتشى الفاسد ضد صاحب العمل الشريف؟ يؤسفنى أن أقول أن منطق ما بعد الحداثة يحتم عليها الوقوف بجوار الكسالى والمرتشين والخونة لأن آراء هؤلاء ليست بأقل شأنا وصدقا من آراء غيرهم. إن ما بعد الحداثة لا تبحث عن الحق لتناصره ضد الباطل ، وذلك لأنها لا تعترف بوجود شىء اسمه الحق أو شىء اسمه الباطل، ولكنها

142) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 3.
143) **The Routledge Companion to Postmodernism.** Chapter1: Postmodernism and Philosophy by Stuart Sim. Page 10.

نظريا تؤيد كل الأطراف المتصارعة على حد سواء ، مع أنها عمليا تقف بجانب الشواذ والمنحرفين الذين تسميهم "مهمشين" ، وهذا هو الجنون بعينه ، وما بعد الحداثة تتباهى حرفيا بأنها فلسفة الجنون!

ويحق لنا أن نتساءل: ما موقف ما بعد الحداثة من الشركات التى تغش الأدوية ومن تجار الأعضاء وتجار المخدارت والسفاحين والمغتصبين والجواسيس؟ إن هذه الفئات لا تستطيع أن ترفع أصواتها على الملأ ، ولا يمكنها أن تجاهر بمصالحها ، وهى تعيش دوما فى الظل ، فهل تقف معها ما بعد الحداثة؟ لن يجيب أحد منهم ، لكننى أؤكد لكم أن منطق ما بعد الحداثة يحتم عليها أن تقف مع كل هذه الفئات الفاسدة تماما مثلما تقف مع المجتمع الذى يعانى من عربدتها ، ففى فلسفة ما بعد الحداثة لا يوجد حق ولا باطل ، وكل فئة من حقها أن تعبر عن مصالحها. وهكذا فما بعد الحداثة تحاول ارتداء ثوب الرحمة ، بينما هى فى الحقيقة تدمر المجتمع من خلال دعم كل الفئات المهمشة حتى لو كانت تستحق الموت.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

8- ما بعد الحداثة تحتقر العلم

شنت ما بعد الحداثة حملة شديدة الغرابة على العلم الحديث. لقد أكد أنصارها أن من الواجب على نظام التعليم أن يبث فى نفوس الطلبة أن **المنهج العلمى ليس لديه ادعاء أفضل بأنه يقدم الحقيقة أكثر من أى منهج آخر** ، ولذا فيجب أن يكون الطلبة متقبلين لطرق المعرفة البديلة بشكل مساو[144].

لقد كان من الأمور التى لا يختلف عليها اثنان أن هدف البحث العلمى هو محاولة الوصول إلى الحقيقة الموضوعية ، " **فالكون بالنسبة للعلم يحتوى على أشياء واقعية ، وتحكمه قوانين فيزيائية وُجدت قبل معرفتنا بهذه الأشياء والقوانين**. والعلم يحاول أن يصف العالم بشكل مستقل عن الاعتقاد ، وذلك بواسطة طلب الحقائق الكلية على أساس **الملاحظة والقياس والتجريب**. والمدرسة الفكرية لما بعد الحداثة نشأت لإثارة الشك حول هذه الفروض ، مفترضة أن **الدعاوى حول وجودعالم واقعى – يمكن اكتساب معرفته كحقيقة موضوعية**– كانت ذات صلة فقط فى الحضارة الغربية منذ عصر التنوير. وفى العقود الأخيرة بدأت الحركة تتساءل عن شرعية دعاوى الحقيقة العلمية سواء على أساس انتمائها إلى أطر ثقافية أكبر أو من خلال الانتقاد الشديد للمنهج العلمى"[145].

وإذا ذهبنا إلى الفيلسوف نيتشه لوجدناه كما هو متوقع يهاجم العلم. ويذكر ديف روبنسون أنه **طالما أن نيتشه يشك فى العقل والمنطق فليس ثمة أمل كبير فى "الحقيقة" العلمية كذلك. إن نيتشه يصر على أن من المستحيل على العلم أن يمدنا بحقائق موضوعية لأن الحقائق الموضوعية لا توجد**. ويقول نيتشه: "يكفى أن ننظر إلى العلم فقط على أنه أكثر الأشكال المثمرة لأنسنة الأشياء ؛ إننا نتعلم أن نصف أنفسنا بدقة أكبر وأكبر بواسطة وصف الأشياء وتتابع الأشياء". وانتقاد نيتشه للقوانين العلمية يدين بالكثير للفيلسوف المعروف ديفيد هيوم ؛ لقد كان هيوم دائما يشك بقوة فى الدعاوى الكبرى لكثير من فلاسفة العقلانية الأوربيين. **إن أغلب القوانين العلمية تقوم على انتظامات تلاحَظ فى الطبيعة. ومن السهل جدا على الفلاسفة والعلماء أن يقنعوا أنفسهم إذن بأن هذه الانتظامات أزلية وإجبارية أو حتى من ترتيب الله** ، بيد أنه لا يوجد دليل مقنع أن أيا من هذا كذلك. وقد هاجم نيتشه الفكرة القائلة بأن العالم الطبيعى منظم عقليا وخاضع لمجموعة من القوانين الطبيعية القابلة للاكتشاف. وأى تحقيق

144) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 17.
145) **The postmodern assault on science. If all truths are equal, who cares what science has to say?** By Kuntz M. EMBO Rep. 2012 Oct;13(10):885-9.

فى العلم بوصفه ظاهرة تاريخية وثقافية واجتماعية يظهر سريعا أن الحقائق العلمية دائمة التغير. **إن القوانين العلمية أبنية بشرية ممكنة (غير واجبة)** ، وإن كان يُعتقد فى الغالب أنها إلى حد ما أكثر من ذلك ، لكن فقط بسبب إغراء كلمات مثل "قانون". ويقول نيتشه: "إن توافق الطبيعة مع القانون الذى تتحدثون عنه أيها الفيزيائيون بفخر شديد...يوجد فقط بسبب تفسيركم وفلسفتكم السيئة... **إن الأشياء لا تتصرف بشكل منتظم وفق قاعدة. لا توجد أشياء... وعلمنا كله لا يزال واقعا تحت تأثير النفوذ المضلل للغة.**"[146]

إن العلم هو الابن الأخير الخبيث للتنوير ، وهو بالتالى مجرد تفسير مؤقت للعالم ، ولكن مع الأسف – كما يرى نيتشه– فإن أغلب الأوربيين لا يعرفون هذه الحقيقة. **إن إيمانهم بالعلم والتقدم العلمى هو وهم خطير**. والعلاج الذى يقدمه نيتشه هو التوصية بمبدأ براجماتى جديد هو "العلم السعيد" الذى يعى انحيازه وقصوره الخاص. إن من الممكن تماما بالنسبة لنا أن نلاحظ العالم ، وأن نستخدم هذه الملاحظات لتمكين الحضارة من التقدم ، **لكن ما لا يجب أبدا أن نؤمن به هو أن العلم قادر بطريقة ما على اكتشاف الحقائق المطلقة.** إن العلموية Scientism – أى العبادة العمياء للعلم– هى مجرد بديل ضحل للدين من وجهة نظر نيتشه. إن كلا من العلم والدين قد صنع دعاوى كبيرة يرى نيتشه أن من المستحيل تبريرها[147]. وقد لاحظ البعض أن نيتشه قد وقع فى التناقض ، فمن ناحية نجده معاديا لاعتبار المعرفة العلمية دواء شافيا لكل المشكلات البشرية ، لكنه فى مواضع أخرى يمتلىء إعجابا بإنجازات العلم[148].

وبالنسبة للفيلسوف رورتى فهو يرى أن **من المستحيل وجود أى حقائق علمية صلبة.** وقد أثار رأى رورتى – الذى **يغض من قدر العلم ويعتبره مجرد شكل واحد من أشكال "الحوار"** – جدلا واسعا واعتراضات خطيرة فى أمريكا على كل أشكال الشك والنسبية التى أتت بها ما بعد الحداثة. إن معظم العلماء المعاصرين يعترفون على مضض أن المعرفة العلمية الموضوعية هى وهم ، لكنهم يقولون أن العلم سيكون دائما نوع متميز من الحوار بفضل قدرته المتفردة على صنع تنبؤات دقيقة ، وعلاقته الفريدة بالعالم التجريبى القابل للقياس. ومنظور رورتى البراجماتى هو أنه **سواء كان العلم حقيقيا بشكل**

---

[146]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 19-21.
[147]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 21-22.
[148]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 28.

موضوعى أو كان بناءا اجتماعيا وثقافيا هو فى النهاية أمر غير مهم. والمهم هو أن نقنع الناس بالتصرف بشكل مختلف عن الماضى بواسطة تشجيع مجتمعات التساؤل الحرة والصريحة على البحث عن اتفاقيات دون إكراه[149].

وما بعد الحداثة لا تعارض العلم فقط بسبب إنكارها للموضوعية والعقل والمنطق وإمكانية المعرفة ، ولكن أيضا بسبب تشككها فى نزاهة البحث العلمى الذى تقوم به فرق علمية يحمل أفراد كل منها ولاء لاعتقاد علمى معين ، وهذا يعنى أن البحث العلمى بطبعه لا يبحث عما يوجد فى الطبيعة والواقع، بل يبحث عن تأييد لاعتقادات وقناعات ذاتية مسبقة ، ولذا **فيجب – طبقا لما بعد الحداثة– معاملة كل من النظريات العلمية الصحيحة والكاذبة على قدم المساواة** لأن كليهما نتج عن عوامل وظروف اجتماعية. إن ما بعد الحداثة ترفض الفكرة القائلة بأن العلم يمكن أن يُستمد من التفاعل المباشر مع الظواهر الطبيعة وملاحظتها بشكل مستقل عن البيئة الاجتماعية. وعلى ذلك **فلا معنى للقول بأن الهدف الأساسى للعلم هو تحديد ما هو صادق وما هو كاذب** لأن موضوعيته قد اختزلت إلى "دعاوى" تعبر عن ثقافة وعن مجتمع بين ثقافات ومجتمعات عديدة. وبالتالى فكل أنظمة الفكر هى "أبنية" مختلفة للواقع ، وجميعها فضلا عن ذلك ذات مدلولات وأجندات سياسية. وإذا لم تكن هناك حقيقة شاملة كما يرى مفكرو ما بعد الحداثة فهذا يجعل من حق كل جماعة اجتماعية أو سياسية أن تختار الواقع الذى يناسبها. ويضرب مارسيل كونتز مثالا على موقف ما بعد الحداثة من العلم ، وهو يتمثل فى الخلاف حول المحاصيل والكائنات التى تم تعديلها جينيا لإكسابها خصائص جديدة. لقد أثار أنصار البيئة فى البداية مخاوف بشأن الأخطار البيئية لهذه الأغذية ، ولكن أثبتت أبحاث العلماء فيما بعد أن هذا الخطر ضئيل ، ولا يدعو للقلق ، إلا أن أنصار ما بعد الحداثة أصروا على رفض رأى العلم ، وتمسكوا بحقهم فى القول بأن هذه الأغذية مضرة حتى إن أثبت البحث العلمى خلاف ذلك ، وذلك لأن من حق كل إنسان أن يؤكد على الحقيقة الخاصة به طبقا لقواعد الديمقراطية والتعددية وحرية التعبير ، **ورأىُ العلم ليس بأحق أن يُتبع من آراء الآخرين ، وليس هناك حد فاصل بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية** لأن حقائق العلم غير موضوعية لكونها تتأثر بشدة بآراء العلماء الباحثين ، ولذا فالأدق طبقا لما بعد الحداثة أن نسمى استنتاجات العلم بالآراء وليس بالحقائق. ونحن لا يعنينا هنا إبداء الرأى العلمى حول قضية الأغذية المعدلة جينيا ، ولكن ما يعنينا هو أن نذكر كيف تتيح ما بعد الحداثة

---

[149]) **Nietzsche and Postmodernism.** Page 52.

للإنسان المعاصر أن يعترض على أبحاث العلماء دون وسائل علمية. **إن من الممكن قبول اعتراض الأفراد على أبحاث العلماء لدواع أخلاقية** ، كأن يقول المرء أن تعديل الثمار يندرج تحت باب العدوان على الطبيعة ، لكن من غير المقبول أبدا أن نزعم أن هذه الأغذية ضارة بالصحة دون أن نجرى أبحاثا تثبت ذلك. هذا هو الهوى بعينه.

ومن النماذج الأخرى التى تعبر عن موقف ما بعد الحداثة من العلم ما يتعلق بالتطعيمات التى تعطى للأطفال للوقاية من الأمراض. لقد ظهرت فى السنوات الأخيرة حركة للنشطاء الذين يعارضون إعطاء التطعيمات بحجة أنها غير مجدية ، أو ضارة بصحة الإنسان ، أو أن وراءها مؤامرة من الحكومات. ويرى البعض أن الجيل الثانى من الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) Web 2.0 قد أدى إلى تنامى مُثل ما بعد الحداثة من خلال تدمير الحقيقة. إن كلا من الحقائق الشخصية ذات العدد اللانهائى التى تقَدم على الإنترنت تصور على أنها مشروعة. وهذا يُدعَّم بخاصية النسبية التى أتت بها ما بعد الحداثة ، والقائلة بأنه لا توجد حقائق موضوعية ، بل يوجد بدلا من ذلك معان متعددة وطرق للمعرفة. إن الجيل الثانى من الإنترنت يضع الدليل الذى تم فحصه بعناية بجوار آراء المتحمسين وأصحاب نظرية المؤامرة، وهو ما قد يضعف من الرسائل التى تأتى من الخبراء المؤهلين. إن النظريات الجديدة أصبحت تناقَش فى المنتديات العامة قبل أن يتمكن المجتمع العلمى من اختبار مزاياها. وصار العامة – الذين يتصورون أنفسهم خبراء– يرفضون فكرة أن يتكلم المسئولون بسلطة أو معرفة خاصة. ويتجلى هذا فى الحركة المناوئة للتطعيمات حيث تجد من يعتبرون أنفسهم خبراء يروجون لرسائل متناقضة ، متصورين أن الحقائق المتعددة المبنية على منظورات مختلفة كلها مشروعة بشكل متساوى، وأن النصائح القائمة على الدليل التى يقدمها خبراء التطعيمات المؤهلين ليست سوى رأى آخر بين آراء كثيرة[150].

وبشكل عام فقد استشرى فكر ما بعد الحداثة فى مجال الطب ، فصار المرضى أكثر قوة فى مواجهة الأطباء، حتى أصبح كل إنسان فى عالم ما بعد الحداثة يتصرف على أنه خبير طبي. ولا شك أن علم الطب لم يبلغ بعد درجة اليقين الكامل ، فهناك الكثير من الأمراض التى لا يتفق العلماء على طرق علاجها ووسائل تشخيصها ، ولكن ليس هذا مبررا لأن تطيح ما بعد الحداثة بهذا العلم العزيز. إن علم الطب رغم أنه غير يقينى بشكل كامل إلا أن بعضا من اليقين أفضل ولا شك من الغياب الكامل لليقين.

---

150) **Kata A**. Anti-vaccine activists, Web 2.0, and the postmodern paradigm--an overview of tactics and tropes used online by the anti-vaccination movement. *Vaccine*. 2012;30(25):3778-3789.

ثم إن علم الطب تعلم كيف ينتقد نفسه بشكل صارم ، وتم وضع قواعد لما يعرف بالطب القائم على الدليل الذى يحدد بقدر كبير من الدقة مدى قوة القواعد والتوصيات الطبية ، بحيث يحاول العلماء فى المستقبل اكتساب مزيد من المعرفة الأكثر دقة ويقينا.

وبشكل عام نعترف أن كل مجالات العلم الحديث يعتريها قدر متفاوت من عدم اليقين ، وما هذا بالغريب ، فالإنسان مخلوق محدود ناقص ، والكمال لله تعالى وحده الذى يعلم كل شيء. لكن ما بعد الحداثة استنتجت من ذلك – بحماقة منقطعة النظير – أن **من حق أى إنسان أن يعارض العلم بمجرد الهوى.** لقد كان المنطق يحتم على المرء إذا لمس فى العلم نقصا أن يدعو العلماء لبذل مزيد من الجهود ، وإجراء مزيد من الأبحاث لكشف مزيد من الحقائق بغية الوقوف على أرض أكثر صلابة، فهذا هو السبيل الوحيد لتحقيق مزيد من التقدم. وقد أثبتت حركة التاريخ أن ما كان مجهولا فى أحد الأيام قد صار معروفا بعدها بسنوات ، لكن ما بعد الحداثة تفكر بمنطق فى غاية الجنون إذ تراها تمنح الشرعية لفرد عادى كى يطيح بالعلم الحديث كله لمجرد فكرة نبتت فى عقله. وأتذكر الآن كيف دخل أحد المثقفين ذات يوم فى مناظرة حامية مع أحد الأطباء على قناة الجزيرة حول أضرار التدخين ، وكان هذا المثقف مصرا على أن التدخين غير ضار بالصحة ، وكان يستند إلى أدلة من مقالات شعبية ، وليس من مجلات علمية متخصصة. إن فلاسفة ما بعد الحداثة يشبهون أبا وجد أن ابنه قد رسب فى الامتحان فى إحدى السنوات ، لكنه اجتهد ، ونجح فى السنة التالية بمجموع 55% ، ثم اجتهد أكثر وحصل على مجموع 80% فى العام الثالث ، فنظر الأب إلى ابنه باشمئزاز لأنه لم يحصل على تقدير امتياز ، وقال له: "أنت لا تختلف عن جارك الأمى"! لقد كان المنطق يفرض على الأب أن يشجع ابنه على مواصلة مشواره فى التعليم ، فهذا سيؤدى على الأرجح إلى تحقيق التفوق والحصول على الدرجات النهائية يوما ما. وبنفس الحماقة تنظر ما بعد الحداثة إلى العلم من خلال نظارة التشاؤم ، وتصدر حكما بالإعدام عليه ، بدلا من أن تمنحه الفرصة للازدهار.

وإذا ذهبنا إلى قول ما بعد الحداثة بأن حقائق العلم تتأثر بآراء الباحثين وأهوائهم فإننا نعترف بأن هذا يحدث فى بعض الأحيان ، ولكن الغش موجود فى العلم كما يوجد فى غيره من مجالات الحياة ، والحياة كلها ليست سوى صراع مستمر بين الحق والباطل ، ولا شك أن العلماء الجادين هم الكثرة ، وأن التزوير فى العلم سرعان ما ينكشف، فمثلا إن أثبتت دراسة كاذبة أن أحد الأدوية ذو فاعلية كبيرة فى

علاج أحد الأمراض فإن العلماء الآخرين سيجربون هذا الدواء ، وسيكتشفون أن الدواء غير مفيد. كذلك إن لفق أحد العلماء بحثا ليثبت وجود جسيمات تتحرك بسرعة أكبر من سرعة الضوء فإن العلماء الآخرين سيعيدون إجراء تجربته ، وسيكتشفون كذبه. وهكذا فالعلم قادر بكفاءة على على تصحيح نفسه.

إن المرء ليتساءل فى دهشة بالغة: **ما الجديد الذى أتت به ما بعد الحداثة فيما يتعلق بالعلم؟** هل هو القول بأن العلم لا يأتى باليقين المطلق؟ ولكن هذا شيء لا جديد فيه ، فلم يزعم أحد قبل ذلك أن العلم يأتى باليقين المطلق ، ولكن العلم رغم قصوره فهو يتطور بسرعة هائلة وفق منهج دقيق. يؤسفنى أن أقول أن **الجديد الذى قدمته ما بعد الحداثة هو نبذ العلم لما يعتريه من نقص** ، وهذا عمل أشبه برجل رفض استعمال الهاتف الأرضى لما ظهر بحجة أنه لا ينقل له صورة المتكلم ، فلو قلده بقية الناس لما وصلنا الآن إلى مرحلة الهواتف التى تنقل الصوت والصورة بكل وضوح.

إن خطورة ما بعد الحداثة على العلم أنها تمنح كل وجهات النظر نفس القيمة والمشروعية ، فتسوى بين العلم واللاعلم. وهذا سيكون له عواقب خطيرة حيث سيثبط العلماء عن إجراء الأبحاث طالما أن الدليل العلمى صار مثله مثل الرأى والهوى. ومع الأسف انتشر ما يسمى بالعلم الموازى ، أى العلم غير القائم على المنهج العلمى المعروف ، وصار ينافس العلم الحقيقى ، ويتلقى دعما خاصا وعاما ، وينشر فى الدوريات العلمية ، ويناقش فى الندوات والمؤتمرات.[151] وهكذا خسر العلم الحقيقى المعركة باسم حرية التعبير ودمقرطة العلم Democratization of science ، وكم من الجرائم ترتكب باسم حرية التعبير !

إن ما بعد الحداثة تنظر إلى العلم على أنه مجرد قصة بَعدية ، مثلها مثل القصص البعدية الأخرى كالفلسفات والمذاهب. وفضلا عن ذلك فالعلم فى نظرهم شكل من أشكال الإمبريالية والاستعمار الذى يمارسه العلماء على بقية المجتمع ، وهو أحد أسباب عقدة الذنب الغربية Western guilt التى تولدت بفعل الفظائع الكبرى كقنبلة هيروشيما وكارثة تشيرنوبيل والاستعمار والرق. وبما أن العلماء لم يعودوا موضع ثقة فلذا وجب على المواطنين أن يشاركوا فى البحث العلمى لضبط ما يفعله العلماء[152]. ولا

---

[151]) **The postmodern assault on science. If all truths are equal, who cares what science has to say?** By Kuntz M

[152]) **Science and Postmodernism: From Right-Thinking to Soft-Despotism**. By Kuntz M. *Trends Biotechnol*. 2017;35(4):283-285.

شك أن هذه دعوى مستهجنة ، **فالعلم صنع الكوارث لكنه نفع البشرية بأضعاف ما أضرها** ، ويكفى أن تنظر إلى انخفاض أعداد الوفيات ، وإلى علاج العقم ، وثورة الاتصالات ، وزيادة الإنتاج الزراعى ، وتحقيق الراحة من خلال الآلات ، والسيطرة على توحش مظاهر الطبيعة كالفيضانات والجفاف والحرارة والبرودة. والكوارث التى حدثت بسبب التقدم العلمى سببها الأساسى الساسة الذين سخَّروا العلم والعلماء لأغراضهم. وفضلا عن ذلك فإن عامة المواطنين لم يكونوا بعيدين عن الكوارث التى ارتكبها الغرب ، فقد رضوا بالرق والاستعمار والقنبلة النووية ، فلماذا تترك ما بعد الحداثة الجميع وتلقى باللائمة على العلم وحده؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كن لنهتدى لولا أن هدانا الله.

9- الترحيب بالخرافة والسحر

لا تقف خطورة ما بعد الحداثة عند حد معاداة العلم ، ولكن الأخطر أنها **تفتح الباب على مصراعيه للسحر والتنجيم وغيرها من الترهات.** تقول الموسوعة البريطانية:

[الواقع والمعرفة والقيمة تنشؤها الخطابات، وبالتالى يمكنها أن تختلف طبقا لها. وهذا يعنى أن خطاب العلم الحديث – حين يؤخذ فى الاعتبار بعيدا عن معاييره البرهانية الداخلية – ليس له قبضة أعظم على الحقيقة أكثر مما تفعل وجهات النظر البديلة ، بما فيها **التنجيم والسحر** على سبيل المثال.[153]

وهنا نضع أيدينا على **تناقض فاضح لما بعد الحداثة** ، **فهى تبدى قبولا للسحر** ، **وتجعله ندا للعلم الحديث، لكن حين تأتى إلى الدين فإنها تعارضه بكل قوة** ، وتعتبره مجرد قصة بعدية مثل بقية القصص البعدية التى لا تملك أى شرعية.

ومن أشهر ما قدمه لنا التفكيك هو إنكاره للتقابلات الثنائية الهرمية التقليدية التى تعلى شأن أحد الطرفين على الآخر. ومن أمثلة هذه التقابلات العقل/الجسد والحضور/الغياب والنظرية/التطبيق والطبيعة/الثقافة والحقيقة/الخداع ، والواقع/المظهر والفكر/اللغة والشكل/المضمون والمعنى/التعبير والمجازى/الحرف. وهناك أيضا **التقابل بين الله والشيطان** ، فكثيرا ما يقال فى اللاهوت المسيحى أن وظيفة الشيطان هى أن يساعدنا على معرفة الله ، فنحن لا نقدر على معرفة الخير حتى نعرف الشر ، والضد يبرز حسنه الضد ، ورغم أن الشيطان هو نقيض الله إلا أن الله أعلى منه وأعظم طبقا لتعاليم المسيحية. ولكن من وجهة نظر التفكيك لا يجوز القول بأن أيا من طرفى هذا التقابل أفضل من الآخر ، أو يسبق الآخر ، أو أعلى من الآخر ، أو مشتق من الآخر ، **أى أن منطق التفكيك يؤكد أن الله ليس أعلى من الشيطان ، وأن الشيطان ليس أعلى من الله**[154].

وهكذا جاءت نظرية فلسفية كبرى فى القرن العشرين لتؤكد لنا أن الله ليس أفضل من الشيطان ، فكيف يلام العامة والدهماء حين نراهم اليوم غارقين فى الخرافة والسحر فى قلب معاقل العلم الحديث والحضارة؟

---

153) **Postmodernism: Postmodernism and relativism**. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica.

154) **A Teacher's Introduction to Deconstruction**. Page 12.

لقد ترتب على ذلك ازدهار الخرافة والسحر بشكل لم يسبق له مثيل فى أوروبا وأمريكا ، خاصة مع انتشار الوثنية الجديدة Neo–Paganism التى تمارس طقوس السحر والشعوذة وعبادة الشيطان. وزاد اهتمام وسائل الإعلام كذلك بالاحتفالات الشيطانية مثل يوم الهالوين. وقد انتشرت الأدبيات الباطنية فى الغرب بشكل كبير جدا ، ففى فرنسا على سبيل المثال تتزايد هذه الأدبيات بمعدل 6 مرات أسرع من أى أدبيات أخرى[155]. وأذكر أننى قمت برحلة لشرم الشيخ فى سن العشرين ، وكان يصحبنا فى هذه الرحلة بعض الأجانب ، وكانت إحداهن سيدة ألمانية فى خريف العمر ، فانتهزتُ الفرصة لأحدثها عن الإسلام فى الأيام القليلة التى قضيناها معا ، ولما عادت إلى بلدها جرت بيننا مراسلات عديدة عن الإسلام. وفى إحدى المرات جن جنونى لما أخبرتنى أنها تمارس رقصة "الزار" فى ألمانيا. إن الزار رقصة شيطانية قديمة كانت منتشرة فى الشعب المصرى ، ولم يعد لها وجود الآن، لكننا كنا نشاهدها فى المسلسلات والأفلام العربية القديمة ، وهى بمثابة احتفال شعبى وطقوس شيطانية تتضمن الذبح والرقص والضرب بالدفوف. لم أصدق ما قالت ، فقد كنت أتخيل أن أهل أوربا أناس فى قمة العقل والمنطق والعلم ، وأنهم تركوا مثل هذه الخرافات لشعوبنا المتخلفة ، ولم أكن أعلم وقتها أن هناك تيارا متناميا فى الغرب يؤمن بالخرافة والسحر. ووقتها لم أدرك مغزى هذه الواقعة ، ولم أفهمها جيدا إلا بعد أن اطلعت فيما بعد على فلسفة ما بعد الحداثة.

وقد خصص كتاب "التصوف فى القرن الحادى والعشرين"[156] فصلا عن عودة السحر إلى الغرب ، فقال فى مقدمته: " لقد شهد السحر فى ذاته إحياء لا يصدقه العقل فى القرن الماضى ، قادما من انقراض شبه كامل إلى أن أصبح يمارس بشكل علنى فى أغلب الدول التى كانت الكنيسة فيها منذ عدة قرون تقوم بحرق أولئك الذين يتهمون أو يدانون بممارسة السحر".

ويواصل المؤلف كلامه عن السحر ، فيؤكد ارتباطه الوثيق بظاهرة الوثنية التى عاودت الانتشار فى الغرب مؤخرا. ويتكلم المؤلف عن ديانة انتشرت فى الغرب ، تسمى بريمال كرافت Primal craft أو الحرفة الأساسية ، كنموذج على تلك الوثنية الحديثة. يزعم مؤسس هذا الدين –وهو رجل يدعى مارك ألان سميث– أن هذا الدين هو الدين الأصلى ، وأنه أقدم التقاليد الروحية فى العالم ، حيث كان منتشرا

---

155) **Rethinking Traditional Religion in the Postmodern Condition.** By Ioan Duraa and Bogdan-Florin Chiriluțăb.

156) **Mysticism in the 21st century**. By Connell R. Monette with John A. Shoup. Chapter 7: Witchcraft. Page 179. Second edition. USA. 2015. ISBN: 978-1-940964-10-2

فى قارة أطلانتس التى قامت بها أول حضارة بشرية. لقد كان الموطن الأصلى للسحر فى قارة أطلانتس، ولما فُقدت أطلانتس بقيت أجزاء متناثرة من هذا السحر فى مصر وبابل وسومر. والآن فى القرن الحادى والعشرين يعاود هذا السحر الأصلى الظهور من خلال ديانة "الحرفة الأساسية" التى تدعو إلى عبادة الإلهة هيكيت Hecate ، وهى إلهة السحر فى بلاد اليونان القديمة. وأتباع هذه الديانة يعتقدون أن هيكيت هى الكائن الأسمى الذى له كل ما فى الوجود. وقبل خلق الكون المادى قسمت هيكيت جوهرها لتخلق الإله لوسيفر Lucifer كى يكون ابنها وقرينها والروح الأساسى فى العالم المادى. ويعتبر الإله حورس وأبولو وسول مجرد تجليات ثقافية للوسيفير. وتعبد هذه الطائفة أيضا الإله بيليال Belial الذى يعتبر أقل مرتبة من هيكيت ولوسيفر وهو ابنهما أيضا ، ولقبه رب الأرباب وهو الروح الأعلى على الأرض. وتقر هذه الديانة بوجود عدد كبير من الآلهة الأخرى الأقل شأنا.

ويعرف مؤسس هذا الدين نفسه قائلا: (اسمى مارك سميث. أنا كاتب وممارس للسحر التقليدى. وعبر حياتى كلها كنت تلميذا مخلصا لإلهة السحر هيكيت. وبريمال كرافت هى المؤسسة التى من خلالها يمكننى مساعدة الآخرين ممن يرغبون فى السير على طريق ملكة الظلام). **ورغم أن مارك سميث يدعى أن ديانته فريدة إلا أنه يعترف بشرعية الديانات الوثنية الأخرى ، وهذا يؤكد لنا أن الوثنية الجديدة مجرد وجه آخر لما بعد الحداثة التى لا تعترف بالحق المطلق**. ومقر هذه الديانة الرئيسى فى إسبانيا. ويدعى مارك سميث أنه السكرتير الأول للإلهة هيكيت ، ويخلع على نفسه لقب "حارس الباب" Gatekeeper، ولا يسمى نفسه نبيا ، ولا زعيما دينيا. وقد ألف عدة كتب عن هذه الديانة ، وهو يزعم أنه ليس مؤلفها الحقيقى فقد كتبها وهو فى حالة أشبه بالوجد حيث كانت الآلهة تسيطر على روحه. وتحتوى تلك الكتب على تحذيرات من الآلهة التى إن حضرت للساحر فقد تنتقم منه بشكل مروع (كالجنون والموت) إن لم يقدم التضحيات المطلوبة. وتذكر تلك الكتب أن العلاقات الجنسية النفسية مع الأرواح ليست خيارا ، ولكنها خطوة ضرورية للساحر الذى يبغى التطور بشكل حقيقى. ورغم أن سميث يدعى أن ديانته هى الديانة الأصلية لكل البشرية إلا أنه يعترف أن الآلهة لا تتوقع تحولا كبيرا للناس إلى تلك الديانة مثلما حدث مع المسيحية والإسلام والبوذية.

وفى بلادنا العربية انتشرت ظاهرة الدعاية للسحرة على القنوات الفضائية المشبوهة ، بل أصبح مقدمو البرامج المعروفين فى القنوات الفضائية الكبيرة يستضيفون العرافين والسحرة فى أعياد رأس السنة للتنبؤ

بما سيحدث فى العام الجديدة. ومع الأسف يظن أغلب المشاهدين أن هذا مجرد مظهر من مظاهر جهل الإعلام العلمانى أو استهانته بالدين ، والحقيقية أن هذا الإعلام ينفذ خطة ما بعد الحداثة الشيطانية التى اجتاحت العالم كله وسيطرت عليه بشكل لا يصدقه العقل.

وهكذا حاربت ما بعد الحداثة العقل والمنطق والعلم والدين ، وفتحت الباب للسحر والشعوذة، وهذا يثبت أن هذه الفلسفة من صنع حلف إبليس الذى يحكم العالم.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

10- ما بعد الحداثة تمزق المجتمع

لا يوجد مجتمع مكون من أفراد متشابهين فى كل شيء. الاختلاف سنة الله فى الأرض. ورغم اختلاف أفراد المجتمع إلا أن قيام المجتمع يتطلب أن يتناسى الأفراد كثيرا من اختلافاتهم ، ويركزوا على الوطن الذى يضمهم جميعا. الجماعة يجب أن تعلو على الفرد ، ولا يعنى هذا محو شخصية الفرد. لكن ما بعد الحداثة تدعو لتقوية الانتماء للعرق والجنس والطبقة ، وهذا يضعف حتما من تماسك الأوطان.

يرى ما بعد الحداثيون أن اللغة المستخدمة فى التعليم يجب أن " **تخلق إنسانا حساسا لهوية عرقه وجنسه وطبقته**. إن سياقنا الاجتماعى الحالى بالرغم من ذلك يتسم بالظلم الذى يفضل البيض والذكور والأغنياء على حساب كل من عداهم. وهذا الظلم يؤدى بدوره إلى نظام تعليمى يعكس فقط أو أساسا مصالح من هم فى موضع السلطة. ولمواجهة هذا الانحياز فإن الممارسة التعليمة يجب إعادة صياغتها بشكل كامل. يجب على التعليم ما بعد الحداثى أن يؤكد على الأعمال التى ليست فى القانون: **يجب أن يركز على إنجازات غير البيض والإناث والفقراء ، ويجب أن يلقى الضوء على الجرائم التاريخية للبيض والذكور والأغنياء**."[157]

وينظر ما بعد الحداثيون إلى موقفهم النظرى على أنه شامل Inclusive وديمقراطى لأنه يسمح لهم بالتعرف على الهيمنة غير العادلة لخطابات التنوير على وجهات النظر المتساوية فى الشرعية للجماعات غير النخبوية. وفى الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين اعتنق المناصرون الأكاديميون للجماعات العرقية والثقافية والدينية انتقادات ما بعد الحداثة للمجتمع الغربى المعاصر ، وصارت ما بعد الحداثة الفلسفة غير الرسمية للحركة الجديدة المسماة **سياسة الهوية** Identity politics [158]، وهى الحركات السياسية والاجتماعية التى تعتبر أن **هوية الجماعة هى أساس تشكيلها وبؤرة عملها السياسى. وهذه الحركات تحاول تعظيم مصالح جماعاتها وفرض قضايا مهمة لأفراد جماعاتها فى المجال العام**[159].

وإذا فكرت المرأة فقط فى حقوق المرأة ، وفكر الشباب فى حقوق الشباب فقط ، وفكر السود فى حقوق السود فقط ، فماذا يتبقى من الوطن؟ ولا زلت أذكر أنه وقت اشتعال انتفاضة الأقصى عام 2000م

---

157) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 17
158) **Postmodernism**: Postmodernism and relativism. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica.
159) **Multiculturalism**. BY Jennifer L. Eagan. Encyclopedia Britannica.

كنا نتوقع بين لحظة وأخرى وقوع حرب شاملة مع إسرائيل ، وفى وسط كل هذا قرأت تحقيقا فى صحيفة أخبار اليوم المصرية عن حق المرأة فى عضوية مجمع اللغة العربية. شعرت حينئذ بغيظ شديد من هؤلاء الحمقى الذين يمزقون جبهتنا الداخلية بتسليط الضوء على ما يرونه ظلما لإحدى الفئات بدلا من أن يقفوا صفا واحدا مع بقية شركاء الوطن ضد إسرائيل. ولكن هذه هى ما بعد الحداثة: تمزق الممزق.

لقد دمرت ما بعد الحداثة العقل والحقيقة ، وهذا يؤدى حتما لتمزق المجتمعات والدول لأنه لم تعد هناك وسيلة لحسم الخلافات بين مختلف الفئات والجماعات ، فما بعد الحداثة ترفض العقل والمنطق والدليل ، وتدعو بدلا من ذلك إلى التمسك بالمصالح الشخصية والفئوية والدفاع عنها ولو بالقوة: [**الخلافات تقابل لا بالحجة** وفائدة الشك وتوقع سيادة العقل ، **ولكن بالتأكيد والعداوة والرغبة فى اللجوء للقوة**[160].]

وترى ما بعد الحداثة أن من الخطأ الوثوق بأى نظرية مجردة أو شاملة فى القانون ، فالنظريات لها قيمة فقط من حيث أنها تمد المحامى والقاضى بأدوات لفظية مفيدة ، ولذا **فالحل هو الصراع لا الحوار القائم على المنطق:**

(بالنسبة للنسخة البراجماتية من ما بعد الحداثة فإن **من الواجب طرح الثقة بأى نظرية مجردة أو شاملة فى القانون** ؛ فالنظريات لها قيمة فقط بمقدار ما تمد المحامى أو القاضى بأدوات لفظية مفيدة. ومعايير الفائدة بالرغم من ذلك ذاتية ومتغيرة ، وبالتالى فعالم القانون يصبح أرض معركة ما بعد حداثية. وبما أنه **لا يوجد مبادىء قانونية للعدالة صحيحة بشكل شامل فإن الحجج تصبح معارك بلاغية للإرادات**. والمنظرون القانونيون النقديون يمثلون نسخة العرق والطبقة والجنس لما بعد الحداثة القانونية. ووفق رأى كريتس فإن الدساتير والسوابق القانونية هى فى الأساس غير محددة ، وما يسمى بموضوعية وحياد التفكير القانونى هو خداع. إن كل القرارات بطبيعتها ذاتية ويحركها الهوى والسياسة. والقانون سلاح يستخدم فى الساحة الاجتماعية للصراع الذاتى ، وهى ساحة تحركها الإرادات المتنافسة والتأكيد القسرى لمصالح جماعات على مصالح جماعات أخرى. وفى الغرب كان القانون لفترة طويلة جدا غطاء لتأكيد مصالح الرجل الأبيض. والعلاج الوحيد لهذا السم هو **التأكيد العنيف المساوى للمصالح الذاتية للجماعات المظلومة تاريخيا)**[161].

---

[160]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 20
[161]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 16-17

إن أحد أكبر أوجه خطورة ما بعد الحداثة أنها مزقت الأساس الوحيد للتفاهم والحوار بين الناس ألا وهو العقل. إن من الطبيعى أن يختلف الناس فى الآراء ، والعقل هو المعيار الوحيد الذى يمكن أن يفصل بين مختلف فئات المجتمع. ولكن الآن جاءت ما بعد الحداثة لتحطم العقل ، وتقول لكل ذى رأى: "رأيك ليس بأقل من الآراء الأخرى ، وليس لأحد أن يزعم أن العقل والمنطق فى صفه". فكانت النتيجة تمزق المجتمع ، وسعى كل فئة إلى اكتساب القوة والتعظيم من نفوذها لفرض نفسها. إن تحطيم لغة العقل – التى هى اللغة الوحيدة للتفاهم بين الناس– ليس له نتيجة إلا تأجيج الصراعات السياسية والعسكرية ، **فقد أصبحت الحقيقة لا تهم أحدا ، وبات كل المطلوب منك أن تؤكد ذاتك وتصبح قويا ، وتثبت تفوقك على الآخرين مهما كان الثمن.** وماذا يمكن أن يقول الشيطان أكثر من هذا؟ ماذا يمكن أن يقول أكثر من أن على الإنسان أن يصر على موقفه ورأيه واتجاهه ، لا لشىء إلا تعصبا لما هو عليه ، ولما وجد عليه آباءه؟ **أما الإسلام فهو يدعو الإنسان إلى أن ينشد العدل حتى لو كان العدل سيتسبب فى الإضرار به أو بأقرب المقربين إليه أو بمن يظنهم مساكين مستحقين للشفقة:** {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: 135].

إن هذه الآية الأخيرة تتلخص فى كلمتين: (الحق فوق المصلحة والهوى والعاطفة). وهذه القاعدة الإسلامية الرائعة تمثل أساسا متينا لحسم الخلافات بين الناس ، وهى تتناقض بعنف مع ما بعد الحداثة التى لا تعترف بحق ولا بعدل يتحتم على الإنسان أن ينصاع له. ومع الأسف أصبح الناس هذه الأيام يتمسكون بما هم عليه من باطل حتى لو كان الحق والعدل والعقل ضدهم ، وقد رأينا بأعيننا أما تدافع باستماتة عن ابنها الذى قتل بريئا ، وأبا يدافع عن بنته المتهمة فى قضية دعارة. وقد كان الأمر منذ سنوات يختلف كثيرا حيث كان الوالدان يعاقبان بأنفسهما أبناءهما إن انحرفوا أو أخطأوا. فما أبعد الفرق بين اليوم والأمس! الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

11- ما بعد الحداثة تدمر نفسها

أخطر الانتقادات التى وُجهت لفلسفة ما بعد الحداثة أنها **حكمت بنسبية كل الدعاوى والأفكار باستثناء دعاواها هى**[162]. بعبارة أخرى: **إذا كانت ما بعد الحداثة تؤكد أنه لا توجد نظريات صحيحة بشكل مطلق ، فلماذا يجب علينا أن نصدق أن ما بعد الحداثة نفسها صحيحة؟ أليست ما بعد الحداثة هى الأخرى نظرية من بين النظريات؟** إن ما بعد الحداثة دمرت الجميع ، لكنها لم تنتبه إلى أن هذا الدمار سيمزقها كما مزق غيرها. إنها تشبه جنديا أمسك بقنبلة نووية ، وألقاها بيده على جيش أعدائه ، فأحدثت القنبلة دمارا هائلا دمره بعد أن دمر عدوه. ويعبر ستيفن هيكس عن هذا المعنى قائلا[163]:

> "تصف ما بعد الحداثة نفسها على أنها مضادة للفلسفة ، وهى تعنى بذلك أنها ترفض كثيرا من البدائل الفلسفية التقليدية. بيد أن أى تقرير أو نشاط – بما فى ذلك عملية كتابة وصف ما بعد حداثى لأى شىء– يفترض مسبقا على الأقل تصورا ضمنيا للواقع والقيم. **ولذا فرغم الكراهية الرسمية التى تُكنها ما بعد الحداثة لبعض أشكال المجرد والشامل والثابت والدقيق فإنها تقدم إطارا ثابتا من المقدمات التى توضع أفكارنا وأفعالنا بداخلها**."

وأظن أن كثيرا من القراء قد لاحظوا بعد قراءة هذا البحث أن ما بعد الحداثة قد تناقضت بشكل عنيف مع نفسها. وقد جمع ستيفن هيكس أهم هذه التناقضات كما يلى:

- تخبرنا ما بعد الحداثة أن الحقيقة كلها نسبية ، لكنها تخبرنا بذلك بلهجة كلها يقين وثقة ولا أثر فيها للنسبية.
- تؤكد ما بعد الحداثة أن كل الثقافات جديرة بالاحترام بشكل متساو ، ولكنها من ناحية أخرى تؤكد أن الحضارة الغربية مخربة وشريرة وفاسدة.
- تؤكد ما بعد الحداثة أن القيم نسبية ، لكنها فى نفس الوقت تقول أن التحيز الجنسى والعنصرية قيم شريرة حقا.
- تؤكد ما بعد الحداثة أن التكنولوجيا شريرة ومدمرة ، لكنها تقول فى نفس الوقت أن من الظلم امتلاك بعض الناس لتكنولوجيا أكثر تقدما من البعض الآخر.

---

162) **Postmodern relativism and the challenge to overcome the "value-vacuum".** By Potgieter, Ferdinand and Van der Walt, Johannes.

163) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 6.

- تقول ما بعد الحداثة أن التسامح حسن وأن الهيمنة سيئة ، لكن حين يصل ما بعد الحداثيون إلى السلطة يتبع ذلك الكلام عن الصواب السياسي (أى يظهرون الخصومة لمنافسيهم).

ويعلق ستيفن هيكس على هذه التناقضات قائلا: "**يوجد نمط مشترك هنا: الذاتية والنسبية فى نَفَس ، والإيمان اليقينى الدوجماطيقى بالمطلق فى الثانى**"[164].

ويورد ستيفن هيكس تناقضا آخر فى غاية الأهمية وهو أن **مفكرى ما بعد الحداثة كثيرا ما يستغلون العلم لإثبات فلسفتهم** ، فتراهم يذكرون بشكل منتظم كيف أن نظرية النسبية لآينشتين وميكانيكا الكم ورياضيات الاحتمال ومبرهنة جودل تثبت أن كل شىء نسبى وأنه لا يمكن معرفة شىء وأن كل شىء فوضى[165] ، وذلك **على الرغم من عداء ما بعد الحداثة المعروف للعلم** ولأى حقيقة تزعم أنها يقينة ثابتة.

وقد تعرض الفيلسوف نيتشه – أحد الآباء الروحيين لما بعد الحداثة– لانتقادات خطيرة مماثلة بسبب نزعة الشك المتطرفة التى تبناها. **إن الشك الشامل ينتج دائما مفارقات ودَوْر أو حلقات مفرغة** ؛ إذ كيف يتسنى لدعاوى نيتشه التخريبية الخاصة التى تزعم معرفة قصور المعرفة البشرية ، كيف يمكن لها أن تنجو من شكه الخاص؟ **إن لم يكن هناك "حقيقة" أو "معرفة" فكيف يمكننا قبول دعاوى نيتشه المعرفية القائلة بأن كل الواقع يمكن اختزاله إلى "الطاقة" أو "إرادة القوة"**؟ وإذا كانت النسبية تعنى أن كل الحقائق مجرد تفسيرات تخدم أشكال متفاوتة النجاح من الحياة فإن الزعم بأن هذا هو الواقع هو فى ذاته مجرد نتيجة منتصرة لمثل هذا الصراع. **ونيتشه فى بعض الأحيان يعترف أن فلسفته الخاصة هى مجرد أحد التفسيرات لأن هذا هو كل ما تستطيع أن تكونه. ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا يجب علينا أن نأخذ فلسفته بهذه الجدية؟** كما يبدو أن **من الهزيمة غير المنطقية للنفس استخدام اللغة للزعم بأن اللغة نفسها مجازية بلا هوادة.** ونفس هذه الانتقادات وجهت كذلك لفلسفة ما بعد الحداثة بوجه عام. وفى النهاية ربما كل ما نقدر عليه هو إنتاج قراءات تفكيكية لنصوص نيتشه ، والاحتفال بكل التناقضات التى تنتجها. **لقد رفض نيتشه الفلسفة كلها ، ثم أنتج فلسفة أخرى بدت ميتافيزيقية بشكل ملحوظ.** وشكه المتطرف نبع من اعتقاده بأنه لا يوجد سوى حقيقة واحدة هى إرادة القوة ، وهو ما يعنى أن كل التفسيرات الفلسفية والعلمية الأخرى لأى شىء تصبح غير مشروعة ووهمية ، بيد أنه من غير الواضح أبدا بالضبط ماذا تكون إرادة القوة هذه؟ هل إرادة القوة حقيقة علمية أم كونية أم

---

[164]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 184

[165]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 189

بيولوجية؟ هل هى تحليل نفسى؟ أم أنها أساس ميتافيزيقى آخر وضع فى مكانه لتبرير هذه القيم الفريدة الذى حدث أن أعجب بها نيتشه؟[166]

ومن أهم الدلائل على أن ما بعد الحداثة فلسفة مصيرها الانتحار مقال كتبه دريدا –كبير فلاسفة ما بعد الحداثة– وفيه تكلم عن نيتشه –الأب الروحى لما بعد الحداثة– فقال: "**لا يوجد شىء اسمه حقيقة نيتشه أو حقيقة نص نيتشه**"[167]. وهنا يتجلى الوضع المأساوى لما بعد الحداثة التى ترفض بشكل قاطع وجود فهم واحد صحيح لأى مفكر أو نص ، ولهذا كان من الطبيعى أن نرى أحدهم يقضى على فكر الآخر ، ليس لأنه يكرهه أو يحسده على شهرته ، ولكن لأنه يدرك جيدا أن القارىء سرعان ما سيكتشف تناقضه العنيف إن هو أقر بوجود معنى وحيد حقيقى لفلسفة ما حتى لو كان معجبا بها. ولذا قدم دريدا هذا الاعتراف مكرها على ما يبدو، ولكنه ظل بعدها من الناحية العملية يتعاطف مع نيتشه ، ويتبنى أفكاره الرئيسية.

وقد لاحظ محللون آخرون **مظاهر أخرى لمعايير جاك دريدا المزدوجة:**

(كثيرا ما تفسَّر القراءات الفكيكية على أنها هجوم على الكتاب الذين تتناولهم لأنها تكشف عما عندهم من تناقضات مع أنفسهم ، أو عن وجود عوامل تفكيك ذاتية فى كتاباتهم ، لأننا اعتدنا على اعتبار أن التناقض مع الذات يفسد القيمة الفكرية لجهودهم. ولكن **إذا كان التناقض مع الذات أمرا لا محيد عنه فيما يقول دريدا** – أو لا محيد عنه فى أى نص يطمح إلى بحث مشكلات كبرى على الأقل– فما الاتجاه الذى يتعين علينا اتخاذه تجاه هذه النصوص؟ **إن لهجة دريدا نفسه تتباين فيما يبدو: فهو يتعامل مع هوسرل وهيدجر وسوسير باحترام يفوق الاحترام الذى يبديه نحو روسو وليفى شتراوس اللذين يبين نواقصهما بلغة تتصف بالاستهانة فى كثير من الأحيان.)**[168]

وقد وجه الكثيرون انتقادات حادة لمفكرى ما بعد الحداثة **متهمين إياهم بالنفاق لأنهم لا يطبقون المبادىء التى ينادون بها** ، فهم ينادون بأن كل الآراء ذات قيمة متساوية ، ولا يوجد رأى أجدر بالاتباع من الآراء الأخرى ، ومع ذلك يتعصبون بشدة لآرائهم ، **ويدافعون عنها بكل الأساليب العدوانية العنيفة.** لقد تساءلوا:

---

166) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 28-29

167) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 39-40.

168) **البنيوية وما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا**. صفحة 228.

[لماذا ما بعد الحداثيون – خاصة بين أولئك الأكثر انخراطا فى التطبيق العملى لأفكار ما بعد الحداثة أو وضع أفكار ما بعد الحداثة فى الممارسة الواقعية فى غرفهم الدراسية وفى لقاءات الجامعة– لماذا هؤلاء هم الأكثر احتمالا لأن يكونوا معادين للخلاف والمناظرة ، والأكثر احتمالا للانخراط فى الجدال القائم على **الشخصنة والتنابز بالألقاب** ، والأكثر احتمالا لسن إجراءات استبدادية "صحيحة سياسيا" ، والأكثر احتمالا لأن **يستخدموا الغضب والثورة كتكتيكات جدلية**... لماذا نجد أندريا دوركين Andrea Dworkin على سبيل المثال **تهاجم الرجال بقسوة متهمة كل رجل متباين جنسيا[169] Heterosexual بأنه مغتصب.**[170]]

وإذا عدنا إلى ستيفن هيكس لوجدناه يلفت النظر إلى ملاحظة مهمة هى أن كل مفكرى ما بعد الحداثة من اليساريين مع أن المرء كان يتوقع أن يجدهم منتمين لمذاهب متعددة لأن ما بعد الحداثة لا تؤمن أن اليسار وحده هو الصحيح:

" إذا كان الشك العميق فى العقل –وما يتبع ذلك من ذاتية ونسبوية– هو أهم أجزاء قصة ما بعد الحداثة فإننا كنا نتوقع أن نجد ما بعد الحداثيين يمثلون تقريبا توزيعا عشوائيا للالتزامات عبر الطيف السياسى. **إذا كانت القيم والسياسة أساسا مسألة قفزة ذاتية إلى أى شىء يناسب هوى المرء فإنه كان علينا أن نجد أشخاصا يصنعون قفزات فى كل أنواع البرامج السياسية. وليس هذا ما نجده فى حالة ما بعد الحداثة. إن ما بعد الحداثيين ليسوا أشخاصا توصلوا إلى نتائج نسبوية فيما يتعلق بنظرية المعرفة ، ثم وجدوا الراحة فى مجموعة شديدة التنوع من القناعات السياسية.** إن ما بعد الحداثيين فى سياستهم **يساريون متشددون** بشكل متجانس. إن ميشيل فوكو وجاك دريدا وليوتارد وريتشارد رورتى كلهم فى أقصى اليسار. ومن بين الأسماء الكبرى فى حركة ما بعد الحداثة **لا يوجد شخص واحد غير يساري بشكل جاد**[171]."

ويرى هيكس أيضا أن اليسار المتطرف لما ووجه بالدليل القوى والمنطق الصارم حاول الخروج من مأزقه كما يلى: (المنطق والدليل لهما طابع ذاتى ؛ **أنت حقا غير قادر على أن تثبت أى شىء ؛ والمشاعر أكثر عمقا من المنطق** ؛ ومشاعرنا تقول بالاشتراكية)[172].

[169]) متباين جنسيا يعنى ليس شاذا ، أى رجل ينجذب بشكل طبيعى للمرأة أو امرأة تنجذب لرجل.

[170]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 85-86.

[171]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 84-85.

[172]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 90.

لا شك إذن أن ما بعد الحداثة وقعت فى تناقض فج مع نفسها ، فكيف يمكن فهم هذا التناقض؟ يرى البعض أن ما بعد الحداثة مجرد حركة سياسية يسارية متعصبة قررت أن تعتنق فى وقت متأخر النسبية **كوسيلة نفعية تحقق أغراضا سياسية عملا بمبدأ ميكيافيللى: الغاية تبرر الوسيلة**. وفى هذا الصدد يقول فريدريك جيمسون: (كل شىء فى التحليل الأخير سياسى). إذن ما بعد الحداثة لم تكن من الأصل ذات نزعة نسبوية فلسفية ، ولكنها لجأت للنسبوية كاستراتيجية سياسية. وعلى ذلك فإن **ما بعد الحداثيين لا يؤمنون كثيرا بما يقولون ، وكلماتهم لا تقرر حقائق يعتقدون بصحتها ، ولكنها أسلحة يصوبونها نحو أعداء يرغبون فى تدميرهم**[173].

لقد شجع التفكيك العلماء على الأخذ فى الاعتبار **ليس فقط ما يقوله النص ولكن أيضا العلاقة – والصراع المحتمل– بين ما يقوله النص وما يفعله....** وبشكل أكثر عموما فقد انضم التفكيك إلى الخيوط الأخرى لتفكير ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة ليلهم شكا فى المقولات الفكرية الراسخة وشكا فى إمكانية الموضوعية. ولذلك فقد قوبل انتشاره بقدر كبير من المعارضة. وقد استبعده بعض الفلاسفة خاصة فى التقليد الأنجلو–أمريكى باعتباره **تلاعبا بالكلمات مسببا للتعمية ، دعاواه الكبرى – إن أمكن فهمها– هى إما تافهة أو خاطئة**. وقد اتهمه آخرون بأنه غير تاريخى وغير سياسى. ونظر إليه آخرون على أنه **قبول عدمى لنسبية معرفية متطرفة**.[174]

ويرى ديف روبنسون أن نقطة الضعف الكبرى فى منهج التفكيك هو أنه **يستطيع دائما فقط أن يكون نشاطا سلبيا متطفلا. إنه يستطيع أن ينتج قراءات نقدية ، وليس أنواعا جديدة من الفلسفات الأخلاقية والسياسية** غير الماهوية وغير الميتافيزيقة ، **لكى تحل محل تلك الفلسفات التى جعلها مُفلسة**. وهذا يعنى أن من غير الواضح كيف يستطيع دريدا أن يدافع عن حقوق الإنسان والحرية التى لا يزال يثمنها بوضوح[175]. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

---

[173]) **Explaining Postmodernism: Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault**. Page 186.
[174]) **Deconstruction**. Encyclopedia Britannica.
[175]) **Nietzsche and Postmodernism**. Page 41.

الباب الثانى: كفر أهل الكتاب

1- الاختلاف المقبول والاختلاف المرفوض

تتردد كثيرا فى وسائل الإعلام مقولة "الاختلاف سُنة كونية من سنن الله". هذه هى المقدمة التى تبنى عليها النتيجة الخطيرة القائلة بأن كل الأديان سامية ، وكلها مقبولة عند الله لأنه عز وجل هو الذى أراد لها جميعا التواجد جنبا إلى جنب. إن هذا الكلام يمثل طعنة فى قلب الإسلام ، ولهذا لا بد أن نتوقف عنده ، ونضعه تحت المجهر.

إننا نقر أن **من سنة الله تعالى انقسام الناس إلى شعوب وقبائل مختلفة:** {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: 13].

ومن سنة الله اختلاف الناس فى الأجناس والأعراق والألوان واللغات ، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الروم: 22].،

ومن سنة الله تعالى اختلاف الناس فى المواهب والملكات والقدرات والمنح كالجمال والذكاء والثراء والقوة واللباقة. ولو كان كل الناس أذكياء ، وكلهم يريدون أن يصبحوا علماء ، فمن ذا الذى يعمل بيديه فى المصانع؟ ولو كان كل الناس أثرياء مرفهين فمن ذا الذى يرضى بأن يصلح لنا مواسير المجارى؟ ولو كان كل الناس أقوياء لعانى الكثيرون من البطالة لأن أحدا لن يحتاج إلى قوتهم فى الأعمال الشاقة. ولو كانت كل النساء جميلات ، فمن ترضى بأن تتزوج من رجل فقير؟ وهكذا ضيق الله على كل إنسان فى بعض الجوانب ، ووسع عليه فى جوانب أخرى ، كى يحتاج بعض الناس إلى بعض ، فتستمر عجلة الحياة: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [الزخرف: 32].

لكن من قبيل اللبس والتضليل أن يستنتج البعض مما سبق أن اختلاف الناس فى الدين ظاهرة صحية، وأن كل الأديان مقبولة عند الله. **من الخطأ قياس الدين على اللغة والعرق والجنس واللون والصحة والجمال والمال والقوة** ، فالبون شاسع بين الدين وهذه السمات الطبيعية. الدين شىء يختاره الإنسان بإرادته ، ويؤمن به عن اقتناع دون أن يفرضه الله عليه. أما اللغة والعرق واللون والجنس والصحة والجمال فأمور يفرضها الله عز وجل فرضا على الناس ؛ فلا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض

على أسود ، ولا لقوى على مشلول. أما الدين فيرجع إلى قرار يتخذه الإنسان بنفسه ، فالله لم يجبر النصرانى على أن يبقى نصرانيا ، ولم يجبر اليهودى على أن يبقى يهوديا ، ولم يحل بين المسلم وبين أن يكفر سرا ويفعل كل الموبقات فى الخفاء. وعلى ذلك فاختلاف الناس فى الأديان هو فى الأساس مسألة من صنع أيديهم.

يجب أن نفرق بوضوح بين ظروف اختارها الإنسان لنفسه ، وظروف أُكره الإنسان عليها. الإنسان أُكره على جنسه (ذكر أو أنثى) وشعبه (أمريكى أو مصرى) ، ولغته الأم (العربية أو الإنجليزية) ، ولونه (أبيض أو أسود) ، وذكائه (عبقرى أو متخلف عقليا) ، وحُسنه (جميل أو قبيح) ، وصحته (سليم أو مريض). ولا يعقل أن تكون مصريا ، فتسافر إلى اليابان ، لتجد كل الناس فى الشارع يتكلمون اليابانية ، فتسب وتلعن هذا الشعب الغريب الذى يستخدم تلك اللغة غير المفهومة ، فلا يمكن أن يلام الإنسان على اللغة التى ولد بها. ولا يعقل أن يولد الطفل بعيب خلقى فى القلب ، فيعنفه إخوته الكبار لأن أغلب دخل أبيهم يضيع فى الإنفاق على مرضه ، فلا أحد اختار لنفسه المرض. ولا يعقل أن تقابل إنسانا أسود فى الطريق ، فتسخر من شكله ، فلا أحد منا اختار لون الجلد الذى خلق به. ولا يعقل أن تقابل سائلا يجلس على قارعة الطريق يستجدى العون من المارة ، فتعنفه على تسوله رغم أنك ترى أن ساقه مبتورة.

لكن من ناحية أخرى لم يُكره الله تعالى الإنسان على أن يعتنق دينا بعينه: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: 29]. لقد منحنا الله تعالى حرية الإرادة ، وأعطانا العقل كى نفكر فى الدين الذى ولدنا عليه ، ونحكم على نصيبه من الصواب والخطأ ، فنستمر عليه أو نتركه إلى غيره. حقا يتدخل الله عز وجل فى بعض الأحيان ليضل بعض الناس ويهدى البعض الآخر ، لكن هذا لا يتعارض مع حرية الإرادة لأن الله تعالى يضل من يستحق الضلال ، ويهدى من يستحق الهداية ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: 17] ، وقال أيضا: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: 10][176]

[176]) ومن الآيات الأخرى التى تعبرعن نفس المعنى:
{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [المائدة: 13].
{وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [الزخرف: 36].
{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: 22، 23]
{فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأعراف: 30].
{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: 46]

إن هناك ظروفا سيئة من واجب الإنسان أن يجتهد فى تغييرها ، وإن سكت عليها كان متواكلا أو مجرما. على سبيل المثال من قبيل التواكل والإجرام أن يكون للأب غير الفقير ابن مصاب بعيب خلقى فى القدم ، ويحتاج لجراحة ، فيتركه الأب بحجة أن من سنة الله اختلاف الناس فى الصحة والقوة. ومن غير المقبول أن يهمل الأب فى تعليم أولاده ، ويتركهم يلعبون طوال السنة بحجة أن اختلاف الناس فى العلم من سنة الله. ومن غير المقبول أن تتكاسل الدولة عن تنمية اقتصادها بحجة أن اختلاف الأمم فى الثروة من سنة الله. وأحيانا يكون الاستسلام للاختلاف جريمة نكراء ؛ فمثلا من غير المعقول إذا علمت الدولة بوجود وكر للمخدرات أو مصنع لغش الأدوية أن تتغاضى عنه بحجة أن اختلاف الناس فى درجة التقوى من سنة الله فى الأرض. ومن غير المقبول أن يترك الأب ابنه دون أن يحثه على الصلاة بحجة أن الناس يختلفون فى درجة حب الله وتعلقهم به.

وإذا كان من الواجب على الإنسان أن يجتهد لتغيير الظروف التى فُرضت عليه فالأولى به أن يجتهد من أجل تغيير الظروف التى تركها الله ليختارها بنفسه ، وعلى رأسها الدين. إن **من غير المقبول أبدا أن نرضى باختلاف الناس فى الدين إلا بعد أن نبذل غاية الجهد فى إرشادهم إلى الإسلام ، وإعادة توحيدهم على الدين الحق الذى أنزله الله تعالى من السماء ، فإن أخفقنا قلنا أن هذا قدر الله ، وأن الاختلاف من سننه عز وجل** لأنه لو شاء لأجبر الناس جميعا على الإيمان. ومن لا يروق له هذا المنطق فليترك ابنته تعمل فى بيت دعارة على أساس أن اختلاف الناس فى نوع العمل من سنة الله.

والآن إن رأيت طفلا وُلد بذيل فى أسفل ظهره (كأن يكون مصابا بمتلازمة ميلر ديكر Miller–Dieker syndrome) فليس من حقك أن تلومه على شكله المضحك لأنه لم يخلق الذيل لنفسه ، ولكن إن رأيت رجلا هندوسيا بلا ذيل ، يسجد لحيوان له ذيل كالبقرة فمن حقك أن تلومه لأنه قد اختار بإرادته الكاملة أن يعبد حيوانا لا يعقل.

إن من يقولون أن الاختلاف فى الدين مثل الاختلاف فى الجنس واللغة يريدون بقولهم هذا أن يلغوا دور العقل فى تقييم الأديان ، وأن يحولوا الدين إلى صفة يولد الإنسان بها ، ويحنى لها رأسه ، ويخضع لنيرها ، ولا يجرؤ فى يوم من الأيام على وضعها تحت مجهر النقد. إن الدعوة إلى تعدد الأديان تمثل **شكلا من أشكال الجبرية** ، فهى تريد من الإنسان المعاصر أن يجلس فى هدوء راضيا بالدين الذى ورثه من آبائه كما يرضى بلونه وشكله وجنسه وغير ذلك من الظروف التى يستحيل تغييرها. وقد

صعقت ذات يوم حين سمعت رجل أعمال مسيحى مشهور ، وهو يؤكد أن الإنسان يرث الدين من آبائه وأجداده ، وأن من الطبيعى أن يتمسك به ، ولا يغير شيئا ولد عليه. والغريب أن هذا الرجل كان يبتسم، وكأنه يفخر بهذا المنطق الغبى ، كما كانت المذيعة المشهورة –التى يفترض أن لها حظا من الفكر– تهز رأسها مصدقة على كلامه. ولو كانت عاقلة حقا لسألته عن رأيه فى صبى ولد لأب يتاجر فى المخدرات وأم تعمل فى الدعارة ، فهل يتمسك الصبى بما وجد عليه أبويه ، ويواصل مسيرتهما فى عالم الإجرام أم يتمرد على ما ورثه ، ويجِدُّ فى الخروج من المستنقع الذى وُلد فيه؟

إنهم يريدون من الإنسان أن يتحول إلى حيوان ، لا يفهم ، ولا يناقش ، ولا يحاكم ، ولا يصحح. إن بدعة المناداة بتعدد الأديان نكسة فلسفية ، ورِدَّة فكرية ، وليست قط دليلا على التحضر. وإن أردت أن تلخص هذه البدعة فيمكنك أن تقول: **عش حمارا ، وكل واشرب، وضع عقلك فى ثلاجة ، واتركه يتجمد، ولا تتعب نفسك فى البحث عن الدين الحق لأن كل الأديان مقبولة ، وستدخل الجنة حتى لو عبدتَ إنسانا مثلك.**

ولا بد أن نؤكد فى النهاية أن الله تعالى يمكن أن يقبل من الإنسان اعتناق الدين الباطل فقط فى حالة الصعوبة الشديدة فى معرفة الحق ، وهذا ينطبق على "أهل الفترة" ، أى تلك العصور التى يغيب فيها الرسل ، كما فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ، فهنا لا يلام المرء على اتباع دين باطل ، وذلك يُفهم من الآيات التالية:

- {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15]
- {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: 19]
- {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) <u>أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ</u> (156) <u>أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ</u> فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ...} [الأنعام: 155 – 157]
- {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [السجدة: 3]

ويمكن أن نقيس على أهل الفترة كثيرا من الناس الذين عاشوا فى عصر نبى ، لكنهم كانوا بعيدين عن تلقى رسالته ، فمثلا كان من المستحيل أن يعرف أغلب سكان أوربا وإفريقيا والصين والهند شيئا عن

الإسلام أثناء حياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام قبل الفتوحات الإسلامية. وحتى فى يومنا هذا من الصعب جدا على سكان بعض القبائل البدائية فى إفريقيا أن يعرفوا شيئا عن رسالة الإسلام بسبب انعزالهم عن وسائل الاتصال الحديثة. ومثل هؤلاء الناس يمكن أن يقبل الله تعالى منهم أديانهم الباطلة لأنهم لم يعرفوا غيرها ، ولم تتح لهم الموازنة بينها وبين الإسلام. هؤلاء أمرهم موكول إلى الله. المشكلة تكمن فى الإنسان المعاصر الذى يعرف كل شيء عن الإسلام فى عصر المعلومات والفضائيات والإنترنت. أمثل هذا الإنسان المثقف يقبل الله منه أى دين غير الإسلام؟ إن الحضارة الإنسانية كلما تقدمت تقلصت دائرة أهل الفترة ، ولا نبالغ إذا قلنا أنه فى خلال أقل من مائة سنة لن يكون هناك أهل فترة على الإطلاق بسبب التقدم المذهل لوسائل الاتصال. ولقد كاد عقلى يطير حين سمعت كذابا يرتدى ثوب واعظ وهو يدافع باستماتة عن الملحد ستيفن هوكنج ، زاعما أن الله تعالى سيغفر له لأنه لم تتح له فرصة التعرف على الإله فى الإسلام. يا له من كذاب وقح!

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

2- قبول التنوع: تحضر أم لا مبالاة؟

ينظر العلمانيون إلى الدين على أنه شيء ثانوى تافه. الدين فى رأيهم أحقر من أن يختلف الناس حوله. **إنهم يشبهون عارضة أزياء سألوها يوما: "هل تفضلين الماركسية أم الوجودية؟"** فهزت رأسها فى عدم اكتراث قائلة: " أنا أُفضل الأزياء ذات اللون الأزرق". وبالمثل يهتم المؤرخ بإبداء رأيه حول أسباب قيام الثورة الفرنسية ، لكن بائع الفاكهة (مع احترامنا لمهنته) لا تعنيه أبدا هذه الأمور التاريخية، ويحرص بدلا من ذلك على متابعة أسعار التفاح والبطيخ. وستجد كذلك أن الناقد الرياضى لديه شغف بالمقارنة بين النادى الأهلى ونادى الزمالك ، لكنه لا يكترث على الإطلاق بالمتنافسين على جائزة نوبل فى الفيزياء.

وهكذا فاهتمام الإنسان بالحكم بين عدة أطراف تتنافس فى مجال معين يعد دليلا على اهتمامه بالمجال نفسه. ولهذا **فعدم اكتراث العلمانيين وبعض رجال الدين بالبحث عن الدين الحق من بين الأديان الكثيرة هو دليل أكيد على أن فكرة الدين نفسها ليست مما يشغل بالهم** ، وأن الله تعالى لا يعنيهم فى شيء، والآخرة فى نظرهم ليست إلا ترهات أو أحلام بعيدة المنال. إنهم إما ملاحدة مستترون، أو علمانيون يعارضون بشدة أى دور للدين فى الحياة ، أو سياسيون مشبوهون ، أو إعلاميون يتلون ما يُملى عليهم ، أو فساق غارقون فى الشهوات مثل تلك الفنانة المتبرجة التى جلست يوما تتكلم بكل ثقة وجدية عن التنوع والاختلاف وقبول الآخر ، بينما كان الصحفى المعروف الذى يحاورها ينظر بإعجاب شديد إلى جمالها ولباقتها. إن هؤلاء الفسقة لا يظهرون الرزانة والوقار إلا حين يتعلق الأمر بالإسلام ، حيث تجدهم يرتدون ثياب الخبراء والحكماء والفلاسفة كى يعلموا المسلمين كيف يفهمون الإسلام، وكيف يقرأون القرآن ، أما حياتهم الخاصة والمهنية فهى لهو ، وانحطاط ، وزنا ، ومخدرات ، وحقد ، وغيبة ، وعمالة.

ومن يصر على اعتبار جميع الأديان متساوية فى القيمة ، فقل له: "**إن أردت أن تتزوج فلا تبحث بين النساء عن الأكثر جمالا ، واقبل بأى فتاة تختارها لك أمك لأن كل النساء سواء!**" طبعا لن ينصت إليك أى منهم لأن الزواج فى نظرهم أمر مصيرى ، أما الإسلام فمن التوافه التى لا معنى للاختلاف حولها.

وكل الحكماء المتخصصين فى إلقاء دروس التحضر والتسامح وتساوى الأديان تجد **حياتهم الخاصة كلها تنافس واختلاف. واختلافاتهم تتحول على أهون سبب إلى صراع وقتال** من أجل المناصب والأجور والشهرة والمال ورضا أصحاب النفوذ. كما تجد الواحد منهم **يقضى الساعات الطوال – بل الأيام والشهور – من أجل أن يختار أفضل الأزياء والسيارات والمنازل والمشروعات**. وإن أقدم أحدهم على تزويج ابنه فإنه يراجع كافة التفاصيل بكل دقة كأعداد المدعوين ، وقائمة الشخصيات المهمة ، واسم الفندق ، وحجم القاعة ، والوليمة ، واسم المطرب ، والفرقة الموسيقية ، والراقصة ، والمصورين. أما حين يتعلق الأمر بالأديان فهو ينظر إليها جميعا بشكل متساو ، ولا يرى فضلا لأحدها على الآخر ، فبفرض أن العالم اكتشف أن الإسلام هو الحق ، فهذا لن يزيد أرصدته فى البنوك ، ولن يرفع أسعار أسهم شركاته، ولن يوصله إلى البرلمان، ولن يدفع له تكاليف رحلاته السياحية إلى أوربا.

إنه عالم النفاق.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

3- البطل والكومبارس

فى أحد الأيام كتب علمانى معروف: "من هو الأبله الذى يتصور أن الله خلق مليارات البشر لكى يلعبوا دور الكومبارس فى تمثيلية مشهد النهاية فيها أن يدخل المسلمون فقط إلى الجنة؟"

ألا فليعلم هذا الملحد وأمثاله أن أغلب المتنافسين على جائزة نوبل من الكومبارس ، وأغلب المتنافسين على الأوسكار كومبارس ، وأغلب المتنافسين على كأس العالم لكرة القدم كومبارس. وفى كل كلية من الكليات يتنافس عشرات الطلبة على وظيفة واحدة ، هى وظيفة معيد. ولو أُعلن عن مسابقة لشغل وظيفة سكرتير مكتب رئيس الجمهورية لتقدم عشرات الآلاف ، ليفوز فى النهاية واحد فقط. هذه طبيعة الحياة: الفوز للقلة. وما الغرابة فى أن تكون الجنة للقلة التى اجتازت بنجاح أصعب اختبار فى الوجود: اختبار الدنيا؟

ثم بفرض أن هذا العلمانى مبدع وعبقري كما يرى نفسه ، فلماذا لم يتعاطف مع مائة مليون مصرى من الكومبارس الذين عجزوا عن أن يصلوا إلى نفس مستوى موهبته فى كتابة المقال والقصة؟ أليس هذا دليلا واقعيا ملموسا على أن من طبيعة الحياة أن يكون التفوق للقلة؟ لقد كان على هذا العلمانى أن يلاحظ أن مثال الكومبارس الذى ضربه يوقعه فى فخ قاتل ؛ ففى عالم السينما يوجد عدد قليل من النجوم فى مقابل آلاف من الكومبارس ، فلماذا لم يتهم صاحبنا المخرجين بأنهم ظالمون لأنهم لا يضعون صور الكومبارس على إعلانات الأفلام جنبا إلى جنب مع صور النجوم؟ لقد كان على هذا العلمانى أن يسأل نفسه: وما الذى جعل الكومبارس كومبارس؟ أليس لأنه أقل موهبة من النجوم؟ إذن المخرج يكون ظالما فقط إن وقف فى طريق ممثل موهوب ، وأصر على أن يبقيه فى أدوار الكومبارس.

إنهم يريدون من الله أن يجعل الجنة بلا ثمن ، فيفوز بها الجميع حتى لو لم يعملوا لها ، مع أن العدل يقضى بأن يرسب أغلب طلبة مدرسة للمشاغبين؟ **إن المشكلة ليست فى كثرة أعداد المعذبين فى النار يوم القيامة. جوهر القضية هو ما إذا كان أهل النار يستحقونها أم لا ، سواء قل عددهم أم كثر.** مع الأسف الإلحاد فى بلادنا يُبنى على أدلة فى غاية التفاهة. وهذه السخافات تجد آذانا صاغية من شباب لديهم استعداد نفسى للانهزام فى معركة غير شريفة تُستخدم فيها كافة الأسلحة باستثناء العقل.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

4- دع القرآن يتكلم

كانت الطامة الكبرى حين وصلت الوقاحة ببعض من يصنفون من قِبل الإعلام العلمانى على أنهم رجال دين مسلمون إلى الإعلان بكل جرأة أن اليهود والنصارى ليسوا كفارا ، وأنهم سيدخلون الجنة مثل المسلمين. والأدهى أنهم أفتوا بأن المسلم الذى يكفر اليهود والنصارى هو الكافر! تخيلوا!

وسنحاول الآن أن نحسم المعركة مع هؤلاء الأفاكين مبكرا. إننا سنرميهم بآيات الله التى تعلن بكل صراحة أن كل من اعتنق دينا غير الإسلام فهو كافر. اقرأوا معنا كلام الله ، وإذا تكلم الله فلينصت الشيخ فلان والمفكر فلان والدكتور فلان ؛ فإن استمع قاض إلى محام يدافع عن أحد المتهمين بكلام عام مرسل ، فلن يجاريه القاضى ، بل سيطالبه بأن يبنى دفاعه على نصوص محددة من القانون.

إن على العقل أن يخضع حين يتكلم القرآن بأسلوب واضح وقاطع ، طالما أن هذا العقل قد اقتنع مسبقا بأن هذا الكتاب قد جاء من إله الكون. هب أن أحد الضباط قد تلقى أمرا بشن هجوم على العدو ، فحاول أن يناقش قائده حول الداعى للقيام بهذا الهجوم غير المضمون فى ظل وجود بدائل أخرى. لكن الضابط سمع القائد يكرر نفس الأمر بلهجة حادة لأن الأمر صادر من رئيس الأركان الذى لا يختلف أحد على كفاءته الحربية. إزاء هذا الإصرار الكبير يتحتم على الضابط أن يطيع الأوامر لأن القيادة لن تصر بهذا الشكل إلا إذا كان لديها معلومات أكثر شمولا عن الموقف العسكري والسياسى بما يجعلها أقدر على تقييم الموقف.

والآن تعال معى إلى مجموعة من الآيات التى راعينا فيها أن تكون شديدة الوضوح فى الدلالة على كفر أهل الكتاب ، بحيث يستحيل على العقلاء أن يختلفوا حول مدلولها. وهناك غير ذلك عشرات الآيات التى لم نشأ أن نوردها بسبب ضيق المساحة:

- **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}** [المائدة: 72].
- **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [المائدة: 17]

نبدأ بهاتين الآيتين كى نختصر الطريق ؛ فمن المستحيل تأويل كلمات القرآن التى تثبت كفر النصارى بسبب اعتقادهم بأن المسيح هو الله.

- **{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** [المائدة: 73].

من المستحيل أيضا تأويل هذه الآية القاطعة التى تثبت كفر النصارى الذين يؤمنون بوجود ثلاثة آلهة أو أقانيم (الآب والابن والروح القدس).

- **{قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}** [آل عمران: 98، 99].

يقول القرآن هنا بصراحة أن أهل الكتاب يكفرون بآيات الله. كما يوجه لهم الاتهام بأنهم يصدون المؤمنين عن سبيل الله القويمة ، أى عن الإسلام ، ويريدونهم أن يسلكوا طريقا معوجا إلى الله من خلال عقائدهم الباطلة. وهم يفعلون ذلك ليس عن غفله وانخداع ، بل عن علم ووعى وشهادة. كما نجد القرآن يوجه إليهم تهديدا مبطنا يتمثل فى قوله: (وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ) ، وقوله: (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ). وهذا يشبه قول القائل هذه الأيام: (أنا لست نائما). ومن المستحيل لى عنق هذه الآية لتعنى أن أهل الكفار سيدخلون الجنة.

- **{وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69) يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}** [آل عمران: 69، 70]

هنا يتهم القرآن أهل الكتاب بمحاولة إضلال المسلمين. ومن خلال السياق نعرف أن أهل الكتاب لم يكونوا يحاولون إقناع المسلمين بالعودة إلى عبادة الأصنام ، بل كانوا يبغون إقناعهم بصدق اليهودية والنصرانية[177]. وهذا يعنى أن اليهودية والنصرانية يمثلان الضلال. كما يوبخ القرآن أهل الكتاب بسبب كفرهم بآيات الله رغم علمهم أنها هى الحق (لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ).

177) وردت هذه الآية على خلفية ذكر القرآن لقصة عيسى بن مريم الحقيقية ، وللجدل الذى دار بين المسلمين والنصارى حول طبيعته ، وكذلك ادعاء اليهود والنصارى بأن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا.

القرآن هو الذى يرميهم بالكفر ، فكيف تجعلهم وسائل الإعلام الحديثة مؤمنين؟ وكيف تدخلهم الجنة؟ هل من سامع؟

- **{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** [آل عمران: 79، 80]

نزلت هذه الآية فى سياق هجوم القرآن على أهل الكتاب الذى كانوا يحاولون بطرق ملتوية إضلال المسلمين. وهنا نجد أن القرآن ينكر بشكل صارم أن يكون عيسى عليه السلام قد أمر الناس أن يعبدوه من دون الله ، أو يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا. وأهم ما فى الآية أن **القرآن ينعت بالكفر أولئك الذين يعبدون إنسانا غير الله أو يتخذون الملائكة والنبيين أربابا من دونه** (أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ، وهذا الكلام ينطبق على النصارى بشكل واضح.

- **{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الأعراف: 156، 157]

هنا نجد أن الله تعالى سيكتب رحمته للناس ، ليس لمجرد أنهم يعملون الصالحات (كالتقوى وإيتاء الزكاة) كما يقول الإعلام العلمانى الذين يجعل عمل الخير الشرط الوحيد لدخول الجنة بصرف النظر عن العقيدة. الحقيقة غير ذلك ، فالله تعالى سيكتب رحمته لمن يعملون الخيرات بشرط أن يكونوا فى نفس الوقت مؤمنين بآيات الله (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ). ومن قبيل الإيمان بآيات الله اتباع الآيات التى جاء بها النبى الأمى. والنبى الأمى هو محمد عليه الصلاة والسلام كما هو مشهور ، وكما ورد[178] فى الآية 158 من نفس السورة. ويذكر القرآن هنا أن التوراة والإنجيل الموجودين فى أيدى أهل الكتاب يتضمنان ذكرا للنبى محمد الذى سيأمرهم بالمعروف ، وينهاهم

---

[178]) النبى الأمى هو محمد صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 158]. والأميون هم العرب فى الجاهلية ، وقد سموا كذلك لأنهم لم يكن لهم علم بالأديان السماوية: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: 2]. وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ } [آل عمران: 75]

عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويأتى لهم بشريعة أخف من شريعتهم القاسية (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ). وهذا الكلام كما ترون يؤكد أن محمدا عليه السلام مرسل لليهود والنصارى ، وأن شريعته نسخت شريعتهم. كما يؤكد القرآن أن على أهل الكتاب أن يؤمنوا بمحمد وينصروه إن أرادوا أن يكونوا من المفلحين (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). كيف يقال بعد هذا أن النصارى واليهود الذين يكفرون بمحمد عليه الصلاة والسلام مؤمنون ، وسيدخلون الجنة؟ هل عدنان إبراهيم أعلم أم الله؟ هل إسلام البحيرى أعلم أم الله ؟ هل لدى سعاد صالح علم يفوق ما نزل فى القرآن؟ إن هذا ليس اجتهادا خاطئا ، بل مروق من الإسلام.

- **{<u>وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا</u> (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}** [مريم: 88 – 93]

هذه الآية شديدة الوضوح فى الإدانة الشديدة لاعتقاد النصارى فى أن عيسى ابن الله. إن كلمات القرآن هنا فى غاية القوة والعنف. انظر مثلا إلى كلمة (إِدًّا) تجد أنها تعنى (فظيعا منكرا). ومن شدة ضلال عقيدة النصارى يكاد كل من السماوات والأرض ينشق ، كما توشك الجبال أن تسقط متهدمة بسببها. وماذا فى الكون أكبر من السماوات والأرض والجبال؟ هل يجوز بعد ذلك أن نُهون من ضلال النصرانية لمجرد أنها تدعو إلى مكارم الأخلاق؟

- **{<u>قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا</u> سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا <u>أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ</u> (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ <u>يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ</u> لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ <u>نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ</u>}** [يونس: 68 – 70]

لا حاجة بنا إلى التعليق على هذه الآيات الشديدة الوضوح التى تدين عقيدة النصارى ، وتتحداهم أن يأتوا ببرهان على أن المسيح هو ابن الله (إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا)، كما تتوعدهم بالخيبة والعذاب الشديد فى الآخرة بسبب افترائهم الكذب على الله تعالى. ولاحظ أن الآية الأخيرة تختتم بكلمة (يكفرون) التى تنطبق على النصارى لافترائهم الكذب على الله ، وقولهم أن له تعالى ولدا. وعبارة (قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) فى غاية الأهمية لأنها تقلب الصورة

المتداولة إعلاميا عن النصارى ، فالنصارى يتعمدون إظهار أنفسهم بمظهر الأتقياء أصحاب الخلق الرفيع ، لكن الله تعالى لا يعتد بهذا ، ويفضح حقيقتهم ، فافتراء الكذب على الله جريمة من أفظع الجرائم ، ولو علم أحد الوزراء أن موظفا عنده روج إشاعة عنه لما غمض له جفن حتى يفصله من عمله. وقد ورد هذا المعنى فى آية أخرى هى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا} [النساء: 49، 50].

- **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}** [النساء: 171]

هذه الآية واضحة فى تكذيب عقيدة النصارى الذين يعتبرون أن المسيح ابن الله ، وأنه إله بجوار إلهين آخرين ، هما الأب والروح القدس. ولاحظ كيف كلمهم الله تعالى بلهجة حادة مهددا إياهم بقوله: (انتهوا خيرا لكم). فهل يفهم من هذه الآية أن النصارى مؤمنون ، أو أن الله تعالى يرضى عن إيمانهم؟ ثم ما موقف الله تعالى الآن وهو يعلم أن النصارى لم ينتهوا عن القول بالتثليث كما أمرتهم الآية؟ هل يزداد حبه لمن أصر على معصيته؟ ومن قبيل المهزلة أن تصف الآية عقيدة النصارى بالغلو (لا تغلو فى دينكم) ، بينما تكيل وسائل الإعلام المديح للنصارى وحكمتهم وأخلاقهم، وفى نفس الوقت ترمى كل مسلم يتمسك بدينه بالغلو والتطرف!

- **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}** [النساء: 47 – 48].

نحن هنا أمام أقوى ما ورد فى القرآن من تهديد لأهل الكتاب إن هم كفروا بالوحى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما فى كتبهم. انظر إلى قوله تعالى: (مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا) تجده تهديدا فى غاية العنف حتى دون أن تفهم معناه. وأحد معانيه أن الله

تعالى سيمحو ملامح وجوه أهل الكتاب من شدة العذاب ، بحيث تصبح وجوههم ملساء كأقفيتهم ، فلا أثر فيها للعين ولا الأنف ولا الحاجب ولا الأذن. كما تتوعدهم الآية بواحد من أسوأ أشكال اللعنة، ألا وهى اللعنة التى تشبه لعنة اليهود حين عصوا الله تعالى بالعمل يوم السبت ، فمسخهم الله ، وحولهم إلى قردة خاسئين. فهل يبقى بعد ذلك مكان للاعتقاد بأن الله تعالى يرضى عن اليهود والنصارى الذين يكذبون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، أو أنه سيدخلهم الجنة؟ هل يدخل الجنة ملعون؟ ولاحظ أيضا كيف يعقب الله على ذلك بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). وهذا القول الأخير موجه بوضوح لأهل الكتاب الذين يظنون أنهم من الصالحين لأنهم يؤمنون بالله، فجاء القرآن ليؤكد لهم أن الإيمان بالله ليس كل شيء ، فمن آمن بالله ثم اتخذ معه شركاء (كما يفعل النصارى مثلا) ، فهذا ذنب لا يمكن أن يغفره الله. وطبعا سيندهش أهل الكتاب من هذا المنطق غير المتوقع، ولذلك عقب القرآن بقول يفيد سبب رفض الله للشرك ، فهو ليس جريمة عادية، بل جريمة عظمى: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا). والشرك فى هذه الآية يشير إلى شرك أهل الكتاب وليس إلى شرك عبدة الأصنام من العرب لأنه لا يوجد فى السياق (قبل هذه الآية وبعدها) ما يشير إليهم، والكلام ينصب بشكل كامل على أهل الكتاب.

- **{<u>وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا</u> (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ <u>إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا</u>}** [الكهف: 5]

هنا ينذر القرآن النصارى بسبب قولهم أن لله تعالى ولدا ، كما يتهمهم بأنهم قالوا ذلك من أنفسهم دون وجود نص أوحى به الله إليهم أو لآبائهم (ما لهم به من علم ولا لآبائهم). ويصف القرآن قولهم بأنه قول عظيم شنيع (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) ، ولا وصف له إلا الكذب. كيف يقال بعد هذا أن الله تعالى يرضى عن النصرانية ، وسيدخل أتباعها الجنة؟

- **<u>{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ</u> قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى <u>وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ</u>}** [البقرة: 120].

هنا يوجه الله تعالى تحذيرا شديد اللهجة للرسول عليه الصلاة والسلام حتى لا يتبع ملة أهل الكتاب. ولو فعل الرسول ذلك لفقد تأييد الله ونصره. ولاحظ كيف استخدم القرآن كلمة (أهواءهم) لوصف ملة اليهود والنصارى ، بينما استخدم كلمة (العلم) لوصف ما أنزل إلى الرسول من الله. **وتأمل قوله**

تعالى: (قل إن هدى الله هو الهدى) تجده يشير بوضوح شديد إلى أن الهدى نوع واحد ، وهو الوحى الذى جاء من الله إلى نبيه محمد ، وما عدا هذا لا يستحق اسم الهدى. وفى هذا رد على رئيس الجامعة الأحمق الذى وقف يبشرنا بأن الحقيقة ليست واحدة ، وهو يقصد أن الإسلام ليس وحده هو الحق.

- **{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [البقرة: 135 – 137]

هنا يزعم كل من اليهود والنصارى أن من يؤمن بدينهم فسيكون من المهتدين ، لكن الله تعالى يأمر الرسول بألا يطيعهم ، وأن يتبع بدلا من ذلك ملة إبراهيم الحنيف. ولو كان اليهود والنصارى سيدخلون الجنة فلماذا لم يطعهم الرسول ويتبع دينهم ، أو على الأقل يوافق على القول بأنهم مهتدون؟ وسنجد هنا أيضا أن القرآن يعرض عقيدة المسلمين ، فيذكر أنها يجب أن تتضمن الإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وكل الأنبياء. ويؤكد القرآن أن اليهود والنصارى إن آمنوا بمثل ما آمن به المسلمون فقد اهتدوا ، وهذا يعنى أنهم إن لم يؤمنوا بالإسلام فسيكونون من الضالين. كما تخبرنا الآية أنهم سيكونون حينئذ فى شقاق ، ولكن الله عز وجل سينصر رسوله عليهم.

- **{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: 89 – 91]**

تتكلم هذه الآيات عن اليهود ، فتقول أنهم كانوا ينتظرون نبيا ينصرهم على بقية الأمم. وكلمة "يستفتحون" تعنى يطلبون الفتح ، أى النصر. والمقصود أن اليهود كانوا يدعون الله أن ينصرهم

على الأمم الكافرة بواسطة النبى المبعوث فى آخر الزمان. ولما جاء محمد عليه الصلاة والسلام وعرف اليهود أنه رسول كفروا به. وهذا يعنى أن محمدا عليه السلام لم يرسَل فقط إلى العرب ، بل أرسله الله تعالى إلى أهل الكتاب أيضا ، وألزمهم باتباعه ، وإلا لما استحقوا الهجوم فى الآية.

ولاحظ كيف يستخدم القرآن هنا عبارات فى غاية القسوة ، فتجده يصب اللعنة على اليهود: (فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) ، وتجده يصف تكذيبهم لمحمد عليه الصلاة والسلام بالصفقة الخاسرة المذمومة: (بئسما اشتروا به أنفسهم). ولاحظ كذلك كيف بَين القرآن أن غضب الله على أهل الكتاب لن يكون غضبا معتادا ، بل سيكون غضبا مضاعفا (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ)[179]. كما وصف الله العذاب الذى سيناله أهل الكتاب فى الآخر بالمهين (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ). والعذاب المهين هو ذلك الذى يسبب الإهانة. وإذا كان القرآن يخبرنا أن أهل الكتاب سيهينهم الله يوم القيامة فكيف يكيل إعلامنا المديح لأخلاقهم وإيمانهم ومكانتهم عند الله؟ هل الإعلام يعرف أكثر من الله؟

ومن المهم جدا أن **نلاحظ فى هذه الآيات تكرار مشتقات فعل "كفر": (كفروا– الكافرين–وللكافرين–يكفروا–يكفرون) ، وهذا دليل على التصاق صفة الكفر باليهود.** إن المرء إن وصف خصمه مثلا بأنه منافق ، فربما فُهم من ذلك أنه يوجه إليه سبابا لا يدل على صفة حقيقية، أو سبابا يعبر عن صفة حقيقية لكنها غير متأصلة فى هذا الخصم. لكن إن ظل المرء يكرر وصف خصمه بالنفاق فهذا يعنى أنه يعتقد أن خصمه متصف فعلا بقدر كبير من النفاق. إن التكرار فى البلاغة يفيد التأكيد ، ولهذا فتكرار صفة الكفر فى الآيات السابقة دليل على أن اليهود يستحقون عن جدارة لقب "كفار". ولذا فمن قال أن اليهود مؤمنون فهو فى غيبوبة.

ولاحظ أيضا قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) الذى يدل على أن الرسول والمسلمين كانوا يدعون أهل الكتاب إلى الإيمان بالله ، فلماذا يدعون أهل الكتاب إلى الإسلام لو كان أهل الكتاب سيدخلون الجنة لو بقوا على أديانهم المحرفة؟ ولاحظ كيف يرفض القرآن تبرير أهل الكتاب لكفرهم بالإسلام: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ

[179]) سبب مضاعفة غضب الله عليهم أنهم ارتكبوا إثمين: الأول أنهم كفروا بالحق ، والثانى أن حسدوا المسلمين على الإسلام ، فارتكبوا ذنبا على ذنب: الكفر مع الحسد ، فاستحقوا غضبا على غضب.

الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ). وهذه الآية الأخيرة تنفى بوضوح قول من قال أن الله تعالى يقبل من اليهود والنصارى البقاء على أديانهم والكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام.

- **{قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}** [المائدة: 68].

تخبرنا هذه الآية بوضوح أن كثيرا من أهل الكتاب سيكذبون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا التكذيب لن يجعلهم فقط كفارا ، بل سيجعلهم أكثر كفرا (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) ، وذلك لأنهم كانوا قبل نزول القرآن كفارا بسبب فساد عقائدهم[180]. ولما جاءهم القرآن وكذبوه صاروا على درجة أكبر من الكفر. وبعد ذلك يكرر القرآن التأكيد على كفرهم بقوله: (فلا تأس على القوم الكافرين). وتأمل أيضا كلمة (طغيانا) التى وُصف بها أهل الكتاب ، ولاحظ تناقضها مع الصورة الجميلة التى يحاول الإعلام الحديث رسمها لليهود والنصارى زورا وبهتانا (مسلسل حارة اليهود مثلا).

- **{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}** [آل عمران: 81 - 83]

تحدثنا هذه الآية عن ميثاق أخذه الله تعالى على أنبيائه بأن يؤمن كل منهم بأى نبى جديد يأتى مصدقا لما معه من الوحى. وإرسال نبى مع نبى آخر فى نفس الوقت ليس هو الغالب ، ولكنه حدث أحيانا ، ومن أمثلة ذلك إرسال عيسى فى ظل وجود يحيى ، وإرسال هارون مع موسى ،

---

[180]) قد يغفر الله تعالى للعامة والبسطاء من أهل الكتاب فى الفترة التى سبقت بعثة محمد عليه الصلاة والسلام إن هم اتبعوا عقائدهم المحرفة ، لكن رجال الدين يفترض أنهم أكثر علما ودراية بالكتاب المقدس ، وهذا يجعلهم مؤهلين لاكتشاف فساد عقائدهم من خلال قراءة كتبهم نفسها. ويمكنك أن تقارن مثلا إثناسيوس - الذى دافع بشكل مستميت عن ألوهية المسيح فى مجمع نيقيه - وآريوس الذى مال إلى التوحيد. وعلى ذلك يمكن لرجل دين مسيحى أن يقرأ الكتاب المقدس فيميل قلبه وعقله إلى ما به من آيات كثيرة تدل على التوحيد ، ويهمل الآيات القليلة التى قد يفهم منها أن المسيح إله. بينما يمكن لرجل دين مسيحى آخر أن يفعل العكس ، فيميل قلبه إلى الآيات التى تبالغ فى تعظيم المسيح ، ويفهمها على أنها ترفعه إلى درجة الألوهية ، ويهمل الآيات التى تعتبره بشرا كبقية الناس. وبالمثل يمكن لرجل دين يهودى أن يركز على آيات التوراة التى تهاجم فسوق اليهود ، وتلك التى تظهر الله كإله كامل ، بينما يميل رجل دين يهودى آخر إلى الآيات التى تمجد شعب إسرائيل ، وتحتقر بقية الشعوب ، وتظهر الله كإله ناقص. وربما يجوز لهذه الحقيقة أن تفسر لنا قول أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم: {وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ } [القصص: 53] ، فربما كان معنى عبارة (إنا كنا من قبله مسلمين) أنهم كانوا يميلون قلبا وعقلا إلى آيات الكتاب المقدس التى تتفق مع التوحيد الخالص ومع ما ورد فى القرآن ، وكانوا ينفرون من الآيات التى تنسب إلى الله ما لا يجوز له. وعلى ذلك يمكننا فهم قول القرآن: (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) على أن الزيادة فى الكفر معناها أن بعض علماء أهل الكتاب كانوا قبل الإسلام كفارا لأنهم أهملوا ما فى كتبهم من آيات تدعو إلى التوحيد والخير والفكر السليم ، وركنوا إلى بعض الآيات التى فسروها بطريقة تنسب إلى الله ورسله ما ليس فيهم. **ويحضرنى فى هذا المقام حوار أجرته إحدى الفضائيات رجل يهودى أجنبى لما قرأ القرآن لأول مرة انبهر بما فيه ، فكان كلما سمع آية تنسب إلى الله تعالى صفات الكمال والتنزية صاح مندهشا: "هذا ما كنت أؤمن به" ، وفى النهاية اعتنق الإسلام الذى وجده يتفق مع ما كان يؤمن به رغم أن كتابه المقدس هو العهد القديم المحرف ، بيد أن فطرته السليمة غلبت الآيات التى تفيد كمال الله ، واعتبرت ما عداها مجرد شبهات يجب تأويلها.**

وإرسال ثلاثة أنبياء لتلك القرية التى ذكرت فى سورة يس. ومما لا شك فيه أن الميثاق الذى أخذه الله تعالى على النبيين ملزم لأقوامهم ، فلا يعقل أن يطلب الله عز وجل من نبى قديم أن يؤمن بنبى جديد ثم يبيح لقوم النبى القديم أن يكفروا بالنبى الجديد. **ولو كان من الجائز للنصارى واليهود أن يبقوا على أديانهم ويكفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام فلماذا أخذ الله تعالى هذا الميثاق على الأنبياء؟** لماذا يفعل الله ذلك طالما أن أتباع النبى القديم سيدخلون الجنة حتى لو كفروا بالنبى الجديد؟ ومن المضحك أن يتصور المرء أن النبى الجديد يسعى إلى نيل اعتراف الوثنيين بنبوته ، وفى نفس الوقت يبتسم حين يكفر به الموحدون من أتباع النبى القديم. أى الفريقين أولى بأن يؤمن بالنبى الجديد؟

- **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [آل عمران: 85].

القرآن هنا يتكلم بكل ثقة مؤكدا أن الله تعالى لا يقبل من الإنسان دينا غير الإسلام ، وأى دين آخر سيقود إلى الخسارة فى الآخرة ، فأين هذا من قول السفهاء أن النصارى واليهود سيدخلون الجنة؟

وإن قال لك أحدهم: إننى أفسر كلمة "الإسلام" فى الآية بالمعنى اللغوى –وليس بالمعنى الاصطلاحى– على أنها تشير إلى "الاستسلام لله والخضوع له" ، فقل له: أنت تغالط لأنه بفرض أن هذا هو معنى الإسلام فى الآية فلن يقبل الله تعالى دين اليهود والنصارى أيضا لأنهم لا يخضعون لله ، ولا يستسلمون له فى أهم أمر من أمور الكون ، ألا وهو الإيمان بآخر الأنبياء. ألم تقرأ القرآن وهو يهددهم إن لم يؤمنوا بما نزل على محمد: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء: 47، 48]؟ فهل اليهودى أو النصرانى الذى يسمع هذه التهديدات ، ويستمر على كفره بمحمد عليه الصلاة والسلام يعتبر خاضعا لله ومنقادا له؟ ثم لماذا اتهم القرآن أهل الكتاب صراحة بالكفر: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: 98]؟

- **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}** [الأنعام: 20، 21].

يؤكد القرآن هنا أن أهل الكتاب على يقين من نبوة محمد عليه الصلاة والسلام مثلما هم على يقين من أن أبناءهم من أصلابهم[181]. كما تؤكد الآية أن أكبر درجات الظلم هى قول الكذب على الله أو التكذيب بآياته ، وأن من يفعل ذلك فلن يكون من المفلحين. ومن الواضح أن من يفترى الكذب على الله ويكذب بالآيات فى هذا السياق هم أهل الكتاب ، لكن هذا يشمل أيضا كل من كان على شاكلتهم ، فالقرآن هنا يُعَقب بمبدأ عام على حالة خاصة.

- **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** [البقرة: 146، 147].

نجد هنا – كما فى آية الأنعام 20– أن أهل الكتاب على يقين من نبوة محمد عليه الصلاة والسلام مثلما هم على يقين من أن أبناءهم من أصلابهم. ولاحظ هنا أن القرآن يقول أيضا أن فريقا أهل الكتاب يكتمون الحق وهم يعلمون، وأن الحق هو ما جاء من الله عز وجل لمحمد عليه الصلاة والسلام. وهذا يعنى بوضوح أن اليهود والنصارى ليسوا على خلق كما يصورهم الإعلام حاليا ، فكتمان الحق من أعظم الرذائل والشرور ، ولا أظن أن أحدا يحب مفكرا يدافع باستماتة عن نظام سياسى فاسد أو قاض يصدر حكما لصالح رجل أعمال يمتص دماء الفقراء. إن إخفاء الحق جريمة لا تعدلها جريمة. ويعقب الله تعالى بقوله: (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) ، وكأنه عز وجل يكلمنا نحن الآن ، طالبا منا أن نثق بأنفسنا وبديننا ، وألا نظن يوما أن اليهود والنصارى الذين يَدَّعون الإيمان والتقوى وحب الخير هم على الحق.

- **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا**

---

[181]) يعلق القرآن على موقف هؤلاء قائلا: (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ). وهذه العبارة تعنى أن خسران النفس هو سبب عدم الإيمان. وخسران النفس يعنى أن اليهودى أو النصرانى قد تعود على ترك نفسه تنساق وراء الشهوات دون أن يحاول أن يلجمها ، ويجبرها على الانسياق للحق ، فالحق فى نظره شيء لا يجدى نفعا فى هذه الدنيا. ومن يترك نفسه للشهوات فهو قد خسر نفسه لأن النفس الجامحة التى تتصرف دون إرشاد من العقل تتعرض حتما للهلاك فى الآخرة. النفس لا يهمها إلا الحصول على اللذة العاجلة وتجنب الألم القريب ، أما العقل فهو يرى أن الحصول على الربح الآجل وتجنب الألم البعيد فى الآخرة أكثر جدوى ، ولهذا فهو يمنع النفس من أن تشبع أهواءها العاجلة. وعلى ذلك فالإنسان دائما فى حالة صراع داخلى بين النفس والعقل ، وبعض الناس تسيطر نفوسهم عليهم بشكل كامل ، وهؤلاء خسروا أنفسهم لأنهم كما قلنا رضوا لها (لا شعوريا) بأن تعذَّب فى النار. ومثل هذا الإنسان الذى هو فى الأصل خاضع لشهوات النفس إن عرض عليه الإسلام فلن يؤمن به لأن الحق لا يعنيه ، والفوز برضا الله وبجنته لا يمثل له أى قيمة ، ولذلك سيترك قراره لنفسه الشريرة ، وهذه النفس سيجعلها الحقد والحسد ترفض الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام حقدا على العرب الذين اختارهم الله ليكون آخر نبى من وسطهم، وليس من اليهود أو النصارى أصحاب التراث الدينى العريق. إذن خسران النفس سبب للكفر بالإسلام.

مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 150 – 153]

هذه الآية تخرس ألسنة الأفاكين الذين يقولون أن النصارى واليهود مؤمنون. القرآن هنا يعلنها صراحة أن المؤمن هو من يؤمن بجميع الرسل ، أما من يؤمن ببعض الرسل ، ويكفر بالبعض الآخر ، فهو الكافر الحقيقى بعينه. والنصارى كما نعرف يكفرون بمحمد، أما اليهود فيكفرون بكل من عيسى ومحمد ، وهذا يعنى بلا ريب أن كلا منهما كافر. وانظر إلى قوله تعالى: (وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) تجده يعنى بوضوح أنه **حين يتعلق الأمر بالعقيدة فلا مكان للحلول الوسطى**، فالعقيدة إما أن تكون صحيحة كلها أو مرفوضة كلها. إذن كل أهل الكتاب كفار حتى لو زعموا أنهم يؤمنون بإله واحد طالما أنهم لا يؤمنون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن أهم فوائد هذه الآية أنها ترد على أولئك الذين يقولون أن النصارى سيدخلون الجنة لأن بعضهم موحد بالله ، ولا يؤمن بالتثليث. لكن هذه الآية كما نرى تؤكد أنه حتى إن وجد نصارى موحدون فهؤلاء فى نظر القرآن كفار لأنهم لم يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام. ثم إنك إن بحثت عن أولئك النصارى الموحدين لما وجدت منهم أحدا حولك، وستضطر لبذل جهد كبير لمجرد أن تعثر على أسماء تلك الطوائف التى ترفض التثليث مثل اليونيتاريانية Unitarianism ، وهى حركة نشأت فى بولندا وانجلترا فى عصر الإصلاح[182]. وإذا كانت الغالبية الساحقة من النصارى اليوم هم من المؤمنين بالتثليث فكيف يتكلم الدعاة الأفاكون بطريقة توهمنا أن النصارى سيدخلون الجنة لأن كثيرا منهم موحدون بالله؟ هذا تزييف للحقائق.

- **{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ}** [البقرة: 145].

هنا يهدد الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام قائلا أنه إن اتبع أهواء أهل الكتاب بعد ما جاءه من وحى الله فسيكون حينئذ من الظالمين. وتأمل عبارة (إنك إذا لمن الظالمين) تجدها عبارة قوية، وقوتها نبعت من خلال استخدام أداتى توكيد هما (إن) و(اللام). ولو كان الله تعالى راضيا عن أهل

182) **Unitarianism and Universalism**. By John Charles Godbey. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/Unitarianism; Accessed on June 26, 2020

الكتاب وسيدخلهم الجنة فلماذا اعتبر الرسول ظالما إن هو اتبع أفكارهم؟ وانظر كذلك كيف وصف القرآن معتقدات أهل الكتاب وآراءهم بالأهواء ، بينما وصف ما أوحى إلى محمد عليه الصلاة والسلام بالعلم.

- **{فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}** [القلم: 44، 45]

هذه الآية تتوعد بالعقاب الشديد كل من لا يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام. وجملة (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ) توحى بأن هناك ما يشبه الثأر الشخصى بين الله وكل من يكذب بالقرآن ، والله تعالى هو الذى سينكل بنفسه بهذا المكذب ، ولن يترك تلك المهمة لأحد من ملائكته أو جنوده. فهل يتسق هذا مع قول البعض بأن أهل الكتاب سيدخلون الجنة حتى لو لم يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام؟

- **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ <u>يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ</u> (100) <u>وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ</u> وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ <u>وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ</u>}** [آل عمران: 100، 102]

هنا يحذر القرآن المسلمين من طاعة أهل الكتاب التى قد تؤدى بالمسلم إلى الردة والكفر (يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ). وتكرر الآية التالية لفظ الكفر مرة أخرى (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ) ، وفى هذا تأكيد على أن الموضوع فى غاية الجدية والخطورة ، وأن اتباع المرء لملة اليهود أو النصارى لا وصف له عند الله إلا الكفر. وتستمر الآية التالية فى التأكيد على نفس المعنى من خلال التحذير من الموت على غير الإسلام (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ). وكما ترون فالقرآن هنا قاطع كالسيف فى وضع أهل الكتاب فى معسكر الكفر الذى يجب على كل مسلم أن يحذر من الاقتراب منه.

- **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ <u>فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ</u>}** [آل عمران: 59 – 61]

فى هذه الآية يؤكد الله عز وجل للرسول عليه السلام أن عقيدة الإسلام بشأن نبى الله عيسى هى الحق الذى لا يقبل الشك (الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ). والأهم هنا أن الله تعالى يطلب من الرسول أن يتحدى النصارى (نصران نجران) إن كذبوه بأن يحتشدوا هم والمسلمون جميعا – رجالا ونساءا وأطفالا –فى مكان واحد، ثم يبتهلوا داعين الله تعالى أن يصب لعنته على الكاذبين. وطبعا رسولنا عليه السلام لا يمكن أن يكون كاذبا ، وهذا يعنى بوضوح شديد أن النصارى الذين يكفرون بالإسلام كاذبون وملعونون. و**ليس أمام دعاة جهنم إلا أن يختاروا بين أمرين: إما أن النصارى ملعونون وإما أن سيدنا محمد ملعون.** ننتظر إجابتهم.

- **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** [التوبة: 30]

هنا يصف القرآن اعتقاد النصارى بأن المسيح ابن الله واعتقاد اليهود بأن عزيرا ابن الله بأنه يشبه كفر الأمم السابقة (كلمة "يضاهئون" تعنى يشابهون). وانظر كيف اختتمت الآية بعبارة فى غاية القسوة: (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ). وإذا كان النصارى واليهود يستحقون القتال من الله كما يقول القرآن ، فكيف يأتى عالم دين ليقول أن الله يرضى عن دينهم ، وأنهم سيدخلون الجنة؟ من يقل هذا فليس بعالم دين. إنه كافر.

- **{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}** [التوبة: 31]

هنا يصف القرآن اعتبار اليهود والنصارى أن المسيح والأحبار والرهبان أرباب من دون الله بأنه شرك بالله (سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)، وأنهم ما أمروا إلا بأن يعبدوا إلها واحدا لا ند له. هل هناك كلام أكثر وضوحا من هذا؟ الله تعالى يخبرنا أن أهل الكتاب يشركون بالله ، بينما سعاد صالح وإسلام بحيرى وسعد الهلالى وعدنان إبراهيم يؤكدون أن الله يقبل اليهودية والنصرانية مثل الإسلام تماما. ترى من نصدق: الله أم هؤلاء؟ ثم إنه إن جاز لنا أن نلتمس العذر لمن يشرك بالله شركا خفيا ، وهو لا ينتبه ، فهل هناك عذر لمن يصر على الشرك بعد أن ننبهه ، ونحذره من عاقبة فعله؟

****

وبعد ، فهذا هو منطق القرآن ، فمن شاء أخذ به ، ومن شاء صدَّ عنه. وليعلم كل مسلم وكل رجل دين أن من أكبر الكبائر افتراء الكذب على الله ، والدعوة لأفكار أخبرنا فى كتابه بخلافها. قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: 17]

إن نصوص القرآن التى نقلناها فى هذا الفصل تنهى النقاش تماما ، ورغم ذلك سنواصل بعون الله المسير إلى أن نحطم أهل الأهواء تحطيما لا تقوم لهم بعده قائمة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

5- لا تفاوض فى العقيدة

ليس الإسلام هو الدين الوحيد الذى يدعو لعبادة الله وعمل الخير. كثير من الأديان تؤمن بإله أعظم يسيطر على الكون ، ويحب الخير ، ويكره الشر. وستجد فى القرآن الكريم أحيانا إشادة بالأديان الأخرى، واعترافا بأن بينها وبين الإسلام مبادىء مشتركة ، كما فى قوله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت: 46]

لكن حين يفاضل المرء بين الأديان المختلفة ، ليختار منها دينا يعتنقه ، فلا يكفى أن يكون فى الدين المختار جوانب طيبة ، بل لا بد أن يكون الدين كله طيبا. مثلا الهندوسية تؤمن بإله أعظم اسمه براهمان، وهذا شىء جيد ، فالاعتقاد فى وجود إله أفضل ولا شك من الإلحاد ، لكن الهندوسية فى نفس الوقت تؤمن بوجود عدد كبير من الآلهة الأخرى مثل فيشنو وبراهما وشيفا وإندرا التى تعتبر كلها تجليات لبراهمان. كما تؤمن الهندوسية بوحدة الوجود (الله والكون شىء واحد) ، وتناسخ الأرواح (دخول الروح فى جسد آخر بعد الموت) ، وهذه عقائد باطلة. وانظر إلى المسيحية تجد أنها تؤمن بإله أعظم فى السموات ، وأن هذا الإله يدعو إلى عمل الخير ، ويحب الناس ، ويساعدهم ، ويرحمهم. ولكن من ناحية أخرى تؤمن المسيحية بأن هناك ثلاثة آلهة ، كما تؤمن بأن الله أرسل ابنه ليصلب كى يكفر عن خطيئة ورثها الناس من آدم دون أن يكون لهم ذنب فيها.

أريد أن أقول أن **من الخطأ الفادح أن ننظر فقط إلى الجوانب الحسنة فى دين من الأديان ، فنستنتج منها أن هذا الدين صحيح ، غاضين الطرف عن الجوانب السيئة والخاطئة فيه.** هذه مهزلة ، بل مغالطة شيطانية. الدين الجدير بأن يُعتنق هو الدين الصحيح بشكل كامل ، الدين الذى لا أثر فيه لخطأ أو خلل. والدين الوحيد الذى ينطبق عليه ذلك هو الإسلام: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3]. وما خلا الإسلام من الأديان فهى إما باطل خالص ، أو باطل اختلط مع الحق ، وفى أمور العقيدة لا يجوز اتباع إلا ما هو حق محض. **الله عز وجل لا يقبل من الناس إلا دينا صحيحا بشكل كامل بلا شائبة كفر واحدة. الله تعالى لا يعتد بأنصاف الحلول، ولا يقبل دينا لمجرد أن به شيئا من الحق. الدين إما أن يكون خالصا لله ، أو يكون لا شىء.** وقد أكد القرآن على هذا المعنى بكلمات فى غاية الوضوح:

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ <u>فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ</u> (2) أَلَا <u>لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ</u> وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: 2 – 3]

وكلمة (مخلصا) فى قوله: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) لا تعنى (وفيا) كما يظن البعض ، بل تعنى "لا تخضع لأحد سوى الله"[183] ، ففعل (خلص) يعنى صفا وَزَالَ عَنهُ شوبه ، وَيُقَال خلص من ورطته ، أى سلم مِنْهَا وَنَجَا. ويذكر القرآن بعدها مباشرة **شكلا من أشكال غياب الإخلاص فى العبادة ، حيث يزعم المشركون أنهم مؤمنون وموحدون بالله ، مثلهم مثل المسلمين ، وعبادتهم للأصنام يجب ألا تُفهم على أنها شكل من أشكال الشرك لأنهم ما عبدوها إلا لكى تقربهم إلى الله** ، وتشفع لهم عنده (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى). والقرآن يرفض هذه الدعوى بشكل قاطع، واصفا متبعيها بالكذب والكفر (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)[184].

وإذا ذهبنا إلى النصارى لوجدنا أن عبادتهم لعيسى بن مريم كابن لله بدأت بالاستناد إلى نفس منطق: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ، فقد زعموا أنهم يؤمنون بالله ، لكنهم يؤمنون فى نفس الوقت أن عيسى هو ابن الله الذى صلب كى يكفر عن خطايا البشر التى ورثوها من آدم ، ولذا فالإيمان بعيسى شرط لتحقيق المصالحة مع الله ، وعيسى هو الوسيط بين الله والناس ، الوسيط الذى أرسله الله كى يمحو من خلال صلبه ذنوب البشر. وهذا المعنى ورد بشكل حرفى على لسان بولس الذى قال: (لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ: الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لأَجْلِ الْجَمِيعِ)[185]. **وهذا بالضبط نفس منطق (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ، فالنصارى عبدوا عيسى كى يقربهم إلى الله مثلما عبد الوثنيون الأصنام لتقربهم إلى الله.**

إن هذه الآيات الأخيرة يجب أن تحدث زلزالا فى البناء الفكرى الذى أقامه الإعلام العلمانى وزينه فى السنوات الأخيرة. لقد اخترعوا أسطورة المسيحى المؤمن ، واليهودى غير الصهيونى ، والبوذى المتأمل ، والهندوسى الزاهد. لكن كل هذا عدم وخواء فى نظر الله ، فالله تعالى لا يقبل إلا الدين الخالص، الدين الخالى من كل أثر لتعظيم غير الله. **ووجود جوانب إيجابية فى أحد الأديان لا يمكن أن يكون**

---

183) انظر المعجم الوسيط. وفى لسان العرب: خَلَص الشَّيْءُ، بِالْفَتْحِ ، إِذا كَانَ قَدْ نَشِبَ ثُمَّ نَجا وسَلِم. وأَخْلَص لِلَّهِ دِينَه: أَمْحَضَه.

184) القرآن هنا لا يقول "كافر" ، بل "كَفَّار". و"كفَّار" صيغة مبالغة من الكفر ، وسبب المبالغة أنهم لا يكتفون بالكفر ، بل يقدمون المبررات والبراهين التى تثبت صدقه ، وذلك لأنهم قالوا: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى).

185) رسالة بولس الأُولَى إِلَى تِيمُوثَاوُسَ. الإصحاح الثانى

مبررا مقبولا لاعتناق هذا الدين ، فالدين الجدير بالاتباع هو الدين الكامل الخالص الذى لا تخالطه شائبة كفر.

إن إخلاص الدين لا يعنى الإخلاص بالمعنى الشائع هذه الأيام – أى الصدق والوفاء والحب – بل يعنى عبادة الله وحده دون غيره. هذا هو المعنى الحرفى للإخلاص.

لقد نسينا فى السنوات الأخيرة كثيرا من حقائق القرآن الأساسية المركزية كالجهاد والربا والزكاة والحكم بما أنزل الله ، **لكن أن يصل الأمر إلى حد نسيان واحدة من أهم حقائق الإسلام مثل مبدأ (فاعبد الله مخلصا له الدين) ، فهذه كارثة ما بعدها كارثة.**

إن الإسلام يرفض رفضا قاطعا أى محاولة للتوصل إلى حلول وسطى فى الدين والعقيدة. وقد دأب أهل الكتاب على تبنى هذه الحلول الوسطى ؛ فاليهود آمنوا فى البداية بموسى ، لكنهم كفروا بكثير من أنبياء الله ، وقتلوا بعضهم. والنصارى فعلوا شيئا مماثلا حين آمنوا بعيسى ، وبمن سبقه من الأنبياء، لكنهم كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام. والآن أصبح الوضع كالتالى: من ناحية هناك مسلمون يؤمنون بكافة أنبياء الله ، ومن ناحية أخرى يوجد يهود ونصارى يؤمن كل منهما ببعض الأنبياء ، ويكفر بالبعض الآخر. فماذا كان موقف الله تعالى من أولئك وهؤلاء؟ هل أشاد بالاختلاف والتنوع فى الأديان السماوية كما نفعل اليوم؟ هل قال بأن الكفر بأحد أنبياء الله هو شىء من قبيل اللمم أو الذنوب الخفيفة ؟ **لا. لقد كان الإسلام واضحا كالسيف: إما أن تؤمنوا بكل رسل الله ، وإما أن تعتبروا أنفسكم من الكافرين:**

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 150 – 152]

هذه هى المعادلة القرآنية ببساطة: الإيمان= الإيمان بكل ما أنزل الله.

الإسلام يرفض التفاوض، ولا يرضى بأقل من تحقيق كافة الشروط ، فلا مجال لأنصاف الحلول فى العقيدة. هذا هو الإسلام ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر.

والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

6- رسل تحت المراقبة!

من حقنا أن نتساءل: **لو كانت كل الأديان مقبولة عند الله ، فما سبب هذا الحرص الشديد الذى أظهره الله تعالى على حفظ وحيه ودينه الخاتم ، والذى وصل إلى حد تهديد الرسول عليه الصلاة والسلام بالذبح** لو تقول على الله بعض الأقاويل ، وأدخل فى الدين ما ليس منه:

{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } [الحاقة: 44 – 47]؟

تقول علينا بعض الأقاويل: ادعى الرسول على الله شيئا لم يقله **باليمين:** بالقوة والقدرة **الوتين:** عرق متصل بالقلب إن انقطع مات الإنسان **حاجزين:** مانعين ، أى لن يمنع أحد الله من عقاب الرسول

وما رأيكم فى تلويح الله بالعقاب المضاعف لمحمد عليه الصلاة والسلام فى الدنيا والآخرة لو مال – ولو شيئا قليلا –إلى الكفار؟

{وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} [الإسراء: 73 – 75]

تركن إليهم: تميل إليهم **خليلا:** صديقا **ضعف الحياة وضعف الممات:** يعنى ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة.

فإذا كان الله تعالى لا يقبل من رسوله بأن يميل –ولو قليلا– إلى الكفار فى العقيدة ، فما بالكم برجال الدين المعاصرين الذين يكيلون المديح لليهودية والنصرانية ، ويعتبرونهما من قبيل الحق الذى يُدخل الجنة رغم ما بهما من تحريف كفر؟ هل هؤلاء العلماء بأكرم على الله من خاتم النبيين؟

ولماذا قرر الله تعالى أن يتدخل بنفسه ليحفظ القرآن من التحريف بعد أن أخفقت الأمم السابقة فى حفظ كتبها السماوية: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9]؟

ثم ما رأيكم فى تلك الآيات الرائعة من سورة الجن التى تخبرنا كيف **يراقب الله تعالى كل الرسل ليتأكد من أنهم أبلغوا رسالات الله بكل دقة دون نسيان أو نقصان أو تحريف:**

{قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (25) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا } [الجن: 25 – 28]

وفى هذه الآيات الأخيرة يأمر الله تعالى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول للكفار أنه لا يعلم موعد قيام الساعة (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا) ، وأن الله هو عالم الغيب ، وإن أخبر الله أحد أنبيائه ببعض الرسائل فلا يمكن للرسول أن يخفيها عن الناس لأن الله تعالى أخضع الرسل لرقابة لصيقة من الملائكة كى يتأكد من أنهم أبلغوا للناس رسالة السماء بشكل دقيق وكامل[186]. وكلمة (رصدا) تعنى الْحَرَسِ الذين يرصدون ويراقبون.[187]

إن هذه الرقابة تتم من خلال ملائكة يبعثهم الله تعالى ليرصدوا كل حركة وكل سكنة للرسل ، ويسجلوا بكل دقة ما إذا كانوا قد قصروا فى مهمة نقل الوحى للناس ، فإن حدث ذلك قام الله تعالى باتخاذ إجراءات تصحيحية ، بحيث تصل فى النهاية رسالة السماء للناس كاملة.

ورغم ذلك يرى عامة المفسرين أن الله تعالى يرسل الملائكة بين يدى الرسل ومن خلفهم من أجل حفظهم وحمايتهم ، وليس من أجل معرفة هل أبلغوا الرسالات أم لا. ولو صح هذا التفسير فهو لن يغير شيئا من الفكرة العامة لهذا الفصل ، والقائلة بأن الله تعالى يحرص على حفظ تعاليم السماء كى تصل للناس كاملة. ومع ذلك فنحن لا نتفق مع هذا التفسير لأن منطوق الآية يقول بوضوح أن الله يرسل الملائكة لترصد الرسل بهدف معرفة ما إذا كانوا قد أبلغوا رسالات ربهم أم لا. ولو كان الهدف حفظ الرسل من الشيطان وغيرهم لذكره القرآن بأن يقول مثلا: (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليحفظوا رسالات ربهم). كما أن القرآن قال بعد ذلك: (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا) ، وقوله (وأحاط بما لديهم) يعنى (أحاط الله بما لدى الرصد – أى الملائكة– من معلومات) ،

---

[186] يقول الرازى أن قوله (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) يعني علم الله أن الرسل أبلغوا رسالات ربهم ، وهذا هو اختيار المحققين: [والْمَعْنَى لِيَعْلَمَ اللَّهُ أَنْ قَدْ أَبْلَغَ الْأَنْبِيَاءُ رِسَالَاتِ ربهم، والعلم هاهنا مِثْلُهُ فِي قَوْلِهِ: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ [آلِ عِمْرَانَ: 142] وَالْمَعْنَى لِيُبَلِّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ فَيَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ.] **(تفسير مفاتيح الغيب للرازى 30/ 680)**. ويقول ابن كثير: [وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ قَوْلٌ حَكَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَحْفَظُ رُسُلَهُ بِمَلَائِكَتِهِ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ أَدَاءِ رسالاته ويحفظ ما ينزله إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تَعَالَى: وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ [البقرة: 143] وكقوله تعالى: وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ [الْعَنْكَبُوتِ: 11] إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا قَطْعًا لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً.] **(تفسير ابن كثير 8/ 260)**. وقال القرطبى: [وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّ رُسُلَهُ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِهِ بِفَتْحِ الْيَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 142]. الْمَعْنَى: لِيَعْلَمَ اللَّهُ ذَلِكَ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ كَمَا عَلِمَهُ غَيْبًا. "وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ" أَيْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِمَا عِنْدَهُمْ، أَيْ بِمَا عِنْدَ الرُّسُلِ وَمَا عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ.] **(تفسير القرطبي 19/ 30)**

[187] كلمة (رصدا) يستوى فيها الواحد والجمع والمذكر والمؤمنث.

وهذا يفيد بوضـوح أن الله تعالى يعلم بذاته نفس المعلومات التى ستنقلها له الملائكة عن الرسل ، وأن اسـتعانتته بالملائكة ليسـت بسـبب عجزه عز وجل عن المعرفة[188]. وفضـلا عن ذلك فإن السـياق يستدعى فكرة مراقبة الله تعالى لرسله ليتأكد من تبليغهم للرسالة[189].

إن الرسل بشر ، والضعف جائز عليهم ، **فقد يشعر الرسول مثلا بالخجل** من المداومة على ذكر أمر الجنة والنار لعتاة الكفار لأنه يعلم أنهم سـيقابلونه بالسـخرية ، ويقولون له: لماذا لا يُنزل عليك ربك بعضـا من خير الجنة الآن بدلا من هذا الفقر الذى تعيش فيه؟ ولماذا لا يُنزل عليك ملكا من ملائكة النار ليحميك من عدوك؟ {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَـائِقٌ بِهِ صَـدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [هود: 12].

ومن المواقف الأخرى التى **شـعر فيها الرسـول بالخجل والضـعف** موقفه من زيد بن حارثة لما أراد تطليق زوجته. لقد أحس الرسـول بالحرج من أن يتزوج امرأة ابنه بالتبنى ، فيتعرض لألسـنة الناس ، فأخذ يحث زيدا على الصـلح مع زوجه زينب بنت جحش رغم أن الله أخبره مسـبقا أنه سـيتزوج زينب كى يُبطل عادة التبنى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِـكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا

---

[188]) طبعا الله عز وجل يعلم كل شيء بنفسه بشكل مباشر دون حاجة لإرسال ملائكة ينقلون له الأخبار. لكن دور الملائكة التى تراقب الرسل يشبه تماما دور الملائكة الحفظة التى تحصى على كل إنسان أفعاله. وهو يشبه أيضا استعانة الله تعالى بالملائكة لنصر المسلمين فى غزوة بدر ، واستعانته بهم فى أمور أخرى كقبض الأرواح وحمل العرش. الله تعالى لا يحتاج للملائكة لعمل كل هذه الأشياء ، ولكنه استعان بهم لأنهم يحبونه حبا جما ، وحب الله يجعل الملائكة شديدى الحرص على خدمته ، فمن أحب شخصا ود أن يخدمه بكل طاقته ، ووجد لذة كبيرة فى إرضائه. إن الملائكة تجد سعادتها فى خدمة الله ، ونصر الحق ، وحرب الباطل. والله تعالى يقدر هذه المشـاعر الطيبة ، ولذلك تركهم يشـتركون معه فى إدارة بعض شـئون الكون ، ليس لأنه يحتاج إليهم ، ولكن كى يطب خواطرهم ويرضيهم. وإضافة إلى ذلك فمراقبة الملائكة للناس بشكل عام مهمة جدا حتى يكون هناك شهود على العصاة يوم القيامة ، فيكون مشهد الحساب مؤثرا ، لأن وجود شهود من الملائكة على المعصية سيجعل العاصى غير قادر على إنكار التهم الموجهة إليه ، وسيشعر بالخزى لأن عيون الله كان تصاحبه وقت تخطيطه للجريمة ، وكانت تسجل كل جرائمة بكل تفاصيلها. وسيشبه الأمر رئيس جهاز استخبارات اكتشف يوما أن عميلا من جهاز مخابرات معاد كان يسجل له كل ما يقوله فى مكتبه . وهذه الفضيحة تنال من كرامة العصاة يوم القيامة ، وتشفى صدور قوم مؤمنين.

[189]) هناك سببان لذلك: أولا: فى الآية التى سبقت فكرة المراقبة مباشرة يأمر الله تعالى رسوله أن يخبر قومه بأنه لا يعلم موعد قيام الساعة (قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا) ، والرسول ينفى هذا الاحتمال بالقول بأن الله تعالى يراقب الرسل ليعلم ما إذا كانوا قد أبلغوا رسالات الله للناس أم كتموا شيئا منها ، وبالتالى فلو أخبر الله رسوله بموعد قيام الساعة ، وأمره أن يبلغه للناس ، لكان من المستحيل أن يخفيه الرسول لأنه يتعرض لرقابة لصيقة من الله. ثانيا: فكرة مراقبة الله لرسله تسير على نفس درب الآيات التى سبقتها ، فقد ورد قبلها بقليل أمر الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام أن يتكلم بكلام يفيض تواضعا لما اجتمع حوله الجن يستمعون إليه فى شغف: { قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (20) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (22) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (23) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (24) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا } [الجن: 20 - 25]. ومعروف أن إعجاب الناس يخلق فى نفس الإنسان تكبرا وبعدا عن الله ، ولهذا أُمر الرسول أن يقول هذه الكلمات أولا حتى لا تضعف نفسه أمام كلمات المديح وصيحات الإعجاب، وثانيا حتى لا يُفتن الناس به كما فتنوا بغيره من الصالحين والأنبياء الذى رُفعوا إلى مقام الألوهية كما فى حالة عيسى بن مريم ، وحالة أصنام العرب الذين كانوا فى الأصل رجالا صالحين قبل أن يعبدهم الناس. إن من المهم أن يعرف الرسول أنه مراقب من قبل ملائكة الله حتى لا يأخذه شيء من الغرور فى يوم من الأيام. حقا الرسل أبعد الناس عن الغرور ، لكن الله تعالى لا يرضى للصالحين أن يمسهم قليل من الغرور ولو للحظة واحدة. كما أن من المهم أن يعرف الناس المكانة الحقيقية للرسل فى الكون بالنسبة لخلق الله ، فإنه إذا كان الناس يعتقدون أن الرسل عظماء فليعلموا أيضا أن هناك ملائكة فوق الرسل ، تراقب سلوكهم ، وتحصى أفعالهم ، وهذا أدعى ألا يغتر الناس بأنبيائهم ، فلا يقدسوهم ، ولا يعبدوهم كما فعل السابقون.

لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [الأحزاب: 37].

وقد يصاب الرسول باليأس ، ويفقد الأمل فى هداية عتاة الكفار كأبى جهل وأبى لهب ، فيتوانى عن دعوتهم ، وهذا خطأ يقع فيه اليوم كثير من المؤمنين الصالحين الذى يتكاسلون عن الدعوة لأنهم لا يلقون استجابة من الناس ، وقد حدث ذلك قديما من بعض الصالحين من بنى إسرائيل حين أحجموا عن وعظ الذين اعتدوا فى السبت ، فعذبهم الله: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف: 164، 165].

ومن أهم الدواعى لمراقبة الله لرسله الحذر من النسيان ، فالرسول بشر ، وربما ينسى بعض آيات الوحى ، فهنا تتدخل الملائكة لتذكره. ويخبرنا القرآن أن الرسول عليه السلام كان يعانى كثيرا بسبب حرصه على حفظ آيات القرآن ، وخشيته من أن ينسى بعضا منها ، فيضيع الوحى إلى الأبد ، ولذلك كان يردد الآيات وراء جبريل بسرعة خوفا من أن ينساها ، فطمأنه الله عز وجل إلى أنه تكفل بحفظ القرآن: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: 16 – 19]. وقال فى آية أخرى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } [طه: 114]

وفى بعض الأحيان تكون **مراقبة الله تعالى لرسله من قبيل مراقبة أستاذ الجامعة الأكثر خبرة للمعيد المبتدىء** أثناء إلقائه درسا على الطلبة ؛ فدور الأستاذ هنا أن يراقب طريقة إلقاء المعيد للدرس ، ويتدخل عند الضرورة لتوضيح نقطة نسى المعيد أن يشرحها ، أو شرحها بسرعة دون تأن ، أو تعمد أن يهملها لظنه أنها غير مهمة. والمقصود أن الرسول إن شرح بعض مبادىء القرآن بطريقة لم يفهمها الناس ، فإن الله ينبهه كى يشرحها بطريقة أوضح. وإن اعتقد الرسول يوما أن إحدى الآيات غير مهمة، فإن الله يبين له أنها ذات أهمية كبرى ، وأن من الواجب عليه أن يؤكد للناس على أهميتها.

وبعد كل هذا يصبح السؤال ملحا: لماذا أبدى الله عز وجل كل هذا الحرص على حفظ أديانه لو كانت خطته العامة أن يعتبر كل الأديان مقبولة؟ هل كان الله يعبث؟ حاشا لله.

لا معنى لكل هذا إلا أن الصحة المطلقة للدين أمر فائق الأهمية ، وأن ما ينادى به البعض من أن كل الأديان ذات قيمة نسبية ، وأن الله تعالى يقبل الديانات المحرفة كاليهودية والنصرانية هو محض هراء ، بل مروق من الدين.

إننى أطالب هؤلاء العلماء بأن يتحلوا بشىء من الجرأة ، ويعلنوا على الملأ ردتهم عن الإسلام، واعتناقهم لليهودية أو النصرانية كتطبيق عملى لمبدأهم القائل بأن اليهود والنصارى سيدخلون الجنة، إذ ما الجريمة فى ترك دين يدخلك الجنة إلى دين آخر يدخلك الجنة؟ وأنا لن أتحداهم أن يفعلوا ذلك لأننى على يقين أن بعضهم – إن عاجلا أو آجلا- سيترك الإسلام ، ليعتنق أى دين آخر ، فهذه هى الخطوة العملية المتبقية أمامهم بعد كل ما شاهدناه من مقدمات نظرية مرعبة. وأنا واثق أن بريق الدولار أكثر لمعانا فى أعينهم من بريق الجنة ونور القرآن. إنهم لا يعبدون الله ، بل يعبدون المال ، ويسجدون للإعلام ، وأسهل شىء على بعضهم أن يبيع مبادىء دينه من أجل مكالمة هاتفية من شخصية مهمة، أو كلمة ثناء من مذيع معروف ، أو ابتسامة رضا من ممثلة مشهورة.

ألا فليتمتعوا بزخرف الدنيا ، فعما قريب سنقف جميعا أمام إله الكون ، مجردين من كل شىء حتى من ملابسنا. سنُساق إلى الله فرادى ، بلا أهل ، ولا حرس ، ولا كاميرات ، ولا معجبين ، ولا متابعين على الفيسبوك ، ولا أرصدة فى البنوك ، ولا أرقام هواتف كبار الشخصيات. حينئذ ستنجلى كل الحقائق ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

7- الاختلاف فى العقيدة ليس رحمة

شاعت بين الناس مقولة: "اختلافهم رحمة" حتى أمست من المُسَلَّمات. لكننا نؤكد أن تلك المقولة قد تصح فى بعض الأمور الفقهية الفرعية ، أما **بالنسبة للقرآن ، وفى أمور العقيدة بالتحديد ، فالاختلاف والتفرق مصطلحان سيئا السمعة** لأن الناس كانوا فى الأصل يتبعون دينا واحدا أنزله الله ، فلما انحرف بعضهم عن هذا الدين تفرقت الأمة الواحدة واختلفت ، فكان بعض الناس على الحق ، وبعضهم على الباطل. وبمرور الزمن تعمق الخلاف ، فلم يبق أحد على الحق ، وصار الجميع على الباطل.

وقد قمت بجمع كل الآيات القرآنية التى تحتوى على فعل (اختلف) و (تفرق) ومشتقاتهما لعلى أعثر ولو على آية واحدة تشيد باختلاف الناس فى العقيدة ، فلم أعثر على شىء ، بل اكتشفت على العكس أن الله تعالى ساخط أشد السخط على اختلاف الناس وتفرقهم فى الدين. نكرر: **لا توجد آية واحدة تدل على أن الله تعالى يعتبر اختلاف الناس فى الدين ظاهرة صحية طبيعية**. وسنورد هذه الآيات فى آخر الفصل لمن يريد التأكد ، لكن سنقوم الآن باستخلاص براهين فى غاية الأهمية من القرآن على صدق هذه النتيجة:

البرهان الأول:

يذكر القرآن فى بعض الآيات **عبارة (بغيا بينهم)** فى سياق حديثه عن اختلاف الناس بعد أن كانوا على دين الله الواحد.

- {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213]
- {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: 19]

- {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الجاثية: 16، 17]
- {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى: 13، 14]

وقوله: (بغيا بينهم) يعنى أن تفرق أصحاب الدين الواحد لم ينبع من سوء فهم أو خطأ فى الاجتهاد، بل لابسه عدوان على الحق وأهله ، فقد تمسك الضالون بآرائهم ، وذلك لمجرد الاستكبار ، أو حب الشهرة ، أو طلب الزعامة ، أو الجرى وراء الشهوات ، أو الحرص على ود الملوك. إن من الممكن للخلاف أن يقع بدافع من حسن النية ، فمثلا قد يختلف العلماء المخلصون على مسألة من قبيل الزى الشرعى للمرأة ، فيرى أحدهم أنه النقاب ، بينما يرى آخر أنه غطاء الرأس فقط ، وكل منهما تقى ومخلص لله ، فالأول يغضب من تفشى الفواحش فى المجتمع ، بينما يخشى الثانى من أن يؤدى النقاب إلى نفور الأجانب من الإسلام. ونحن لا نقول أن كلا الرأيين صحيح ، فالرأى الصحيح هو ما قام عليه الدليل الشرعى بصرف النظر عن ميولنا الشخصية حتى لو كانت طيبة. والمهم هنا أن من الممكن لخلاف كبير أن يقع بين أطراف كل منها يتمتع بالتقوى بشكل عام. ولكن عبارة (بغيا بينهم) التى استخدمها القرآن تشير إلى غير ذلك ، فهى تعنى أن **اختلاف الناس فى دين الله الواحد لم يكن خلافا بين أطراف تتمتع بالتقوى والإخلاص ، بل خلافا حَرَّكه البغى والعدوان**. ومن أهم أشكال البغى الاستكبار ، فالاستكبار هو الآفة الكبرى التى تجعل الإنسان يرفض أن يقول لمن يجادله: "أنا أخطأت". ولو اختفى الاستكبار من القلوب لتغير وجه الحياة على الأرض ، ولتبخرت فى الحال آلاف الأديان والعقائد الضالة.

ومن صور البغى حب الشهرة ، وحب الشهرة يذهب بالعقول ، وشهرة رجل الدين تفوق أى نوع آخر من أنواع الشهرة لأنها تكون مصحوبة بالتقدير والتبجيل الذى قد يصل إلى درجة التقديس والعبادة. ومع الأسف بعض رجال الدين يحرصون على أن يقولوا للجماهير ما يرضيهم ولو على حساب الحق ،

فالشهرة بالنسبة لهم أهم من أى شىء آخر. ورجل الدين الذى يحرص على المكانة لن يتدخل ليُقوم انحراف جماهيره ، بل سيجاريهم ، ويتغاضى عن أخطائهم ، وربما حرف الدين من أجل أن يوافق أهواءهم كما فعل بولس. ورجل الدين الذى يحرص على الشعبية لن يغامر بفقدها ، ويعترف لرجل دين آخر بأنه أخطأ حتى لا تتحول الجماهير عنه إلى منافسيه. وفى النهاية الحق هو الضحية. إذن حب الشهرة شكل آخر من أشكال البغى المؤدى إلى تفرق الناس فى الدين.

ومن أشكال البغى الأخرى قيام إحدى الفرق برفع ثوب العقل والتجديد ، واتهام الفرق الأخرى بالغباء والجمود والتحجر. لقد كان يُنظر مثلا إلى الفلسفات اليونانية والمصرية والفارسية فى القرون الميلادية الثلاثة الأولى على أنها تمثل العلم والثقافة والحضارة، وبالتالى كانت التيارات المسيحية المتأثرة بها تعتقد أن أصحاب المسيحية الأصلية متخلفون عن ركب العصر. وهذا بغى ناشىء عن الغرور ، والاعتداد بالنفس ، واحتقار الآخرين. وقد أدى هذا بكثيرين إلى تحريف دين الله اعتقادا منهم بأن عقولهم الذكية لا يمكن أن تخطىء ، وأن عقول الأغبياء لا يمكن أن تصيب. واليوم نرى نفس الظاهرة حيث ابتلى بعض المسلمين بشهوة التجديد لاعتقادهم أن عقولهم أرقى من عقول المقلدين المتخلفين ، بل أرقى من كتاب الله ذاته الذى يجب أن يخضع لهم ليفسروه وفق ما لديهم من ثقافة عصرية وإلمام واسع بالإنتاج الفكرى العالمى والمواثيق الدولية. وقد رأينا فى التاريخ الإسلامى غرورا مشابها من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام الذين حاولوا مزج الفلسفة اليونانية بالعقيدة الإسلامية ظانين أن فلسفة اليونان هى علم العصر الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الفقهاء والمتكلمين والعلماء التقليديين ليسوا أهلا لاستيعاب العلوم العقلية الدقيقة. ولا أبالغ إذا قلت أن الغرور بالعقل من أهم الأسباب التى تدفع الناس إلى تبنى الآراء الباطلة ، ثم التشبث بها حتى بعد أن يثبت لهم خطؤها. وهذا من أهم أشكال البغى التى أدت إلى تفرق دين الله الواحد.

لقد نشأت الأديان المحرفة من رحم الدين الواحد بدافع من سوء الخلق ، وكأن كل واحد منها ابن غير شرعى ، نسب زورا وبهتانا إلى أب شريف. فبالله عليكم **كيف نصدق بعد ذلك قول القائل أن كل الأديان جميلة ، وتقود أتباعها إلى الجنة؟**

البرهان الثانى:

فى بعض الآيات **يذكر القرآن أن أهل الكتاب الذى تفرقوا واختلفوا فى الدين هم فى حالة شك:**

- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [هود: 110]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [فصلت: 45]
- {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى: 14]
- {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء: 157]

والشك هنا معناه فى رأينا أن كل فرقة من الفرق التى تفرعت عن الدين الواحد يشك فى الكتاب المقدس الذى يحمله لأن هذا الكتاب لا يؤيد عقيدته كما ينبغى ، فهو قد أقام صرحا على شفا جرف هار . وهذا يعنى أنه رغم تحريف السابقين للكتب المقدسة إلا أنها ظلت تحتوى على كثير من الحق الذى يدحض عقائدهم. والقرآن يؤيد هذه الحقيقة من خلال عبارة (مصدقا لما بين يديه) التى تكررت فى آيات عديدة، وهى تعنى أن الكتب السماوية التى يحملها أهل الكتاب تتفق فى كثير من الحقائق مع القرآن. على سبيل المثال عقيدة التثليث –التى هى أهم عقائد المسيحية– ليست موجودة فى الأناجيل ولا فى العهد الجديد كله. والكتاب المقدس بشكل عام يميل بقوة إلى التوحيد. وقد غفل مفسرو القرآن عن هذا المعنى فاعتقدوا أن الشك المذكور فى الآيات السابقة معناه شك أهل الكتاب فى القرآن ، وهو تفسير بعيد جدا، ولا يتفق مع السياق ، والتفسير الذى قدمناه أقرب للصواب إن شاء الله.

وكلام القرآن عن شك أهل الكتاب فى كتبهم السماوية ليس مجرد دعوى بلا برهان ، ولكنه عين الواقع. انظر مثلا لليهود ، تجد أن لديهم كتابا مقدسا آخر ، هو التلمود ، الذى كانوا يعتبرونه مساويا للتوراة

فى القيمة وفى كونه مصدرا للأخلاق والتشريعات والعقائد. وقد ذكرت الموسوعة اليهودية [190] أن التلمود يمثل بالنسبة لأغلب اليهود السلطة العليا فى الدين. ويتكون التلمود من "المشنا" Mishna ، وهى تعاليم الحاخامات الشفهية التى تعتبر بمثابة إكمال للتوراة. والقسم الثانى الذى يتكون منه التلمود هو "الجمارة" Gemara، وهو بمثابة تفسير للمشنا[191]. والنصارى كذلك يؤمنون بكلام آباء الكنيسة ، ويثقون به كما يثقون فى الكتاب المقدس نفسه[192] ، وهم يرون أن سلطان كتابات آباء الكنيسة مصدره الروح القدس ، والروح القدس كما نعرف هو أحد آلهتهم الثلاثة ، وهو الذى يحل فى الناس ، ويلهمهم بالحق ، وهو الذى ألهم متى ومرقص ولوقا ويوحنا بكتابة الأناجيل الأربعة ، وهذا يعنى أن كتابات آباء الكنيسة جاءت من نفس المصدر الذى جاء منه الكتاب المقدس. والشيعة أيضا لما لم يجدوا فى القرآن ما يؤيد عقائدهم ألفوا كتابا مقدسا اسمه "الكافى" يحتوى على أقوال أئمة الشيعة وتعاليمهم. وقد بالغوا فى تقديس هذا الكتاب حتى أصبح عمليا أهم من القرآن بالنسبة لهم.

معنى هذا أن أهل الكتاب والضالين عموما لما لم يعثروا فى كتبهم التى أنزلها الله على ما يؤيد بقوة عقائدهم الباطلة ، ووجدوا أنفسهم فى شك منها ، قاموا بتأليف أدبيات أخرى ، ثم أضفوا عليها هالات من القداسة ، لتكون أساسا تُبنى عليه هذه العقائد.

أما عن الآية الرابعة التى تتكلم عن شك أهل الكتاب فى عيسى {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ} [النساء: 157] ، فالمقصود بها أن فرق النصارى الكثيرة التى اختلفت حول طبيعة المسيح لا يملك أى منها دليلا حاسما – من العقل أو من العهد الجديد– يؤيد عقيدته ، فلا الكاثوليك ، ولا الأرثوذكس ولا

---

190) **Talmud**. By: Wilhelm Bacher. Jewish Encyclopedia. http://www.jewishencyclopedia.com/articles/14213-talmud; accessed July 30, 2020.

191) ظل التلمود يحظى بمكانة رفيعة لدى اليهود إلى أن تراجع اهتمامهم به فى العصر الحديث. انظر المقال التالى فى الموسوعة البريطانية **Talmud and Midrsh.** By Haim Zalman Dimitrovsky and Lou Hackett Silberman. Encyclopedia Brittanica. https://www.britannica.com/topic/Talmud, accessed July 30, 2020.

192) ورد فى **موقع الأنبا تكلا**: [ما هو مدى التزامنا بما ورد في تراث الآباء؟ يمثّل الآباء القديسون فكر الكنيسة الجامعة الذي تسلّمته من الرسل بفعل الروح القدس الذي يعمل بلا انقطاع في حياة الكنيسة .... يتحدّث عنهم القديس أغسطينوس، قائلًا: "تمسّكوا بما وجدوه في الكنيسة، عملوا بما تعلّموه، وما تسلّموه من الآباء أو دعوه في أيدي الأبناء" ، "من يحتقر الآباء القديسين إنّما يعرف أنّه يحتقر الكنيسة كلّها." ويقوم هذا السلطان على عاملين: عامل طبيعي إذ اتّسم الآباء بالحياة القدسيّة والأمانة في استلام وديعة الإيمان الحيّ من أيدي الرسل لذلك هم أقدر على الشهادة للحياة الكنسيّة من كل جوانبها، خاصة وإنهم يحملون الفكر الواحد، بالرغم من اختلاف الثقافات والمواهب والظروف، مع بُعد المسافات بين الكراسي الرسوليّة وصعوبة الاتصالات في ذلك الحين. والعامل الثاني إلهي حيث عاش الآباء منحصرين بالروح القدس قائد الكنيسة ومرشدها إلى كل الحق، يحفظها داخل دائرة صليب المسيح. هذا لا يعني عصمة الآباء كأفراد وإنّما تعيش الكنيسة الجامعة ككل محفوظة بروح الرب] المصدر: **مفهوم علم الباترولوچى**. موقع الأنبا تكلا هيمانوت. https://st-takla.org/books/fr-tadros-malaty/apostolic/concept.html. تم الدخول إلى الموقع يوم 30 يوليو 2020م.

البروتستانت ولا غيرهم من الفرق المسيحية يملكون برهانا ساطعا يحسم الخلاف حول المسيح لأن الكتاب المقدس لا يحتوى على مصطلحات من قبيل اللاهوت أو الناسوت ، ولا العقل يستطيع أن يفهم المسيح ذو الطبيعة الواحدة أو ذو الطبيعتين.

ولاحظ مرة أخرى أن القرآن يتكلم بطريقة توحى أن كل الفِرق فى حالة شك ، وذلك لأن تحريف الدين الواحد يؤدى فى البداية إلى وجود طرفين أحدهما يمثل الحق ، والآخر يمثل الباطل ، لكن بمرور الزمن يندثر الحق تماما ، ولا يتبقى على الساحة إلا فرق كلها على الباطل. على سبيل المثال بدأ تحريف المسيحية بواسطة بولس الذى كان أسلوبه ومنطقه يختلفان عما كان عليه حواريو المسيح من الحق. وهؤلاء الحواريون تزعموا ما يعرف بالمسيحية اليهودية (الإبيونية) [193]. ولكن بمرور الزمن تقلصت الإبيونية ، وتحولت إلى فرقة منزوية متهمة من قبل الكنائس الرئيسية بالهرطقة والضلال ، ثم اختفت من الوجود بعد قرون قليلة فى ظروف غامضة. وتقريبا كل الفرق المسيحية التى بقيت على الساحة كانت جميعها على ضلال باستثناء وجود نادر لجماعات موحدة هنا أو هناك. وحتى حين تنظر إلى أهم مذاهب التوحيد المسيحية القديمة التى تعرف بالآريوسية ستجد أن آريوس – طبقا لما لدينا من معلومات[194]– لم تكن عقيدته صافية تماما. حقا كان الرجل يؤمن أن المسيح ليس إلها ، وليس أزليا ، وإنما هو مخلوق لله ، إلا أن آريوس كان يرى – ربما تأثرا بالفلسفة اليونانية– أن المسيح هو أول خلق الله وأعظمهم، وأن الله خلق الخلق بواسطة الكلمة (المسيح) ، وأن الروح القدس وُلد من الكلمة ،

---

[193]) يرى الإبيونيون أن المسيح نبى بشر ، وليس إلها ، وهم يهاجمون بولس ويتهمونه بالردة وتخريب العقيدة المسيحية. وكان الإبيونيون يحافظون على القوانين والشعائر والتعاليم اليهودية. وهم يستخدمون فقط إنجيل متى ، أو – كما يرى البعض- نسخة آرامية قريبة الشبه بإنجيل متى مكتوبة بالعبرية. ويرى إبيفانيوس أن إنجيلهم كان نسخة زائفة غير كاملة من إنجيل متى. الشيء الوحيد الذى يبدو أنهم أخطأوا فيه هو أنهم يقولون أن المسيح ولد من زواج مريم بيوسف النجار. لكن تقول الموسوعة الكاثوليكية أن هذا لم يكن رأيهم جميعا ، إذ آمن بعضهم بأن المسيح ولد بلا أب.

انظر "**الموسوعة الكاثوليكية**": مقال بعنوان Ebionites. https://www.newadvent.org/cathen/05242c.htm

انظر ايضا كتاب "**أقباط مسلمون قبل محمد عليه الصلاة والسلام**". تأليف المهندس فاضل سليمان. صفحة 36. الناشر شركة النور للإنتاج الإعلامى والتوزيع- مصر 2010م.

[194]) من المعروف أن آراء آريوس الأصلية الكاملة لم تصل إلينا ، فقد أحرق كتابه الرئيسة المسمى "ثاليا" Thalia ، وما وصلنا من آرائه جاء من تلك المقتطفات التى نقلها خصومه -خاصة إثناثيوس- فى كتبهم للرد عليها، ومن المحتمل جدا أنهم شوهوا بعض آرائه. كما وصلت بعض آراء آيوس من خلال أنصاره وتلاميذه وأهمهم يوسيبيوس أسقف نيقوميديا.

انظر كتاب "**الفكر المصرى فى العصر المسيحى**" تأليف دكتور رأفت عبد الحميد. صفحة 182-183. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. 2000م.

وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها[195] ، وهذا ليس صحيحا من وجهة نظر الإسلام[196]. وهكذا تحول الدين الواحد الحق إلى أديان عديدة كلها على الباطل ، ويمكنك أن تنظر مثلا إلى أديان مصر القديمة تجد مجموعة كبيرة من الاعتقادات كلها باطلة، ولا يوجد أثر لتوحيد حقيقى صافى. وحتى إخناتون الذى يقال كثيرا أنه أول الموحدين كان يعبد الشمس، أو هكذا حرف الكهنة عقيدته.

خلاصة القول أن الله تعالى وصف مبتدعى الديانات الجديدة التى تفرقت ونشأت عن الدين الحق بأنهم فى شك من كتبهم السماوية لافتقار هذه الكتب إلى النصوص القاطعة التى تؤيد عقائدهم ، فبالله عليكم هل هذا مدح أم ذم؟ هل اختلاف الأديان ظاهرة صحية أم نوع من أنواع الجهل وادعاء الباطل؟

البرهان الثالث:

فى بعض الآيات يذكر القرآن اختلاف الناس حول الدين ، فتلحظ **أن الله تعالى لا يعامل كل الأطراف على حد سواء ، بل ينذر الضالين ويبشر الصالحين** (صراحة أو ضمنا). وهذا الإنذار والتبشير ليس بسبب سوء الخلق أو حسنه ، ولكن بسبب موقف من العقيدة والدين القويم ، وهذا يعنى أن اختلاف الأديان ظاهرة لا يرضى عنها الله ، فلو كانت كل الأطراف على حق ، فلماذا لم يعاملهم جميعا بنفس الطريقة؟

- {فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [الزخرف: 65]
- { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [مريم: 37]
- {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى: 8]

---

[195] يقول ويل ديورانت: [يرى آريوس أن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التي خلقها الله وأسماها... وقال إنه إذا كان الابن من نسل الأب، فلابد أن تكون ولادته قد حدثت في زمن، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن مصقفاً مع وجود الأب في الزمن. يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خلق فلابد أن يكون خلقه من لا شيء، أي من غير مادة الأب؛ لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة. وقد ولد الروح القدس من الكلمة، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها. ونحن نرى في هذه العقائد استمرارا للأفكار المنحدرة من أفلاطون عن طريق الرواقيين، وفيلون، وأفلوطينس، وأرجن إلى أريوس. وبذلك أصبحت الأفلاطونية التي كان لها أعظم الأثر في اللاهوت المسيحي في نزاع مع الكنيسة.]
انظر كتاب **"قصة الحضارة"** (11/ 392). تأليف ويل ديورانت. ترجمة دكتور زكى نجيب محمود وآخرون. مكتبة الأسرة- مصر- 2001م.

[196] بيت الشعر الذى يُنسب إلى آريوس والذى فُهم منه أن الله خلق الكون بواسطة المسيح هو: (هو الذى ليس له بداية ، خلق الابن الذى كان بداية لأشياء مخلوقة) يشير – كما يرى المهندس فاضل سليمان- إلى معجزة خلق عيسى للطير الحى من الطين. انظر كتاب **"أقباط مسلمون قبل محمد عليه الصلاة والسلام"**. صفحة 60-61.

- {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: 19]
- {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 55 – 57]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [هود: 110، 111]
- {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: 118، 119]

البرهان الرابع:

فى بعض الآيات يخبرنا الله عز وجل أنه خص برحمته وهدايته بعض الأطراف المختلفة فى الدين دون غيرها. **ولو كانت كل الأديان التى نشأت من الدين الواحد صحيحة ومقبولة ، فلماذا قصر الله تعالى هدايته ورحمته على بعض الأطراف دون بعض؟**

- {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى: 8]
- {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213]
- {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: 118، 119]

البرهان الخامس

فى بعض الآيات يخبرنا القرآن أن الله عز وجل لم يتخذ موقفا سلبيا تجاه اختلاف الناس فى الدين، بل حرص على أن يرسل رسله ليبين كل منهم لقومه حقيقة ما اختلفوا فيه. وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسل ، فجاء ليحكم على كل من سبقه. فأين هذا الكلام من ذلك الزعم الحقير بأن

كل الأديان صحيحة ومقبولة؟ **لو كانت كل الأديان الموجودة حاليا على الساحة تقود أتباعها إلى الجنة ، فما الداعى لقيام الله بمحاولة تصحيح ما اعتراها من تحريف؟**

- {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: 64]
- {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [النمل: 76]
- {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213]
- {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [الزخرف: 63]

البرهان السادس

فى مجموعة أخرى من الآيات **يحذر الله تعالى الناس بلهجة صارمة من التفرق فى الدين والعقيدة ، وهذا يتناقض بشكل صارخ مع الزعم بأن اختلاف الأديان وتحريفها ظاهرة صحية** ، وأنها جميعا تأخذ بأيدى الناس إلى الجنة:

- {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: 159]
- {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: 31، 32]
- {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} [الشورى: 13]
- {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153]
- {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: 103]

- { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [آل عمران: 105 – 106]

البرهان السابع

وفى عدد كبير من الآيات **يذكر الله تعالى أنه سيحكم بين أولئك الذين اختلفوا فى الدين ، ويفصل بينهم يوم القيامة. ولا معنى لذكر فكرة العدالة فى الآخرة إلا أن اختلاف الأديان ظاهرة آثمة ، فلا قيمة للعدل إلا فى وجود الظلم**[197]:

- {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: 93]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الجاثية: 16، 17]
- {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [آل عمران: 55]
- { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: 48]
- {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الأنعام: 164]
- {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [النحل: 92]
- {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الحج: 69]
- {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [البقرة: 113]

---

[197]) الآيات الأربعة الأخيرة لا تذكر صراحة أن الحكم بين المختلفين سيتم فى الآخرة ، ولكن ذلك يفهم بسهولة من خلال عبارة (ولولا كلمة سبقت من ربك) التى تعنى أن الله قضى فى الأزل ألا يحسم الخلافات بين الناس فى الدنيا ، ولكنه أجل القضاء النهائى إلى يوم القيامة.

- {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: 19]
- {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس: 93]
- {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ} [النحل: 39]
- {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل: 124]
- {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [السجدة: 25]
- {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: 3]
- {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر: 46]
- {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: 159]
- {وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الجاثية: 17]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [هود: 110، 111]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [فصلت: 45]
- {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: 19]
- {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى: 14]

إن علينا أن نسأل: لماذا ألح القرآن على فكرة حكم الله بين الناس يوم القيامة؟ لا معنى لهذا الإلحاح إلا أن يوم القيامة هو يوم العدالة الذى ينتظره كل مظلوم. الدنيا ليست دار عدل ؛ فى الدنيا يزعم كل من المسيحى واليهودى والبوذى والهندوسى والملحد أنه على الحق. وكل واحد من هؤلاء له آلته الإعلامية التى تتحدث باسمه ، وتروج لأفكاره ، وتجمل صورته. وبنظرة سريعة للحركة الدينية فى العالم

نلاحظ أن الغلبة للباطل ، ليس لأن الباطل أقوى منطقا ، ولكن لأنه أعلى صوتا. وحتى لو كانت الأغلبية تتبع الحق ، فمن المستحيل حدوث إجماع على هذا الحق ، لأنه مهما كانت قوة حجتك ، فستجد دوما من يأبى لسانه أن يعترف بصدقك حتى لو كان من داخله يعرف يقينا أنك على الحق ، ومن المحال الحصول على إجماع شامل على شيء. وإزاء هذا الظلم الذى يشعر به أهل الحق كان لا بد أن يُمنى الله تعالى المؤمنين بيوم يحكم فيه بين الناس ، فينال كل واحد ما يستحق. إن الشوق إلى العدالة المطلقة هو الأمنية الأغلى لكل مظلوم. ولو كان اختلاف الناس فى الدين أمر طبيعى وظاهرة صحية ، فسيكون من السخيف جدا أن يكرر القرآن الحديث عن الحكم بين الناس يوم القيامة ، فالكلام عن محكمة الآخرة ليس له قيمة إن لم يكن هناك ظالم يستحق العقاب ، ومظلوم يستحق الثواب. وإن رأيتَ الرجل كلما قابل خصمه قال له: (موعدنا يوم جلسة الاستئناف أمام القاضى) فستدرك على الفور أنك أمام مظلوم يتوق للقصاص ممن ظلمه. وبالمثل لو كان الله تعالى يرضى عن كل الأديان المحرفة فما الحاجة لأن يَعِد -أو يتوعد- بمجيء يوم الفصل؟ لقد كان الأولى أن يحذف الله تعالى من القرآن كل هذه الآيات المتعلقة بالحكم فى الآخرة ، ويضع مكانها آيات تؤكد للناس بصراحة مضمون هذا الحكم ، أى يخبرهم أن أى دين كفيل بدخولهم الجنة ، فمن العبث أن يؤجل الله ذكر حقيقة على هذه الدرجة من الخطورة إلى الآخرة. من العبث أن يستخدم الله أسلوب التشويق والإثارة ليخفى إحدى أهم حقائق الدين ، ويؤخر إعلانها إلى يوم القيامة. هذا هراء وظلم لا يجوز أن يصدر من الله ، فالله تعالى لا يخفى مبادئه عن الناس كما يفعل الشيعة الذين يدمنون التقية. إن الله تعالى لو ترك أتباع الأديان يتقاتلون ويتناحرون دون أن يذكر لهم بوضوح أنهم جميعا سيدخلون الجنة لكان ظالما ، فالله عز وجل لا يعذب حتى ينذر: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء: 15].

وأهم من كل هذا الكلام آية فى غاية الأهمية تقول: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ} [النحل: 38، 39].

وفى هذه الآية الأخيرة يخبرنا الله أنه فى يوم القيامة سيبين للناس ما يختلفون فيه ، أى سيحكم بينهم فى الأمور التى كانوا يختلفون حولها فى الدنيا ، **وستكون عاقبة هذا الحكم أن يعلم الكفار أنهم كانوا**

كاذبين. وهذا يعنى أن حكم الله بين الناس يوم القيامة لن يكون على هيئة جلسة تصالح ودية تنتهى بتبرئة كل الأديان ، ولكنها محاكمة عادلة ، تنتهى بإدانة الباطل ، وفضح الزور.

وفى آية أكثر وضوحا يخبرنا الله تعالى أن الحكم بين الناس يوم القيامة سيترتب عليه عذاب للكافرين، وثواب للمؤمنين:

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران: 55 – 57]

وهذه الآية الأخيرة تدل على أن **الحكم بين الناس فى الآخرة هو حكم بين ظالم ومظلوم ، بين حق وباطل ، وليس بين أديان كلها حق.** وهكذا لا نجد فى القرآن إلا ذما للاختلاف والتفرق فى العقيدة ، فهل نتبع القرآن أم نتبع وسائل الإعلام وأباطرة التمويل الأجنبى ورجال الدين المشبوهين؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

قائمة بالآيات التى تحتوى على فعل (اختلف) و (تفرق):

- {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: 19]
- {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: 19]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [هود: 110، 111]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } [فصلت: 45]
- {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [مريم: 34 – 38]

- {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [الزخرف: 63 – 65]
- {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [البقرة: 176]
- {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (8) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى: 8 – 10]
- {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213]
- {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]
- {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء: 157]
- {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: 93]
- {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: 64]
- {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الجاثية: 16، 17]
- {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [آل عمران: 55]
- { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: 48]
- {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الأنعام: 164]
- {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [النحل: 92]
- {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الحج: 69]

- {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ } [الزخرف: 63]
- {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [البقرة: 113]
- {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس: 19]
- {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس: 93]
- {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ} [النحل: 39]
- {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل: 124]
- {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [النمل: 76]
- {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [السجدة: 25]
- {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: 3]
- {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر: 46]
- {وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [الجاثية: 17]
- {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} [النبأ: 1 – 3]
- {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: 118، 119]
- {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة: 4، 5]
- {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى: 13، 14]
- {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: 159]

- {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: 31، 32]
- {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153]
- {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: 103]
- { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [آل عمران: 105 – 106]

8- أهل الحق أمة واحدة

دين الله كان فى الأصل واحدا ، ويجب أن يبقى واحدا ، واستعادة الوحدة الدينية للعالم هى الهدف الذى يسعى إليه الإسلام. وسنقوم فى هذا الفصل بتقديم البراهين على هذه الفكرة.

لقد بحثت يوما عن الآيات التى تحتوى على عبارة (أمة واحدة) ، ثم درستها جيدا ، فوجدت أن الأمة الواحدة فى القرآن لا تعنى شعبا واحدا يسكن دولة واحدة ، ولكن يقصد بها "**جمع من الناس ربما عاشوا فى أماكن مختلفة ، وأزمان مختلفة ، لكنهم اتفقوا على عقيدة واحدة ألا وهى دين الله الواحد الذى نزل من السماء**". وأوضح آية تقودنا إلى هذا التعريف قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92]. وكلمة (هذه) فى الآية الأخيرة تشير إلى عدد من الأنبياء والصالحين سبق ذكرهم قبل هذه الآية ، وهم مريم ويحيى وزكريا ويونس وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وأيوب وسليمان وداود ونوح ولوط وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون. وفى سورة المؤمنون وردت آية مشابهة ، وأتت أيضا عقب ذكر أخبار بعض أنبياء الله: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: 52]. كما نجد أن عبارة (أمة واحدة) لا ترد فى القرآن إلا فى سياق الإيمان والكفر والحق والباطل ، وهذا يؤيد التعريف السابق.

كما وجدتُ أن **كل الآيات التى تحتوى على عبارة (أمة واحدة) تهاجم اختلاف الناس فى الدين** ، وتتوعد أهل الباطل، ولا يوجد آية واحدة يُشتم منها ثناء من الله على اختلاف الناس وتمزيقهم لهذا الدين الواحد. فتعال معى عزيزى القارىء لنتذكر تلك الآيات القرآنية التى دفنها بعض المسلمين ، أو دفنوا رءوسهم فى الرمال كلما سمعوها.

انظر إلى واحدة من أهم هذه الآيات:

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213].

ستجد فى هذه الآية كيف أن الناس كانوا فى الأصل أمة واحدة فى الدين، فاختلفوا وتفرقوا. وهذا الاختلاف لم يكن خطأ غير مقصود ، بل جريمة كاملة الأركان ، وذلك لعدة أسباب: أولا: لأن من اختلفوا فى كتاب الله هم نفس أفراد الأمة التى نزل فيها الكتاب ، وليس جيلا جديدا أتى بعدهم بمئات السنين ليجد الكتاب قد فقد أو ضاعت منه أجزاء كثيرة ، فسهل عليه الابتعاد عن الحق (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ). ومن الأمثلة على ذلك رغبة بنى إسرائيل فى عبادة العجل بمجرد أن نجاهم الله من جيش فرعون[198] ، ثم استغلال السامرى لغياب موسى عليه السلام لعدة أيام كى يحقق لهم هذه الأمنية. ثانيا: اختلاف الأمة الواحدة لم يحدث بسبب غموض فى مبادىء الدين ، بالعكس كانت مبادىء الدين الذى أنزله الله لهم من قبل بينة واضحة لا تثير اللبس ، وهذا معنى قوله: (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ). ثالثا: وقع اختلاف الأمة الواحدة بسبب البغى (بَغْيًا بَيْنَهُمْ)، أى بسبب العدوان ، فمثلا ربما شعر بعض العصاة بالحقد على المؤمنين المخلصين الذين كانوا مقربين من الرسول فى حياته ، فلما مات الرسول تعمدوا ألا ينصتوا لتلاميذه ، وأن يخالفوهم فى الرأى ، وأن يُدخلوا فى الدين ما ليس منه حتى يميزوا أنفسهم فى المجتمع ، ويصبحوا أصحاب طريقة متفردة ومذهب مستقل، وليسوا تابعين لغيرهم[199]. وبمرور الوقت تعمقت الخلافات التى بدأت كبدع فى الطقوس والشعائر والأحكام ، ثم تطور الأمر إلى خلافات فى العقيدة ، بما فى ذلك عبادة الأصنام. وهذه الأسباب الثلاثة تعنى أن اختلاف الناس فى الدين جريمة ، وليس ظاهرة صحية ، ولا حتى خطأ غير مقصود.

وانظر إلى قوله: (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه). إن هذه الآية تحسم القضية تماما لأنها تفيد أن **الله تعالى سعى إلى رأب الخلاف** عن طريق إرسال الرسل الذين يحملون الكتب السماوية التى تحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه من الدين ، **وهذا ينفى تماما ما يقال عن أن الاختلاف فى الدين ظاهرة صحية ، إذ كيف يبذل الله تعالى كل هذا الجهد طالما أن اختلاف الناس شىء مقبول وحميد؟**

---

198) قال تعالى فى ذلك:{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف: 138].

199) الحقيقة أن من أهم أسباب اختلاف الناس فى الدين حب الزعامة والظهور والشهرة والحقد على الصالحين ، وهذا ما نرى أثرا منه اليوم بأعيننا من تنافس غير شريف بين بعض التيارات الإسلامية.

ولننظر أخيرا إلى قوله: (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه). لقد هدى الله تعالى أصحاب الإيمان إلى الحق الذى اختلف الناس حوله ، وهذا يعنى بوضوح أن **هناك حقا واحدا توصلت إليه فئة خاصة دون غيرها من الناس بمعونة الله تعالى ، ولذا فالحق مطلق ، وليس نسبيا** كما يقول الجهلاء. ثم ما الداعى لأن يهدى الله فئة من الناس دون غيرها لو كانت كل الفئات المختلفة على الحق وكلهم سيدخلون الجنة؟

وانظر أيضا إلى آية أخرى:

{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: 19]

هنا يدل أسلوب القصر المكون من النفى والاستثناء (وما كان الناس إلا...) على أن الحالة الوحيدة التى كان عليها الناس فى بداية الخلق هى التوحد حول الدين الحق ، ولم يكن هناك أى حالة دينية أخرى ، وهذا يدل على أن اختلاف الناس فى الدين أمر طارىء ، وغريب ، وضد الطبيعة ، وضد ما أراده الله. وانظر إلى قوله: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) تجده يعنى بوضوح أن الله تعالى ليس راضيا عن اختلاف الناس ، وأنه يريد أن يحكم بينهم فى الدنيا (وإصدار الحكم يستتبع بالضرورة العقاب والثواب)، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه قضى قبل خلق العالم أن تكون الدنيا دار اختبار ، يترك فيها للأشرار أن يعصوا ويطغوا انتظارا ليوم الحساب فى الآخرة.

ملحوظة: الأمة الواحدة فى الآية السابقة لا تعنى شعبا واحد يعيش فى بلد واحد بل تعنى كما قلنا الاتفاق فى الدين لأن السياق لا يوجد فيه أثر لكلام عن كيانات سياسية بل عن خلافات عقائدية ، ويكفى أن تقرأ الآية السابقة لآيتنا هذه: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس: 18]

وفى آية أخرى يقول تعالى:

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود: 118، 119]

هذه الآية مع الأسف تتردد كثيرا كدليل على أن من سنة الله اختلاف الناس فى الدين ، وأن كل الأديان مقبولة عند الله. والحقيقة أن الأمر على النقيض تماما ، فلكى تُفهم عبارة (أمة واحدة) فيجب أن ننظر إلى كل الآيات التى وردت فيها نفس العبارة. وكما قلنا من قبل فالقرآن يهاجم اختلاف الأمة الواحدة بشكل واضح ، ولا يمكننا العثور على آية واحدة ترحب باختلاف الناس فى الدين.

ثم انظر إلى عبارة (إلا من رحم ربك) ، وسل نفسك: ما معنى هذه العبارة؟ إن هذه العبارة غامضة لأنها تخبرنا – كما يبدو لأول وهلة– أن الناس مختلفون إلا فئة خاصة رحمها الله ، وهذا قول متناقض لأن من المستحيل أن تستثنى أحدا من الخلاف إن وقع أقل خلاف ، فيكفى مجرد وجود فرقة واحدة صالحة بجوار مليون فرقة ضالة كى تقول أن هذه الفرقة الصالحة تختلف عن غيرها ، وأن كل واحد من الفرق مختلف عن غيره ، والاختلاف يشمل الجميع.

إننا نرى أن هناك إيجازا فى الكلام على عادة القرآن ، والمعنى كما يلى: (رغم أن الله تعالى لم يشأ أن يتدخل بشكل كامل ليمنع انقسام الأمة الواحدة ، إلا أنه عز وجل تدخل بشكل جزئى ، حيث ألقى برحمته على بعض الناس ، فهداهم إلى الحق، وأوكل إليهم مهمة الحفاظ على الدين الواحد فى مواجهة تحريف المفسدين). إن حرف الاستثناء (إلا) يشير إلى أن الله تعالى لم يحجم بشكل كامل عن التدخل لحفظ الدين الواحد من التحريف، بل تدخل بشكل جزئى ، ومن سنة الله تعالى أنه إن أرخى الحبل للشر فإنه لا يرخيه بشكل كامل حتى لا تفسد الحياة على الأرض ، وحتى لا تعلو دولة الشيطان. الشر له حدود لا يتجاوزها. **إن الاستثناء هنا ليس استثناء بعض الناس من سنة الاختلاف ، ولكنه استثناء بعض الناس من سياسة إحجام الله تعالى عن الحفاظ على الأمة الواحدة.** لقد كان لله سياسة عامة ، لكنه حاد عنها بعض الشىء. بهذه الطريقة فقط يمكننا فهم عبارة (إلا من رحم ربك).

والآن إذا تأملنا أكثر فى عبارة (إلا من رحم ربك) لقلنا بكل ثقة أنها تقوض أى محاولة للزعم بأن الله تعالى يرحب باختلاف الأديان ، فلو كان الله يرحب بكل الأديان فكيف يرحم طرفا بعينه ويهديه دون غيره من الأطراف .

وإذا ذهبنا إلى عبارة (ولذلك خلقهم) لوجدنا أن البعض حاول أن يفسرها تفسيرا حضاريا ، فقال أن معناها: (ولذلك خلقهم من أجل الاختلاف). يا له من كلام مثير الغثيان! كيف يكون هدف الله من خلق الناس أن يجعلهم يختلفون؟ وحتى لو افترضنا أن الاختلاف فى الدين مثل الاختلاف فى اللون

والجنس (وهو ما نفيناه من قبل) فهذا أيضا لا يصلح أن يكون هدفا لخلق الناس ، إذ أن من اللغو القول بأن الله خلق الناس من أجل أن يختلفوا فى اللون أو الجنس ، والصحيح أن الله تعالى خلق الاختلاف فى اللون والجنس وغيره من الأمور ليختبر الناس، فيرى من يغتر بلونه وجنسه ومن يتواضع. إذن الاختلاف فى الدين ليس هو الهدف من الخلق. الاختلاف ليس هدفا فى ذاته. الهدف من الخلق هو اختبار الناس ، وقد ترك الله الناس يختلفون فى الدين ليس لأنه يحب الاختلاف ، ولكن لأن الاختلاف شكل من أشكال الاختبار ، مثله مثل الاختلاف فى اللغة واللون والجنس. إذن معنى عبارة (ولذلك خلقهم) هو (ولذلك الاختلاف والصراع بين الحق والباطل خلقهم الله كى يختبرهم). نعم خلق الله تعالى الدنيا ليختبر الناس ، ويظهر حقيقة معادنهم فى هذا الصراع الكونى بين الحق والباطل. لقد تعمد الله أن يمنح الناس الحرية التى تمكنهم من تحريف الدين وتفريق الأمة الواحدة ليختبرهم ، فهم لم يأتوا إلى الدنيا إلا من أجل الاختبار. ولو تدخل الله ليمنع تحريف الدين بالقوة لما كان هناك صراع بين حق وباطل ، ولما انكشف الفرق بين الطيب والخبيث. بهذه الطريقة فقط يمكن فهم عبارة (ولذلك خلقهم).

ولاحظ أيضا كيف يخبرنا القرآن أن الاختلاف ستكون عاقبته إدخال كثير من الناس فى النار (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ). ولو كانت الآية تقصد أن تثبت أن اختلاف الأديان ظاهرة صحية ، فما الداعى للقول بأن الله تعالى سيملأ جهنم بالإنس والجن؟ إن ذكر جهنم فى هذا السياق ذو مدلول واضح ، فهو يعنى أن الله تعالى لا يرضى عن تفرق الأمة الواحدة إلى أديان متعددة باطلة ، وأن هذا التفرق ستكون عاقبته العذاب الشديد فى النار. إن ما نراه فى الدنيا من انتشار واسع للأديان الباطلة لا يحدث ضد إرادة الله ، ولكنه عين تخطيط الله الذى خلق الدنيا ليختبر الإنسان ، ولم يشأ أن يجبره على الطاعة ، بل تركه ليظهر معدنه ، ويكشف ما لديه من نصيب من الخير أو الشر ، ومن يغلب عليه الشر ، فسيكون مستحقا للعذاب فى جهنم. هذا قضاء الله ، وسيتحقق ما قضى به الله.

وفى آية مشابهة يقول المولى عز وجل:

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى: 8].

عبارة (أمة واحدة) هنا – كما فى غيرها من الآيات – تشير إلى الاختلاف فى الدين لأن الآية السابقة لها تتحدث عن انقسام الناس إلى فريقين أحدهما فى الجنة والآخر فى النار: {وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ

فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى: 7]. كما تشير الآيات التالية لها إلى أمور العقيدة والشرك: {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى: 9، 10]

وهنا نجد أيضا أن الله تعالى لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة تتبع نفس الدين الحق ، ولكنه تركهم يختلفون ، فانقسموا إلى نوعين: نوع رحمه الله فأعانه على اتباع الحق ، ونوع آخر هم الظالمون ، وهؤلاء سينالون العقاب الشديد ، ولن يجدوا من يواليهم أو ينصرهم. ولو كان الله تعالى يرضى عن كل الأديان لما رحم بعض الناس وعذب البعض الآخر.

وفى آية أخرى قال عز وجل: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** [النحل: 93].

ومن هذه الآية نفهم أن انقسام الأمة الواحدة إلى فرق مختلفة فى الدين ليس ظاهرة صحية ، ولا يعنى أنهم جميعا على الحق ، ولا أنهم سيدخلون الجنة بلا استثناء ، وذلك لأن القرآن بعد أن تكلم عن تعمد الله ترك الناس يختلفون قال: (وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ، وهذه الآية لا تفهم إلا على أن الله تعالى أوكل مهمة حفظ الدين الواحد إلى الناس ، وتركهم يتصارعون حول الحق ، فتمسك به بعضهم–وهؤلاء زادهم الله هدى– كما انحرف البعض الآخر عن الحق ، فزادهم الله ضلالا على ضلال.
ومن المعروف أن الله تعالى يهدى من يستحق الهدى ، ويضل من يستحق الضلال ، كما فى قوله: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: 17] ، وقوله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: 10].

وفى آية أخرى يدين الله تعالى تمزيق الأمة الموحدة:

{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ} [المؤمنون: 52 – 54].

وانظر فى هذه الآية الأخيرة إلى قوله تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً). إنه ورد عقب إخبار القرآن بقصص عدد من الأنبياء ، وبالتالى فالأمة الواحدة يقصد بها أن دين الله واحد ، لا فرق بين جوهر رسالة نبى ونبى. وبعد ذلك يعلق الله تعالى على تفرق الناس عن الأمة الواحدة قائلا: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ

بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ). وكلمة (زبرا) تعنى قطعا أو فرقا. **وهذه إدانة واضحة لمن مزقوا الدين الواحد الأصلى لما تحزبت** كل جماعة منهم حول مجموعة من المبادىء التى ترى أنها تمثل الحق. ولاحظ أيضا أن الله تعالى يتوعد من قسموا الأمة الواحدة من خلال عبارة: (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ). وهذا القول يدل على أن **الله تعالى يترك اختلاف الناس فى الدين ليس لأنه يحب هذا الاختلاف، ولكن لأن حلمه جعله يؤجل العقاب إلى حين ، أى إلى يوم القيامة**. ويقول القرآن بعد ذلك أن على من فرقوا دينهم ألا يغتروا بالدنيا التى جاءت تحت أقدامهم: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: 55 – 56].

وفى آية مشابهة يقول المولى عز وجل:

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} [الأنبياء: 92، 93].

وهنا أيضا نجد الله تعالى يخبرنا أن الناس أمة واحدة فى الدين ، ولكنهم تقطعوا أمرهم، أى حرفوا دين الله الواحد ، حتى ظهر منه عشرات الأديان الباطلة ، ولم يبق للحق أثر. ولاحظ وجود وعيد ضمنى لمن قسموا الأمة الواحدة فى قوله (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ). والرجوع إلى الله يوم القيامة يستتبع بالطبع الحساب والعقاب.

ومن الآيات ذات المدلول القاطع التى تعضد ما سبق قوله عز وجل:

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى: 8].

وهنا نجد أن تفرق الأمة الواحدة فى الدين يستحيل أن يكون ظاهرة صحية لأن هذا الاختلاف صاحَبَه وجود صنفين من الناس: صنف صالح استحق رحمة الله ، وصنف ظالم لن يجد من يحميه من عقاب الله. وواضح أن فى الآية إيجازا على عادة القرآن ، وتقدير الكلام: (ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه ترك الدين لهم ليفعلوا به ما يشاءون ، وذلك ليختبرهم ، فيرى من يحافظ على الدين ومن يحرفه، فأما أهل الحق ، فقد هداهم الله ورحمهم ، وأما أهل الباطل الظالمون فلهم العقاب الشديد). **إن وصف القرآن للبعض بأنهم "ظالمين" ينفى تماما أن تكون كل هذه الأديان صحيحة ، فلو كان الكل مقبولين**

من الله لما جاز وصف بعضهم بالظلم. ولو كان الله عز وجل يرضى عن كل الفرق التى تفرعت عن الدين الحق لما عاقب البعض ، ولما رحم البعض الآخر.

وأعتقد أنه بعد كل هذه الآيات التى أوردناها لم يعد هناك مكان لأفكار دعاة الدولار المتأثرة بمبادىء ما بعد الحداثة التى تعتبر أنه لا يوجد حق ولا باطل ، وأن كل الأفكار مقبولة ، ولا يوجد دين أصح من الآخر.

الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

9- أهل الكتاب ليسوا مسلمين

قرأ صاحبى عنوان هذا الفصل فضحك ، وتساءل: ما هذا العنوان الساذج؟ إن كل الناس تعرف أن اليهود يهود ، والنصارى نصارى ، وليسوا مسلمين ، فما الجديد إذن؟

أجبته قائلا: **الجديد هو أننا نُذَكر المسلمين بمعلومة قديمة نسيها كثير منهم ، مضمونها أن الدين الوحيد الذى يعترف به الله عز وجل هو الإسلام** ، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: 19]. وقال أيضا: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:85]. وعلى ذلك فالمطلوب ممن يريدون اليوم أن يقنعونا بأن الله تعالى يرضى عن اليهودية والنصرانية أن يثبتوا لنا أنهما لا يختلفان عن الإسلام ، وهذه مهمة مستحيلة ، من يحاول القيام بها فلن يعود إلا بخفى حنين.

نسأل أولا: **ما معنى كلمة (الإسلام)؟**

ليست هذه مقدمة لغوية رتيبة ، ولكنه سؤال له تبعاته المدمرة.

الرد التقليدى هو أن الإسلام يعنى الاستسلام والخضوع والانقياد والإذعان لله عز وجل. ولكن إن كان الأمر كذلك فلماذا لم يستخدم القرآن لقب "الطائعون" أو "الخاضعون" أو "المنقادون" أو "القانتون" بدلا من "المسلمون"؟

الحقيقة أن هناك معنى آخر أكثر عمقا لكلمة "الإسلام"[200] ، نجده مدفونا فى بعض كتب اللغة ، وسنقوم ببسطه فيما يلى:

إننا نرى أن كلمة "الإسلام" مشتقة من فعل "سَلِمَ"، وحين يضاف إلى تلك الكلمة ألف التعدية فإنها تصبح "أسلم"، أى "أسلم نفسه لله"[201].

[200]) جاء في لسان العرب (12/ 293): يُقَالُ فُلَانٌ مُسْلِمٌ وَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحدهما هُوَ المُسْتَسْلِمُ لأَمر اللَّه، **وَالثَّانِي هُوَ المُخْلِصُ لِلَّه العبادةَ، مِنْ قَوْلِهِمْ سَلَّمَ الشيءَ لِفُلَانٍ أَي خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشيءُ أَي خَلَصَ لَهُ.**

[201]) ألف التعدية مثل فهم- أفهم ، علم- أعلم ، سمع- أسمع ، تم- أتم.

وتخبرنا معاجم اللغة أن كلمة "سَلِم" تعنى "خلا من النقص والعيوب" ، والسلامة هى العافية والبراءة من العيوب[202]. ومن هذا المعنى جاءت كلمة (السِلم) و(السلام) للتعبير عن حالة ضد الحرب التى تهشم وتدمر المبانى والمتاع وغيرها. والسَّلامُ: اسْمٌ مِنْ أَسماء الله عز وجل لسَلامته مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ وَالْفَنَاءِ والآفات.

ومن هذا الأصل استخدمت كلمة "**سلم**" **لتعنى "خلَص**"، فيقال: "**سلم له كذا**" ، **أى خَلَص**، ويقال على سبيل المثال: "وزعت التركة فسلمت الدار للأخ الأكبر" ، أى كانت الدار كلها للأخ الأكبر وحده ، فلم يشترك معه فى امتلاكها أحد من إخوته ولو فى غرفة واحدة. **والقرآن يستخدم فعل (سَلِم) بمعنى (خَلَص)**، فيقول عز وجل: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} [الزمر: 29]. ويقول الزمخشري عن قوله: (ورجلا سلما لرجل) أى (ذا سلامة لرجل، أى: ذا خلوص له من الشركة، من قولهم: سَلِمت له الضَيعَة)[203]. **واستعمال كلمة (سلم) بمعنى (خَلَص) يرجع إلى أنك إن أخذت الشىء سليما ، فأنت قد أخذته كله دون نقص فى جزءٍ من أجزائه.**

وعلى ذلك فحين نقول أن المرء "**أسلم**" **أو** "**أسلم لله**"[204] **فمعنى ذلك أنه جعل نفسه خالصة لله، أى أعطى نفسه كلها لله ، ولم يجعل لغير الله نصيبا من نفسه**، فهو لم يفعل مثل النصرانى الذى يقول أنه يعبد الله وفى نفس الوقت يطلب من يسوع أن يشفيه ، ويبتهل للعذراء كى تنجيه ، ويسجد للبابا كى يحميه. إن مثل هذا النصرانى قسَّم نفسه بين الله وبين الآخرين ؛ فكان لله نصيب، وللمسيح نصيب، وللعذراء نصيب. أما **المسلم فلا يرضى بأن يكون ممزقا ومقسما بين قوى وأهواء ومخلوقات ، تتنازع السيطرة عليه ، وتسعى لتوجيه حركته فى الحياة ، بل جعل نفسه وحدة واحدة لا انقسام فيها ، تعطَى خالصة لله ، لا ينازعه فيها أحد**. إذن الإسلام يعنى أن يجعل الإنسان نفسه خالصة لله ، وملكا له وحده ، تأتمر بأمره وحده ، وتنتهى بنواهيه وحده.

---

202) نحن نرى أن أبسط مدلول مادى لكلمة (سلم) هو "سلم الشئ أى كان صحيحا ، وموجودا بكامل أجزائه دون أن ينقص منه شىء بسبب الكسر" ، فكلمة (سلم) مضاد لكلمة (انكسر)، والكسر يؤدى إلى نقص فى الشىء. لقد كان الإنسان القديم يصنع أمتعته من الفخار ، وهذه الأمتعة معرضة للكسر ، وفى بعض الأحيان كان الكسر يؤدى إلى فقد جزء من الإناء ، مع بقاء أغلبه صحيحا ، فيظل الناس يستعملونه على عيبه. وأنا أذكر جيدا كيف كنا نشرب فى القرى من القُلة المكسورة أو الزير المكسور.

203) **تفسير "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"** للزمخشري (126/4). دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الثالثة - 1407 هـ

204) فى بعض الآيات يأتى فعل (أسلم) مطلقا دون تحديد لمن يكون الإسلام ، لكن من المفهوم أنه لله. وفى بعض الآيات يعقب فعل (أسلم) حرف الجر (اللام) الذى يشير بصراحة إلى أن الإسلام موجه إلى الله ، وذلك كما فى قوله: {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: 44] ، وقوله: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: 131] ، وقوله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران: 83].

وهكذا نضع أيدينا على المعنى الدقيق لكلمة الإسلام. **الإسلام لا يعنى فقط الاستسلام لله ، بل يعنى الاستسلام لله وحده بشكل كامل** ، فكأن المرء يشبه كتلة واحد سليمة أعطيت لله ، كتلة سليمة لا يوجد بها جزء ناقص أو مفقود. **الإسلام هو أن تجعل الله تعالى يمتلكك كلك**. إن كلمة (الإسلام) تبدو لنا الآن رائعة وغنية بصورة مدهشة.

والآن نسأل: هل اليهود والنصارى مسلمون طبقا لمفهوم كلمة (الإسلام)؟

قطعا لا ، وذلك لعدة أسباب:

أولا: اليهود والنصارى كفروا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وما أنزل عليه من آيات ، أى أنهم عصوا الله فى أهم أمور الحياة ، فهل هذا استسلام لله؟ هل هذا انقياد وخضوع؟ لقد رأيتُ طبيبا كان دائما يعترف بفضل أستاذه عليه ، وكان يطيعه فى كل ما يأمره به ، وكثيرا ما كان يقول له: "اطلب منى أى شىء ألبه لك فى الحال". وفى أحد الأيام قال الأستاذ لتلميذه: (لقد عَينتُ فلانا كرئيس عليك فى إحدى اللجان لأنه متخصص فى المشروع الذى ننفذه حاليا) ، فهنا ثارت ثائرة الطبيب ، ورفض الاعتراف بهذا الشخص رئيسا له بسبب ما بينهما من تنافس ، فهل يصح القول بأن هذا الطبيب صادق فى تأكيده لرغبته فى رد الجميل لأستاذه؟ قطعا لا. وبالمثل **يمكن للنصارى واليهود أن يتكلموا كما يشاءون عن طاعتهم لله واستسلامهم له ، لكنهم من حيث الواقع ليسوا مستسلمين لله لأنهم رفضوا نبوة محمد الذى هو رسول للناس كافة**: { قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: 158] ، وهو أيضا رسول لأهل الكتاب بالتحديد: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف: 157]

ثانيا: عقائد النصارى واليهود تتضمن ألوانا فجة من الشرك ، والشرك هو النقيض للإسلام لأن المشرك يقسم ولاءه بين الله وبين شركاء لله. النصارى يؤمنون بوجود ثلاثة آلهة ، ويعتبرون أن الله خالق السماوات هو واحد من هذا الثالوث، ويسمونه الآب. والإله الثانى عندهم هو المسيح (الابن) ، والإله الثالث هو الروح القدس ، وهذا شرك بيّن. واليهود أيضا قالوا عزير ابن الله ، وهذا لون من ألوان

الشرك. كما عبد اليهود العجل ، وسجدوا لكثير من الأصنام عبر تاريخهم كما يقر بذلك كتابهم المقدس. واليهود أيضا مشهورون حتى الآن بممارسة السحر الذى يتضمن الكفر بالله.

ثالثا: يتخذ اليهود والنصارى أربابا من دون الله طبقا لقوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: 31]. إن اليهود والنصارى يقدسون رجال الدين ، ويؤمنون أن لهم القدرة على إجابة الدعاء ، وجلب النفع ، ودفع الضُّر. ومن كان له صديق مسيحى مقرب يعرف ذلك جيدا ، حيث تجده يحمل صورة المسيح أو العذراء للتبرك بها فى الامتحان أو يكتب اسم "أبو سيفين" –المشهور بمعجزاته– على السيارة. وقد قرأت عشرات من القصص عن معجزات خرافية ينسبها النصارى للقديسين ، وآخرهم البابا كيرلس والبابا شنودة فى مصر ، فهالنى حجم التقديس والخضوع الذى يتجاوز بمراحل حالة الحب والإعجاب، ويصل إلى درجة إشراك هؤلاء القديسين مع الله فى تدبير أمور الكون ، بل إن أهل الكتاب عمليا ينسون الله بشكل شبه كامل ، ويتجهون بكل قلوبهم ودعواتهم إلى العذراء والمسيح والقديسين ، وهذا هو الشرك بعينه.

******

وهكذا توصلنا من خلال تحليل مفهوم "الإسلام" إلى أن **اليهود والنصارى لا يمكن أن يكونوا مسلمين** لأنهم لا ينقادون لله الذى أمرهم بالإيمان بكل الرسل ، كما أنهم لا يذعنون لله وحده ، بل يذعنون للبشر أكثر من إذعانهم لله. والآن نأتى إلى مصطلح "الإسلام" كما يُستخدم فى القرآن:

يخبرنا القرآن أن مصطلح "المسلمين" هو وصف أطلقه نبى الله إبراهيم على أولئك الذين اتبعوا دينه وملته ، وأن الله تعالى اختار نفس هذا الاسم ليسمى به أمة محمد عليه الصلاة والسلام[205]: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: 78]. وعلى ذلك فالمسلم هو من اتبع ملة محمد التى تعد هى وملة إبراهيم شيئا واحدا.

وملة إبراهيم ومحمد عليهما السلام ليست ملة جديدة ، وإنما هى الدين الواحد الذى لم ينزل الله تعالى غيره إلى البشرية ، وفى هذا قال تعالى: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ

[205] الحقيقة أن الفضل فى ابتكار مصطلح "الإسلام" لا يرجع لنبى الله إبراهيم ، بل يرجع إلى الله عز وجل لأن كل ما فى أذهان الناس من أفكار يأتى من الله عز وجل. وأى إبداع يفخر به المبدعون فالفضل فيه يرجع إلى الله فى الحقيقة. باختصار: الله هو الذى هدى نبيه إبراهيم عليه السلام إلى مصطلح الإسلام.

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 133].

وفى آية أخرى يذكر القرآن نفس المعنى ، ويضيف أن الناس بدلوا وحرفوا ما أوحى إليهم ، وحولوا الدين الواحد إلى أديان شتى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى: 13، 14].

وفى آيات أخرى اعتبر أنبياء الله أنفسهم من المسلمين ، فقال يوسف عليه السلام: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: 101] ، وقال نوح عليه السلام:{ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: 72]. وقال موسى عليه السلام نفس الشىء لقومه: {وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } [يونس: 84]. ولما أدرك الغرق فرعون أعلن أنه من المسلمين كبقية أتباع موسى: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [يونس: 90].

والإسلام هو الدين الوحيد الذى ذكر الله تعالى أنه أكمله ورضى عنه ، أى أن من يعتنق الإسلام فلا حاجة به لشىء من الأديان الأخرى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3].

وللمرء أن يسأل السؤال السابق بطريقة أخرى: **هل اليهودية والنصرانية هى ملة إبراهيم ، وبالتالى هى الملة التى يرضى عنها الله؟**

ينكر القرآن فى عبارات صريحة أن يكون أهل الكتاب على ملة إبراهيم ، وينكر أن تكون اليهودية والنصرانية ممثلة للإسلام الذى هو دين الله الواحد: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة: 135]. وفى آية أخرى يقول عز وجل: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: 67].

وقد جاءت هذه الآية الأخيرة فى سياق **تناول القرآن للجدل الذى ثار حين زعم اليهود أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وزعم النصارى أن إبراهيم كان نصرانيا ، فجاء الرد القرآنى ساحقا ، لا يبقى ولا يذر:**

{يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 65 – 68]

وفعلا من يقرأ قصة إبراهيم فى الكتاب المقدس يجد نفسه أمام رجل يؤمن بعقيدة بسيطة جدا تضع "الله" فى مركزها ، أما النصرانية فتدور حول محور اسمه "المسيح" ، واليهودية تدور حول محور اسمه "إسرائيل".

وهاجم القرآن اليهود والنصارى الذى نقضوا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على الأنبياء باتباع كل نبى جديد يرسله الله مصدقا لما معهم[206] ، وبيَّن أن **إعراضهم عن دين محمد وتمسكهم بأديانهم المحرفة هو طلب لدين غير دين الله ، وهذا يجعلهم غير مسلمين** ، خلافا لغيرهم من خلق الله فى السماوات والأرض: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: 83]

وفى آية واضحة يخبرنا القرآن أن أهل الكتاب انحرفوا عن الإسلام الذى هو الدين الوحيد الذى يعترف به الله ، وأن اختلافهم لم ينشأ عن سهو وغفلة ، بل عن بغى وعدوان ، وسعى وراء الأغراض الدنيوية الدنيئة: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [آل عمران: 19].

وفى آية شديدة الأهمية يأمر الله عز وجل رسوله نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أن يسأل أهل الكتاب ما إذا كانوا قد أسلموا: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ

---

[206]) قال تعالى في ذلك: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: 81، 82]

أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: 20]. **ولاحظ جيدا حرف (إنْ) فى عبارة (فإنْ أسلموا) ، وهذا الحرف يفيد الشك ، أى أن إسلام أهل الكتاب قد يحدث وقد لا يحدث بعد أن يوجه الرسول كلامه إليهم ، أى أنهم فى الأصل غير مسلمين.**

والقرآن يطلق لقب "مسلمين" على أهل الكتاب فقط حين يتكلم عن أصحاب الدين الصحيح منهم كالحواريين الذين كانوا يتبعون الدين الذى جاء به عيسى عليه السلام قبل تحريفه: { فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 52]. وفى آية أخرى يوصف أنبياء بنى إسرائيل ب"الذين أسلموا" ، وذلك لأن الأنبياء طبعا كانوا على الدين الصحيح الذى لم يصبه تحريف: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} [المائدة: 44]

ونختم هذا الفصل بآية رائعة ترد على الإعلام العلمانى المعاصر الذى يكيل المديح للنصرانية واليهودية، وينظر بإكبار لكل الأديان باستثناء الإسلام الذى توصم تعاليمه بالتخلف والإرهاب: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: 125].

إن من يرفض الإسلام فهو يعشق الحياة فى القاع. اللهم أمتنا على القمة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

10- لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟!

سبق أن رأينا أن القرآن يتضمن نصوصا كثيرة تثبت بشكل قاطع أن أهل الكتاب كفار ، وأن مصيرهم إلى النار. والآن نأتى إلى آيتين يتشبث بهما أدعياء العلم ، ويقولون أنهما يدلان على أن أهل الكتاب الذى أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنون وسيدخلون الجنة. وهاتان الآيتان هما:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 62]

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [المائدة: 69]

يقول الأفاكون أن هاتين الآيتين تؤكدان أن اليهود والنصارى والصابئين لهم الجنة مثل المسلمين. وكان أولى بمن يتظاهرون بالعلم **أن يتساءلوا: أليس هناك تناقض** بين هاتين الآيتين اللتين تَعِدان أهل الكتاب بالثواب وبين عشرات النصوص القرآنية التى تتهمهم بالكفر ، وتتوعدهم بالعقاب؟ هل أخطأ الله؟ هل نسى؟ لقد كان عليهم أن يقوموا بمحاولة للتوفيق بين نصوص القرآن. ومن البديهى أن نرد النصوص القليلة إلى النصوص الكثيرة ، ونرد النصوص الأقل وضوحا إلى النصوص الأكثر وضوحا ، لكن هؤلاء المجرمين يفعلون العكس ، فيهملون النصوص الكثيرة الواضحة ، ويخفونها، وفى المقابل يقدمون للصدارة النصوص القليلة حمالة الأوجه.

وبمزيد من التأمل **سنصطدم بمفاجأة** هى أن كلا من الآيتين السابقتين قد وردت فى سياق هجوم القرآن على أهل الكتاب. وبتحديد أكثر نقول أن **كلا من الآيتين سبقها وأعقبها هجوم عنيف على أهل الكتاب**، ولكن أدعياء العلم ينتزعون الآيتين من سياقهما.

انظر إلى آية البقرة 62 تجد أن **الآيات السابقة لها تضمنت هجوما كاسحا على كفر أهل الكتاب** وعصيانهم ، ونكتفى بذكر ما سبقها مباشرة تجنبا للإطالة:

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: 61].

والآيات التالية للآية 62 استأنفت الهجوم على أهل الكتاب:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 63 – 66]

وإذا جئنا إلى آية المائدة 69 لوجدنا أن **الآية التى سبقتها كانت تهاجم أهل الكتاب ، بل كانت ترميهم بالكفر** ، وقالت صراحة أنهم سيزدادون كفرا على كفر بتكذيبهم للقرآن:

{قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [المائدة: 68].

والآية التى أعقبت الآية 69 من المائدة استأنفت الهجوم على أهل الكتاب ، وفضحت كفرهم الذى بلغ ذروته بجريمة قتل الأنبياء التى أدمونها عبر تاريخهم:

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} [المائدة: 70]

والآن علينا أن نتساءل: **لماذا هاجم القرآن أهل الكتب ، ولماذا وعدهم بالجنة فى نفس السياق الذى انتقدهم فيه؟** وليس أمامنا إلا احتمالات ثلاث: إما أن القرآن يتناقض مع نفسه ، وإما أن القرآن هاجم أهل الكتاب بسبب ذنوب صغيرة لا تحول دون دخولهم الجنة ، وإما أن أهل الكتاب الذين هاجمهم القرآن غير أهل الكتاب الذين وعدهم بالجنة.

وطبعا كل مسلم يرفض القول بتناقض القرآن. والاحتمال الثانى أيضا مرفوض لأن هجوم القرآن على أهل الكتاب لم يكن بسبب ذنوب صغيرة ، فقد تضمنت جرائمهم الكفر وقتل الأنبياء. بقى لدينا الاحتمال الثالث ، وهذا ما نرجحه.

إن مجمل الصورة كالآتى: هجوم شرس من القرآن على أهل الكتاب ، يتخلله طمأنة عابرة وجيزة بأن عملهم الصالح لن يضيع عند الله. ولا معنى لهذا إلا أن من طمأنتهم الآيتين يختلفون عن أولئك الذين

هاجمتهم الآيات السابقة واللاحقة. ولا يحتاج المرء لكثير من التفكير كى يدرك أن **الله تعالى فى خضم هجومه على أهل الكتاب أراد أن يكون دقيقيا فى أحكامه ، فاعترف بأن أهل الكتاب ليسوا جميعا بهذا السوء ، وأن منهم رجالا صالحين** ، يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان ، وهؤلاء لن يضيعهم الله فى الآخرة. وهذا العدل فى الحكم على الخصوم ليس غريبا على القرآن الذى أكد فى مواضع عديدة أن أهل الكتاب ليسوا جميعا من العصاة والمذنبين ، كما فى قوله تعالى[207]: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 75].

إذن أقصى ما يمكن أن يقال حول هاتين الآيتين أنهما تَعِدان فريقا خاصا من أهل الكتاب بالجنة ، أما بقية أهل الكتاب فعليهم غضب من الله وعذاب شديد. ومن التزوير القول بأن الآيتين تمثلان حكما عاما يسرى على جميع أهل الكتاب.

والآن يأتى السؤال: **مَن هؤلاء النفر من أهل الكتاب الذين سيدخلون الجنة؟ هل هم فاعلو الخير كالصلاة والصدقة والكلمة الطيبة ، بحيث يدخل الجنة كل من فعل هذه الصالحات حتى لو كفر بما نزل على محمد؟**

لا ليس هذا هو المقصود لأن **الآيتين وردتا فى سياق الهجوم على أهل الكتاب بسبب كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام وغيره من الأنبياء**[208]. إذن تلك الطائفة من أهل الكتاب التى يعدها الله تعالى بالفوز فى الآخرة لا تشمل أولئك الذين كفروا بنبينا محمد وبآيات الله عموما.

الحقيقة يا إخوانى أن **<u>آية البقرة 62 وآية المائدة 69 تتحدثان عن اليهود والنصارى قبل الإسلام</u>، وتبين أنهم ليسوا سواء ، فإذا كان أكثرهم قد خلا قلبه من الإيمان ، واتسم سلوكه بالفسوق والعصيان، فإن بعضهم قد آمن بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، وهؤلاء لن يضيعهم الله** ، وسيكافئهم يوم

[207]) من الآيات الأخرى التى تستثنى بعض أهل الكتاب من الفسوق قوله تعالى: {وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ <u>إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ</u> فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: 13] ، وكذلك قوله: {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ <u>أَكْثَرُهُمْ</u> لَا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: 100]. وكلمة (أكثرهم) تعنى أنهم ليسوا جميعا بهذا السوء.

[208]) الآية التى سبقت آية 62 من البقرة تخبرنا أن الله تعالى أذل اليهود لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا <u>يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ</u> وَ<u>يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ</u> بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: 61]. والآية التى سبقت الآية 69 من المائدة تخبرنا أن أهل الكتاب **سيزدادون كفرا على كفر بسبب تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم**: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ <u>وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا</u> فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [المائدة: 68].

القيامة على عملهم الصالح. **<u>أما بعد مجيء الإسلام فلا يقبل من أهل الكتاب إلا الإسلام</u>** ، ولا اعتداد بحسن الخلق مع الكفر بما نزل على محمد لأن تكذيب الحق من أسوأ ألوان سوء الخلق: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران: 85]

إذن هناك تفسير سهل جدا لآية البقرة 62 والمائدة 69 لا يتعارض مع نصوص القرآن الكثيرة الأخرى، فكيف يتعامى أدعياء العلم عن هذا الفهم المباشر ، ويتبنون رأيا شاذا يقول أن من كفر بالإسلام من اليهود والنصارى سيدخل الجنة؟

وعلى كل منا أن يسأل نفسه: **هل فى الآيتين ما يفيد بشكل قاطع أن اليهود والنصارى الذين كفروا بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام سيدخلون الجنة؟ الإجابة المؤكدة هى: لا** ، لأن ما يذكر فقط هو الإيمان بالله واليوم الآخر دون تعرض للإيمان بنبوة محمد ، وهذه نقطة فى غاية الأهمية ، إذن **ليس هناك نص واحد فى القرآن يقول بشكل صريح أن اليهودى أو النصرانى الذى يؤمن بدينه فقط ويكفر برسالة نبينا محمد بعد علمه بها سيدخل الجنة.** العكس هو الصحيح تماما ، فقد انتقد القرآن مثلا أولئك اليهود الذين كفروا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام بحجة أن ما يجب عليهم فقط هو الإيمان بما أنزله الله على أنبياء بنى إسرائيل: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [البقرة: 91].

إننا أمام جريمة فكرية ودينية مركبة يرتكبها بعض الدعاة:

أولا: هم يُكونون رأيا فى مسألة شديدة الخطورة استنادا إلى آيتين أو آيات قليلة ، وفى نفس الوقت يتجاهلون عشرات النصوص القرآنية ، وكأنهم لم يسمعوا عنها.

ثانيا: هاتان الآيتان لا تقولان بشكل صريح أن من كفر بالإسلام سيدخل الجنة.

ثالثا: من السهل تأويل الآيتين دون تكلف ، بحيث يفهم منهما أنهما تتحدثان عن اليهود والنصارى قبل مجيء الإسلام.

ونواصل محاولة فهم الآيتين بدرجة أكبر ، فنتساءل: **ما معنى (الذين آمنوا) فى كل منهما؟**

هناك احتمالان:

<u>الاحتمال الأول</u>: (الذين آمنوا) يقصد بها أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. وفى هذه الحالة لا بد أن نتسائل: لماذا قال بعد ذلك: (من آمن بالله واليوم الآخر)؟ كيف يؤمن الذين آمنوا بالفعل؟ والإجابة عن السؤال سهلة ، فالمقصود بعبارة (من آمن) هو من آمن حق الإيمان ، إيمانا بالقلب ، وليس باللسان فقط ، أى استحضر وجود الله ، واستشعر قدرته وحكمته ، وهذا يشبه قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ} [النساء: 136]. ويشبه أيضا قول المرأة لزوجها: (كن رجلا، وتحمل المسئولية) ، فهنا تطلب السيدة من زوجها أن يكون رجلا مع أنه بالفعل ذكر بالغ ، ولكنها تقصد أن يكون رجلا بالمعنى الحقيقى للكلمة، وليس رجلا بالاسم فقط.

<u>الاحتمال الثانى</u>: (الذين آمنوا) يقصد بها الذين آمنوا بالعقائد الصحيحة التى نزلت على أنبياء الله قبل تحريفها. وفى البداية كنت أرفض هذا الاحتمال لظنى أن مصطلح (الذين آمنوا) يستخدم فى القرآن فقط ليشير إلى أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، لكننى لما قمت بمراجعة جميع الآيات القرآنية التى تحتوى على عبارة (الذين آمنوا) اكتشفت وجود آيات كثيرة تصف أتباع الأنبياء السابقين بالذين آمنوا ، ومنها[209]:

- {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا <u>الَّذِينَ آمَنُوا</u> عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: 14].

  هنا نجد أن (الذين آمنوا) تشير إلى الذين آمنوا بعيسى عليه السلام من بنى إسرائيل.

---

[209]) من هذه الآيات أيضا:-

**{قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا <u>الَّذِينَ آمَنُوا</u> وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} [ص: 24]. وهنا يتكلم داود عليه السلام عن الذين آمنوا ، وهو يقصد المؤمنين من بنى إسرائيل فى عهده ، وليس المؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام.

**{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا <u>الَّذِينَ آمَنُوا</u> وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [فصلت: 17، 18]. والآية هنا تتحدث عن نجاة الذين آمنوا بصالح عليه السلام.

**{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ <u>الَّذِينَ آمَنُوا</u> لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 213]. فى هذه الآية يخبرنا القرآن أن الناس كانوا فى الأصل أمة واحدة ذات دين واحد ، فاختلفوا فيما بينهم ، والاختلاف فى الدين يعنى أن بعضهم حرف الدين ، وفسدت عقيدته ، بينما بقى بعضهم على العقيدة الصحيحة ، ولذا بعث الله تعالى الأنبياء للتبشير والإنذار وليحكموا بما معهم من كتب بين الناس فى الأمور التى اختلفوا فيها، فيبينون لهم العقيدة الصافية النقية التى يجب أن يعودوا إليها. وما يهمنا هنا هو أن الله تعالى يستخدم كلمة (الذين آمنوا) للإشارة إلى تلك الطائفة من الأمم السابقة الذين هداهم الله تعالى إلى الحق المتنازع عليه ، بأن أوضحه لهم ، وزادهم اقتناعا به ، وصرفهم عن الآراء الأخرى الباطلة التى مال إليها الفاسدون. إذن هذه الآية تصف أصحاب العقيدة الصحيحة من الأمم السابقة بالذين آمنوا.

**{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56) وَأَمَّا <u>الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا</u> الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 55 - 57]. وكلمة (الذين آمنوا) هنا تشير إلى كل من آمن بالله بما فى ذلك أتباع عيسى عليه السلام.

**{<u>الَّذِينَ آمَنُوا</u> وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: 82، 83]. وهنا يتكلم إبراهيم عليه السلام عن الذين آمنوا بمعنى الذين آمنوا فى عهده ، ولا يقصد بالطبع الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

- {وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} [هود: 29].

  هنا نجد أن (الذين آمنوا) تشير إلى الذين آمنوا بنوح عليه السلام.
- {وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [النمل: 45 – 53].

  هنا نجد أن عبارة (الذين آمنوا) يقصد بها أتباع نبى الله صالح عليه السلام.

وعلى ذلك فعبارة (الذين آمنوا) فى آية البقرة 62 وآية المائدة 69 يمكن أن تشير إلى أهل الكتاب الذين اتبعوا الدين الصحيح قبل مجيء الإسلام. لكن إن كان الأمر كذلك فكيف نفهم **معنى (الذين هادوا) و(النصارى) فى الآيتين؟ قال بعض المفسرين أن المقصود هم اليهود والنصارى الذين اتبعوا اليهودية والنصرانية بعد تحريفهما** ، فهؤلاء كانوا يمثلون الغالبية العظمى من أهل الكتاب وقت نزول القرآن ، ولم يكن هناك تقريبا من بقى على العقيدة الصحيحة. **وهؤلاء يعتبرون من أهل الفترة** ، أى من أولئك الذين اتبعوا عقائد باطلة فى فترة غابت فيها الرسل ، وهؤلاء لا يؤاخذهم الله عز وجل لأن الحقيقة لم تصلهم ، وقد ورد فى أهل الفترة نصوص عديدة منها[210] قوله تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: 19] ، وكذلك قوله: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ.....} [الأنعام: 155 – 157]

نلخص تفسيرنا للآيتين موضع النقاش فى الاحتمالين التاليين:

1- **بخصوص أتباع محمد عليه الصلاة والسلام** ، وكذلك **بخصوص أهل الفترة** الذين اتبعوا الأديان المحرفة كاليهود والنصارى وغيرهم ممن لم تصلهم العقيدة الصحيحة قبل ظهور الإسلام: **من آمن بالله من كل هؤلاء حق الإيمان** وعمل الصالحات فلن يضيره فسوق قومه وعصيانهم ، فالله تعالى يحاسب كل إنسان بعمله، لا بعمل قومه.

---

210) هناك آيات أخرى تفيد نفس الفكرة مثل:
** {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [القصص: 59]
** {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: 15، 16]
**{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [السجدة: 3]

2- بخصوص **أتباع الأنبياء السابقين** الذين آمنوا بالعقائد الصحيحة غير المحرفة ، وكذلك **بخصوص أهل الفترة** الذين اتبعوا الأديان المحرفة كاليهود والنصارى وغيرهم ممن لم تصلهم العقيدة الصحيحة قبل ظهور الإسلام: **من آمن بالله من كل هؤلاء** وعمل الصالحات فلن يضيره فسوق قومه وعصيانهم، فالله تعالى يحاسب كل إنسان بعمله ، لا بعمل قومه.

وكلا التفسيرين مقبول ، وإن كنت أرجح التفسير الثانى لأنه أكثر تناغما مع السياق إذ أنه فى سياق الهجوم اللاذع على أهل الكتاب كان لا بد من استثناء الصالحين منهم ، ولا توجد علاقة كبيرة لهذا بأتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

ولاحظ عزيزى القارىء أن **الآيتين قالتا: (من آمن بالله واليوم الآخر) وليس (من آمن بالله ورسوله).** فلماذا تجنب القرآن كلمة (رسوله)؟ إن كلمة (رسوله) لو استخدمت فى الآية لكان المقصود بها (نبينا محمد عليه الصلاة والسلام). ولذا فحذف كلمة (رسوله) يتفق مع القول بأن الآيتين تشيران إلى أهل الفترة الذين اتبعوا اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان قبل نزول الوحى على محمد عليه الصلاة والسلام.

وهذه الملاحظة الأخيرة ستجعلنا نفهم **لماذا ذَكرت آية أخرى إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر ، وتحاشت استخدام كلمة (ورسوله):**

{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 113 - 115]

إن هذه الآية الأخيرة فى رأينا تشبه بدرجة كبيرة فى مجمل معناها آيتى البقرة 62 والمائدة 69، فهى تحاول أن تبرىء بعض أهل الكتاب ، وتخرجهم من ساحة الحرب التى شنها القرآن على عامة أهل الكتاب الذين أظهروا الكفر والفسوق. وسنجد هنا أيضا أن الآية تتحدث عن أهل الكتاب قبل ظهور الإسلام ، ولذا لم تقل (ورسوله) لأن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن موجودا معهم.

وهكذا تحطمت شبهات الباطل على صخرة المنطق البسيط ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

11- لكل أمة شرعة ومنهاج

سأخصص الآن فصلا كامل لمناقشة آية واحدة فقط. والسبب أن هذه الآية أصابتنى بالدوار منذ خمس وعشرين سنة حين قرأت لكاتب مشهور يستدل بها على أن الله تعالى سمح لكل من اليهود والنصارى بالبقاء على دينهم دون أن يطالبهم باعتناق الإسلام. لقد نظرت إلى الآية فوجدت أن فهم الرجل لها معقول جدا ، لكنه مع ذلك يصطدم مع مبادىء الإسلام التى يعرفها الجميع. احترت بشدة ، لكن سرعان ما نسيت الأمر لأن هذا المفكر كان وقتها الوحيد الذى يفهم الآية بهذا الشكل. ومرت السنوات فهيأ الله تعالى لى الفرصة كى أنكب على هذه الآية ، فكانت النتيجة هذا الفصل. تقول الآية الكريمة:

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: 48]

نزلت هذه الآية على خلفية جريمة زنا ارتكبها بعض اليهود ، فقرروا الذهاب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليحكم بينهم بحكمه الشخصى ، أملا أن يأتى الحكم مخففا مقارنة بحد الرجم الموجود فى التوراة[211]، فنزل القرآن ليخبر الرسول بأن من حقه أن يحكم بين أهل الكتاب إن لجأوا إليه أو يرفض

[211]) القصة كما ذكرها القرآن هي: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة: 41]. وهذه الآية كما يقول ابن كثير نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ زَنَيَا وَكَانُوا قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الأمر برجم من أحصن منهم، فحرفوه وَاصْطَلَحُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الْجَلْدِ مِائَةَ جَلْدَةٍ، والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: تَعَالَوْا حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَيَكُونُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ، وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَتَّبِعُوهُ فِي ذَلِكَ. وروى الشيخان – واللفظ للبخارى - فى سبب نزول الآية عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ اليَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ». فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرُجِمَا"

الحكم بينهم ، ثم بين القرآن بعدها أن الرسول إن اختار أن يحكم بين أهل الكتاب فلا بد أن يكون حكمه طبقا لشريعة القرآن وحدها[212].

ويتخذ البعض من قوله تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) ذريعة للزعم بأن كل الأديان مقبولة، وأن النصارى واليهود لن يُحرموا من الجنة ، فقد قضت سنة الله بأن يكون لكل أمة شريعة ومنهاج يميزانها عن غيرها، والفيصل هو السبق فى مضمار الخير (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ). فافعل الخير يحبك الله، وتفز فى الآخرة مهما كانت شريعتك. هذا كلامهم. والحقيقة أن نص الآية يستحيل أن يُفهم بهذه الطريقة الغثة ، وذلك للأدلة الكثيرة التى ذكرناها فى الفصول السابقة ، إضافة إلى براهين مستمدة من الآية نفسها. وإليكم هذه البراهين:

<u>البرهان الأول:</u>

تخبرنا الآية أن **القرآن مهيمن على الكتب السابقة** (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) ، والمهيمن هو الرقيب والشاهد والقائم على الشىء ، أى أن القرآن بالنسبة لما سبقه من كتب يشبه الأستاذ الذى يُقَيم التلميذ ، ويصحح أخطاءه ، ويرشده إلى الصواب. القرآن هو المرجع الذى يجب العودة إليه لتقييم محتويات الكتب السماوية السابقة. ومن السخف القول بأن الكتاب المهين يتساوى مع الكتب الخاضعة له.

<u>البرهان الثانى:</u>

لا تترك الآية للرسول والمسلمين من خيار سوى اتباع أحكام القرآن وحده فى الفصل بين أهل الكتاب: {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَق} [المائدة: 48]. وقد أكدت الآية التالية نفس المعنى بقوة أكبر: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [المائدة: 49]. ولاحظ فى الآية الأخيرة أن الله يقول: (ما أنزل الله إليك) وليس (ما أنزل الله) ، وهذا يعنى أن الله يقصد القرآن بالتحديد ، وهذا يؤكد أنه بفرض أن الرسول يعتقد أن التوراة

[212]) نحن لا نرى أن قوله: {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [المائدة: 48] قد نسخ آية: {فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } [المائدة: 42]. لا يوجد نسخ ، ومن السهل القول بأن الآية الأولى (آية 42) خيرت الرسول ، فإن أحب أن يحكم بين الكتاب فله ذلك ، وإن كره فله ما شاء ، لكنه إن حكم بينهم فيجب أن يكون حكمه عادلا. وبعد ذلك جاءت الآية الثانية (آية 48) لتحدد للرسول أن القسط الذى ذكرته الآية الأولى هو قوانين القرآن. ومن الممكن أيضا أن نقول أن الآية الأولى أمرت بالقسط بشكل عام ، وهذا يشمل كثيرا من الأمور التفصيلية التى لم يرد بشأنها نص فى القرآن كالمعاملات اليومية بين الناس. أما الآية الثانية فأمرت بتطبيق حكم القرآن فيما ورد فيه نص كحد الزنا والسرقة والقتل.

والإنجيل من جنس ما أنزل الله ، إلا أن عليه أن يحكم بما نزل فى القرآن فقط. ونفس المعنى نفهمه من عبارة (عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) فى آية المائدة 48 ، فالقرآن يقول (جاءك) وليس (جاء). ولو كان الله يعتبر كل الأديان سواء فلماذا هذا الإصرار على أن يكون الحكم بالقرآن وحده؟ لماذا لا يطلب من الرسول أن يقدم برهانا عمليا على تساوى الأديان بأن يحكم بين اليهود بالتوراة ، ويحكم بين النصارى بالإنجيل؟ الحقيقة أنه لا تفسير لإلحاح الله على أن يحكم نبيه بين أهل الكتاب بالقرآن فقط إلا أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذى يتضمن العدالة المطلقة ، وما عداه من الكتب يعتريها النقص الناشىء عن التحريف والافتقار لصفة العالمية. بالله عليكم هل يفهم من هذا أن الإسلام مثل غيره من الأديان؟

ملحوظة: لا يوجد تناقض بين أمر الله لرسوله أن يحكم بين أهل الكتاب بشريعة القرآن وبين حكم الرسول عليه السلام على الزانيين اليهوديين بالرجم الموجود فى التوراة ، وذلك لسببين: أولا أن الرسول عليه السلام كان يعلم أن حد الزنا فى التوراة مثل حد الزنا فى الإسلام ، وهو الرجم ، ولذلك سأل اليهود عن حد الزنا فى كتابهم حتى إذا حكم عليهم بالرجم لم يغضبوا ، ولم يتهموه بالقسوة والجور، فيتجنب حدوث توتر فى علاقة المسلمين باليهود. ثانيا من المحتمل أن الله تعالى لما خير الرسول بأن يحكم بين أهل الكتاب بالقسط أو يعرض عنهم فهم الرسول من ذلك أن من الممكن له أن يحكم برأيه لاعتقاده أن قوانين القرآن غير ملزمة لأهل الكتاب ، ولذلك سأل الرسول عن حكم التوراة وطبقه ، فنزل القرآن ليوضح له بعدها أن من الواجب عليه أن يحكم بشريعة القرآن فقط ، فشريعة القرآن هى القسط الذى أمر الرسول أن يحكم به فى قوله: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة: 42]. لكن هناك مواقف تختلف فيها شريعة اليهودية عن شريعة الإسلام، فعلى سبيل المثال يعاقب الإسلام السارق بقطع اليد ، لكن اليهودية لها عقوبة مختلفة: (إِذَا سَرَقَ إِنْسَانٌ ثَوْرًا أَوْ شَاةً فَذَبَحَهُ أَوْ بَاعَهُ، يُعَوِّضُ عَنِ الثَّوْرِ بِخَمْسَةِ ثِيرَانٍ، وَعَنِ الشَّاةِ بِأَرْبَعَةٍ مِنَ الْغَنَمِ) سفر الخروج إصحاح 22. ولهذا جاءت الآية 48 من سورة المائدة لتطلب من الرسول عليه السلام الانحياز لشريعة القرآن فى حالة الاختلاف لأنه هو المرجع والكتاب المهيمن على ما سبقه.

البرهان الثالث:

اختتمت الآية بقوله تعالى: **(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ). ولا أجد معنى لهذه الآية سوى أنه فى يوم القيامة سيقف الناس جميعا أمام الله ، حيث تُعرف الحقيقة ، ويفرق**

الله تعالى بين الحق والباطل ، فيقول لهذا: عقيدتك باطلة، ويقول لذاك: عقيدتك صحيحة ، ويقول لثالث: عقيدتك نصفها صحيح ونصفها باطل. لقد كان اليهود والنصارى والمسلمون والبوذيون والهندوس لا يكفون فى الدنيا عن الجدال والصراع، كل يريد أن يثبت أن دينه هو الحق، لكن لم تكن هناك وسيلة قاطعة تكشف أيهم على الحق وأيهم على الباطل، ففى عالم الفكر يمكن معارضة الفكرة القوية بدليل واه أو فكرة غير منطقية ، فعالم الفكر تحكمه الديمقراطية ، حيث يمكن لفكرة ما أن تسود ليس لأنها فى ذاتها قوية ومنطقية ، ولكن لأن من يصدقونها كثيرون. ولكى تُمَكن لفكرتك الضعيفة الخاطئة فى الأرض ، فعليك أن تتشبث بها ، وتدافع عنها ، وتستخدم الصوت العالى والإعلام الفاسد ، وتشترى أصحاب النفوذ ، وتجند الأتباع المستعدين عن الدفاع عن أى شىء فى سبيل المال. إن فعلت هذا فمن المحتمل جدا أن تنتشر فكرتك حتى لو كنت تعتقد أن البقرة هى الله! حاشا لله. ومن خلال مناقاشاتى مع أهل الأديان الأخرى ترسخ لدى حنين قوى ليوم القيامة لأنه سيكون اليوم الذى أثبت لهم فيه أن الإسلام هو الحق ، فالدنيا هى دار اللامعقول ، ويكفى أن تقابل مثقفا فيلسوفا يدافع بحماس عن دين كالهندوسية تضرب الخرافات والتناقضات فى صلب عقيدته.

وتأمل أيضا كلمة (جميعا) فى قوله: (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا): إن هذه الكلمة لها دلالة مهمة ؛ فقد كان من الممكن للقرآن أن يقول: (إلى الله مرجعكم فينبئكم) ، ولكنه أضاف كلمة (جميعا) التى تفيد التأكيد على أن كل الناس سترجع إلى الله يوم القيامة دون استثناء ، وهذا نفى لقدرة الإنسان على الهرب والفرار ، وهذا تهديد ضمنى ، لا يُتصور له معنى إلا بالقول أن بعض الأديان حق وبعضها باطل ، فلو كانت كل الأديان صحيحة ومقبولة من الله ، فما جدوى التهديد؟

البرهان الرابع:

سيفاجأ القارى حين نثبت له الآن بإذن الله أن عبارة (شرعة ومنهاجا) تدل على أن دين الله واحد، خلافا لما يروج له الأفاكون. ولكى نثبت هذا ، فعلينا أن نفهم أولا ما معنى كلمة (شرعة) ، وما معنى كلمة (منهاج):

الشِرعة أو الشريعة هى موضع على شاطىء النهر ينحدر منه الناس والدواب كى يصلوا إلى الماء. وفى لسان العرب أن الشِّرْعةُ (وكذلك الشَّريعةَ ومَشْرَعةُ الْمَاءِ) هِيَ مَوْرِدُ الشاربةِ الَّتِي يَشْرَعُها النَّاسُ ، فَيَشْرَبُونَ مِنْهَا ويَسْتَقُونَ، وَرُبَّمَا شَرَّعوها دوابَّهم حَتَّى تَشْرَعها وتشرَب مِنْهَا. وشرعت الدواب فى الماء أى

دخلت فيه. وشَرَعَ إبله وشَرَّعها: أَوْرَدَها شريعةَ الْمَاءِ فَشَرِبَتْ. وفى المثل: "أَهْوَنُ السَّقْيِ التَّشْرِيعُ" ، وَهُوَ أَن يُورِدَ صاحب الإبلِ إبله شَرِيعَةً لَا تَحْتَاجُ مَعَ ظُهُورِ مَائِهَا إِلى نَزْع بالعَلَق مِنَ الْبِئْرِ. **وفعل شرع يعنى فى الأصل أشرف وأطل**[213].

لقد كنا فى طفولتنا نعيش فى القرية، فكان الفلاحون يختارون أماكن معينة على طول النهر ، ويُعدونها بطريقة تساعدهم على النزول للماء. وكانت هذه المواضع تتسم بالانحدار التدريجى، إذ توضع الأحجار على الشاطى بطريقة تشبه السلم ، فيطأ المرء رجله على حجر تلو حجر ، إلى أن يصل إلى الماء فى أمان ، فيغتسل منه ، أو يتوضأ ، أو تغسل منه النساء الأوانى والملابس ، أو تمد البهائم فمها لتشرب عندها. وهذه المواضع المنحدرة المختارة هى الشِرعة والشريعة.

وفى إحدى الآيات يقول المولى عز وجل: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: 18]. وكلمة (الأمر) لها معان مختلفة ، لكنها فى هذه الآية لا يمكن فهمها إلا بطريقة وحيدة على أنها مصطلح بمعنى دين الله الواحد. وقد ورد مصطلح (الأمر) بنفس المعنى فى آية أخرى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الجاثية: 16، 17] ، وربما أيضا قوله: {كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} [الشورى: 52].

إذن الشِرعة أو الشريعة هى المنفذ أو المدخل الذى تُطل منه كل أمة وتُشرف على النهر الخالد، النهر الواحد، أى دين الله الحق الذى لا يختلف عبر العصور. الشرعة كلمة تشير إلى **الوسيلة أو المدخل** الذى يتم من خلاله الوصول إلى المبادىء التى تتفق عليها الأديان السماوية مثل وجود الله ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته واتصافه بكل صفات الكمال ، وتدبيره لأمور البشر دون شركاء أو وسطاء ، وحبه للخير ، وكرهه للشر ، وخلقه للجنة والنار ، وإرساله للرسل ، ووجوب الإيمان بهم جميعا. والشرعة – أو الوسيلة التى تصل بها كل أمة إلى الدين الواحد– هى الأنبياء والكتب السماوية. والأنبياء

---

213) فى لسان العرب: يقال: شَرَعَ المَنْزِلُ إذا كَانَ عَلَى طَرِيقٍ نَافِذٍ. ودُورٌ شارِعةٌ إِذا كَانَتْ أَبوابها شارِعةً فِي الطَّرِيقِ. وَفِي الْحَدِيثِ: "كَانَتِ الأَبوابُ شارِعةً إِلى المَسْجِدِ" أَي مَفْتُوحةً إِليه. ويُقَالُ: شَرَعْتُ البابَ إِلى الطَّرِيقِ أَي أَنْفَذْتُه إِليه. وشَرَعَ البابُ والدارُ شُرُوعاً أَفْضَى إِلى الطريقِ، وأَشْرَعَه إِليه. والشَّوارِعُ مِنَ النُّجُومِ: الدَّانِيةُ مِنَ المَغِيبِ. وكلُّ دانٍ مِنْ شَيْءٍ، فَهُوَ شارِعٌ. وَقَدْ شَرَعَ لَهُ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الدارُ الشارِعةُ الَّتِي قَدْ دَنَتْ مِنَ الطَّرِيقِ وقَرُبَتْ مِنَ الناسِ، **وَهَذَا كُلُّهُ رَاجِعٌ إلى شَيْءٍ وَاحِدٍ، إلى القُرْب مِنَ الشَّيْءِ والإِشْراف عَلَيْهِ**.

يختلفون فيما بينهم ، فمنهم من تلقى الوحى بواسطة جبريل ، ومنهم من كلم الله مثل موسى وإبراهيم ، ومنهم من صعد إلى السماء مثل محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام. كما تتفاوت الأديان فى الكتب السماوية التى تنقل حقائق الدين ، فلكل دين كتابه الذى يختلف فى أسلوبه وحجمه وحظه من الذيوع والبقاء. ورغم الاختلاف فى الوسيلة التى يعرف بها الناس دين الله إلا أن دين الله يبقى واحدا ، وكأننا أمام خلية واحدة يمكن رؤيتها بأكثر من مجهر.

إذن كل الشرائع من الله ، وكلها توصل إلى دين الله الواحد. **الله تعالى هو صاحب المَنفذ أو الشرعة، فهل الله هو الذى أوحى للنصارى أن عيسى إله وأوحى لليهود أنهم شعب الله المختار؟** إن الشرعة كما قلنا تتمثل فى النبى وكتابه السماوى والوحى المنزل إليه ، فهل أوحى الله تعالى إلى عيسى أو أنزل عليه فى إنجيله أن الله ثالث ثلاثة؟ وهل موسى وتوراته الأصلية هما المسئولان عن عقيدة اليهود الحالية؟ طبعا لا. إذن كون الشرائع من الله يجبرنا على ألا نفهم من الآية السابقة أنها تثبت قبول الله للنصرانية واليهودية بشكلهما الحالى لأن الله يستحيل أن ينزل لعباده وحيا يقودهم لنهر ملوث.

وعلينا أن نلاحظ أيضا أن الشرعة أصغر حجما بمقدار آلاف المرات من النهر الذى تُوصل إليه ، فالنهر يبلغ طوله آلاف الأميال ، ويبلغ عرضه مئات الأمتار ، وكذلك عمقه. أما الشرعة فلا يتجاوز طولها مترا أو مترين ، وهذا يعنى أن ما بين الأمم من اتفاق أكبر بكثير جدا مما بينها من تمايز ناشىء عن اختلاف شرعة كل منها ، بيد أن الواقع غير ذلك ، فالمشاهد أن بين الأديان الحالية اختلافات خطيرة فى صلب العقيدة ، وهذا يجعل من العبث التوحيد بين الأديان الحالية لمجرد أن كلا منها يؤمن ب"المُطْلَق ، أو بإله عظيم وراء الكون. **إن مجرد الإيمان بقوة غيبية عليا وراء الكون لا يكفى ، فمن الممكن للإنسان أن يعتقد أن إله الكون هو الله إله الخير ، ومن الممكن لإنسان آخر أن يعتقد أن إله الكون هو الشيطان إله الشر والدمار. كلاهما يؤمن بالمطلق ، كلاهما يعبد إله ، كلاهما يقدم فروض الطاعة لربه ، لكن شتان بين هذا وذاك.** وعلى ذلك فكلمة (شرعة) لا تتعلق بالأديان الحالية المحرفة ، بل تتعلق بالأديان التى أنزلها الله قبل أن تحرف ، فهذه الأديان اختلفت فى النبى والوحى والكتاب السماوى ، لكنها اتفقت فى النهاية فى محتوى الدين ، ومن الصعب جدا القول بأن محتوى الإسلام هو نفس محتوى اليهودية والمسيحية بوضعهما الحالى ، فالمسيحية تؤمن أن عيسى هو الله وابن الله ، بينما الإسلام الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام يؤكد أن الله لم يلد ولم يولد. ومن

المستحيل القول بأن اليهودية الحالية التى تكفر بأى نبى غير إسرائيلى ، وتكفر بالآخرة أو تهملها ، وتعتبر اليهود شعب الله المختار، من المستحيل القول بأنها والإسلام دين واحد. وكذلك من المستحيل القول بأن الإسلام والهندوسية دين واحد لأن الإسلام يدعو إلى إله متعال فى السماء لا تدركه الأبصار ، بينما تؤمن الهندوسية أن الله والكون شيء واحد ، وهو ما يعرف بوحدة الوجود.

وعلى ذلك **فمصطلح "شرعة" يهدم تماما الزعم القائل بأن الأديان سواء** ، فكما رأينا الشرعة مجرد منفذ تطل (أو تُشرِف) من خلاله كل أمة على الدين الواحد الذى أنزله الله. والأنبياء والكتب السماوية مجرد أبواب توصل إلى نفس البيت ، لكن اليهودية الحالية توصل أتباعها إلى نهر يختلف عن النهر الذى توصل إليه المسيحية الحالية أتباعها ، وكلا النهرين يختلف عن نهر الله الحقيقى الذى يوصل إليه دين محمد الخاتم. إن **كلمة (شرعة) تشير إلى وحدة دين الله خلافا لما يروج له البعض من تعدد الأديان.**

ملحوظة: درج العلماء على استخدام مصطلح (الشريعة) ليشير إلى الأمور الفقهية كالزواج والطلاق والصلاة والزكاة وغيرها. لكن المفاجأة أن كلمة (شرع) تستخدم فى القرآن لتشير إلى حقائق الدين العقائدية الكبرى. وإذا بحثنا عن الآيات التى ورد فيها فعل (شرع) ومشتقاته لعثرنا على ثلاث آيات ، ولوجدنا أنها جميعا لا علاقة لها بالأمور الفقهية:

انظر مثلا إلى قوله تعالى:

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ} [الشورى: 13، 14].

فى هذه الآية تجد أن كلمة (شرع) تستخدم للإشارة إلى تلك الأمور المشتركة بين الوحى الذى نزل على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام. وما يتفق فيه هؤلاء ليس القوانين والأمور الفقهية ، فعلى الأقل تختلف قوانين التوراة التى نزلت على موسى عن قوانين القرآن التى نزلت على محمد. إن ما يتفق فيه كل هؤلاء هى الحقائق والمبادىء العقائدية الكبرى. كما تلاحظ الحضور الطاغى

لفكرة وحدة الدين (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ). وتجد هجوما على الناس بسبب تفرقهم فى الدين بغيا وعدوانا (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ). كما تجد إنكارا لامتلاك الخلف لدلائل على صحة الدين الذى ورثوه من السلف (وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ).

وانظر كذلك إلى قوله تعالى:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى <u>شَرِيعَةٍ</u> مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [الجاثية: 16 – 18]

وفى هذه الآية لا نجد أثرا للقوانين والأمور الفقهية ، بل نجد كلاما عاما عن حقائق الدين الكبرى (الكتاب–الحكم– النبوة– بينات من الأمر). كما نجد كلاما عن اختلاف بنى إسرائيل فى الدين (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) ، وتوعد الله بمجىء يوم يحاسبهم فيه على تمزيقهم للدين الواحد (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

وانظر إلى قوله تعالى[214]:

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ <u>شَرَعُوا</u> لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الشورى: 21].

---

[214]) هذه الآية لا تتكلم عن أمور فقهية وجوانب فرعية من الدين. ويمكنك أن تقرأ الآيات التى سبقت آية 21 لتتأكد أن الاهتمام كان منصبا على العقيدة: {<u>وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ</u> وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى <u>لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ</u> (14) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15) <u>وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ</u> وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (16) اللَّهُ الَّذِي <u>أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ</u> (18) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى: 14 - 20]
والآيات التى أعقبت آية 21 هى الأخرى لا تتكلم عن تفاصيل فقهية أو قوانين تحدد للناس كيف تسير حياتهم ، بل تتكلم عن الدين والعقيدة بشكل عام:{تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23) أَمْ <u>يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا</u> فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28) <u>وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ</u> (29) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30) <u>وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ</u> (31) } [الشورى: 22 - 31]

وهذه الآية الأخيرة لا تتكلم عن أمور فقهية وجوانب فرعية من الدين بل تتكلم عن الإيمان والكفر والدين بشكل عام. وستجد أن سورة الشورى من أولها تضع قضية الإيمان والكفر فى قلبها ، وهذا شىء متوقع من سورة نزلت بمكة حيث كانت الدعوة منصبة أساسا على الإيمان والعقيدة ، وليس على تنظيم حياة الناس اليومية.

وعلى ذلك ففعل شرع فى القرآن يختلف عن الاستخدام الشائع له فى الفكر الإسلامى قديما وحديثا. ولا بأس من الاستمرار على هذا الخطأ الشائع ، لكن بشرط أن نكون على وعى أن مراد القرآن من المصطلح يختلف عن فهمنا التقليدى له.

إذن يفهم من كلمة (شرعة) أن دين الله عز وجل الواحد يشبه النهر الضرورى للحياة. الله تعالى واحد، ولكن كل أمة تصل إلى الله وتنهل من فيضه من موضع يختلف عن الآخرين ، فكل أمة لها نبى خاص ووحى خاص وكتاب سماوى خاص ، إلا أن النهر الذى يرتوى منه الجميع واحد. الشرعة هى الوسيلة التى يصل من خلالها الناس إلى دين الله الواحد. وعلى ذلك فكلمة (شرعة) تفيد أن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام حين يؤمر بالحكم بين أهل الكتاب بما نزل فى القرآن فليس هذا غريبا لأن الإسلام يتساوى من حيث المبدأ مع الأديان السابقة فى نهله من تيار الدين الواحد المتدفق عبر التاريخ.

هذا عن الشرعة. **أما المِنهاج أو المَنْهج فلا خلاف بين أهل اللغة على أنه الطريق الواضح البين**[215]. يقال: طريقٌ نَهْجٌ أو مَنْهَج: بَيِّنٌ واضِحٌ. ومَنْهَجُ الطريقِ: وضَحُه. وأَنهَجَ الطريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ. وَفِي حَدِيثِ الْعَبَّاسِ: لَمْ يَمُتْ رسولُ الله، صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى تَرَكَكُم عَلَى طريقٍ ناهِجةٍ أَي واضحةٍ بَيِّنَةٍ. إذن كلمة (المنهاج) تحمل معنى الوضوح ، وفى رأينا أن تلك الكلمة تشير إلى أن الله تعالى لم يترك الأديان السماوية غامضة وذات تعاليم عامة غير محددة. "المنهاج" يشير إلى التفاصيل والجزئيات، أى تلك التعاليم التى تبين لأتباع كل دين بالتحديد كيف يعبدون الله، وكيف يتعاملون مع بعضهم البعض ، ومع غيرهم من الأمم. على سبيل المثال المنهاج يتضمن فرض الصلاة ، وشكلها، وعدد ركعاتها ،

---

[215]) انظر لسان العرب والصحاح للجوهرى وغيرهما من المعاجم. فى رأينا أن الأصل المادى للمنهاج جاء من قولهم: نَهَجَ الثوب وأَنهج ، بمعنى بَلِيَ ولم يتشقق. وأَنْهَجْتُ الثوبَ، فَهُوَ مُنْهَجٌ أَي أَخْلَقْتُه (أو كما نقول بالعامية: "داب الثوب"). ولماذا سمى الطريق الواضح منهاجا؟ إن الطريق يصبح واضحا إن كان الناس يسلكونه بكثرة، ففى الماضى لم تكن الطرق ترصف وتعبد كما الحال اليوم، ولكن كان الطريق يصبح ممهدا إن أكثر الناس من المشى عليه، فالطريق الذى يسير فيه الناس ليلا ونهارا يصبح ممهدا معبدا، أما الطريق الذى يندر مرور الناس منه فيكون أكثر وعورة. ومن هنا شبه مثل هذا الطريق الذى يتردد عليه الناس كثيرا بالثوب الذى بلى من كثرة الاستعمال. ملحوظة: كلمة (نهج) تشير أيضا إلى صعوبة التنفس. يقال: فلانٌ يَنْهَجُ فِي النفَسِ. والنَّهِيجُ: الرَّبْوُ، وتواتُرُ النَّفَسِ مِنْ شدَّةِ الحركةِ. وربما كان هذا تشبيها للإنسان الذى تعب من الحركة والجرى بالثوب الذى بلى ، وفى لسان العرب: نَهِجَ الثوبُ والجسمُ إذا بَلِيَ.

والكلمات التى تتلى فيها ، ووقتها. كما يتضمن المنهاج بيان الصدقات التى تعطى من الفقراء للأغنياء ، وقدرها ، ونوعها ، ومن يستحقها. ويشمل المنهاج بيان الصيام ووقته ، وعدد أيامه ، ووجوبه ، وكذلك أحكام الزواج ، والطلاق ، والطهارة ، والذبائح ، والحج.

وكلمة (منهاجا) تدل على أنه لا يمكن اعتبار (الشرعة) فى الآية السابقة وصفا (لا وصفة) ، أى لا يمكن اعتبار أن الله تعالى يصف فقط الواقع ، ويخبرنا أن كل أمة توصلت إلى وجود الإله بطريقتها الخاصة حتى لو كانت من خلال كتب مقدسة محرفة (والتى تعتبر بمعنى ما من صنع الله باعتباره صانع كل شيء فى الوجود ، بما فى ذلك الشر نفسه). كيف؟ الدليل على ذلك هو كلمة (منهاجا) ، فكما أن المنهاج جاء من الله بالمعنى الحقيقى (لأن الله أراد الوضوح فى الدين لعباده) ، فكذلك الشرعة جاءت من الله بالمعنى الحقيقى ، وليس لمجرد أنه تعالى سمح لها بالوجود[216].

__البرهان السادس:__

أصبح من الممكن الآن أن نفهم لماذا قال القرآن: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا). **إن هذا القول لم يرد كدليل على أن الإسلام مجرد دين مثل غيره من الأديان التى من حق كل منها أن يكون له شريعته الخاصة ومنهاجه المميز ، ولكن السبب فى ذكر هذه العبارة أن الله تعالى يعلم أن أهل الكتاب (وربما بعض المنافقين) سيقولون حتما: لماذا لا يحكم الرسول بيننا بالتوراة والإنجيل رغم اعتراف الآيات السابقة بأن فيهما هدى ونور (المائدة 44–47)؟ ولماذا أُرسل محمد من الأصل بشريعة جديدة مع أن التوراة والإنجيل كافيان للحكم بين الناس؟** ولهؤلاء أراد الله تعالى أن يقول: ما المشكلة فى أن يصر النبى علَى أن يحكم بالقرآن؟ إن محمدا يشبه غيره من الأنبياء الذين مثلوا منفذا ومدخلا يصل من خلاله الناس إلى دين الله الواحد. وهل هناك من يقول من اليهود والنصارى بأن وحى الله أتى مرة واحدة فقط إلى الناس من السماء؟ طبعا لا. وعلى ذلك **فإشادة القرآن بالتوراة والإنجيل وما فيهما من قوانين لا يعنى أن يتخلى الرسول عن قرآنه وأحكامه لأن القرآن من حيث المبدأ ليس أقل مما سبقه من كتب.** هذا هو سبب استخدام كلمة (شرعة). وبعد ذلك تأتى كلمة (منهاجا) لتبين أن لكل دين تفاصيله وقوانينه الخاصة التى تبين للناس بوضوح كيف يعبدون الله ، وكيف يتعاملون فيما بينهم. **وهذا يفسر إصرار**

[216]) يعتبر الله عز وجل الفاعل لكل شيء فى الوجود بشكل غير مباشر لأن لو أراد ألا يقع شيء لما وقع. مثلا يمكن أن يطلق عليك مجرم رصاصة تصيبك فى قدمك ، وهنا يكون من أصاب جسدك هو المجرم ، لكن الله تعالى هو الفاعل بشكل غير مباشر لأنه لو أراد لمنع المجرم من أن يطلق الرصاص ، أو لمنع الرصاص من أن ينطلق ، أو لمنع جسدك من أن يتأثر بالرصاص. ولذا فكل شيء فى الكون ينسب فى النهاية إلى الله عز وجل.

الله على أن يحكم رسوله بين أهل الكتاب بالقرآن ، فسنة الله فى خلقه قضت بألا يكون هناك منظومة واحدة من القوانين تسرى على كل الناس فى كل الأزمان والأماكن، فما وجه الغرابة فى أن يأتى منهاج جديد للبشرية يختلف عما سبقه من المناهج ، وذلك بهدف تخفيف الأعباء ، والتماشى مع مستجدات العصر إلى قيام الساعة؟

باختصار قوله: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) يعنى: (**احكم بينهم يا محمد بالقرآن ، ولا تلتفت لكلامهم وأهوائهم ، فما وجه الغرابة فى أن يكون لك شرعة ومنهاج يختلفان عما لدى أهل الكتاب؟ إن هذه هى سنة الله التى قضت بتغير شكل الوحى كلما تغيرت الظروف.**)

والحقيقة أن قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) يعبر عن معنى مشابه ورد فى سوة الحج حيث كان الكفار يجادلون الرسول بسبب اختلاف شريعته عما سبقها من شرائع ، فقدم القرآن هناك حجة مشابهة هى أن لكل أمة منسكا خاصا بها ، أى منظومة قوانين خاصة بها: {لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ} [الحج: 67].

<u>البرهان السابع:</u>

يجب أن نفهم القرآن ككتلة واحدة. إن قوله (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) لا يعنى أبدا أن الله تعالى ترك لليهود والنصارى حرية البقاء على دينهم وكتابهم ، والدليل على هذا أن **القرآن يذكر بوضوح شديد فى مواضع أخرى أن محمد عليه الصلاة والسلام رسول لكل الناس بلا استثناء** ، وهذا يشمل اليهود والنصارى كما فى قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا <u>كَافَّةً</u> لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا } [سبأ: 28] ، وقوله: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ <u>جَمِيعًا</u> } [الأعراف: 158]. **ولاحظ كلمة (كافة) وكلمة (جميعا)** فى الآيتين السابقتين اللتين تنفيان استثناء أى إنسان من الإلزام باتباع محمد صلى الله عليه وسلم. ومن لا يعجبه ما سبق فليقرأ الآية التالى التى تنهى النقاش تماما لكونها تأمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام:

{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) <u>الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ</u> يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 156، 157]

البرهان الثامن:

إذا جئنا لقوله تعالى: **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) فسنجد أنه لا يعنى بالضرورة أن الله تعالى ترك الأمة الواحدة تختلف لأنه يحب التنوع والاختلاف كما يفعل الغربيون والعلمانيون هذه الأيام ،** وإلا لكنا ملزمين بفهم قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [يونس: 99] على أنه يعنى أن الله تعالى يحب الكفر. وعلى ذلك فمن حقنا أن نفهم قوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) كما يلى: **[رغم أن الله تعالى يحب أن يكون الناس جميعا أمة واحدة فى الدين إلا أنه عز وجل لم يفعل ذلك ، والسبب هو أنه أراد أن يختبرنا فيما آتانا** (وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)].

وبشكل عام ، فالله تعالى كثيرا ما يترك الشر ليكبر ويتمدد فى الدنيا رغم قدرته على التدخل لمنعه ، وذلك لأن الله يريد أن يختبر الناس ليرى أيهم يساير الباطل وأيهم يقاومه: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} [محمد: 4]. كما أن الله تعالى أحيانا يغدق من نعمه على أهل الباطل كى يزدادوا غرورا ، فيصبحوا أهلا للعذاب: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: 55، 56]. وقال: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ} [مريم: 75]. وما ازدهار الصين الشيوعية والهند الهندوسية وأمريكا المسيحية إلا لهذا السبب. وبالمثل امتنع الله تعالى عن الحفاظ على دينه الواحد من التحريف والتفرق، وذلك كى يبتلى الناس فيما آتاهم ، ومن الخطأ استنتاج أن الآية تفيد حتما أن كل الأديان على حق.

البرهان التاسع:

إذا تأملنا قوله تعالى: **(وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) لوجدنا أنه يقدم مزيدا من أسباب الرفض لفكرة تساوى الأديان عند الله.** وعلينا أولا أن نسأل: ما معنى هذه العبارة؟

الرأى المباشر هو أن الله تعالى جعل لكل أمة منهاجا دينيا يختلف عن مناهج الأمم الأخرى كى يبتلى كل أمة فى منهاجها ، فيرى هل يلتزمون بأحكام دينهم أم يتخلوا عنها. على سبيل المثال قرر المولى

عز وجل أن تكون شريعة بنى إسرائيل متشددة مقارنة بغيرها[217] وذلك على سبيل العقاب لشعب متمرد متمسك بالدنيا. ومثل هذا الشعب يستحق أن يكون ابتلاءه صعبا ، تماما مثل مدرس أراد أن ينكل بطلبة فصل مشاغب فأتى لهم باختبار شديد الصعوبة حتى يفضح إهمالهم. ولقد غير الله تعالى القوانين التى فرضها على الأمم المختلفة طبقا للزمان والمكان، فما يناسب أمة لم يكن يناسب بالضرورة غيرها من الأمم بسبب تباعد المسافات ، وصعوبة المواصلات، وانغلاق أغلب المجتمعات على أنفسها. لكن لما تقدمت البشرية تلاشت كثير من الفواصل الثقافية والاجتماعية بين الشعوب ، وأصبح من الممكن اختتام الرسالات السماوية بدين عالمى واحد يلائم الجميع. لقد كان من الظلم أن يضع الله تعالى قوما فى اختبار غير ملائم لهم ، فسيكون هذا كطلبة كلية الزراعة الذين يفاجأون بأن ورقة الامتحان تحتوى على سؤال عن كيفية بناء ناطحات السحاب! إذن جعل الله تعالى لكل أمة شريعة خاصة بها ، وكأنه صنع لها ثوبا مناسبا لجسدها لا يصلح لغيرها ، لأن الشريعة ابتلاء ، والابتلاء لا بد أن يكون عادلا.

ومع ذلك فنحن نرى أن هناك معانى أخرى أكثر أهمية لعبارة (ولكن ليبلوكم في ما آتاكم):

فى رأينا أن قوله: (ولكن ليبلوكم في ما آتاكم) يمكن أن يكون معناه أن الله تعالى تعمد ترك الناس يتفرقون إلى أديان مختلفة لأنه أراد أن يكون الدين اختبارا للناس ، فمنحهم حرية التصرف فى أديانهم وكتبهم ، لكنهم مع الأسف أخفقوا ، وأدخلوا فى الدين ما ليس منه ، وحرفوا الكتب السماوية من أجل الأهواء. لقد **كان بمقدور الله تعالى أن يحافظ على الدين الواحد ، ولكنه لم يفعل ذلك كى ينشأ صراع بين الحق والباطل ، وهذا هو الهدف من الدنيا التى ما خلقت إلا لاختبار حقائق النفوس وكشف خبايا الأرواح.**

وهناك معنى آخر لعبارة (ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) وهو أنه إذا كان الله تعالى قد أراد أن يبتلى أتباع الدين الواحد الذى نزل من السماء ليرى هل يحافظون عليه أم يحرفونه ، فإنه عز وجل **أردا أيضا أن يبتلى أتباع الديانات التى تفرقت ونشأت من الدين الواحد ليرى هل يعودون مرة أخرى إلى الدين الحق الذى تركه أجدادهم أم يفضلون البقاء على ما ورثوه من باطل.** لقد أخذ الله تعالى عهدا على كل الأنبياء (وبالتالى على المؤمنين بهم) أن يؤمنوا بأى رسول جديد يرسله الله تعالى مصدقا لدينهم دون

---

[217]) على سبيل المثال حرم الله تعالى عليهم العمل يوم السبت كى يتفرغوا للعبادة. كما خص الله اليهود بتحريم بعض الأطعمة كعقاب لهم على ذنوبهم. {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام: 146]

أن يكون من حق أحدهم أن يكتفى بدينه فقط ، وفى هذا قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران: 81، 82]. ومن أبرز من أخفق فى هذا الاختبار اليهود الذين أصروا على الاكتفاء بدينهم فقط: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ} [البقرة: 91].

والحقيقة أن هذا المعنى الثالث للابتلاء فى غاية الأهمية ، وقد كان له أبلغ الأثر فى تاريخ الأديان، وقد ترتبت عليه آثار سياسية واجتماعية خطيرة ، وآفة رجال الدين فى كل مكان هى التعصب لما ورثوه من تراث دينى، فرجل الدين من الصعب أن يعتنق دينا جديدا ، فيفقد مكانته فى المجتمع ، وينفض من حوله الأتباع ، ويصبح مجرد مبتدىء فى دين جديد ملىء بالفطاحل. كما أن رجال الدين كثيرا ما يشعرون بالكبر والأنفة من الاعتراف بالخطأ ، وهل من السهل على رجل مثل بابا الفاتيكان أن يترك المسيحية ويتحول إلى الإسلام؟ هل من اليسير أن يعترف أمام العالم كله أنه كان على ضلال طوال هذا العمر المديد؟ هل من السهل أن يتحول بابا الفاتيكان إلى مسلم عادى بعد أن كان الشخصية الدينية الأولى فى العالم؟ وفضلا عن ذلك فإن الحسد الذى أكل قلوب رجال الدين لم يتوقف عند حدود القلوب، بل تخطاها ليشعل نيرانا حروب لا آخر لها ، تسببت فى إزهاق ملايين الأرواح. انظر كيف جاءت الحملات الصليبية لتتسبب فى إزهاق أرواح الآلاف من المسلمين والنصارى ، وفى الحرب الصليبية الأولى وحدها قتل من المسلمين سبعين ألفا كما يقول ويل ديورانت[218]. وكل هذا حدث بسبب شرذمة من رجال الدين الذى يحركون ملايين الجماهير بإشارة من أصابعهم. وتخيل لو كان لدى اليهود بعضا من الضمير لآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولتجنب ما يقرب من 2 مليار مسلم الحرب العسكرية والإعلامية والاقتصادية الرهيبة التى يشنها العالم ضدهم اليوم بتحريض من المال اليهودى.

[218]) يقول القس ريمند الإجيلي شاهد العيان: وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل. ويروي غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى؛ يقولون إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم. ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء. انظر: **قصة الحضارة** (15/ 25) لويل ديورانت

خلاصة القول أن **أحد أهم معانى قوله تعالى: (وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) هو أن اختلاف الأديان يعبر عن إخفاق فى الاختبار الكبير الذى وضع الله فيه البشرية** ألا وهو الحفاظ على الدين الواحد أو العودة إليه.

والآن نأتى إلى قوله تعالى: (فاستبقوا الخيرات):

إن قوله (فاستبقوا الخيرات) استغله البعض للقول بأن المهم هو الخير الذى يصنعه الإنسان ، وليس العقيدة التى يعتنقها ، فمن يعمل خيرا أكبر سيحظى بالفوز فى الآخرة مهما كان دينه. وهذا كلام ساقط لا يقول به من آمن بما نزل على محمد. إن عبارة (فاستبقوا الخيرات) لا تفهم حتما على النحو المذكور. لماذا لا نفكر كما يلى: إن هذه العبارة موجهة للمسلمين ، وهى تطلب منهم أن يكون سلوكهم متسقا مع عقيدتهم ، فلا يقولون نحن أصحاب الإيمان القويم والعقيدة الصحيحة ، ثم يجلسون مكانهم ظانين أن كونهم مسلمين يضمن لهم الفوز فى الآخرة ، تماما مثلما كان اليهود والنصارى يظنون أن مجرد كونهم يهودا أو نصارى كفيل بنيل حب الله مهما فعلوا من ذنوب: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} [المائدة: 18]. والتناقض بين ادعاء أهل الكتاب للإيمان بالله وبين ما يظهرونه من فسوق موجود فى مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة: 59] ، وقوله: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 27].

الله تعالى لا يريد من المسلمين أن يكرروا نفس أخطاء الأمم السابقة ، مصداقا لقوله: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: 16].

إن عبارة (فاستبقوا الخيرات) لها أهمية كبرى فى هذا الجزء من سورة المائدة الذى تعَرَّض لارتكاب بعض أهل الكتاب لجريمة الزنا ، وسعيهم لتفادى العقاب من خلال إهمال شريعتهم ، والاحتكام لرجل لا يؤمنون بنبوته. والله تعالى لا يريد من المسلمين أن يكرروا نفس المأساة ، فيفرحوا بأنهم مسلمون ، ويتصوروا أن شرف الإسلام يَجُب كل ذنب ، ويغتروا بكونهم أهل القرآن الذى اعتبره الله مهيمنا على ما

سبقه من كتب. على المسلمين أن يفهموا أن شريعة الإسلام (ومنهاجه) اختبار وضعهم الله تعالى فيه ليرى هل يلتزموا بها أم يهملوها كما أهمل اليهود والنصارى شرائعهم ، فهاجمهم الله هجوما شديدا فى الآيات السابقة من سورة المائدة: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: 43] ، وقال واصفا من لا يحكم من اليهود بالتوراة {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: 44] ، وقال عنهم فى الآية التالية: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: 45]. كما قال عن النصارى: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة: 47]

وهكذا يمكن فهم قوله تعالى (فاستبقوا الخيرات) على خلفية الآيات السابقة التى تعرضت لتناقض أهل الكتاب الذين كانوا يتفاخرون بدينهم بين الناس ، لكنهم فى نفس الوقت ارتكبوا المعاصى ، واحتكموا إلى شريعة أخرى غير شريعتهم ، وما أولئك بالمؤمنين كما قال القرآن.

ثم إن عبارة (فاستبقوا الخيرات) لهما أهمية أخرى ، وذلك لأن من المستحيل على المسلمين أن يقنعوا كل سكان الأرض بأن دينهم وحده هو الحق ، فهذا لن يتحقق إلا يوم القيامة كما أكدت العبارة التالية فى نفس الآية (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) ، ولذا فليس مطلوبا من المسلمين أن يحققوا المستحيل ، ويوحدوا العالم كله تحت عقيدة واحدة ، ولكن عليهم أن يحاولوا ، كما يجب عليهم أن يتسابقوا فى عمل الخيرات ، فعمل الخير يرفع قدرهم فى نظر الله ، معوضا بعضا من عجزهم عن هداية كل الناس.

البرهان العاشر:

كلمة (الخيرات) نفسها فى غاية الأهمية. يجب أن نلاحظ أن القرآن قال: (فاستبقوا الخيرات) وليس (فاستبقوا المعروف) ، وذلك لأن هناك فرقا بين الخير والمعروف ، سبق أن بيناه فى كتاب آخر. وملخص المسألة أن القرآن يستخدم فى بعض الآيات كلمة "الخير" بجوار كلمة "المعروف" ، وهذا يدل على أن بينهما فرقا لأن القرآن لا يكرر نفسه كما عودنا ، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104]. وفى آية أخرى يتحدث القرآن عن طائفة من أهل الكتاب ، فيستخدم مصطلح "المعروف" بجوار مصطلح "الخيرات":

{يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 114].

وفى رأينا أن "**المعروف**" **كلمة تشير إلى أفعال الخير المعروفة ، أى تلك التي يشتهر حسنها بين أغلب الناس في مختلف الأمم والشعوب** مثل حنان الأم وإطعام الفقير ومساعدة الضعيف وعيادة المريض وقول الصدق والحكم بالعدل ، فهذه الأفعال وغيرها هي مما تتفق عليه أغلب الشعوب في كل العصور، أو هي القيم الإنسانية المشتركة كما يقولون الآن. **أما** "**الخير**" **فهو كلمة أعم ، وهى تشمل – إضافة إلى المعروف– تلك القيم التي تعتبر حسنة من وجهة نظر الإسلام لكنها لا تعتبر كذلك من وجهة نظر الأديان الأخرى والشعوب الأخرى** كصوم رمضان والحج والصلاة وقراءة القرآن والدعوة إلى الإسلام والجهاد فى سبيل الله. وكل هذه من أعمال الخير من وجهة نظر المسلمين ، لكن المسيحيين واليهود وغيرهم لا يرونها كذلك.

واستخدام القرآن لكلمة "الخيرات" بدلا من "المعروف" فى قوله: (فاستبقوا الخيرات) معناه أن الله تعالى يطلب من المسلمين أن يتسابقوا لعمل ما يعتبر حسنا من وجهة نظر الإسلام وحده وليس من وجهة نظر الأديان الأخرى. إذن التسابق الذى تحث عليه الآية هو تسابق المسلمين مع بعضهم البعض للوصول إلى أقصى درجات الطاعة. ولو قال القرآن: (فاستبقوا المعروف) لفهم من ذلك أن القرآن يحث على تسابق المسلمين مع أتباع الأديان الأخرى لأن المعروف هو الأفعال الحسنة لدى عامة الأمم ، ولجاز حينئذ القول بأن الله تعالى لا يعتد بعقيدة المرء بقدر ما يهتم بحسن خلقه.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

12- التثليث ليس كفرا ؟!

رافعو شعارات إيمان اليهود والنصارى يشبهون القرود التى تقوم بحركات بهلوانية فى حديقة الحيوان. حاول أحدهم يوما بكل عزمه أن يثبت لمستمعيه أن قول القرآن: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} [المائدة: 73] لا ينطبق على النصارى الموجودين حاليا. طبعا كان الرجل يكذب ، ويعلم أنه يكذب ، وكان يتصبب عرقا وهو يحاول يائسا العثور على الكلمات التى تخرجه من هذا الموقف المحرج الذى وضعه فيه سادته. لم أجدا تشبيها له إلا القرد الذى لا يكف عن القيام بقفزات عشوائية غير متوقعة. ورغم السخافة الشديدة لهذا الرأى ، والتهكم الواسع الذى قوبل به إلا أننا نُحذر بشدة من أن نكتفى بالضحك على مثل هذه الآراء لأن أغلب المسلمين لا يعرفون شيئا عن العقيدة المسيحية ، ويمكن أن يصبحوا فرائس سهلة لهؤلاء الأفاكين ، إن لم يكن اليوم فغدا.

إن النصارى يؤمنون بوجود ثلاثة آلهة (الآب والابن والروح القدس) كل منها ذو قدرة كاملة ، ولكن الثلاثة آلهة هى فى عقيدتهم إله واحد. كيف؟ لا يعرف النصارى. **ومع ذلك يجمع كل النصارى على وجود فروق بين الآلهة الثلاثة** ؛ فمثلا من المستحيل أن يقول النصرانى أن الابن هو الذى أرسل الآب إلى الأرض كى يكفر عن خطايا البشر ، وأن الآب هو الذى مات على الصليب. ومن المستحيل أن يقول النصرانى أن من ولدته مريم هو الروح القدس وليس الابن. ومن المستحيل أن يقول أن الروح القدس هو الذى أدخل آدم الجنة ثم أخرجه منها. ومن المستحيل أن يقول أن الآب – وليس الروح القدس– هو الذى حل فى أجساد تلاميذ المسيح بعد وفاته ، وجعلهم يصنعون المعجزات. وهكذا يميز **النصارى بوضوح شديد بين الآلهة الثلاثة من الناحية العملية.** ومن الشائع أن يحمل النصرانى معه صورة للإله الابن (المسيح) كى تحل عليه البركة ، لكننى لم أر من قبل مسيحيا يحمل صورة للإله الآب. كما أنك لا يمكن أن تعثر على مسيحي يغير من ترتيب الآلهة فى الثالوث ؛ فيقول: (الابن والآب والروح القدس) أو (الروح القدس والابن والآب). كلهم يقدمون الآب على الابن ، ويقدمون الابن على الروح القدس. وكل هذا يؤكد أن **الفروق الواقعية بين الآلهة الثلاثة أعمق من القول النظرى بوحدتهم.**

وفضلا عن ذلك فمن الثابت تاريخيا أن الآلهة الثالثة لم يتم الاعتراف بها فى نفس الوقت ، ففى البداية كان كل النصارى يتفقون على ألوهية الآب مثلهم مثل اليهود. وفيما بعد نشأت معركة طاحنة حول

ألوهية المسيح ، حيث آمن بها بعضهم وأنكرها آخرون وعلى رأسهم آريوس ومدرسته ، ولهذا عقد مجمع نيقيه عام 325م الذى أقر بأن المسيح إله. وبعد ذلك عقد الامبراطور ثيودوسيوس مجمع القسطنطينية عام 381م ، وفيه تم اعتبار الروح القدس هو الآخر إلها[219] ، ليصبح لدى النصارى آلهة ثلاث. وهذا الترتيب التاريخى للاعتراف بالآلهة (الآب ثم الابن ثم الروح القدس) يؤكد أن النصارى يعبدون ثلاثة شخصيات مختلفة على الأقل من الناحية العملية.

وحتى لا نطيل الجدل ندعو القارىء للرجوع لكتب أصحاب الشأن من النصارى لنرى كيف يفكرون فى الأقانيم الثلاثة. **وقد اخترنا نصا مأخوذا من كتاب مسيحى أكاديمى متخصص يتكلم عن الروح القدس ليكون نموذجا يثبت بشكل قاطع أن النصارى يعبدون عمليا ثلاثة آلهة مختلفة:**

[لف غموض والتباس شديدان قبل مجمع القسطنطينية الأول موضوع الروح القدس ، وظل لاهوت الروح القدس يغلفه الصمت حتى بروز هرطقة المكدونيوسيين نحو سنة 360 ، إذ لم يسبق وأن تصدى أى لاهوتى بجدية وتعمق للاهوت هذا الأقنوم **ليحدد هويته وميزاته الأقنومية** فى الثالوث الأقدس ، بل كان يذكر بطريقة عابرة لدى التكلم على الثالوث ، فبقى لاهوت الروح القدس بدائيا لا عمق فيه ، حتى إننا نجد قوانين إيمان قديمة ، كما رأينا ، تعود إلى ما قبل القرن الرابع تكتفى بالاعتراف بالآب والابن وحدهما..... اصطدم الآباء أول ما اصطدموا باسم الروح القدس نفسه إذ أن **الاسم بحد ذاته لا يوحى بوجود أقنوم كائن فى ذاته ، بل قد يختلط الأمر ، ويعتبر الاسم صفة من صفات الله** ، فالله روح ، والرب روح ، والرب قدوس. لكن الآباء أرادوا هنا تأكيد ألوهية الروح القدس ، واعتباره أحد الأقانيم الثلاثة داخل الحياة الإلهية ، أى إن **له كيانا خاصا به** ، مثله مثل الآب والابن ، و**هو أقنوم له شخصيته وميزاته ، وخواصه**

219) من أهم الأمور التى اهتم بها مجمع القسطنطينية الرد على مكدونيوس وأتباعه الذين أنكروا ألوهية الروح القدس. وقد قال مكدونيوس أمام المجمع عندما دُعِيَ لِعَرْض بدعته: "أن الروح القدس عمل إلهي منتشر في الكون، وليس بأقنوم متميز عن الآب والابن، بل هو مخلوق يشبه الملائكة وليس ذو رتبة أسمى منهم". وقد فند هذه البدعة من قبل القديس أثناسيوس بعد رجوعه من منفاه سنة 362 م. وحاول الأساقفة بعد ذلك إقناع مكدونيوس بخطأه وخطأ عقيدته الفاسدة ، لكنه رفض وأصرَّ على التمسك بمعتقده. فحكم عليه المجمع بالحرمان وفرزه من شركة الكنيسة وحكم عليه الإمبراطور بالنفي وقرر الآباء أن الروح القدس هو الأقنوم الثالث من الثالوث القدوس وإنه مساو للآب وللابن، ثم قرروا تكميل قانون الإيمان النيقاوي: "نعم نؤمن بالروح القدس الرب المُحيي المُنْبَثِق من الآب". انظر: **المجامع المسكونية المقدسة: مجمع القسطنطينية 381م**- الأنبا بيشوى. موقع الأنبا تكلا: https://st-takla.org/Coptic-History/CopticHistory_02-History-of-the-Coptic-Church-Councils-n-Christian-Heresies/Encyclopedia-Coptica-History__006-Magma3-Elk-Kostantinea-381.html. Accessed August 4, 2020

المميزة المغايرة لخواص الأقنومين الآخرين. فليس الروح القدس هنا صفة من صفات الله ، بل الأقنوم الثالث المساوى للآب والابن فى الجوهر[220].]

ويواصل الكتاب السابق الكلام عن العلاقة بين الروح القدس والمسيح والآب ، فنزداد يقينا بأننا أمام آلهة ثلاثة، كل منها له وظائف محددة بشكل دقيق ، بل نلاحظ أن الروح القدس هو الذى يمنح الابن (المسيح) معجزاته ، بل هو الذى خلقه فى بطن أمه!!

[وتؤيد أعمال الروح القدس أيضا –فى أثناء عملية تدبير الخلاص كلها– البرهان على ألوهيته. فنحن **نراه يتابع حياة المسيح ويرافقه فيها ، بل هو من يقوده ويحركه. فالروح يمنح الوجود ليسوع من أول لحظة تكوينه فى أحشاء أمه البتول** ، فيشارك فى سر التجسد الإلهى منذ الوهلة الأولى. **والروح نفسه هو الذى نصب يسوع مسيحا فى معموديته ، أو من مسحه بالمسحة الإلهية ليكرسه مسيح الله. واستمر الروح القدس يرافق مسيرة يسوع طوال حياته فشفى يسوع المرضى به بإخراجه الشياطين منهم ، وكانت علاقته واتصاله بالآب يمران بواسطته ، وهو الذى يشهد له مثلما يشهد الآب له ، وهو الذى أقام يسوع –بمشاركة الآب– من بين الأموات ، وكما مجده الآب ، فكذلك يمجده الروح القدس**[221].]

أعتقد أن النص السابق – وهو مجرد نص واحد بين نصوص لا تحصى– يثبت أن النصارى يعبدون ثلاثة آلهة مختلفة رغم تأكيدهم النظرى على أن الثلاثة واحد. والحقيقة أن قولهم بوحدة الآلهة الثلاثة مجرد ذر للرماد فى العيون حتى لا يُشَبَّهوا بالوثنيين ، أو يُتهموا بتعدد الآلهة. إنهم يشبهون مديرا يُقْسِم لموظفيه أنه يحبهم جميعا ، ويعاملهم كلهم بنفس المنهج ، ومع ذلك يعرف الكافة أن هذا المدير يميز أبناء أصدقائه على من عداهم من الموظفين. حقا ما أسهل الكلام ، وما أصعب الفعل!

لقد كان على هذا القرد أن يسأل نفسه: **إذا كان النصارى يؤمنون بإله واحد كما يقول فأين هذه الآلهة الثلاثة التى تكلم عنها القرآن حين قال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}**؟ هل أخطأ القرآن

---

220) **المجمع المسكونى الثانى القسطنطينية الأول**. تأليف الأب ميشال أبرص والأب أنطوان عرب. صفحة 250. مؤسسة دكاش للطباعة. الطبعة الأولى 2003م

221) **المجمع المسكونى الثانى القسطنطينية الأول**. صفحة 251

فى فهم عقيدة النصارى؟ هل القرآن كتاب خيالى لا يمت للواقع بصلة؟ إن كان هذا القرد مسلما حقا فعليه أن يتراجع فورا عن رأيه هذا لأنه يشكك فى القرآن.

ولكى ندمر هذا القرد للأبد سنذكر له قوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة: 17]. إن هذه الآية تقول أن النصارى يؤمنون بأن الله هو المسيح. ولكن إن تأملت هذه المقولة لوجدت أنها تعنى أن النصارى يؤمنون أيضا بالتوحيد لأن الله والمسيح عندهم شخصية واحدة ، ورغم ذلك رفض القرآن هذا التوحيد الكاذب بشكل قاطع. **إذن حتى لو نجح هذا القرد فى إقناعنا بأن النصارى يعبدون إلها واحدا ، فستبقى هذه العقيدة كفرا فى نظر القرآن الذى يرفض مجرد القول بتطابق اثنين من الآلهة (الآب والابن) ، فما بالك بتطابق الآلهة الثلاثة؟**

وفضلا عن ذلك فإن القول بأن الإله الآب هو والإله الابن (المسيح) شخصية واحدة يؤدى إلى القول بأن الله وُلد وجاع وخاف وعُذب وتألم ومات لأن كل هذه الأمور البشرية حدثت للمسيح ، وهذا لا يقل بشاعة عن قولهم بأن الكون يحكمه ثلاثة آلهة. أعتقد أنه لم يعد هناك مكان لتجميل صورة النصارى فى الإعلام من خلال الزعم بأنهم يؤمنون بإله واحد.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

13- محمد نبى وعيسى إله ؟!

وإذا ذهبنا لبهلوان آخر لوجدناه يتبنى رأيا طريفا ، وهو أن أهل الكتاب عليهم فقط أن يؤمنوا بأن محمدا عليه الصلاة والسلام نبى ، وبعد ذلك يجوز لكل منهم أن يبقى على يهوديته أو نصرانيته كما يشاء. ومثل هذا الكلام لا يصدر من مفكر جاد ، وهو يدل على أنه لا يحترم عقلية مستمعيه. وفضلا عن ذلك فهذا الرأى ليس بجديد ، بل هو تكرار لنظرية تبنتها طائفة من اليهود اسمها العيسوية ، اعترفوا بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكنهم زعموا أن رسالته موجهة إلى العرب فقط. يقول الرازى فى تفسير قوله تعالى: { قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا } [الأعراف: 158] : (هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ. وَقَالَ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُمُ الْعِيسَوِيَّةُ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى الْأَصْفَهَانِيِّ: إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ صَادِقٌ مَبْعُوثٌ إِلَى الْعَرَبِ. وَغَيْرُ مَبْعُوثٍ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَدَلِيلُنَا عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِهِمْ هَذِهِ الآية. لأن قوله: يا أَيُّهَا النَّاسُ خِطَابٌ يَتَنَاوَلُ كُلَّ النَّاسِ. ثُمَّ قَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً وَهَذَا يَقْتَضِي كَوْنَهُ مَبْعُوثًا إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَأَيْضًا فَمَا يُعْلَمُ بِالتَّوَاتُرِ مِنْ دِينِهِ، أَنَّهُ كَانَ يَدَّعِي أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى كُلِّ الْعَالَمِينَ. فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ كَانَ رَسُولًا حَقًّا أَوْ مَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ رَسُولًا حَقًّا، امْتَنَعَ الْكَذِبُ عَلَيْهِ. وَوَجَبَ الْجَزْمُ بِكَوْنِهِ صَادِقًا فِي كُلِّ مَا يَدَّعِيهِ، فَلَمَّا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ وَبِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ كَانَ يَدَّعِي كَوْنَهُ مَبْعُوثًا إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ وَجَبَ كَوْنُهُ صَادِقًا فِي هَذَا الْقَوْلِ، وَذَلِكَ يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى الْعَرَبِ فَقَطْ، لَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.) [222]

إن هذا الرأى ليس فقط فى غاية السخافة بل هو أيضا فى غاية الفشل ، فلو كان هذا الداعية صادقا مع نفسه لتساءل: "لماذا لم يرحب اليهود والنصارى برأيى هذا؟ لماذا لم أسمع عن يهودى أو نصرانى يعلن أنه آمن بنبوة خاتم الأنبياء وأنه سيبقى رغم ذلك على اليهودية أو المسيحية؟" الإجابة التى لا تحتاج لذكاء هى أن **الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام تحتم الكفر باليهودية والمسيحية بشكلهما الحالى.** ولا يوجد إنسان لديه ذرة عقل يمكن أن يصدق أن إيمانه برسالة محمد –التى تدعو إلى التوحيد الخالص– تتفق مع المسيحية أو اليهودية اللذين شابهما ما نعلم من الشرك والوثنية. لقد

[222]) **تفسير مفاتيح الغيب** لفخر الدين الرازى (15/ 383). دار إحياء التراث العربى- بيروت- الطبعة الثالثة- 1420 هجرية.

فشل هذا القرد، وسيبقى فاشلا ، ولن يثنى على رأيه الشاذ إلا العلمانيون والمستشرقون والساسة الغربيون ورجال الاستخبارات ، لكن من المستحيل أن يأخذ أى منهم رأيه بجدية ، ويطبقه على نفسه.

إن الإيمان بمحمد كنبى يستتبع بالضرورة الإيمان بمحتوى رسالته ، لأن النبى لا يأتى للناس بكلام من عنده بل من عند الله. لكن ما رأيكم إذا كان القرآن يتصادم مع اليهودية والمسيحية بوضعهما الحالى فى قضايا جوهرية؟ كيف يقول أهل الكتاب أنهم يؤمنون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وفى نفس الوقت لا يصدقونه حين يقول لهم أن عقائدهم تتضمن الكفر ، كما فى قوله: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: 73]؟ **وهذه الآية الأخيرة تنقض كلام هذا البهلوان نقضا** ، فهى تتضمن إنذارا شديد اللهجة بالعذاب الأليم إن لم يتوقف النصارى عن عقيدة التثليث. وقد تكرر هذا التحذير الشديد فى مواضع أخرى مثل قوله تعالى: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} [الكهف:4- 5] ، وكذلك قوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا} [النساء: 47]

ثم ألا يعلم هذا البهلوان أن الله تعالى لم يأمر أهل الكتاب فقط بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، بل أمرهم كذلك باتباع تعاليمه (التى تشبه النور) ، وتأييده ، ونصره؟

{قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 156، 157].

وبمزيد من الملاحظة نجد أن **الآية الأخيرة تثبت أن شريعة محمد عليه الصلاة والسلام موجهة لأهل الكتاب** لأنها تحل لهم أمورا ، وتحرم عليهم أمورا أخرى ، كما تخفف عنهم بعضا من قسوة شريعة التوراة: (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ).

ومن الحجج البهلوانية التى قدمها هذا القرد عبارة (وما أنزل إليكم من ربكم) التى وردت فى قوله تعالى {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } [المائدة: 68]. إن هذه العبارة تشير فى رأيه إلى ما أنزله الله فى التوراة والإنجيل ، وليس إلى ما نزل فى القرآن. والرد البسيط على ذلك أن كلامه يعنى أن القرآن كرر نفسه لأن مفهوم (ما أنزل إليكم من ربكم) هو نفس مفهوم (التواراة والإنجيل).

ثم لنفرض جدلا أن عبارة (وما أنزل إليكم من ربكم) لا تشير إلى القرآن خلافا لما ذهب إليه جمهور المفسرين ، فهل هذا يعنى أن من غير الواجب على اليهود والنصارى اتباع القرآن؟ طبعا لا ، فهو يدل فقط على أن المفسرين أخطأوا فى تفسير آية من الآيات ، ويبقى من الثابت أن الأمر بضرورة اتباع أهل الكتاب للقرآن قد ورد فى آيات أخرى مثل آية الأعراف 156-157 التى ذكرناها منذ قليل ، وليس من المحتم على القرآن أن يذكر كل الأمور فى كل الآيات ، فمن الطبيعى أن تذكر بعض المسائل فى آية ، وبعض المسائل فى آية أخرى. والحقيقة أن **حث القرآن لليهود والنصارى على إقامة كتبهم جاء لهدفين:**

<u>الهدف الأول</u>:

إثبات أنهم لا يطبقون تعاليم كتبهم، وأنهم غارقون فى الفسوق والعصيان ، ومثل هؤلاء الفاسقين لا يعتد بكلامهم حين يكفرون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولعلنا نذكر كيف ملأ القس الأمريكى جيمى سويجارت الدنيا صراخا من أجل الدعوة إلى الأخلاق ، وكيف ظهر فى مناظرة مع أحمد ديدات ليهاجم تعدد الزوجات فى الإسلام ، وما هى إلا شهور قليلة حتى افتضحت علاقته المشينة مع إحدى البغايا، فأقر بها ، وأعلن ندمه عليها ، لكن سلسلة فضائحه لم تتوقف[223] ، وبهذا لم يعد من الممكن لمسلم أن يصدقه. وليس ببعيد عنا فضائح التحرش الجنسى التى طالت كثيرا من رجال الفاتيكان ، ودمرت سمعته فى العالم. إن الفسوق يزيل المصداقية.

وإذا نظرنا إلى الآيات التى حث فيها القرآن أهل الكتاب على إقامة التوراة والإنجيل لوجدناها وردت فى سورة المائدة:

223) **Jimmy Swaggart**. By William Pike. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/biography/Jimmy-Swaggart; accessed August 21, 2020.

- {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة: 65 – 66].
- { قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [المائدة: 68].

وهذه الآيات وردت على خلفية ما سبقها من كلام واضح عن فسوق أهل الكتاب: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ .... وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .... وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [المائدة: 60 – 64].

وفى إطار هذا الفسوق يجب أن نفهم منطق القرآن وهو يحث أهل الكتاب على اتباع كتبهم. إنه يريد أن يقول لهم: "أنتم قوم فاسقون لأنكم لا تطبقون تعاليم كتبكم ، **ومن لا ينفذ تعاليم كتابه الذى يعتز به فليس غريبا أن يكذب بالقرآن ؟**

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلا فى سورة المائدة لوجدنا تدعيما لهذه الفكرة ، فقد حدث أن ارتكب بعض اليهود جريمة الزنا ، وذهبوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليحكم بينهم ، تاركين شريعة التوراة. وقد علق القرآن على موقفهم قائلا: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: 43]. إن هذه الآية الأخيرة شديدة الروعة ، فهى **فى ظاهرها تبدو كما لو كانت تطلب من اليهود أن يتمسكوا بالتوراة ، مع أنها فى الحقيقة ترمى إلى إثبات أنهم قوم ضعاف الإيمان لأن من كان مؤمنا بدينه فمن المستحيل أن يهمل شريعته بهذا الشكل.** وبنفس الطريقة يجب أن نفهم قوله تعالى: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة: 47]. إن من يزعمون أن الغيرة على دينهم هى التى تدفعهم للكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فهم كذابون لأن أفعالهم لا تنم على الإطلاق عن غيرة على هذا الدين.

<u>الهدف الثانى:</u>

حث القرآن أهل الكتاب على اتباع كتبهم لأن هذه الكتب تتضمن التنبؤ بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد فى الإصحاح 18 من سفر التثنية:

15 «يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي. لَهُ تَسْمَعُونَ. 16 حَسَبَ كُلِّ مَا طَلَبْتَ مِنَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي حُورِيبَ يَوْمَ الاجْتِمَاعِ قَائِلاً: لاَ أَعُودُ أَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلهِي وَلاَ أَرَى هذِهِ النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيْضًا لِئَلاَّ أَمُوتَ. 17 قَالَ لِيَ الرَّبُّ: قَدْ أَحْسَنُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا. 18 أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. 19 وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. 20 وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ. 21 وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْكَلاَمَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟ 22 فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُ.

وحتى لا نطيل عليكم نطلب من هذا البهلوان فى النهاية أن يتحرك إلى الأمام قليلا بعد آية 68 من سورة المائدة التى يستشهد بها ، ليسمع كلام القرآن الذى يدمر رأيه الشاذ:

{<u>لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ</u> وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) <u>لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ</u> وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) <u>أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ</u> وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) <u>قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا</u> وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76) <u>قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ</u> وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (77) } [المائدة: 72 – 77]

هذا هو القرآن: إنه يرمى أهل الكتاب بالكفر والضلال ، ويحذرهم من الاستمرار على عقائدهم الباطلة، ويصف عقيدتهم بالغلو والهوى ، فكيف يأتى هذا البهلوان ليقول لهم: ابقوا على عقائدكم، وكل المطلوب منكم أن تجاملوا نبينا محمد ، وتعلنوا إيمانكم به ، وبعد ذلك يمكنكم أن تغمضوا أعينكم عن الوحى الذى أنزل إليه؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

14- ليس بالأمانى.. وليس بالكفر أيضا

تكلم البهلوان مرة أخرى ، وكأنه اكتشف فى القرآن آية لم ينتبه إليها أحد غيره. كان ذلك بخصوص قوله تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء: 123]. لقد فهم صاحبنا أن هذه الآية تضع قاعدة مفادها أن دخول الجنة لن يكون بنوع الدين ، بل بالعمل الصالح. ولا يهم ما إذا كان الإنسان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا ، بل المهم أن يبتعد عن عمل الشرور[224].

إن هذا البهلوان **يهمل السياق الذى وردت فيه الآية** ، ويتعامل مع القرآن على طريقة "لا تقربوا الصلاة"، **فلو قرأ الآية التى بعدها لعلم أن القرآن لا يعتد بالعمل الصالح وحده ، بل يشترط وجود الإيمان:** {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} [النساء: 124]. وعبارة (وهو مؤمن) فى الآية الأخيرة يُفهم منها بوضوح أن العمل الصالح لا يكفى وحده لدخول الجنة.

ولو أكمل هذا المهرج ، وقرأ الآية التى بعدها لسقط مغشيا عليه من المفاجأة لأنه سيجد القرآن يخذله تماما إذ يحدد بدقة العقيدة الوحيدة المقبولة عند الله ، ألا وهى ملة إبراهيم: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: 125]. وطبعا اليهودية والنصرانية تختلفان عن الإسلام الذى جاء به إبراهيم كما أوضحنا فى فصل سابق.

لقد علم الله تعالى مسبقا أنه سيأتى يوم يستغل فيه ضعاف النفوس الآية 123 من سورة النساء ، ويفسرونها بطريقة توافق أهواءهم، فاستبق محاولاتهم ، وحدد لنا أى الأديان هو الحق. إن الدين الحق فى نظر الله هو دين إبراهيم الذى أحياه محمد عليه الصلاة والسلام ، وخالفه النصارى واليهود. وعلى ذلك فمن السفه القول بأن قوله تعالى: (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) يعنى أن الإسلام وغيره من الأديان سواء ، وأن العمل الصالح وحده هو الذى يفرق بين الناس. إن القرآن يريد أن يقول ببساطة

---

224) **ملحوظة**: كلمة (أمانى) يستخدمها القرآن فى مواضع عديدة لتشير إلى تمنى الفوز بثواب الله فى الدنيا أوالآخرة. ومن قبيل ذلك قوله تعالى عن العامة والجهلاء من اليهود: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [البقرة: 78]. والمعنى هنا أن الجهلاء من اليهود لا يعلمون شيئا من التوراة إلا أنها تعد اليهود بالنصر والفوز والسيادة على الشعوب. وفى آية أخرى قال تعالى عن أمانى اليهود والنصارى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة: 111]

لكل من المسلمين وأهل الكتاب أن **من الخطأ أن يظن الإنسان أن اعتناق الدين الذى يبدو فى نظره صحيحا سيؤدى به تلقائيا إلى دخول الجنة مهما ارتكب من موبقات ، فدخول الجنة ليس بالأمانى ، ولكن بالعمل والجهد والعرق.** هذه هى الفكرة الأساسية ، وقد عقب القرآن عليها بتوضحيات مهمة حتى لا يظن أحد أن الله تعالى يهمش من أهمية نوع الدين ، ويعول بشكل كامل على العمل. باختصار: **الجنة ليست بالأمانى ، وليست بالكفر أيضا.**

إن الإفك سمة أساسية لا تنفك عن بعض الدعاة ؛ وبعضهم كلما سمعتُه رأيتُ الكذب يشع من عينيه، وكأنه يخاطب جمهورا من الأطفال الذين يصدقون فى براءة كل ما يقال لهم. هؤلاء ليسوا أصحاب فكر ضال يريدون أن يقنعوا به الناس ، بل مجرد منفذين لخطط رُسمت لهم ، ومرددين لأفكار أمليت عليهم. الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

15- إنـهم يلعبون بالنـار

من يزعمون أن اليهود والنصارى فى الجنة يلعبون بالنار ، فالنتيجة المترتبة على هذا الرأى أن **المسلم الذى يرتد عن دينه ، ويتنصر أو يتهود فلا شىء عليه** ، بل سيكون على أهله وأصحابه أن يهنئوه ، ويعتبروا يوم ردته عن الإسلام يوم عيد لأن دينه الجديد سيقوده إلى الجنة.

إن علماء الدين الذى يبثون هذه الفتاوى يدخلون هم أنفسهم فى دائرة الكفر لأنهم ينكرون أحد أهم أصول الإسلام. وعلينا أن نعرف جيدا أنه ليس كل من نطق بالشهادتين مسلما ، فمن ينكر أصلا من أصول الدين فهو كافر. وقد فرق العلماء مثلا بين من يتكاسل عن أداء الصلاة (فاعتبروه فاسقا) ومن ينكر كون الصلاة من فروض الدين (فاعتبروه كافرا). وبالمثل يعتبر المسلم الزانى عاصيا ، لكن إن اعتقد المسلم أن الإسلام يبيح الزنا فقد كفر. والأمر أخطر بكثير فيمن يعتقد أن غير المسلم لن يخسر شيئا فى الآخرة إن بقى على دينه.

فليراجع هؤلاء العلماء أنفسهم ، وليعلموا جيدا أنهم على شفا جرف هار ، وأن حسن منطقهم ، وترتيب كلامهم ، ولقب الدكتوراة الذى يحمله بعضهم لن يغنى عنهم من الله شيئا فى يوم يحرمون فيه من الدفاع عن النفس: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: 35، 36]. إننا لا نملك من أمر هؤلاء الضالين شيئا ، فأمرهم موكول إلى ولاة الأمور ، وكل ما لدينا قلم، نسأل الله تعالى أن يفضح كذبهم ، ويحبط خططهم.

إن مجاملة الأقلية المسيحية أو مهادنة العدو الصهيونى لا تكون أبدا بهذا الشكل. إننا نؤكد على أهمية حسن معاملة أهل الكتاب الذين يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية ، ولا يتربصون بالإسلام الدوائر ، فهؤلاء يتحتم علينا أن نحسن إليهم ، ونأكل من طعامهم ، ونبتسم فى وجوههم، ونبارك لهم فى المناسبات الاجتماعية كالزواج والإنجاب والنجاح. وقد كان الأمر كذلك عبر أربعة عشر قرنا رغم أن المسلم يعلم أن المسيحى لن يدخل الجنة ، والمسيحى يعلم أن المسلم سيخسر ملكوت السماوات ، ولم يكن يخطر ببال أحدهما أن يضغط على الآخر كى يقر بأنه سيكون مثله فى الجنة ، فمفتاح الجنة مع الله ، لا مع الناس. ثم إن الواقع العملى يؤكد أنك حين تقول للمسيحى أنه سيدخل الجنة فإنه لن يصدقك ، وسيدرك على الفور أنك تجامله من وراء قلبك ، أو تحاول إبعاد شبهة التطرف عن نفسك ، وستضيع الثقة بينكما. **أما إن تكلمت بصراحة ، وقلت للمسيحى أنا أعلم أنك كافر ، وأنت تعلم أنى**

كافر ، ورغم ذلك فدينى يأمرنى بحسن معاملتك ، فهنا سيصدقك ، وسيرتاح الجميع لأنه لا أحد يخفى شيئا عن الآخر.

والحقيقة أن من جوانب روعة الإسلام أنه يأمرنا بحسن معاملة الكفار من أهل الذمة. إن حسن معاملة المسلم لمسلم مثله أمر طبيعى ومتوقع ، لكن أن يحسن المسلم معاملة المسيحى ، وهو يعلم أنه كافر ، فهذه معاملة فى غاية الكرم. وهذا هو ما يجب أن يدركه رجال الدين الذين فسدت ضمائرهم ، وتبلدت أفهامهم ، ولم يعودوا ينظرون إلى الأمور إلا من زاوية الإعلام العلمانى الذى يديره من وراء الستار شياطين الإنس والجن.

ثم لماذا يسارع علماء الدين المسلمون وحدهم بإعلان أن النصارى فى الجنة؟ لماذا لا يتبارى القساوسة بالمثل لإعلان أن المسلمين الذين يكفرون بألوهية المسيح سيحظون بشرف صحبته فى ملكوت السماء؟

ويجب أن **أعترف أننى كنت مخطئا حين ظننت فى البداية أن الدافع الوحيد لهذه البدعة الفكرية هو الرغبة فى مجاملة المسيحيين.** لقد تبين لى بمرور الوقت أن هذا الإلحاح الإعلامى –الذى يصل إلى حد الإرهاب والتهديد– يرمى إلى ما هو أخطر بكثير: إلى ترويج فكر ما بعد الحداثة الذى يقضى على كل من الدين والعقل. وفضلا عن ذلك فإن المسلمين إن اقتنعوا بأن المسيحية واليهودية وغيرهما من الأديان تحظى بقبول الله ، فسيترتب على ذلك **نكسة شديدة للدعوة إلى الإسلام فى العالم** ، وسيفقد الإسلام صفة العالمية على الفور ، ويصبح مجرد دين محلى تعتنقه بعض الشعوب التى لا تمتلك من الحقيقة حظا أكبر مما لدى الآخرين. كما سيفقد المسلمون روح الانتماء للإسلام بعد أن تبين لهم أنه فى نظر الله مجرد دين مثل غيره من الأديان، **وستندثر تماما مفاهيم مثل الأخوة الإسلامية والوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية ونهضة المسلمين.** كما ستذوب على الفور **الأقليات الإسلامية** فى مختلف بلاد العالم بعد أن تآكلت الحدود التى كانت تميز بينها وبين أتباع الأديان الأخرى. وسيترتب على ذلك أيضا نتيجة سياسية ذات أثر هائل ، وهى **سقوط العالم الإسلامى بأكمله فى أيدى الغرب دون طلقة رصاص واحدة،** فقد كان المسلمون من قبل يشعرون أن أمريكا وأوربا وروسيا تتآمر عليهم بسبب دينهم ، ولكن الآن ثبت أن الإسلام لا يختلف فى جوهره عن المسيحية واليهودية ، فصار من العبث النظر إلى الغرب على أنه العدو. إن الدعوة لقبول الآخر دعوة مشبوهة ترمى إلى جعل المسلمين

يغطون فى سبات عميق ، ظانين أن الذئب الغادر قد تحول إلى حَمَل حنون ، وأن غاية أمله أن يتبناهم ، ويرضعهم من لبنه ، ويشرق عليهم بنوره الأخاذ. إننا لا نحمل من الأصل عداء للغرب ، بالعكس أقسم لكم أننى أحب الأمريكيين والأوربيين وكل الشعوب ، وأدعو الله دائما أن يهدى كل سكان كوكب الأرض ، ولكن مع الأسف حب المسلمين لهداية الشعوب الأخرى هو الذى يخلق لدى الساسة ورجال المال وأصحاب المصالح فى الغرب العداء للإسلام لأنهم يرون فى انتشار الإسلام انتقاصا من سيادتهم ، وتهديدا لاستقلالهم ، وقضاء على نفوذهم.

إن قبولنا لتساوى الإسلام مع المسيحية واليهودية يعتبر بمثابة **توقيع على وثيقة الاستسلام النهائي للغرب.** وليس فى هذا أى مبالغة ، فقد رأينا بأعيننا ذلك الجاسوس الروسى ، وهو يلقى محاضرة مطولة تتضمن تفاصيل مرعبة عن كيفية قيام أجهزة الاستخبارات بالسيطرة على شعب ما دون حرب، وذلك من خلال عدة وسائل ، تشمل تجميل صورتها فى أعين هذا الشعب ، وإقناعه بأن عدوه هو صديقه ، ودفعه لتبنى نفس أفكاره. فهل نقع مرة أخرى فى نفس الحماقة التى ارتكبناها عشرات المرات؟ إننى على يقين بأن اليهود الذين سربوا هذا الفيديو المخابراتى الخطير فعلوا ذلك ، وهم يعلمون أن غالبية المسلمين أصبحوا كالجسد الميت الذى لن يقوم حتى لو صبوا عليه الزيت ، وأشعلوا فيه النيران. لقد سربوه فقط لأنهم فوجئوا أننا لم نشعر بما فيه الكفاية بأنهم سحقونا!

إن قبول تساوى الإسلام مع غيره من الأديان سيجعل من الإسلام عملة قديمة بلا قيمة. وحينئذ سينام الشيطان قرير العين ، وستكتب رسميا شهادة الوفاة لدين الله الحق. **أفيقوا أيها المسلمون ، فما يحاك لكم أشد من الجبال. تخلصوا من أسر تفاصيل الحياة اليومية ، وانظروا إلى الأمور من أعلى.** هاجموا عدوكم قبل أن يلتهمكم. هاجموه بالكلمة ، وانقلوا المعركة إلى أرضه ، ليس لتخطفوا منه اللبن والعسل، بل لتنقذوه –وتنقذوا أنفسكم– من غضب الله الذى خلقكم لما هو أسمى من الطعام والشراب والجماع.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الباب الثالث: المؤامرة الكونية الكبرى

1- الجهة الغامضة وراء ما بعد الحداثة

من أهم ما لفت انتباهى بخصوص ما بعد الحداثة أن أحد أكبر فلاسفتها جاك دريدا كان يهوديا. كما لاحظت أن ما بعد الحداثة ما كان لها أن تظهر لولا أن سبقتها فلسفة البنيوية التى مثلت تمهيدا فكريا أساسيا ساعد العقل الفلسفى على تقبل ما بعد الحداثة. والبنيوية كانت من إنتاج فيلسوف يهودى آخر هو ليفى شتراوس. والشىء الغريب أيضا أن البنيوية ظهرت لتندثر بعد سنوات قليلة ، ليحل محلها ما عرف ب"ما بعد البنوية" التى هى فى الواقع اسم آخر لما بعد الحداثة.

والشىء المريب كذلك أن دريدا ولد ليكون نجما ، وهذا شىء غريب لأن هناك فلاسفة كثيرين غيره ألفوا الكتب والأبحاث ، فما الذى جعل الأوساط الفلسفية تتلقف أبحاث دريدا ، وتسلط عليها الضوء بهذا الشكل المكثف؟ أذكر أننى قرات أن ديفيد هيوم الفيلسوف الإنجليزى الشهير ألف فى مطلع حياته كتابا اعتقد أنه شديد الأهمية ، لكن أحدا لم يلتفت إليه لأن مؤلفه مجهول. فما الذى جعل نجم دريدا يبزغ بهذا الشكل مع العلم أن كثيرا من المبدعين فى مختلف المجالات الثقافية لا يجدون من يتبناهم ويسلط عليهم الضوء ، وينقل فكرهم لعامة الشعب؟ وما الذى جعل الأوساط الفلسفية تنكب على تحليل مؤلفات ما بعد الحداثة بشكل عام؟ من الذى عقد الندوات والمؤتمرات لمناقشتها بهذا الشكل المكثف؟

ثم ما الذى نقل فلسفة ما بعد الحداثة إلى أوساط الجماهير ، وأدخلها فى جميع نواحى الحياة الثقافية والفنية والعلمية رغم أن عشرات الفلسفات غيرها بقيت حبيسة داخل الأروقة الفلسفية الضيقة بسبب الصعوبة البالغة فى فهمها؟ إن سارتر قام بنقل الفلسفة الوجودية إلى مجال الأدب ، فذاعت ، وصارت فلسفة شعبية ، فما الذى جعل ما بعد الحداثة هى الأخرى فلسفة شعبية؟

لا شك أن جهة ما قد قررت أن تخرب عقل الإنسان وخلقه ودينه ومجتمعه ، فأوعزت إلى عملائها فى الدوائر الفلسفية كى يعيدوا تسويق عدمية نيتشه –التى لا تؤمن بأى شىء – فى ثوب لغوى جديد. فما تلك اليد الخفية؟

إنه الحلف اليهودى الماسونى الذى يحكم العالم؟

لقد التقت رغبة الماسونية فى تدمير الأديان والأخلاق مع رغبة اليهود فى السيطرة على العالم ، فجاء هذا الحلف الشيطانى الذى أخرج لنا ما بعد الحداثة. والشىء المثير أن هذا الحلف لم يكن وليد العصر الحديث كما يظن الكثيرون ، فقد حدثنا القرآن عن إيمان اليهود بالسحر والشيطان والأصنام فقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا} [النساء: 51]. لقد قرأت هذه الآية عشرات المرات فلم تستوقفنى كثيرا ، بيد أننى لما بدأت أسمع عن العلاقة بين اليهودية والماسونية وعن الرموز والطقوس الشيطانية فى الماسونية انتبهت إلى أن هذه الآية تفيد وجود علاقة لليهود بالسحر وعبادة الشيطان ، وهو ما يعنى وجود قاسم مشترك مهم بين اليهودية والماسونية.

وقد تحدث الدكتور عبد الوهاب المسيرى عن مشاركة اليهود البارزة فى طقوس السحر والعبادات الشيطانية التى انتشرت فى الغرب ، فقال:

[بتزايد أزمة اليهودية الحاخامية تزايد البحث عن الحل السحري، الذي يؤدي إلى التحكم الإمبريالي الكامل في الذات والطبيعة، بدلاً من التوازن معهما، وهو اتجاه استمر حتى العصر الحديث، حيث يُلاحَظ تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في الجماعات التي تبحث عن الحلول السحرية والتي يمكن عن طريقها حل كل المشاكل بضربة واحدة (جماعات التنويم المغناطيسي– العبادات الجديدة – التنجيم – الحركات السرية – الحركات الثورية المتطرفة)[225]... ومع أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية لا يزيد بأي حال على 3% من سكان الولايات المتحدة، فإن من الملاحظ أن حوالي 20 – 50% من أعضاء مثل هذه الحركات من اليهود، كما أن كثيراً من قياداتها منهم. ولا يختلف الوضع في أوربا الغربية عنه في الولايات المتحدة. ومن أهم هذه الجماعات في الولايات المتحدة الجماعة البوذية من طراز الزن (50% من مجموع أتباعها في سان فرانسيسكو من اليهود) وجماعة هاري كريشنا الهندوكية (15% من جملة أتباع الجماعة في الولايات المتحدة من اليهود) ، وهناك أيضاً كنيسة التوحيد (Unification Church) وجماعات الإمكانية الإنسانية مثل إست EST وينبوع الحياة. ويمكن أن نعتبر الماسونية

[225]) **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذج تفسيرى جديد**. تأليف دكتور عبد الوهاب المسيرى. المجلد الخامس. الجزء الثانى. الباب العاشر: السحر والقبالاة اليهودية. صفحة 193. دار الشروق. الطبعة الأولى. 1999م.

والبهائية من هذه العبادات الجديدة. وقد عادت جماعات عبادة الشيطان للظهور مرة أخرى وانتظم في صفوفها كثير من أعضاء الجماعة اليهودية.[226]]

ومن الكتب المرعبة التى تؤكد وجود تحالف – بيلغ درجة الاتحاد– بين اليهود وعبدة الشيطان كتاب "**أحجار على رقعة الشطرنج**" الذى ألفه عام 1958م "ويليام غاى كار" الذى كان ضابطا فى البحرية الأمريكية. قام ويليام كار بتتبع وفضح خيوط المؤامرة الشيطانية التى تبناها اليهود بزعامة أسرة روتشيلد اليهودية التى تتحكم فى اقتصاد العالم ، فكان جزاؤه أن مات فى ظروف غامضة.

يقول المؤلف[227]: [فى عام 1784 وضعت مشيئة الله تحت حيازة الحكومة البافارية براهين قاطعة على وجود المؤامرة الشيطانية المستمرة: كان آدم وايزهاوبت أستاذا يسوعيا للقانون فى جامعة انغولد شتات ، ولكنه ارتد عن المسيحية ليعتنق المذهب الشيطانى. فى عام 1770 استأجره المرابون الذى قاموا بتنظيم مؤسسة روتشيلد لمراجعة وإعادة تنظيم البروتوكولات القديمة على أسس حديثة. والهدف من هذه البروتوكولات هو التمهيد لكنيس الشيطان للسيطرة على العالم كما يفرض المذهب الشيطانى وأيدولوجيته على ما يتبقى من الجنس البشرى بعد الكارثة الاجتماعية الشاملة التى يجرى الإعداد لها بطريقة شيطانية طاغية. وقد أنهى وايزهاوبت مهمته فى الأول من أيار (مايو) 1776. ويستدعى هذا المخطط الذى رسمه وايزهاوبت تدمير جميع الحكومات والأديان الموجودة. ويتم الوصول إلى هذا الهدف عن طريق **تقسيم الشعوب –التى سماها الجوييم** (لفظ بمعنى القطعان البشرية يطلقه اليهود على البشر من الأديان الأخرى)– إلى معسكرات متنابذة تتصارع إلى الأبد حول عدد من المشاكل التى تتولد دونما توقف ، اقتصادية وسياسية وعنصرية واجتماعية وغيرها. ويقتضى المخطط **تسليح هذه المعسكرات بعد خلقها ، ثم يجرى تدبير حادث فى كل فترة لتنقض هذه المعسكرات على بعضها البعض ، فتضعف نفسها** محطمة الحكومات الوطنية والمؤسسات الدينية.

وفى عام 1776 نظم وايزهاوبت جماعة النورانيين لوضع المؤامرة موضع التنفيذ. وكلمة النورانيين تعبير شيطانى يعنى "حملة النور". ولجأ وايزهاوبت إلى الكذب ، مدعيا أن هدفه الوصول إلى حكومة عالمية

[226]) **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**. المجلد الخامس. الجزء الثالث. الباب الحادى عشر: العبادات الجديدة. صفحة 457.

[227]) **أحجار على رقعة الشطرنج: التطبيق العملى للبروتوكولات**. تأليف ويليام غاى كار. صفحة 8-12. دار الحرية للنشر والتوزيع. القاهرة. 2013.

واحدة ، تتكون من ذوى القدرات الفكرية الكبرى ممن يتم البرهان على تفوقهم العقلى. واستطاع بذلك أن يضم إليه ما يقرب من الألفين من الأتباع ، ومن بينهم أبرز المتفوقين فى ميادين الفنون والآداب والعلوم والاقتصاد والصناعة. وأسس عندئذ محفل الشرق الأكبر ليكون مركز القيادة السرى لرجال المخطط الجديد. وتقتضى خطة وايزهاوبت المنقحة من أتباعه النورانيين اتباع التعليمات الآتية لتنفيذ أهدافهم:

1- استعمال الرشوة بالمال والجنس للوصول إلى السيطرة على الأشخاص الذين يشغلون المراكز الحساسة على مختلف المستويات فى جميع الحكومات وفى مختلف مجالات النشاط الإنسانى. ويجب عندما يقع أحدهم فى شراك النورانيين أن يستنزف بالعمل فى سبيلهم عن طريق الابتزاز السياسى أو التهديد بالخراب المالى ، أو بجعله ضحية لفضيحة عامة كبرى أو بالإيذاء الجسدى، أو حتى بالموت هو ومن يحبهم.

2- يجب على النورانيين الذين يعملون كأساتذة فى الجامعات والمعاهد العلمية أن يولوا اهتمامهم إلى الطلاب المتفوقين عقليا والمنتمين إلى أسر محترمة ، ليولدوا فيهم الاتجاه نحو الأممية العالمية ، كما يجرى تدريبهم فيما بعد تدريبا خاصا على أصول المذهب العالمى بتخصيص منح دراسية لهم. ويلقن هؤلاء الطلاب فكرة الأممية أو العالمية ، حتى تلقى القبول منهم ، ويرسخ فى أذهانهم أن تكوين حكومة عالمية واحدة فى العالم كله هو الطريقة الوحيدة للخلاص من الحروب والكوارث المتوالية. ويجب إقناعهم بأن الأشخاص ذوى المواهب والملكات العقلية الخاصة لهم الحق فى السيطرة على من هم أقل كفاءة وذكاء منهم لأن الجوييم (أى غير اليهود) يجهلون ما هو صالح لهم جسديا وعقليا وروحيا. ويوجد فى العالم اليوم ثلاث مدارس متخصصة بذلك ، تقع الأولى فى بلدة غوردنستون فى سكوتلندا ، والثانية فى بلدة سالم فى ألمانيا ، والثالثة فى بلدة أنا فريتا فى اليونان. وقد درس الأمير فيليب زوج ملكة انجلترا إليزابيث الثانية فى غوردنستون بتدبير من عمه اللورد لويس ماونتباتن. الذى أصبح بعد الحرب العالمية الثانية القائد الأعلى للبحرية البريطانية.

3- مهمة الشخصيات ذات النفوذ التى تسقط فى شبالك النورانيين والطلاب الذين تلقوا التدريب الخاص هى أن يتم استخدامهم كعملاء خلف الستار بعد إحلالهم فى المراكز الحساسة لدى جميع الحكومات بصفة خبراء أو اختصاصيين بحيث يكون فى إمكانهم تقديم النصح إلى كبار

رجال الدولة ، وتدريبهم لاعتناق سياسات تخدم فى المدى البعيد المخططات السرية لمنظمة العالم الواحد ، والتوصل إلى التدمير النهائى لجميع الأديان والحكومات.

4- السيطرة على الصحافة وكل أجهزة الإعلام الأخرى ، ومن ثم تعرض الأخبار والمعلومات على الجوييم (أى غير اليهود) بشكل يدفعهم إلى الاعتقاد بأن تكوين حكومة أممية واحدة هو الطريق الوحيد لحل مشاكل العالم المختلفة.

ويشرح مؤلف الكتاب كيف وصل إلينا هذا المخطط السرى قائلا:

[هذا وقد وضع كاتب ألمانى اسمه سفاك نسخة وايزهاوبت المنقحة عن المؤامرة القديمة على شكل كتاب جعل عنوانه "المخطوطات الأصلية الوحيدة". وفى عام 1784 أرسلت نسخة من هذه الوثيقة إلى جماعة النورانيين الذين أوفدهم وايزهاوبت إلى فرنسا لتدبير الثورة فيها ، ولكن صاعقة انقضت على حامل الرسالة وهو يمر فى راتسبون فى طريقه من فرانكفورت إلى باريس فألقته صريعا على الأرض ، مما أدى إلى العثور على الوثيقة التخريبية من قبل رجال الأمن لدى تفتيشهم جثته ، وسلم هؤلاء الأوراق إلى السلطات المختصة فى حكومة بافاريا. وبعد أن درست الحكومة البافارية بعناية وثيقة المؤامرة أصدرت أوامرها إلى قوات الأمن لاحتلال محفل الشرق الأكبر ومداهمة منازل عدد من شركاء وايزهاوبت من الشخصيات ذات النفوذ ، بما فيها قصر البارون باسوس فى سندرسدورف، وأقنعت الوثائق الإضافية – التى وجدت إبان هذه المداهمات- الحكومة البافارية بأن الوثيقة هى نسخة أصلية عن مؤامرة رسمها الكنيس الشيطانى الذى يسيطر على جماعة النورانيين. وهكذا أغلقت حكومة بافاريا محفل الشرق الأكبر عام 1785 ، واعتبرت جماعة النورانيين خارجين على القانون. وفى عام 1786 نشرت سلطات بافاريا تفاصيل المؤامرة بعنوان "الكتابات الأصلية لنظام ومذاهب النورانيين" ، وأرسلت نسخا منها إلى كبار رجال الدولة والكنيسة ، ولكن تغلغل النورانيين ونفوذهم كانا من القوة بحيث تجوهل هذا النذير.]

ويذكر المؤلف بعد ذلك أن نشاط النورانيين انتقل منذ ذلك الوقت إلى الخفاء ، حيث أصدر وايزهاوبت تعليماته للنورانيين باختراق صفوف الحركات الماسونية. وقد اقتصر الكلام عن عبدة الشيطان عن جزء محدود من الكتاب ، أما القسم الأكبر فينصب على كبار رجال المال والمرابين اليهود –وخاصة أسرة روتشيلد- الذين نجحوا فى السيطرة على السياسة والاقتصاد والإعلام فى كل الدول الكبرى فى العصر

الحديث. ويؤكد المؤلف أن اليهود كانوا وراء اشتعال كل الحروب والثورات الحديثة بما فى ذلك الثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية والثورة البلشفية فى روسيا ، وغيرها. كما أكد الكتاب أن اليهود هم من أشعلوا الحرب العالمية الأولى والثانية. كما أنهم يخططون لوقوع حرب عالمية ثالثة مع المسلمين.

ومما يؤكد اتهامنا لليهودية بالوقوف وراء ما بعد الحداثة ما لاحظه الدكتور عبد الوهاب المسيرى من وجود بعض **مظاهر التعصب لدى جاك دريدا كبير فلاسفة ما بعد الحداثة ، فهو كثيرا ما يصف نفسه بأنه يهودى (بل ويبدو أنه يتباهى بهذه الحقيقة أحيانا)** ، ويوقع بعض مقالاته بكلمة (رب ريدا Reb Rida) ، أى (الحاخام رضا) ، و(رب دريسا Reb Derrisa) ، أى الحاخام دريسا ، أو (الحاخام) وحسب[228]. ويذكر الدكتور المسيرى أيضا أن بعضا من مؤرخى الفكر الغربى قد لاحظوا أن **كثيرا من المثقفين اليهود يتبعون المنهج التفكيكى ويدعون إليه**[229].

وقد أشار الدكتور المسيرى إلى كتابات سوزان هاندلمان التى [طورت مصطلح (الهرمنيوطيقا المهرطقة Heretical hermeneutics) للإشارة إلى **علاقة المثقفين اليهود بالحضارة الغربية ومحاولتهم المستمرة تحطيم النص المقدس وتفكيكه وتقويضه (لا تفسيره)**...إن المثقف اليهودى الذى يحاول تحطيم النص المقدس لجأ للخديعة بدلا من المواجهة السافرة (وهذه إحدى سمات النظام العالمى الجديد بالمقارنة بالنظام الاستعمارى القديم). فلم يعلن المثقف اليهودى رفضه الحضارة الغربية ، بل زعم أنه سيحاول تفسير نصوصها الأساسية تفسيرا جديدا وحسب. ولكن تفسيره كان فى واقع الأمر تفكيكا لهذه النصوص وتقويضا لها ، أى أنه ألبس هرطقته لبوس الهرمنيوطيقا (علم تفسير الكتاب المقدس) واستخدم آلياتها. والهرمنيوطيقا المهرطقة –حسب تصور سوزان هاندلمان– تعبير عن **رغبة اليهود فى الانتقام لأنفسهم بسبب ما حاق بهم من كوارث تاريخية** ، وبسبب حالة النفى والتبعثر التى يعيشونها ، وعملية الإحلال التى فرضت عليهم. إنها **محاولة اليهودى الانتقام من العالم اليونانى المسيحى** الذى يزعم أن العالم يدور حول اللوجوس وحول نقطة ثبات نهائية ، ولكنه قام باقتلاعه وفرض عليه النفى والتحول والصيرورة. ولذا ، وردا على ذلك يفرض اليهودى على النص المقدس (الذى يفترض فيه الثبات) التفسير المهرطق و (سوء القراءة) المتعمد ، الذى هو فى واقع الأمر تفكيك وتقويض له وفرض للصيرورة عليه. ولكن التفسير المهرطق ، على الرغم من هرطقته ، يدعى أنه هو نفسه النص المقدس حتى يتسنى له

---

[228]) **الحداثة وما بعد الحداثة**. تأليف الدكتورعبد الوهاب المسيرى والدكتورفتحى التريكى. صفحة 136. دار الفكر. دمشق- سورية- الطبعة الثالثة- 2010م

[229]) **الحداثة وما بعد الحداثة**. صفحة 137.

أن يحل محله ، أى أنها مؤامرة تتسم من الداخل باسم التفسير ، وهى فى واقع الأمر تقويض: إنها فرض اللامعنى بوصفه المعنى ، وفرض الظلام بوصفه النور ، وفرض الهرطقة بوصفها الشريعة. إنها عملية قلب كامل للمعنى تتم بهدوء ومن خلال الخديعة. ولكن الهرمنيوطيقا المهرطقة لم تكن مقصورة على الكتاب المقدس المسيحى/اليهودى ، إذ قام المثقفون العلمانيون (ورثة الحاخامات) بتوجيه الهرمنيوطيقا المهرطقة إلى عالم الأغيار الدنيوى أيضا ، **واستخدموا الخديعة نفسها على الطريقة المارانية التى تجعل اليهودى يظهر غير ما يبطن.** فادعوا أنهم يقومون بعملية تفسير للتراث الإنسانى ، لا أكثر ولا أقل ، ولكنهم فى واقع الأمر كانوا يقومون بعملية تقويض جذرية[230].]

ومع ذلك فالدكتور المسيرى كعادته يميل بشدة إلى إنكار المؤامرة اليهودية ، وإنكار أن يكون اليهود هم الذى اخترعوا التفكيكية لإفساد العالم ، ويلقى بدلا من ذلك باللائمة على الحضارة الغربية العلمانية التى هى بطبعها ذات طبيعة تفكيكية[231]. **وقد أثبتت الوقائع أن الدكتور المسيرى كان حسن الظن إلى حد قاتل** ، فلو كان الرجل يعيش بيننا اليوم ، ويرى بعينيه كيف نجح اليهود فى وضع مواطنين يهود على قمة قصور الرئاسة فى كبرى الدول الإسلامية ، وكيف صاروا يتلاعبون بالدول العظمى ، لمزق بيديه كثيرا مما كتبه. وفضلا عن ذلك **فرؤية عبد الوهاب المسيرى تتناقض تماما مع رؤية القرآن** الذى ينظر إلى اليهود على أنهم جنس ذو طابع أخلاقى ودينى خاص ، طابع أقرب للشياطين منه إلى البشر ، وقد قال القرآن على اليهود مثلا: {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا

---

230) **الحداثة وما بعد الحداثة**. صفحة 139- 141.

231) يقول دكتور عبد الوهاب المسيرى: [قراءة سوزان هاندلمان وغيرها لواقع اليهود هى قراءة غربية عنصرية متحيزة تحول اليهود إلى قوة فريدة مخيفة من قوى الظلام ، تقف خارج المجتمع والتاريخ ، وهى بذلك تشيئهم تماما. والقراءة الدقيقة والإنسانية لواقع اليهود تبين أنهم لا يُكونون كلاً متماسكا ، وأنهم ليسوا شعبا منبوذا ولا مقبولا ، وأنهم لا يحسون بالشتات أو عدم الانتماء أو فقدان الهوية حتى لو ادعى بعضهم ذلك. فاليهود جماعات شتى تستقى كل منها هويتها الحضارية من التشكيل الحضارى الذى تنتمى إليه. ولا شك فى أن عدم الانتماء وفقدان الهوية...إلخ هى خصائص توجد فى بعض أعضاء الجماعات اليهودية فى زمان ومكان محددين (وهى كانت جماعات مهاجرة فى العالم الغربى حتى عهد قريب) ، ولكنها لا توجد فى كل زمان ومكان ، وهى غالبا ما تزول بزوال الظروف الحضارية والاجتماعية التى أدت إلى ظهورها ، فلا توجد هوية يهودية واحدة ، بل توجد هويات يهودية تختلف باختلاف المجتمعات التى ينتمى إليها أعضاء الجماعات اليهودية. ولكن العنصريين والصهاينة قاموا بتحويل الجزء إلى كل ، والظاهرة المؤقتة إلى صفة دائمة أزلية ، والتبادل الاختيارى إلى سببية صلبة ، ثم قاموا بانتزاع اليهود من أى سياق حضارى وإنسانى ، وحولوا السمة الجزئية إلى سمة عامة دائمة لصيقة بطبيعة اليهود فى كل زمان ومكان ، وبذلك تحول المثقف اليهودى إلى قوة ميتافيزيقية ، الرغبة فى التفكيك جزء عضوى حتمى من طبيعته. إن سوزان هاندلمان وغيرها من المؤرخين انطلاقا عنصريتهم (المعادية لليهود/الصهيونية) جعلوا من العناصر الفرعية (وجود عناصر تفكيكية فى بعض جوانب الفكر الدينى اليهودى وفى فكر بعض المثقفين من أعضاء الجماعات اليهودية) عنصرا أساسيا وحاسما. وفى تصورى أن هذا العنصر الحاسم هو أن الحضارة الغربية العلمانية الحديثة – كما أسلفنا- هى فى جوهرها حضارة تفكيكية ، فحين أعلنت هذه الحضارة إلغاء فكرة الإله أو تهميشها لم يكن هناك بد من تفسير الإنسان فى إطار طبيعى مادى ، فأصبح جزءا لا يتجزأ من الطبيعة/المادة يرد فى كليته إليها ، فيتحول من كائن إنسانى متجاوز للطبيعة/المادة إلى كائن مادى يمكن تفكيكه إلى عناصره المادية الأولية ، خاضع لحركة الطبيعة والمادة ، غير قادر على تجاوزها أو التحكم فيها... إن الانتماء إلى العقيدة أو الإثنية اليهودية لا يفسر النزعة التفكيكية فى فكر المثقفين من أعضاء الجماعات اليهودية (ابتداء من القرن التاسع عشر) ، وإنما يفسرها الانتماء إلى الحضارة الغربية التى يهيمن عليها النموذج المادى اللاعقلانى السائل. وتفكيكية الحضارة الغربية (لا هيمنة اليهود ، وسيطرتهم على الإعلام ، وطبيعتهم الشريرة ، إلى آخر هذه الترهات) هى ما يفسر انتشار فكر دريدا وفلسفته التفكيكية قد عمقت من تفكيكيته ، ولكنها لم تتسبب فيها بداية ، ولا يمكنها أن تفسر ذيوع وتأثير الفكر التفكيكى بهذا الشكل المذهل...والشىء نفسه ينطبق على دريدا ، فهو ولا شك قد تعمقت نزعته التفكيكية من خلال قراءة بعض (لا كل) جوانب التراث الدينى اليهودى ، ولكنها لم تنشئها. ويمكن القول بأن دريدا كان مرشحا أكثر من أى مفكر آخر لأن يصبح فيلسوف التفكيكية ، لا بسبب يهوديته ، وإنما بسبب هامشيته (التى لعبت يهوديته دورا فى تعميقها) ، فهو شخص مقتلع لا جذور له....] (**الحداثة وما بعد الحداثة**: صفحة 143-147)

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [المائدة: 64]. ولن نطيل فى هذه النقطة لأن ما نراه بأعيننا الآن أوضح من الشمس.

وإذا عدنا إلى كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج" لوجدنا أن من الحقائق الخطيرة التى أوردها أن **هناك علاقة بين اليهودية والشيوعية**. ووجود علاقة بين الاثنين أمر غريب لأن الشيوعية تتبنى الإلحاد ، أما اليهود فيؤمنون بالله ، بيد أن الكتاب يؤكد على وجود علاقة بين الاثنين. ومن أهم ما لفت نظرى أن زوجة لينين (زعيم الثورة الشيوعية فى روسيا) وكذلك زوجة ستالين (خليفة لينين) وزوجة نائب ستالين كن يهوديات. ويؤكد المؤلف أن رؤساء المجمع النورانى اليهودى هم الذين صمموا العقيدة المادية الإلحادية التى نشرت عام 1848م فى "البيان الشيوعى" الذى كتبه كارل ماركس. وكان عم ماركس حاخاما من حاخامات اليهود ، ولكنه انفصل رسميا من السلك الكهنوتى الأعلى[232]. وقد ورد فى بروتوكولات حكماء صهيون ما يؤكد هذا الكلام: (لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء. **ولاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه وقد رتبناه من قبل)**. ويقول مترجم البروتوكولات تعليقا على هذه النقطة: (تنبأ نيتشه في كتابه "وراء الخير والشر" لفلسفة ماركس اليهودية الشيوعية بالانتشار، وحدد الدولة التي ستعتنقها وهي روسيا، وما كان أحد يتصور يومئذ ذلك، فتحققت نبوءته)[233]. وفى فقرة أخرى من البروتوكولات نجد تأكيدا أوضح على أن الشيوعية صناعة يهودية ، كما نجد إشارة إلى علاقة اليهودية بالماسونية: (إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين. **ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها** متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للانسانية، وهذا ما تبشر به **الماسونية الاجتماعية).**[234]

الآن بدأت أفهم لماذا كان كل مفكرى ما بعد الحداثة من الماركسيين الشيوعيين فقط. إن هذا دليل جديد على أن ما بعد الحداثة صناعة يهودية ، مثلها مثل الشيوعية. وقد ذكرنا منذ قليل كيف **اعترف**

---

[232]) **أحجار على رقعة الشطرنج**. صفحة 55-56.

[233]) **الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون** (ص: 123). ترجمة: محمد خليفة التونسي. قدم له: عباس محمود العقاد. الطبعة الرابعة. دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان- 1961م.

[234]) **الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون** (ص: 127)

مؤلفو بروتوكولات حكماء صهيون بأنهم وقفوا وراء ذيوع فلسفة نيتشه الذى يعتبر الأب الروحى لما بعد الحداثة.

ومن أخطر ما ورد فى كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج" أن **اليهودية والماسونية رغم محاربتهما للأديان وتشجيعهما للإلحاد إلا أن هذا ليس هدفهما النهائى ، ولكن الهدف النهائى هو القضاء على كل من المسيحية والإلحاد فى نفس الوقت ، بحيث يتم إفساح المجال كى تسود عبادة الشيطان فى كل أرجاء العالم.** وفى هذا يورد المؤلف مقتطفا من رسال أرسلها الجنرال بابيك زعيم عبدة الشيطان[235] إلى مازينى عام 1871م، والرسالة موجودة فى المتحف البريطانى كما يقول المؤلف:

(**سوف نطلق العنان للحركات الإلحادية والحركات العدمية الهدامة** ، وسوف نعمل لإحداث كارثة إنسانية عامة تبين بشاعتها اللامتناهية لكل الأمم نتائج الإلحاد المطلق ، وسيرون فيه منبع الوحشية ومصدر الهزة الدموية الكبرى. وعندئذ سيجد مواطنو جميع الأمم أنفسهم مجبرين على الدفاع عن أنفسهم حيال تلك الأقلية من دعاة الثورة العالمية ، فيهبون للقضاء على أفرادها محطمى الحضارات. وستجد الجماهير المسيحية آنئذ أن فكرتها اللاهوتية قد أصبحت تائهة غير ذات معنى ، وستكون هذه الجماهير متعطشة إلى مثال تتوجه إليه بالعبادة. وعندئذ **يأتيها النور الحقيقى من عقيدة الشيطان الصافية التى ستصبح ظاهرة عالمية** ، والتى ستأتى نتيجة لرد الفعل العام لدى الجماهير بعد **تدمير المسيحية والإلحاد معا وفى وقت واحد!**)[236]

الآن أصبح بإمكان المرء أن يعرف **من الذى يقف وراء فلسفة ما بعد الحداثة التى غيرت وجه الحياة على الأرض فى العقود الخمسة الأخيرة: إنه الحلف اليهودي الماسوني الذى يهدف إلى نشر عبادة الشيطان.**

لقد أوعز اليهود إلى عملائهم فى أروقة الفلسفة ابتكار فكر ما بعد الحداثة التى ترفض الدين ، وترحب بأى عقيدة خرافية بما فى ذلك السحر وعبادة الأوثان والشيطان ، وفى نفس الوقت تحقر من شأن العلم، وتعتبره مجرد وسلية ضمن وسائل أخرى للمعرفة. وهكذا تراجع دور الدين ، كما تراجع دور الإلحاد

---

[235]) ذكر المؤلف فى صفحة 19 من الكتاب أن هناك العديد من الوثائق التى تبرهن بشكل قاطع أن بابيك كان الرئيس الروحى للنظام الكهنوتى الشيطانى مثل وايزهاوبت فى عصره.
[236]) **أحجار على رقعة الشطرنج**. صفحة 18.

نسبيا فى الغرب فى السنوات الأخيرة ، وصاحب ذلك انتشار واسع لعبادات غريبة وطقوس شاذة وصور شيطانية فى كل مكان ، كما زادت وتيرة تدمير الأخلاق بشكل لم يسبق له مثيل حتى أصبح العرى والشذوذ أمورا يُنبذ بل يُعاقب كل من يجرؤ على مهاجمتهما.

وبصرف النظر عن ميلنا لتصديق كلام مؤلف الكتاب المذكور (وليام كار) أو تكذيبه فإن الشىء الذى لا يمكن أن يختلف عليه أحد هو أن المؤلف أخبرنا عام 1958 م بأن هناك مخططا للقضاء على كل من المسيحية والإلحاد بهدف التمهيد لعبادة الشيطان ، وأن هذه النبوءة تتحقق أمامنا اليوم بدرجة كبيرة، وهو ما يجعلنى آخذ بجدية شديدة كل كلمة قالها هذا الكتاب ، طبعا مع الأخذ فى الاعتبار أن المخطط العام لليهود يمكن أن تدخل عليه تعديلات فى التفاصيل طبقا للظروف والمستجدات.

ومن يدقق فى الكتاب سيجد أن المؤلف لا يوضح فرقا بين اليهود ، وعبدة الشيطان ، والماسونيين. ويشعر المرء من كلامه أن هذه الجهات الثلاثة تعمل معا بطريقة شديدة التناغم والتنسيق ، أو أنها ثلاث واجهات لكيان واحد. وعمليا من الصعب على قارىء الكتاب أن يجد على أرض الواقع شيئا يفرق هذه الجهات الثلاثة ، فالمؤلف ينسب إليها نفس الأفعال والأهداف والمؤامرات. ولكن يطغى اليهود على أغلب صفحات الكتاب ، فكل المؤامرات والحروب والثورات كانت من تخطيطهم باعتبارهم رجال المال والمرابين الذين يتحكمون فى اقتصادات الدول ، ويحركون رؤساء الدول كقطع الشطرنج.

وبناء على ما سبق أن ذكره المؤلف من أن عبدة الشيطان اخترقوا الماسونية ، وبناء على ما سبق أن كشفناه عن علاقة اليهود بالسحر عبر التاريخ ، وبناء على الحقيقة المعروفة المتعلقة بأن السحر يتضمن عبادة الشيطان ، إزاء كل هذا يجد المرء نفسه فى غير حاجة للبحث عن فرق بين اليهودية والماسونية وعبادة الشيطان. وليس هناك أهمية لسؤال: من يسيطر على من: اليهود أم الماسون؟ لا قيمة لهذا السؤال لأن الشيطان يسيطر على الاثنين ، وكل من اليهود والماسون يرضخون لرغبة الشيطان فى تخريب العالم انتقاما من آدم وذريته. وإضافة إلى ذلك فإن اليهود لديهم دافع آخر لتخريب البشرية، وهو أنهم يكرهون كل إنسان غير يهودى ، وهذا يزيد من حرصهم على نشر الشر فى كل مكان.

ولكن من جهة أخرى ربما كانت الحقيقة أن الماسونية من صنع اليهود لأن اليهود يحتاجون لواجهة غير يهودية تساعدهم على التغلغل داخل الدول ، والسيطرة عليها لأن من الصعب تجنيد المثقفين

والسياسيين والشخصيات المرموقة كى تعمل لصالح دين صغير وشعب ضئيل كاليهود، لكن رفع شعار الإنسانية والأممية والحرية ومحاربة الأديان وغيرها من الشعارات البراقة يمكن أن يستميل كثيرا من المثقفين المعاصرين دون أن يشعروا بالاشمئزاز من كونهم تابعين لدين صغير وطائفة حقيرة كاليهود. دعك من هذا كله ، واعتبر اليهودية والماسونية وعبادة الشيطان كلمات مترادفة مثل (جاء) و(أقبل) و(حضر). وقد أخبرنا القرآن عن هذا الحلف فى آية أخرى فى غاية الروعة تقول:

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: 128، 129]

إن الله تعالى سيقول يوم القيامة للجن أنهم نجحوا فى اجتذاب أتباع كثيرين من البشر (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ). وهنا سيشعر البشر بالخجل بعد أن اكتشفوا أنهم لم يكونوا أكثر من أتباع ودمى يحركها إبليس ويمتطيها لتحقيق مآربه ، فيرد هؤلاء البشر بما يحفظ ماء وجوههم قائلين: (رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ). وهذه الجملة تعنى أن أنه إذا كان الجن قد استخدموا الإنس لتحقيق أغراضهم فإن الإنس أيضا قد استخدموا الجن لتحقيق أغراضهم ، فالاستغلال لم يكن من طرف واحد ، وكل فريق حقق متعته من خلال الآخر. ولهذا يمكنك أن تقول أن الشياطين استخدموا اليهود لتخريب البشرية ، وأن اليهود كذلك استخدموا الشياطين لتخريب البشرية التى يعتبرونها بأسرها عدوا لدودا لليهود. ويعقب القرآن بعدها قائلا: (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ، أى أن الله تعالى يجعل كل ظالم يعثر على ظالم يعينه على ظلمه.

هذه باختصار قصة الحلف الشيطانى الذى صنع ما بعد الحداثة.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

2- الحداثة ثم ما بعد الحداثة ثم إبليس

سميت فلسفة ما بعد الحداثة بهذا الاسم لأنها جاءت كخطوة أعقبت فكر "الحداثة" أو "التنوير" الذى يؤيد العقل والعلم والإلحاد. وقد لخصت الموسوعة البريطانية الاختلافات بين الحداثة وبين ما بعد الحداثة فيما يلى[237]:

1- تؤمن "الحداثة" بوجود **حقيقة طبيعية موضوعية ، حقيقة وجودها وخصائصها مستقلين منطقيا عن البشر**: عن عقولهم أو مجتمعاتهم أو ممارساتهم الاجتماعية أو تقنياتهم البحثية. أما "ما بعد الحداثة" فتنبذ هذه الفكرة باعتبارها نوع من أنواع الواقعية الساذجة. **وهذا الواقع طبقا لما بعد الحداثة هو بناء تصورى** وصنيعة للممارسة العلمية واللغة. وهذه النقطة تنطبق أيضا على البحث فى أحداث الماضى بواسطة المؤرخين وعلى وصف المؤسسات والبنى والممارسات الاجتماعية بواسطة علماء الاجتماع.

2- تؤمن الحداثة أن التقارير الوصفية والتفسيرية للعلماء والمؤرخين يمكن من حيث المبدأ أن تكون صحيحة أو كاذبة بشكل موضوعى. أما ما بعد الحداثة فتنكر وجهة النظر هذه ، وهذا ينبع من رفضها لوجود الحقيقة الطبيعية الموضوعية ، وفى بعض الأحيان يعبر عن ذلك بالقول أنه **لا يوجد شىء اسمه "الحقيقة"**.

3-تؤكد الحداثة أن **العقل والمنطق لهما شرعية شاملة** ، بمعنى أن قوانينهما واحدة بالنسبة لأى مفكر وأى مجال من مجالات المعرفة أو تنطبق بالتساوى عليهم. أما بالنسبة لما بعد الحداثة فإن العقل والمنطق مجرد أبنية تصورية ، وبالتالى فهما مشروعان فقط داخل التقاليد الفكرية الراسخة التى يستخدمان فيها.

4-تؤمن الحداثة أنه **من خلال استخدام العقل والمنطق** ومن خلال الأدوات الأكثر تخصصا التى يمدنا بها العلم والتقنية يحتمل أن يغير البشر أنفسهم ومجتمعاتهم إلى الأفضل. ومن المعقول أن نتوقع أن مجتمعات المستقبل ستكون أكثر إنسانية وعدالة واستنارة ورخاء مما هى عليه الآن. أما ما بعد الحداثة فتنكر إيمان التنوير بالعلم والتكنولوجيا كأدوات للتقدم البشرى.

---

237) **Postmodernism**. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica

وفى الحقيقة فإن كثيرا من ما بعد الحداثيين يؤمنون بأن السعى الضال أو غير الموجه وراء المعرفة العلمية والتكنولوجية أدى إلى تطوير تقنيات للقتل على نطاق واسع فى الحرب العالمية الثانية. ويذهب بعضهم إلى حد القول بأن العلم والتقنية – وحتى العقل والمنطق– بطبعها مدمرة وقمعية لأنها استخدمت بواسطة الأشرار خاصة أثناء القرن العشرين لتدمير وظلم الآخرين.

5– تؤمن الحداثة بوجود شىء اسمه **الطبيعة البشرية** يتكون من الملكات والاستعدادات والنزعات التى هى –بمعنى ما– موجودة لدى البشر عند الولادة ، وليست متعلَّمَة أو مغروسة من خلال القوى الاجتماعية. أما ما بعد الحداثة فتصر على أن **كل (أو تقريبا كل) جوانب نفسية الإنسان محددة اجتماعيا بشكل كامل.**

6– تؤمن الحداثة بأن اللغة تشير إلى – وتمثل– واقعا خارج نفسها. لكن طبقا لما بعد الحداثة فإن اللغة ليست "مرآة الطبيعة" وفقا لتوصيف الفيلسوف الأمريكى البراجماتى ريتشارد رورتى لرؤية التنوير. ويزعم ما بعد الحداثيون – مستلهمين أعمال عالم اللغويات السويسرى فرديناند دى سوسير– أن اللغة من ناحية الدلالة مكتفية بذاتها أو **تشير إلى ذاتها: إن معنى إحدى الكلمات ليس شيئا ثابتا فى العالم أو حتى فكرة فى الذهن** ، ولكنها **مدى من التناقضات والاختلافات مع معانى كلمات أخرى. وبما أن المعانى –بهذا المعنى– دوال لمعانى أخرى – التى هى نفسها دوال لمعان أخرى ، وهكذا– فإنها ليست حاضرة بشكل كامل قط للمتكلم أو المستمع ولكنها تؤجل بلا نهاية.** والإشارة إلى الذات تميز ليس فقط اللغات الطبيعية ، ولكن أيضا الخطابات الأكثر تخصصا للمجتمعات أو التقاليد الخاصة. وهذه الخطابات مغروسة فى الممارسات الاجتماعية وهى تعكس المخططات التصورية والقيم الخلقية والفكرية للمجتمع أو التقاليد التى تستخدم فيها. ونظرة ما بعد الحداثة للغة والخطاب تعود فى الجانب الأكبر منها إلى الفيلسوف الفرنسى والمنظر الأدبى جاك دريدا منشىء التفكيك والممارس الرائد له.

7–تؤمن الحداثة أن من الممكن للبشر أن يكتسبوا المعرفة بالواقع الطبيعى ، وهذه المعرفة يمكن تبريرها فى نهاية المطاف على أساس الدليل أو المبادىء التى – أو التى يمكنها أن – تعرف مباشرة بالحدس أو بطريق آخر بشكل مؤكد. أما ما بعد الحداثيون فيرفضون الأساسية الفلسفية – أى المحاولة التى ربما أفضل مثال عليها مقولة الفيلسوف الفرنسى فى القرن السابع

عشر رينيه ديكارت "أنا أفكر إذن أنا موجود" –للتعرف على أساس من اليقين عليها يقوم صرح المعرفة التجريبية (بما فى ذلك المعرفة العلمية).

8– يرى الحداثيون أن من الممكن على الأقل من حيث المبدأ أن نبنى **نظريات عامة تفسر جوانب كثيرة من العالم الطبيعى والاجتماعى** داخل مجال معين من مجالات المعرفة مثل نظرية عامة للتاريخ الإنسانى كالمادية الجدلية. وإضافة إلى ذلك يجب أن يكون أحد أهداف البحث العلمى والتاريخى أن يبنى مثل هذه النظريات حتى إن لم يكن من الممكن الحصول عليها عمليا بشكل كامل قط. أما ما بعد الحداثة فتستبعد هذا المفهوم باعتباره حلما مستحيلا ، وباعتباره فعلا عرضا لميل غير صحى داخل خطابات التنوير لتَبَنِّى الأنساق الفكرية الجامعة (كما سماها الفيلسوف الفرنسى إيمانويل ليفيناس) أو القصص البعدية الكبرى للتطور البيولوجى والتاريخى والاجتماعى البشرى (كما زعم الفيلسوف الفرنسى جان فرانسوا ليوتارد). إن هذه النظريات خبيثة ليس فقط لأنها كاذبة ولكن لأنها تفرض بشكل فعال التوافق على وجهات نظر أو خطابات أخرى ، وبالتالى تقمعها أو تهمشها أو تسكتها. وقد سوى دريدا نفسه الميل النظرى نحو الشمول Totality بالشمولية Totalitarianism.

إن فلسفة ما بعد الحداثة جاءت كثورة على الحداثة التى كانت تؤمن بالموضوعية والعقل والمنطق والعلم. ورغم وجود إجماع بين الفلاسفة على أن هناك تناقضا جوهريا بين الحداثة وما بعد الحداثة إلا أنه كان من الغريب بالنسبة لى أن يقع اختيارهم على مصطلح "**ما بعد الحداثة**" ، **وليس "ضد الحداثة"** Antimodernism. وبعد قليل من التفكير اتضح لى السبب. إن مقطع (ما بعد) يدل على أن ما بعد الحداثة تسير على درب الحداثة ، ولا تتعارض معها حتى لو بدا الأمر خلاف ذلك. إنهما يسيران فى اتجاه واحد نحو غاية واحدة ، ولا تضاد بينهما. كل ما فى الأمر أن **ما بعد الحداثة كانت أكثر جرأة ، وتجاوزت الأهداف المحدودة للحداثة.** لقد كانت الحداثة (أو التنوير) ثورة إلحادية باسم العقل والعلم على الدين. ولما نجحت الحداثة ، وسددت ضربات قوية للدين ، كان من الطبيعى أن تطمع قوى الشر العالمية (الماسونية واليهودية) فى خطوة أبعد ، تؤكد النصر ، وترسخ الهيمنة. وهذه الخطوة تمثلت فى فكر يفتح الباب على مصراعيه لعبادة الشيطان ، وتدمير الأخلاق ، وإخلاء الحياة من كل معنى. وعلى ذلك **فالتناقض بين الحداثة وما بعد الحداثة ليس جوهريا كما يبدو من المقارنات المتكررة بينهما ،**

فكل منهما يمثل طعنة للإيمان بالله. ولهذا السبب فضل الخبثاء مصطلح "ما بعد الحداثة" وليس "ضد الحداثة".

ومن تجربتى الشخصية تبين لى أن الجوانب المشتركة التى تربط بين "الحداثة" و "ما بعد الحداثة" أقوى مما بينهما من تناقض. والدليل على ذلك هو التحالف الواضح الذى نشهده فى مواقع التواصل الاجتماعى بين الملحدين الذى يرفعون شعار العلم والعقل والمنطق (وهى مبادىء الحداثة) وبين عبدة الشيطان والماسون والسحرة (الذين تستند شرعيتهم إلى ما بعد الحداثة).

وأذكر أنه كان لى صديق على الفيسبوك الإنجليزى ، فوجدته فى أحد الأيام يروج لبحث علمى يرى أنه يثبت قضايا الإلحاد. فهمت من ذلك – ومن أمور أخرى– أن الرجل ملحد ولا يثق إلا بالعلم. لكن بعدها بأيام قليلة وجدته يحاول أن يقنعنى فى رسالة شخصية بأن الإنسان يمكن أن يتواصل مع الله ويدخل فى علاقة روحية مباشرة معه من قبيل ما نقرأة فى فلسفة الحلول والاتحاد القديمة. مثَّل لى هذا الرجل دليلا على وجود تحالف بين الحداثة (المتمثلة فى الإلحاد القائم على العلم) وما بعد الحداثة (التى تسمح بوجود الخرافات الصوفية الكفرية).

وكان لى صديق أجنبى آخر يقوم على إدارة صفحة إنجليزية ترفع العقل والعلم شعارا (وهذه مبادىء الحداثة) ، لكن فى أحد الأيام وجدت هذا الصديق يتكلم عن تجربة حقيقية مر بها ، حيث تمكنت روحه من الخروج من جسده لفترة من الوقت. ولا أذكر تفاصيل كلامه بالضبط ، ولكنه كان يتحدث على أى حال عن أمر خارق حدث له (وهذا يدخل فى باب ما بعد الحداثة).

إن كلا من الحداثة وما بعد الحداثة صور مختلفة لمكر الشيطان.

وكثيرا ما ساءلت نفسى: **لماذا لم تكتف قوى الشر بنشر الإلحاد فى العالم؟ لماذا ثاروا على فلسفة الحداثة الإلحادية ، ونشروا بدلا منها ما بعد الحداثة؟** أستطيع الآن أن أفهم السبب:

أولا: الإلحاد هو إنكار وجود الله ، أما ما بعد الحداثة فتفتح الباب على مصراعيه ليس فقط لإنكار وجود الله ، ولكن أيضا لكل العقائد الخرافية التى تتضمن عبادة الشيطان. ولا شك أن نجاح إبليس فى إقناع البشر بعبادته أفضل بالنسبة له من نجاحه فى جعلهم فقط ينكرون وجود الله ، وذلك لأن عبادة

الشيطان تتضمن الكفر بالله ، وتزيد عليه الإيمان بغيره. وأذكر أنه لما قبض على أول تنظيم لعبدة الشيطان فى تاريخ مصر منذ حوالى 25 عاما قامت ضجة كبرى فى وسائل الإعلام ، وشعرنا جميعا بصدمة عنيفة من مجرد معرفة أن من الممكن لإنسان أن يفكر – مجرد تفكير – فى عبادة الشيطان. وأحسست حينئذ أن إبليس بلغت به الجرأة درجة لم يسبق لها مثيل. إن إبليس شخصية شديدة الغرور ، وهذه النوعية لا يقف طموحها عند حد ، ولا يمكن أن تكتفى بالقضاء على الإيمان بالله ، وسيكون هدفها النهائى هو أن تجلس بدلا من الله على عرش الكون.

ثانيا: فكر ما بعد الحداثة يمزق المجتعات بشكل كامل كما أوضحنا ، وهذا يسهل من مهمة سيطرة قوى الشر اليهودية والشيطانية على العالم.

إن الإلحاد لا يمكن أن يكون هو الفلسفة النهائية التى يروج لها حلف اليهود والماسون لأن طموحات إبليس بلا حدود ، كما أن التمسك الحرفى بالإلحاد يؤدى إلى إنكار وجود كل الغيبيات ، بما فى ذلك الشيطان نفسه. **لقد أيد الماسون واليهود الإلحاد كمرحلة أولى وخطوة مبدئية ، لكن الهدف النهائى هو عبادة الشيطان.** ولن يحصد عبدة الشيطان إلا الخيبة والخزى.

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

3- ما بعد الإلحاد

كلما ذكرت مصطلح ما بعد الحداثة أمام أحد لم ألق منه إلا عدم الاكتراث ، وكأننى أتكلم عن نظرية جديدة أو مذهب نادر لا يتبعه إلا قلة قليلة من الناس فى العالم ، مع أن الأمر غير ذلك تماما ، فقد قرأت يوما أن الأدبيات التى كُتبت حول ما بعد الحداثة تفوق تلك التى كُتبت حول عصر النهضة فى أوروبا. فكرت فى السبب الذى جعل ما بعد الحداثة ذائعة الشهرة فى الغرب ، لكنها تكاد لا تُذكر فى بلاد المسلمين رغم تأثيرها الشديد عليهم.

بعد قليل زالت الدهشة تماما. إن الدعوة لفلسفة ما بعد الحداثة بكل صراحة فى بلاد المسلمين ستقابل باستهجان شديد ومقاومة شرسة لأن الإسلام لا يزال يتمتع بقدر معقول من القوة خلافا للوضع فى أوربا وأمريكا حيث تلقى الدين ضربات ساحقة أصابته بالموت أو الشلل.

والحقيقة **أننا متأخرون عن الغرب بمقدار 200 سنة على الأقل ، ليس فقط فى التعليم والصناعة والتقنية، ولكن أيضا فى الانفصال عن الدين.** لقد سبقَنَا الغرب إلى الإلحاد وهجر الدين منذ سنوات طويلة ، ولذا كان من السهل أن يتقبل المجتمع هناك فلسفة ما بعد الحداثة التى لا يقوم للأديان السماوية معها قائمة. ثم إن ما جاء به دريدا وليوتارد وورتى وغيرهم لم يكن جديدا تماما ، فقد سبقه تمهيد فلسفى ضرورى من روسو وكانتْ ونيتشه وفتجنشتين وهيدجر. أما فى بلاد المسلمين فليس هناك تمهيد مماثل لأن الفلسفة فى بلادنا علم شبه ميت. نحن الآن نعيش مرحلة أشبه بعصر النهضة أو عصر التنوير فى أوربا ، حين كان الصراع بين الدين والإلحاد على أشده. وأعداء الإسلام يدركون ذلك جيدا، ويعلمون أن **الخطوة الأولى المنطقية التى تصلح للمسلمين هى نشر الإلحاد** ، وهذه الخطوة تتم مع الأسف بخطى ثابتة ونجاح كبير الآن. **وإن اكتمل نجاح الخطوة الأولى فسيكون من السهل القيام بخطوات أخرى أكثر جرأة وتطرفا بما فى ذلك نشر فكر ما بعد الحداثة بشكل أكثر صراحة، بما يتضمنه ذلك من الترويج للخرافات والأفكار المجنونة وعبادة الشيطان** التى يسهل على من طلَّق الدين أن يعتنقها.

والخبر السيء أن الغرب لن ينتظر علينا 200 سنة حتى يبدأ فى ترويج ما بعد الحداثة بصراحة ، فقد اختصرت التكنولوجيا الزمن ، وقربت العولمة الشرق والغرب بأسرع من الخيال ، وما تطلب قرونا كى يتحقق صار من السهل أن يُنجز فى عقد واحد وربما أقل كثيرا. وقد سمعنا مؤخرا عن لعبة إلكترونية

شهيرة فوجىء اللاعبون يوما بأنها أصبحت تتطلب منهم أن يسجدوا لصنم ، وهو ما يعنى أن الوثنية الجديدة –التى هى نبتة فى أرض ما بعد الحداثة– قد قررت أن تغزو العالم كله ، وما عليك إلا أن تقلب بصرك بين مواقع الإنترنت وصفحات الفيسبوك الأجنبية لترى مدى الانتشار الهائل للصور الغريبة والاعتقادات الشاذة والعبادات الشيطانية.

فليشمر المسلمون عن سواعدهم، فالسنوات القليلة القادمة تحمل للإسلام تحديات فكرية خطيرة لا يعلم مداها إلا الله. إن إبليس يصول ويجول فى كل أرجاء الأرض، والبشرية الساذجة تلهث وراءه ، عسى أن يصيبها شىء مما يغريها به من لذات ومتع ومستقبل مشرق. وسيظل إبليس يجرى ، وسيظل بنو آدم يجرون على دربه ، وستتسارع وتيرة العدْو إلى أن يصطدم الجميع فجأة بما لم يكن فى الحسبان. إنها لحظة النهاية والدمار الشامل للكون. لقد قامت الساعة! يا له من يوم مخيف يذل فيه الأعزة ، ويعلو فيه الأذلة! فى هذا اليوم سيعض الفلاسفة على أيديهم من الندم ، وسُيرى إبليس فارا من تلاميذه الذين نشروا الفساد فى الأرض. سيشاهَد دريدا وماركس ودوركايم وفرويد ، وهم يحاولون الهروب من الزلازل والحرائق والبراكين ، وأبصارهم تتقلب فى كل مكان باحثين عن أساطين عائلة روتشيلد اليهودية الذين صنعوهم ، وقدموهم للعالم على أنهم رجال الساعة وأنبياء العصر. وبعد طول بحث ستقع أبصارهم على الممولين اليهود ، وهم عراة مثلهم ، يجرون فى ذعر فرارا من ملائكة العذاب التى تلاحقهم، وتأخذهم بالنواصى والأقدام: { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} [الرحمن: 41]. فى هذا اليوم لن تجدى عبقرية جاك دريدا ومهارته فى التلاعب بالكلمات وابتكار المصطلحات. سيقف دريدا أمام الله ، منكس الرأس ، وقد اسود وجهه ، وذهبت وسامته ، وحين توجه إليه الأسئلة ، ويهم بالإجابة يأتيه صوت صارم :{قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [المؤمنون: 108 – 111]. لقد فقد القدرة على النطق ، فأصبح عاجزا عن ممارسة الحرفة التى لم يكن يحسن غيرها ، والتى استطاع بها أن يضل الملايين.

اللهم عجل بهذا اليوم ، فقد بلغ بنا العجز مداه ، ولم نعد نملك إلا القلم ، بعد أن شُلت أيدينا ، وقطعت ألسنتا ، وضاع أولادنا ، وتحكم فينا الرعاع وقتلة الأنبياء. اللهم لا ملجأ إلا إليك ، فكن معنا ، وأنزل

علينا رحماتك ، وطهرنا ، وطهر الأرض من رجس اليهود وكل من سار فى ركب الشيطان. رب إما ترينى ما يوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين.

تم الكتاب بحمد الله

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

دكتور محمد سعيد المكاوى

المراجع

المراجع العربية

1. **أحجار على رقعة الشطرنج: التطبيق العملى للبروتوكولات**. تأليف ويليام غاى كار. دار الحرية للنشر والتوزيع. القاهرة. 2013.
2. **أقباط مسلمون قبل محمد عليه الصلاة والسلام**. تأليف المهندس فاضل سليمان. الناشر شركة النور للإنتاج الإعلامى والتوزيع- مصر 2010م.
3. **البنيوية وما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا**. تحرير جون ستروك. ترجمة دكتور محمد عصفور. سلسلة عالم المعرفة 206. فبراير 1996م.
4. **الحداثة وما بعد الحداثة**. تأليف الدكتورعبد الوهاب المسيرى والدكتورفتحى التريكى. دار الفكر. دمشق- سورية- الطبعة الثالثة- 2010م
5. **الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون**. ترجمة: محمد خليفة التونسي. قدم له: عباس محمود العقاد. الطبعة الرابعة. دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان- 1961م.
6. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**. تأليف أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين – بيروت. الطبعة الرابعة. 1407 هـ - 1987 م
7. **التفكيكية النظرية والممارسة**. تأليف كريستوفر نوريس. ترجمة دكتور صبرى محمد حسن. دار المريخ للنشر. الرياض- السعودية. 1989م
8. **الفكر المصرى فى العصر المسيحى**. تأليف دكتور رأفت عبد الحميد. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. 2000م.
9. **الكتاب المقدس:** ترجمة فانDايك وسميث- دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط - 1995م.
10. **المجامع المسكونية المقدسة: مجمع القسطنطينية 381م**- الأنبا بيشوى. موقع الأنبا تكلا: https://st-takla.org/Coptic-History/CopticHistory_02-History-of-the-Coptic-Church-Councils-n-Christian-Heresies/Encyclopedia-Coptica-History__006-Magma3-Elk-Kostantinea-381.html
11. **المجمع المسكونى الثانى القسطنطينية الأول**. تأليف الأب ميشال أبرص والأب أنطوان عرب. مؤسسة دكاش للطباعة. الطبعة الأولى 2003م
12. **الموسوعة الكاثوليكية**: مقال بعنوان Ebionites.
https://www.newadvent.org/cathen/05242c.htm
13. **تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري**. دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة الثالثة - 1407 هـ
14. **تاريخ الفلسفة الحديثة**. تأليف يوسف كرم. دار المعارف بمصر- 1949م
15. **تفسير القرآن العظيم لابن كثير**: تأليف أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. تحقيق محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت. الطبعة: الأولى - 1419 هـ
16. **تفسير القرطبى**: تأليف: شمس الدين القرطبي. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة. الطبعة الثانية. 1384هـ - 1964 م.

17. **تفسير "مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي.** دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة الثالثة - 1420 هـ
18. **صحيح مسلم.** تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. دار إحياء التراث العربى- بيروت.
19. **فضائح الباطنية**. تأليف أبى حامد الغزالى. حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوى. مؤسسة دار الكتب الثقافية- الكويت. 1964م
20. **قصة الحضارة** (11/ 392). تأليف ويل ديورانت. ترجمة دكتور زكى نجيب محمود وآخرون. مكتبة الأسرة- مصر- 2001م.
21. **قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى**. تأليف ويل ديورانت. ترجمة الدكتورفتح الله محمد المشعشع. مكتبة المعارف بيروت. الطبعة السادسة 1408 هجرية- 1988م
22. **قصة الفلسفة الحديثة**. تأليف دكتور/ زكى نجيب محمود. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة- 1936م- 1355 هجرية
23. **لسان العرب لابن منظور.** دار صادر – بيروت. الطبعة الثالثة - 1414 هـ
24. **مفهوم علم الباترولوچى.** موقع الأنبا تكلا هيمانوت.
https://st-takla.org/books/fr-tadros-malaty/apostolic/concept.html .
25. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذج تفسيرى جديد.** تأليف دكتور عبد الوهاب المسيرى. دار الشروق. الطبعة الأولى. 1999م.
26. **نظرية المعرفة**. تأليف دكتور/ ذكى نجيب محمود. مؤسسة هنداوى سى آى سى. 2018
27. **نيتشه**. تأليف دكتور عبد الرحمن بدوى. الطبعة الخامسة. الناشر وكالة المطبوعات- الكويت. 1975م.
28. **وفاة المفكر والأكاديمي الجزائري محمد أركون**. موقع البى بى سى العربية. 15 سبتمبر 2010م.
https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2010/09/100915_arkoun_tc2

المراجع الإنجليزية

1. **A Reader's Guide to Contemporary Literary Theory**. By Raman Selden, Peter Widdowson, and Peter Brooker. Fith edition. PEARSON Longman. United Kingdom. 2005
2. **A Teacher's Introduction to Deconstruction**. By Sharon Crowley. Northern Arizona University. NCTE Teacher's Introduction Series. National Council of Teachers of English. USA. 1989.
3. **A Teacher's Introduction to Postmodernisrn**. By Ray Linn (Cleveland Humanities High School Reseda, California). NCTE Teacher's Introduction Series. National Council of Teachers of English, Illinois USA. 1996.
4. **Biblical Criticism and the Challenge of Postmodernism.** By Terence J. Keegan. *Biblical Interpretation* 1995; 3 (1): 1-14. DOI: https://doi.org/10.1163/156851595X00014

5. **Critical theory today a user-friendly guide**. By Lois Tyson. Second edition. Routledge. Taylor & Francis Group. New York, London. 2006.
6. **Deconstruction**. Written by The Editors of Encyclopaedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/deconstruction.
7. **Developmental milestones 3: social-emotional development.** By Gerber RJ, Wilks T, Erdie-Lalena C. *Pediatr Rev*. 2011;32(12):533-536.
8. **Developmental milestones: motor development**. By Gerber RJ, Wilks T, Erdie-Lalena C. Pediatr Rev. 2010;31(7):267-277.
9. **Ethical relativism.** BY James Rachels. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/ethical-relativism
10. **Explaining Postmodernism: *Skepticism and Socialism from Rousseau to Foucault***. By *Stephen R. C. Hicks. Expanded Edition. Ockham's Razor Publishing, 2011.*
11. **Guyton and Hall Textbook of Medical Physiology.** By John E. Hall. 12th edition. 2011. SAUNDERS ELSEVIER. USA
12. **Human physiology from cells to systems**. By Lauralee Sherwood. 7th edition. Brooks/Cole, Cengage Learning. 2010.
13. **Image, Music, Text**. By Roland Barthes. Essays selected and translated by Stephen Heath. (London: Flamingo, 1977).
14. **Jacques Derrida**. By Jack Reynolds. Internet Encyclopedia of Philosophy. ISSN 2161-0002. https://www.iep.utm.edu/derrida/.
15. **Jimmy Swaggart**. By William Pike. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/biography/Jimmy-Swaggart; accessed August 21, 2020.
16. **Kata A**. Anti-vaccine activists, Web 2.0, and the postmodern paradigm--an overview of tactics and tropes used online by the anti-vaccination movement. *Vaccine*. 2012;30(25):3778-3789.
17. **Kateřina Kočí**. Interpreting the Bible against Postmodern Biblical Hermeneutics: The Role of Time and Tradition. *Theologica* . 2014, Vol. 4 Issue 2, p219-231. 13p
18. **Meta-theories in research: positivism, postmodernism, and critical realism.** By Filipe J. Sousa. Advances in Business Marketing and Purchasing, Volume 16, 455–503
19. **Mircea A. Diaconua**. Truth and Knowledge in Postmodernism. Procedia - Social and Behavioral Sciences 137 (2014) 165 – 169.
20. **Multiculturalism**. By Jennifer L. Eagan. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/multiculturalism#ref1225694; accessed March 23, 2020.
21. **Mysticism in the 21st century**. By Connell R. Monette with John A. Shoup. Second edition. USA. 2015. ISBN: 978-1-940964-10-2
22. **Nietzsche and Postmodernism.** By Dave Robinson**.** ICON Books UK, 1999.
23. **Objectivity**. By Dwayne H. Mulder. Intenet Encyclopedia of Philosophy. Accessed July 19, 2020. https://www.iep.utm.edu/objectiv/
24. **Of Grammatology**. BY Jacques Derrida. Translated by Gayatri Chakravorty Spivak. The Johns Hopkins University Press. Baltimore and London. 1997.

25. **On Heaven and Earth: Pope Francis on Faith, Family, and the Church in the Twenty-first Century**. Translated by Alejandro Bermudez; Howard Goodman. New York: Image Books. 2013.
26. **Postmodern relativism and the challenge to overcome the "value-vacuum".** By Potgieter, Ferdinand and Van der Walt, Johannes. Stellenbosch Theological Journal 2015, Vol 1, No 1, 235–254. DOI: http://dx.doi.org/10.17570/stj.2015.v1n1.a12
27. **Postmodernism**. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica https://www.britannica.com/topic/postmodernism-philosophy#ref282558.
28. **Postmodernism**: Postmodernism and relativism. By Brian Duignan. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/postmodernism-philosophy/Postmodernism-and-relativism, accessed March 22, 2020.
29. **Postmodernism and Religious Institutions**. By Dinges, William D. The Way, 36 (3), 215-225. London. 1996. ISSN: 0043 1575. https://www.theway.org.uk/Back/36Dinges.pdf
30. **Queer theory**. By Watson, K. Group Analysis, 38, 67-81. 2005; doi:10.1177/0533316405049369
31. **Reading the Old Testament in Postmodern Times.** By Craig Bartholomew. *Tyndale Bulletin* 49.1 ((May 1998): 91-114.
32. **Rethinking Traditional Religion in the Postmodern Condition: There is any Axiological Validity of New Religiosity in the 21st Century?** By Ioan Duraa and Bogdan-Florin Chiriluțăb. The European Proceedings of Social & Behavioural Sciences. e-ISSN: 2357-1330. Published by the Future Academy. Conference: WLC 2016 - World LUMEN Congress. Logos Universality Mentality Education Novelty 2016 | LUMEN 15th Anniversary Edition. http://dx.doi.org/10.15405/epsbs.2016.09.42
33. **Science and Postmodernism: From Right-Thinking to Soft-Despotism**. By Kuntz M. *Trends Biotechnol*. 2017;35(4):283-285.
34. **Sexual Ethics and Postmodernism in Gay Rights Philosophy**. By Carlos A. Ball. 80 N.C. L. Rev. 371 (2002). Available at: http://scholarship.law.unc.edu/nclr/vol80/iss2/2
35. **Talmud and Midrsh.** By Haim Zalman Dimitrovsky and Lou Hackett Silberman. Encyclopedia Brittanica. https://www.britannica.com/topic/Talmud, accessed July 30, 2020.
36. **Talmud.** By: Wilhelm Bacher. Jewish Encyclopedia. http://www.jewishencyclopedia.com/articles/14213-talmud; accessed July 30, 2020.
37. **Textbook of medical physiology**. By Arthur C. Guyton and John E. Hall. 11th edition. ELSEVIER SAUNDERS. 2006.
38. **The postmodern assault on science. If all truths are equal, who cares what science has to say?** By Kuntz M. EMBO Rep. 2012 Oct;13(10):885-9.
39. **The postmodern condition: A report on knowledge**. By Jean-Francois Lyotard. Translation from the French by Geoff Bennington and Brian Massumi. University of Minnesota Press, Minneapolis. 1984.
40. **The Routledge Companion to Postmodernism.** Edited by Stuart Sim. Routledge, Taylor and Francis group. London. 2001. ISBN 0--415-24307--6 (Hbk).

41. **Unitarianism and Universalism**. By John Charles Godbey. Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/topic/Unitarianism; Accessed on June 26, 2020
42. **Van Niekerk, b**., 2018, 'Religion and spirituality: What are the fundamental differences?', *HTS Teologiese Studies/Theological Studies* 74(3), 4933. https://doi.org/10.4102/hts.v74i3.4933
43. **What Is Postmodern Biblical Criticism**? By A. K. M. ADAM. Fortress Press. Minneapolis. 1995.

المؤلف



دكتور/ محمد سعيد المكاوى ، باحث فى قضايا الفكر الإسلامى. ولد عام 1976م بمحافظة المنوفية فى مصر. تخرج من كلية الطب عام 2000م. حصل على الدكتوراة فى طب الأطفال عام 2011م ، ويشغل حاليا منصب أستاذ مساعد طب الأطفال بكلية طب المنوفية. نشرت للمؤلف عدة أبحاث فى المجلات الطبية العالمية ، وعدد من الكتب فى الفكر الإسلامى. يؤمن المؤلف أن ظهور الإسلام هو أعظم حدث شهدته البشرية قاطبة ، ورغم مرور أكثر من 1400 سنة على مجىء هذا الدين العظيم إلا أن ما نعرفه عن الإسلام أقل كثيرا مما نجهله ، ولا يزال هذا الدين يحمل فى جعبته ما لا يحصى من الكنوز والأسرار والبراهين التى ادخرها الله عز وجل للبشرية فى آخر الزمان توازيا مع الصعود المضطرد لمنحنى الضلال الذى يقترب بالإنسانية من النهاية المحتومة.

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب عرضا لحقيقة فلسفة ما بعد الحداثة التى اجتاحت العالم فى السنوات الأخيرة ، والتى تقدم الأساس الفكرى لاعتبار أهل الكتاب مؤمنين ، وأنهم سيدخلون الجنة حتى لو لم يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام. يثبت الكتاب بشكل قاطع، وبأدلة جديدة تهافت القول بإيمان أهل الكتاب. كما يبين أن ما بعد الحداثة هى أكبر خدعة سقط فى شراكها الإنسان المعاصر. والكتاب لا يكتفى بإثبات مخالفة ما بعد الحداثة للإسلام ، ولكنه يقوض أسسها الفلسفية ، ويعريها من هالة الغموض المصطنع التى أحاطها بها أنصارها ، ليكشف أنها صرح ضخم أقيم على ماء. الكتاب يعيد الثقة إلى قدرة الإنسان على المعرفة بعد أن نثرت ما بعد الحداثة بذور الشك فى كل مكان ، كما يكشف أن ما بعد الحداثة هى الفلسفة التى اختارها أعوان إبليس لإعادة كافة أنواع الخرافات والوثنية وعبادة الأصنام فى أوروبا ، معقل الحضارة والعلم الحديث. نتمنى أن يسد هذا الكتاب جزءا من الفراغ فى المكتبة العربية بخصوص فلسفة ما بعد الحداثة ، وعلاقتها بالإسلام ، ونصيبها من الصحة. والله ولى الوفيق.